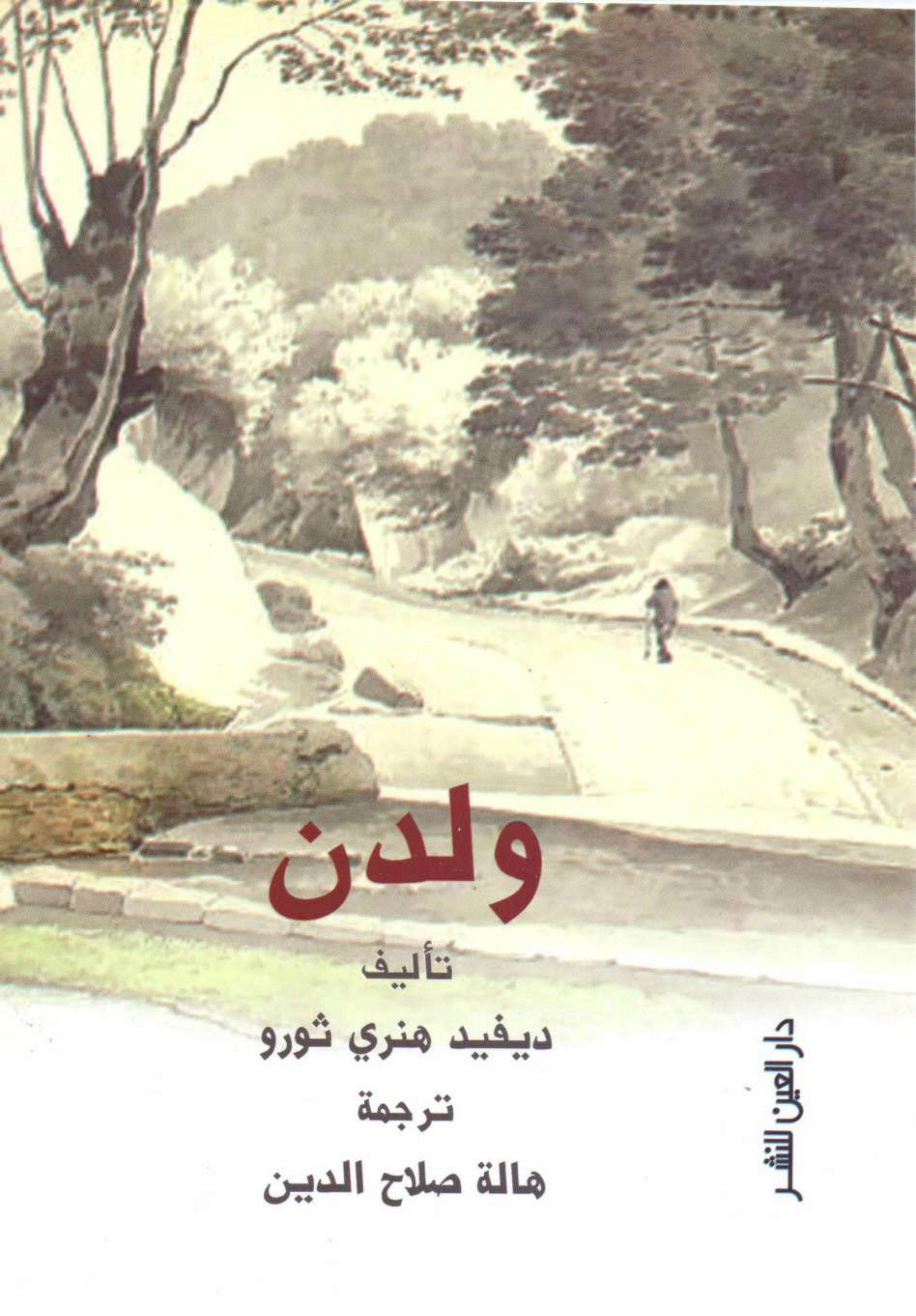


ولدن
تأليف
ديفيد هنري ثورو
ترجمة
هالة صلاح الدين
دار العين للنشر

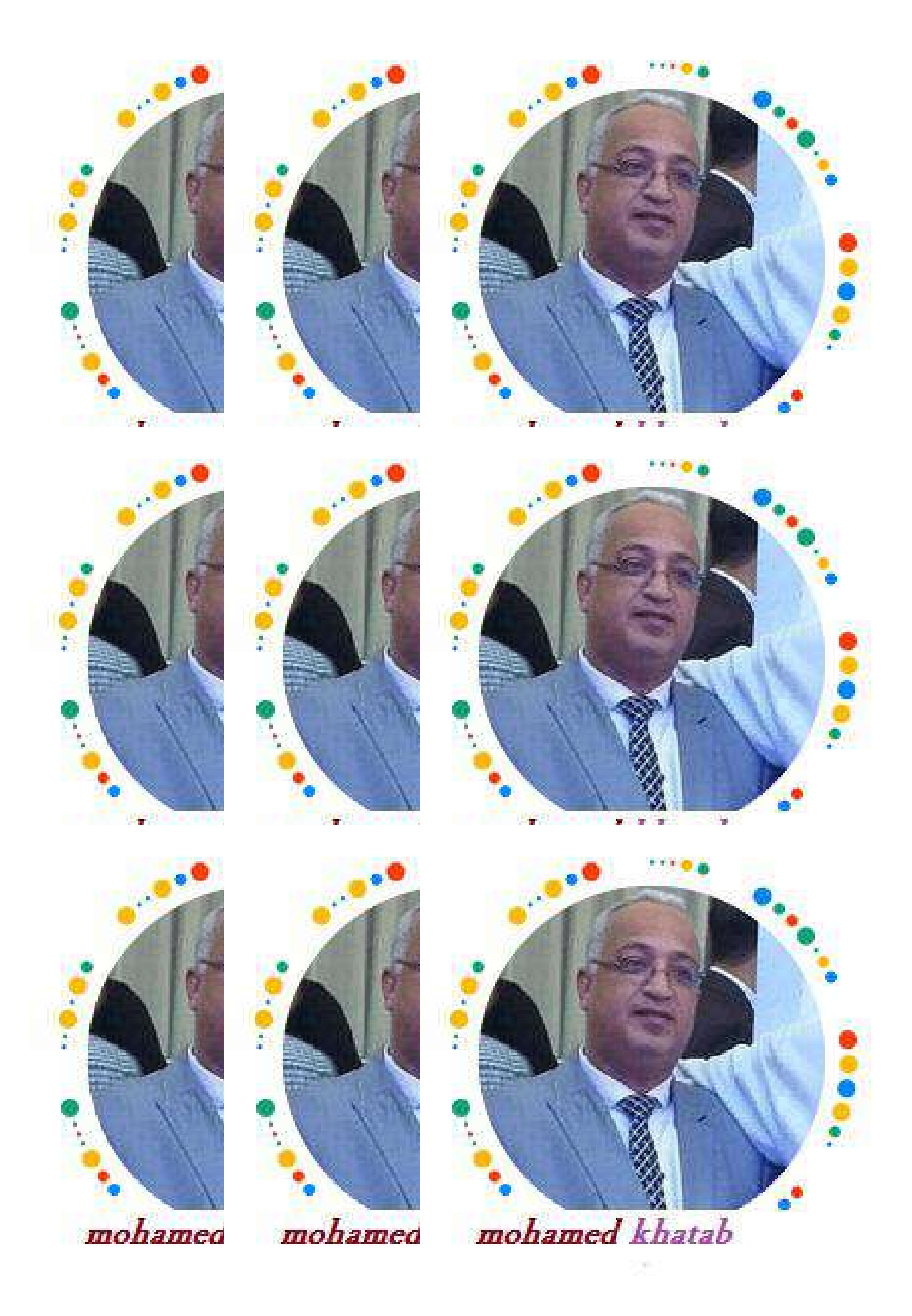
ولدن

إلى متى سنجلس في أروقتنا المُعَمَّدة، نمارس فضائل بالية عديمة الجدوى، أي عمل سيجعل لا صلة لها بالموضوع المتناول؟ وكأن المرء سيستهل يومه بالصبر على احتمال الأذى ويوظف رجلاً لعزق بطاطسه؛ وفي الظهيرة يذهب لممارسة الحلْم والإحسان المسيحيين على حين ينتوي تعمد الخير! تفكّر في الفخر الصيني ورضا البشرية الراكد عن ذاتها. يتكئ هذا الجيل قليلاً ليهنئ نفسه على أنه آخر سلالة شهيرة؛ وفي بوسطن ولندن وباريس وروما يفكر في نَسَبه المديد ويتحدث عن تطوره في الفن والعلم والأدب بلهجة متقدة الحماسة. هناك "سجلات المجتمعات الفلسفية" والمديح العام 'لرجال عظماء'! آدم الطيب يتأمل فضيلته. "أجل، لقد أنجزنا مآثر عظيمة، وغنينا أغاني في منتهى الروعة، لن تموت قط" أي، طالما يسعنا تذكرها. المجتمعات المثقفة ورجال آشورية العظماء، أين هم؟ أي فلاسفة وتجريبيين شبان نحن! لا يوجد واحد من قرائي عاش حياة إنسانية كاملة بعد. علها ليست إلا شهور الربيع في حياة الجنس البشري. لو أصابتنا حكة السنة السابعة، فنحن لم نر جراد السنة السابعة عشرة بعد في كونكورد. لسنا مطلعين إلا على غشاء الكون الرقيق الذي نعيش عليه. لم ينقب أغلب الناس ست أقدام أسفل السطح، ولا قفزوا ست أقدام عليه. نجهل موقعنا. بالإضافة إلى أننا نغط في النوم نصف حياتنا تقريباً. ومع ذلك نعتبر أنفسنا حكماء، ولدينا نظام راسخ على السطح. إننا حقاً مفكرون عميقون، إننا أرواح طموح!

الغلاف: بسمة صلاح




9 789774 902406


mohamed khatab

ولدن

ترجمة: هالة صلاح الدين

هذه الترجمة العربية لكتاب:

Walden and Other Writings

By: Henry David Thoreau

This work has been translated and published in collaboration with the Arabic Book Program of the US Embassy in Cairo.

ترجم هذا العمل ونشر بالتعاون مع برنامج الكتاب العربي في السفارة الأمريكية في القاهرة.

الطبعة الأولى/ ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣/١٤٧١٨

I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 240 - 6

ولـدن

تأليف

ديفيد هنري ثورو

ترجمة

هالة صلاح الدين

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

ثورو، ديفيد هنري، ١٨١٧ – ١٨٦٢

ولدن/ تأليف ديفيد هنري ثورو؛ ترجمة: هالة صلاح الدين.

دار العين للنشر: الإسكندرية، ٢٠١٣

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٤٠ ٦

١– ثورو، ديفيد هنري، ١٨١٧ – ١٨٦٢– المذكرات.

أ– صلاح الدين، هالة (مترجم)

أ– العنوان

٩٢٠

رقم الإيداع/ ١٤٧١٨ /٢٠١٣

المحتويات

1. الاقتصاد

عندما كتبت الصفحات التالية، أو بالأحرى الجزء الأكبر منها، كنت أعيش بمفردي في الغابة على بعد ميل من أي جار في بيت شيدته بنفسي على شاطئ بحيرة ولدن في بلدة كونكورد بولاية ماسيتشوسيتس، وأتكفل بمعاشي من ثمرة يدي وحدي. عشت هناك سنتين وشهرين. وقد عدت لأقيم حالياً إقامة مؤقتة في الحياة المتحضرة.

ما كان يجب أن أقحم شؤوني كثيراً في دائرة اهتمام قرائي لولا أن طرح مواطنو بلدتي تساؤلات شخصية للغاية عن أسلوب حياتي، تساؤلات قد يصفها البعض بأنها متطفلة وإن كانت لا تبدو لي مطلقاً متطفلة، ولكني أجدها مع وضع الظروف في الاعتبار طبيعية تماماً مرتبطة بموضوعي. سألني البعض عما كنت آكل؛ إن انتابتني الوحدة؛ إن ألمّ بي الخوف؛ وما شابهها من أسئلة. ساور الفضول آخرين وودوا أن يعلموا كم من دخلي خصصته للأغراض الخيرية؛ أراد البعض – ممن يعولون أسراً ضخمة – أن يعلموا كم طفلاً أنفقت عليه. وعليه سوف أطلب من القراء ممن لا يكنون لي اهتماماً عظيماً أن يعذروني لو شرعت في الإجابة

على بعض هذه الأسئلة في هذا الكتاب. يحذف الكُتاب كلمة أنا، أو صيغة المتكلم، في أغلب الكتب؛ ولكني سأحتفظ بها في هذا الكتاب؛ إنه الفرق الأساسي إن كنا نتحدث هنا عن الأنانية. لا نتذكر عادةً أن من يتحدث هو دائماً – وبالرغم من كل شيء – الكاتب بصيغة المتكلم. لا ينبغي أن أتحدث طويلاً عن نفسي إن كنت أعرف أيضاً أناساً آخرين. لقد تقيدت للأسف بهذا الموضوع بسبب خبراتي المحدودة. علاوة على أني من جانبي أطلب من كل كاتب – في بادئ الأمر – وصفاً بسيطاً لا تنقصه الأمانة لحياته، وليس فقط ما تناهى إليه من حيوات الآخرين؛ وصفاً قد يرسله من بلد ناء إلى أحد أقربائه؛ لأنه لو أخذ بأسباب حياة أمينة، لا بد أنها ستكون في بلد ناء. لعلي أوجّه هذه الصفحات تحديداً إلى الطلبة المساكين. أمّا بقية قرائي، فسوف يَقْبَلون هذه الأجزاء كما يتفق لهم. وأرجو ألا يشد أحدكم غرز المعطف وهو يرتديه، فسوف يفيد المعطف مَن يليق عليه.

سوف يسعدني أن أعلن شيئاً لا يتعلق كثيراً بالصينيين أو سكان جزر هاواي مثلما يتعلق بقراء هذه الصفحات، مَن يقال إنهم يعيشون في نيو إنجلاند؛ شيئاً عن وضعكم، ولا سيما وضعكم الظاهري أو ظروفكم في هذا العالم، في هذه البلدة، ما هي، هل من الضروري أن تكون على هذا النحو السيئ، هل من الممكن أن تتحسن أم لا. لقد سافرت كثيراً في بلدة كونكورد؛ وفي كل بقعة، في المحال والمكاتب والحقول، بدا لي أن السكان يكفرون عن خطاياهم بألف طريقة تدعو إلى العجب. سمعت أن أفراداً من الطائفة الهندوسية يجلسون معرّضين لأربع نيران وهم ينظرون إلى وجه الشمس؛ أو يتدلون معلّقين برؤوس موجّهة إلى الأرض فوق ألسنة اللهب؛ أو يتطلعون إلى السماء فوق أكتافهم "إلى أن يستحيل عليهم استرداد وضعهم الطبيعي بينما يتعذر أن يمر شيء عدا السوائل إلى المعدة بسبب التواء الرقبة"؛ أو يَسكنون مقيّدين مدى الحياة عند سفح إحدى الأشجار؛ أو يقيسون بأجسامهم، مثلهم مثل يرقان الفراشات، عرض الإمبراطوريات الفسيحة؛ أو يقفون على رِجل واحدة فوق قمم الأعمدة – بل إن هذه النماذج من التكفير الواعي عن الخطايا ليست أكثر إذهالاً أو إدهاشاً من مناظر أشهدها كل يوم. اعتبرت أعمال هرقل البطولية – اثني عشر عملاً – تافهة مقارنةً بما اضطلع به جيراني؛ فقد كانت اثني عشر ليس إلا، وتحكمها نهاية؛ ولكني لم أر أبداً هؤلاء الرجال يذبحون وحشاً أو يأسرونه أو ينجزون أي عمل. لا يصادقون صديقاً يدعى أيولوس يحرق بالحديد الساخن جذر رأس حيوان الهيدرا، ولكنه بمجرد أن يسحق رأساً واحداً، يبزغ اثنان.

أبصر شباناً، من أهالي بلدتي، ورثوا لسوء حظهم مزارع ومنازل وحظائر وماشية وأدوات للفلاحة؛ فمن الأسهل على المرء أن يحوزها من أن يتخلص منها. خيرٌ لهم لو وُلدوا في المرعى المفتوح ورضعوا من ذئبة لأنهم سوف يدركون بأبصار حادة أي الحقول دُعوا للكدح فيها. مَن جعلهم عبيداً في الأرض؟ لم يجب أن يأكلوا محاصيل ستين أكراً بينما قُضي على الإنسان أن يأكل جالونين من التراب ليس إلا؟ لم يجب عليهم أن يَشرعوا في حفر قبورهم بمجرد ولادتهم؟ ينبغي عليهم أن يعيشوا حياة بنيَ آدم، يدفعون كل هذا الأشياء أمامهم ويواصلون الحياة بالقدر المستطاع من الرفاهية. كم روح خالدة مسكينة قابلتها شبْه مسحوقة ومخنوقة تحت ثقلها، تزحف في طريق الحياة، تَدفع قبالتها حظيرة عرضها خمس وسبعون قدماً وطولها أربعون قدماً، وإسطبلات – شبيهة بإسطبلات قذرة مترامية الأركان نظّفها هرقل – لا تَعرف النظافة، ومئة أكر من الأرض والفلاحة والحصاد والمرعى والغابة! سوف يجد مَن لا إرث له، مَن لا يكابد مثل تلك العوائق الموروثة غير الضرورية أن إخضاع بضع أقدام مكعبة من اللحم ورعايتها مهمة شاقة تماماً.

ولكن الناس يكدحون والصواب يجانبهم. فسرعان ما سيندفن مع التربة خير ما في المرء منتهياً إلى التحلل. وبقَدَر ظاهري – غالباً ما يسمى الضرورة – يتم استغلالهم، كما قيل في أحد الكتب القديمة، كي يدخروا كنوزاً سيتلفها الصدأ والعثة ويخترقها اللصوص ليسرقوها. إنها حياة الأبله مثلما سيكتشفون حين يَبلغون نهايتها، إن لم يكن قبل النهاية. يقال إن دوكاليون وبيرا [1] خلقا البشر برمي الحجارة فوق رؤوسهم إلى الوراء:

ولهذا نحن سلالة قوية، خبرة في الكدح، نمنح الدليل على أصل مولدنا.[2]

أو كما يسجع الكاتب الإنجليزي ولتر رالي بأسلوبه الطنان:

"ومن ثَمَّ تتحمل قلوبنا الطينية القوية الألم والهم، مصادقين على أن طبيعة أجسامنا من الحَجَر".

لا جدوى من هذه الطاعة العمياء لوحي متخبط، رمي الأحجار خلفهم فوق رؤوسهم دون أن يبصروا موقعها.

1– دوكاليون وبيرا: تقول الميثولوجيا الإغريقية إن الناجين فقط من فيضان أحدثه زيوس، كبير آلهة اليونان، رموا أحجاراً فوق أكتافهم وأصبحت رجالاً ونساء.

2– ذكر ثورو النص باللغة اللاتينية، وهو كالتالي: Inde genus durum sumus, experiensque laborum, Et documenta damus qua simus origine nati.

ينشغل أغلب الرجال تمام الانشغال – حتى في هذا البلد المتحرر بعض الشيء – بسبب الجهل والخطأ ليس إلا، بما يداخل الحياة من هموم مصطنعة وأعمال قاسية لا ضرورة لها حتى إنهم لا يقطفون ثمارها الرائعة بأنفسهم. تصير أصابعهم – من فرط الكدح المبالغ فيه – خرقاء ترتعد ارتعاداً. الحق أن الفرد العامل لا تتاح له الفرصة طيلة الوقت كي يكتمل اكتمالاً حقيقياً؛ لا يسعه أن يعزز أشجع العلاقات بين البشر؛ فسوف تنخفض قيمة عمله في السوق. لا وقت لديه إلا أن يضطلع بدور الماكينة. كيف يسع مَن يضطر كثيراً إلى استغلال معرفته أن يتذكر حقاً جهله، جهل يتطلبه تطوره؟ ينبغي أحياناً أن نطعمه ونكسوه بلا مبرر ثم نقويه بالمقويات قبل أن نطلق عليه الأحكام. لا يمكن الحفاظ على أجمل سمات طبيعتنا، مثلها مثل زهرات الفاكهة، إلا بالتعامل الرقيق معها. ومع ذلك لا نعامل أنفسنا ولا أحدنا الآخر بمثل تلك الرهافة.

ندري جميعاً أن بعضكم يعاني الفقر، يلفي المعيشة صعبة، يلهث أحياناً كما يبدو لالتقاط الأنفاس. لا شك لديّ أن بعضكم ممن يطالعون هذا الكتاب عاجزون عن دفع ثمن كل وجبات العشاء التي تناولتموها في الواقع، أو ثمن معاطف وأحذية تبلى سريعاً أو نال منها بالفعل البلاء، وقد أتيتم إلى هذه الصفحة حتى تقضوا وقتاً مستعاراً أو مسروقاً، سارقين ساعة من الدائنين. من الجلي تماماً ما يحياه الكثير منكم من حياة حقيرة جديرة بالازدراء، فقد شحذتْ تجاربي بصيرتي؛ دوماً إلى أقصى حد، تحاولون امتهان مهنة وتحاولون التخلص من الديون، مستنقع عتيق للغاية أسماه اللاتينيون 'نُحَاس آخر' لأن بعضاً من عملاتهم المعدنية كانت مصنوعة من النحاس؛ لا تزالون تحيون وتموتون ثم تندفنون تحت هذا النحاس؛ تَقطعون دائماً وعوداً بإيفاء الدين، وعوداً بالدفع، غداً، ثم تموتون اليوم مفلسين؛ تسعون إلى تملق الآخرين، اجتذاب الزبائن، بكل وسيلة وطريقة عدا جرائم تؤدي إلى السجن؛ الكذب، التزلف، التصويت، تقليص أنفسكم داخل صَدَفة من الكياسة أو تمديد أنفسكم في جو من الكرم الواهي الوهمي كي تقنعوا جاركم بالسماح لكم بصنع حذائه أو قبعته أو معطفه أو عربته أو استيراد بقوله؛ تجلبون على أنفسكم المرض كي تدخروا شيئاً اتقاء ليوم المرض، شيئاً تخفونه في خزانة قديمة أو داخل جورب وراء الجص أو تخفونه، لتحري المزيد من الحذر، في ركام من الطوب؛ لا يهم المكان، لا يهم الكم، قليلاً أو كثيراً.

أحياناً ما أتعجب من قدرتنا على – أكاد أقول – الطيش لانكبابنا على صورة فادحة، وإنما غريبة بعض الشيء، من صور العبودية اسمها استعباد الزنوج، ثمة العديد من الأسياد

الباترين الماكرين ممن يستعبدون الشمال والجنوب. من العسير إيجاد مُشْرِف على العبيد جنوباً؛ الأصعب هو إيجاد مُشْرِف في الشمال؛ ولكن الأسوأ من كل شيء حين تكون أنت عبد نفسك. وتتحدثون عن ألوهية البشر! انظر إلى سائق زوج الخيل في الطريق العام، يَسلك طريقاً متعرجاً إلى السوق نهاراً أو ليلاً؛ هل تنبع منه أية ألوهية؟ وواجبه الأسمى أن يعلف أحصنته ويسقيها! كيف يرنو إلى قَدَره مقارنةً بفوائد الشحن؟ يا له بالإله أشبه؟ يا له من خالد لا يَعرف الموت؟ أترى كيف ينكمش مرتعداً ويجبن خوفاً، كيف يحل عليه خوف غامض طيلة اليوم لأنه ليس خالداً أو إلهياً، وإنما عبد وسجين فكرته عن نفسه، سمعة اكتسبها من خلال أفعاله وتصرفاته. إن الرأي العام طاغية ضعيف مقارنة برأينا عن أنفسنا. إن ما يظنه المرء بنفسه هو ما يقرر – أو بالأحرى ما يدل على – مصيره. بل إن إعتاق الذات في أقاليم الهند الغربية يُعَد من قبيل الوهم والخيال – أين السياسي ويلبيرفورس[1] ليحقق هذا الغرض؟ فكر أيضاً في الفلاحات وهن ينسجن وسائد المراحيض حتى آخر أيامهن دون أن يُظهرن اهتماماً ساذجاً بقَدَرهن! وكأنما بمقدورك قتل الوقت بدون جرح الأبدية.

يأخذ عدد كبير من الرجال بأسباب حياة من اليأس الصامت. وما يطلقون عليه ترويض النفس ما هو إلا يأس مؤكد. تنتقل من المدينة اليائسة إلى البلد اليائس، ولا بد أن تعزي نفسك بشجاعة خليقة بشجاعة حيوانات المنك وفئران المسك. بل إن هناك يأساً مقولَباً، وإنما غير واع، يتوارى أسفل ما يسمى بألعاب البشرية وتسلياتها. لا لهو فيها، فهي تعقب العمل. ولكن الجدير بالحكمة ألا يقْدم المرء على أفعال تشي باليأس.

عندما نتفكر في – وأستخدم هنا الكلمات الواردة في كتاب يضم خلاصة العقيدة المسيحية[2] – الغاية العظمى للإنسان، وما هي الضروريات الحقيقية للحياة ووسائلها، يبدو وكأن الناس اختاروا عن عمد أسلوب الحياة المبتذَل لأنهم آثروه على أي أسلوب آخر. ومع ذلك يعتقدون حقاً أن لا خيار لديهم. ولكن الطبائع اليقظة المعافاة تتذكر أن الشمس تشرق ساطعة. لم يفت الوقت مطلقاً للتخلي عن تحاملنا. لا يوجد أسلوب للتفكير أو الفعل – مهما كان عتيقاً – يمكن الوثوق به دون دليل. ما يكرره الجميع اليوم أو يعتبرونه – صامتين – حقيقة قد يتضح غداً زيفه، مجرد رأي من دخان حسبه البعض سحابة ستنثر مطراً خصيباً

1– ويلبيرفورس: ويليام ويلبيرفورس (1759 – 1833)، زعيم إنجليزي مناهض للعبودية.
2– كتاب يضم خلاصة العقيدة المسيحية: إشارة إلى كتاب ويستمينستر: "إن غاية الإنسان العظمى هي تمجيد الله والاستمتاع به إلى الأبد".

على حقولهم. وعلى حين ينهي إليك كبار السن أنك عاجز عن فعل شيء، تجرب وتكتشف أنك قادر. إنها أفعال قديمة من أجل الناس القديمة، وأفعال جديدة من أجل الناس الجديدة. ربما لم يفقه كبار السن ما يكفي يوماً لجلب وقود طازج يحافظ على اتقاد النيران؛ يضع الشباب خشباً جافاً ضئيلاً أسفل موقد، ثم يدورون في أنحاء الكرة الأرضية بسرعة الطير كي يقتلوا الشيوخ مثلما يقول المثل. ليست الشيخوخة أفضل، بالكاد، من سن الشباب كمعلم ومرشد، فهي لم تستفد من الحياة مثلما خسرت. يكاد يشك المرء إن كان أحكم الرجال قد تعلموا أي شيء ذا قيمة مطلقة من خلال الحياة. الحق أن الشيوخ يعدمون أية نصيحة مهمة كي يقدموها للشباب، إذ تفتقر خبراتهم الخاصة إلى الكمال كل الافتقار، وحياتهم فاشلة فشلاً بائساً، لأسباب شخصية كما يعتقدون ولا بد؛ وقد يتبقى لديهم بعض الإيمان المناقض لتلك التجربة، وقد يتمتعون بشباب يفوق الواقع. لقد عشت نحو ثلاثين عاماً على هذا الكوكب، وما تناهى إليّ بعد مقطعٌ واحد من نصيحة قيمة أو حتى جادة من كبار السن. ما أخبروني بشيء، ولعلهم لا يستطيعون أن ينقلوا إليّ شيئاً في هذا الصدد. ها هي الحياة، تجربة لم أختبرها إلى حد كبير غير أني لا أستفيد من تجربتهم إياها. ولو أن لديّ أية خبرة أعتقد في قيمتها، فأنا أعلن بكل ثقة أن المعلمين لم ينبسوا بكلمة واحدة عنها.

ينهي إليّ أحد الفلاحين، "لا تَقدر أن تعيش على الخضروات فقط لأنها لا تزود الجسم بما يبني العظام"؛ وهكذا يخصص بكل تفانٍ جزءاً من يومه لتزويد جسمه بمواد خام لبناء العظام؛ يسير وفي الوقت نفسه يتحدث خلفَ ثيرانه، ثيران – بعظام نامية من الخضراوات – تنتره مع محراثه الثقيل بالرغم من كل العقبات. تعتبر بعض الجماعات بعض الأشياء ضرورية للحياة، أكثر الجماعات عجزاً ومرضاً، على حين تكون رفاهية لا غير لدى البعض، ولدى البعض الآخر لا تزال غير معروفة بالمرة.

يعتقد البعض أن أسلافهم بحثوا الأساس الكامل للحياة الإنسانية وتفحصوه، كل المرتفعات والأودية، وأنهم درسوا كل شيء. ووفقاً للروائي الإنجليزي جون إيفيلن، "أصدر الحكيم سليمان أوامره لتحديد المسافات بين الأشجار؛ كما قرر القضاة الرومان كم مرة قد تذهب إلى أرض جارك لتجمع جوز البلوط الساقط دون أن تنتهك حرمة أرضه، وما هي الحصة المملوكة لذلك الجار". بل إن الطبيب اليوناني هيبوقراط خلف تعليمات يشرح فيها كيفية قص أظافرنا كيلا تبدو – حتى بالبنان – قصيرة أو طويلة. لا ريب أن ما استنفد تنوع

الحياة ومباهجها من ملل وضجر في مثل قِدَم آدم نفسه. ولكن قدرات الإنسان لم تُقس قط؛ ولا يسعنا أن نحكم على ما يستطيع فعله من خلال أي سوابق، فقد جرب أقل القليل من الأشياء. وأياً كانت الإخفاقات حتى الآن، "لا تحزن يا طفلي، فمن سينسب إليك ما تركته دون إكمال؟"

قد نختبر حياتنا بألف اختبار بسيط؛ مثلما تُنضج مثلاً الشمس الفاصوليا، وفي الوقت نفسه تنير كوناً من الكرات الأرضية مثل كرتنا. لو كنت قد تذكرت هذه الفكرة، لمنعتني من ارتكاب بعض الأخطاء. لم يكن هذا ضوءاً عزقتها تحته. تتبدى النجوم قمماً من مثلثات رائعة الجمال! أي كائنات مختلفة نائية في قصور الكون المتنوعة تتأمل المنظر ذاته في اللحظة نفسها! تتنوع الطبيعة والحياة الإنسانية تنوع دساتيرنا المتعددة. مَن بإمكانه تحديد ما ستقدِّمه الحياة إلى الآخرين في المستقبل؟ هل من الممكن أن تَحدث معجزة أعظم من قدرتنا على التطلع إلى أعين بعضنا البعض لمجرد لحظة؟ ينبغي علينا أن نحيا في كل عصور العالم في خلال ساعة؛ دائماً، في كل عوالم العصور. التاريخ، الشعر، الميثولوجيا! لا دراية لي بأي نص يتناول تجربة شخص أكثر إجفالاً وتثقيفاً من هذا النص.

أعتقد في قرارة نفسي أن الغالبية العظمى مما يصفه جيراني بالجودة رديء، ولو كنت نادماً على أي شيء، فهو على الأرجح سلوكي الطيب. أي شيطان تملكني كي أتصرف بكل هذه الطيبة. قد تقول أيها الرجل العجوز —مَن عشتَ سبعين عاماً دون كرامة من أي نوع— ما يمكنك قوله من أكثر الجمل حكمةً، ولكنني أسمع صوتاً لا يقاوَم يحثني على الابتعاد. ينبذ جيلٌ مشاريع الجيل الآخر شأن مراكب جنحت إلى الشاطئ.

أعتقد أننا ينبغي أن نضع آمنين ثقة أكبر من الموضوعة الآن. قد نمتنع عن العناية بأنفسنا على حين نُقدِّمها صادقين إلى الآخرين. تتكيف الطبيعة مع ضعفنا مثلما تتكيف مع قوتنا. يكاد يكون ما يصيب البعض من قلق وتوتر متواصلين صورة لا شفاء منها من صور المرض. إننا مرغمون على المبالغة في أهمية ما نصنعه من أعمال؛ ومع ذلك لا نصنع الكثير! أو، ماذا لو نزل بنا المرض؟ يا ليقظتنا! نعقد العزم ألا نحيا بالإيمان إن وسعنا تفاديه؛ نحترس طيلة اليوم دون نقصان من الخطر، وفي الليل نتلو كارهين صلواتنا ونلزم أنفسنا بالغيبيات. وهكذا وبكل اجتهاد وإخلاص نجبر أنفسنا على الحياة، نوقر حيواتنا رافضين أي احتمالية للتغيير. إنها الطريقة الوحيدة، مثلما نقول؛ ولكن هناك طرقاً بعدد أشعة نستطيع رسمها

من مركز الدائرة. إن كل تغيير لهو معجزة يجب تأملها غير أنها معجزة تقع في كل ثانية. يقول كونفوشيوس[1]، "أن نعلم أننا نعلم ما نعلمه، وأننا لا نعلم ما لا نعلمه، تلك هي المعرفة الحقيقية". عندما يحوّل إنسان واقعة خيالية إلى حقيقة يُدخلها في إطار فهمه، أتنبأ بأن يؤسس جميع الناس في النهاية حيواتهم على هذا الأساس.

فلنتفكر هنيهة في أسباب أغلب ما أشرت إليه من معاناة وقلق، وإلى أي مدى من الضروري أن يستولي علينا الاضطراب أو على الأقل الحرص. إن من مصلحة المرء أن يعيش حياة رائدة لا تخلو من فطرية، رغم كونه يحيا وسط حضارة مادية، ليته يقف فقط على ضروريات الحياة البدائية وأي الوسائل سلكها الأولون للحصول عليها، أو حتى يطّلع على دفاتر التجار القديمة كي يَعرف ما اعتاد الرجال شراءه من المتاجر وتخزينه، أي، أكثر المنتجات بدائية. لأن تقدم الأزمنة لم يؤثر إلا تأثيراً ضئيلاً على القوانين الأساسية لوجود الإنسان: مثلما لا يمكن تمييز هياكلنا العظمية، ربما، عن هياكل أسلافنا.

أعني بكلمتيّ ضروري للحياة – من بين كل ما يناله الإنسان بعرقه وكده – ما صار من البداية أو من طول الاستخدام مهماً للحياة البشرية حتى إن القليل من الناس – إن كانوا موجودين على الإطلاق سواء بسبب الهمجية أو الفقر أو الفلسفة – يحاولون أبداً التخلي عنه. وبهذا المعنى ثمة ضرورة واحدة لاستمرار حياة العديد من الكائنات: الطعام. إنها بالنسبة إلى ثور البراري بضع بوصات من العشب اللذيذ، ومعها مياه للشرب، إلا إذا سعى إلى الالتجاء إلى الغابة أو ظل من ظلال الجبل. لا أحد في الخليقة البهيمية يحتاج إلى ما يزيد على الطعام والملجأ. ويمكن كي أتحرى الدقة تصنيف ضروريات الحياة في مايو بمناخه المتقلب كالتالي: الطعام والملجأ والكساء والوقود؛ إذ لا يسعنا أن نفكر في مشكلات الحياة الحقيقية بحرية وإمكانية على النجاح قبل أن نحصل على هذه المتطلبات. لم يخترع الإنسان المنازل فقط، وإنما الملابس والطعام المطبوخ؛ وربما نبعت من الاكتشاف العرضي لدفء النار، والاستخدام التالي لها – في البداية رفاهية – الحاجة الحالية إلى الجلوس بجوارها. إننا نرصد القطط والكلاب وهي تتخذ الطبيعة المكتسَبة نفسها. ومن خلال الملجأ والملبس الملائمين نحتفظ حقاً بحرارتنا الداخلية، غير أن الإفراط فيهما أو في الوقود، أي الإفراط في حرارة خارجية تفوق حرارتنا الداخلية، ألا يمكن أن نقول إن الطبخ بدأ من هذا الإفراط

1- كونفوشيوس: (487 – 551 قبل الميلاد)، فيلسوف ومُعلم صيني.

عن حق؟ يحكي داروين عالم التاريخ الطبيعي عن سكان تيرا ديل فويجو أنه بينما كان مرافقوه يتلفعون بملابس ثقيلة ويجاورون النار، لم يشعروا بالدفء، على حين كان هؤلاء المتوحشون العراة بعيدين عنا، وقد لاحظ لدهشته الشديدة "أنهم يتصببون عرقاً ويتحملون مثل ذلك الشيّ". وهكذا قيل لنا إن النيوزيلندي يسير عارياً آمناً من البرد والمرض بينما يرتعش الأوروبي في ملابسه. هل من المستحيل الجمع بين صلابة هؤلاء البدائيين وفكر الرجل المتحضر؟ إن الجسد الإنساني وفقاً للكيميائي الألماني يوستوس ليبيخ عبارة عن موقد، والطعام بمثابة وقود يواصل الاحتراق الداخلي في الرئتين. نأكل كثيراً في الجو البارد، وفي الدافئ قليلاً. تتكون الحرارة الحيوانية نتيجة للاحتراق البطيء، ويقع المرض والموت حين يَحدث الاحتراق بسرعة أكثر مما ينبغي؛ أو تَخمد النار بسبب الحاجة إلى الوقود أو عيب في تدفق الهواء. لا ريب أننا لا ينبغي أن نخلط بين الحرارة الأساسية والنار، لقد انقضى هذا التشبيه. وهكذا يبدو من القائمة أعلاه أن تعبير 'الحياة الحيوانية' يكاد يكون مرادفاً لتعبير 'الحرارة الحيوانية'، بينما يمكن اعتبار الطعام وقوداً يُبقي على النار داخلنا – ويفيد الوقود في تحضير ذلك الطعام أو رفع حرارة أجسادنا – لا يقُوم أيضاً الملجأ والملبس إلا بالاحتفاظ 'بالحرارة' الناتجة والممتصّة.

إن أعظم ما تحتاج إليه أجسامنا إذن هو الاحتفاظ بالدفء، الاحتفاظ بالحرارة الحيوية في باطننا. وعليه، يا لها من مشقة نكابدها – لا فقط مع طعامنا وملبسنا ومأوانا – بل وأسِرتنا – وما هي إلا ثياب للنوم – ونحن نسرق أعشاش الطيور وصدورها كي نعد هذا الملجأ داخل ملجأ، مثلما يجَهز حيوان الخلْد فراشاً من العشب وأوراق الأشجار في نهاية جُحْره! يميل الإنسان المسكين إلى الشكوى من برودة العالم؛ نُرْجع إلى البرد مباشرة – لا الجسدي بقدر ما هو البرد الاجتماعي – الجانب الأكبر من أمراضنا. يتيح الصيف للإنسان في بعض الأقاليم ضرباً من حياة كما الفردوس. تنتفي عندئذ ضرورة الوقود عدا لأغراض طهو الطعام؛ فالشمس ناره، كما تنضج بأشعتها العديد من ثمار الفاكهة فيما تتنوع بوجه عام ألوان الطعام، ويَسهل على الإنسان بلوغها، أمّا الملبس والملجأ فلا ضرورة لهما أو لهما ضرورة جزئية. لقد ألفيت بخبرتي في هذا البلد أن المرء يكاد يصنف في الوقت الحالي عدداً من الأدوات من الضروريات: سكين وفأس وجاروف وعجلة يد، إلى آخره، وللمولعين بالدراسة، مصباح وأدوات للكتابة وحرية استخدام عدد من الكتب، وبمقدوره الحصول عليها كلها مقابل ثمن تافه. ولكن البعض – لا الحكماء – يمضون إلى الجانب الآخر من

الكرة الأرضية، إلى مناطق بدائية غير صحية، ويكرسون أنفسهم للتجارة لمدة عشر سنوات أو عشرين سنة كي يعيشوا – أي كي يعيشوا حياة دافئة مترعة بالراحة – ويموتوا في النهاية في نيو إنجلاند. لا يعيش الأغنياء المترفون ببساطة في دفء مريح، وإنما تحيق بهم حرارة غير طبيعية مثلما ألمحت من قبل، إنهم يُطبَخون، بالطبع على آخر موضة.

ليس بمقدورنا فقط الاستغناء عن معظم أساليب الترف والعديد من وسائل الرفاهية في الحياة المزعومة، وإنما يمكن اعتبارها أيضاً عوائق أكيدة تحد من سمو البشرية. وحين نتحدث عن وسائل الرفاهية والترف، سوف نجد أن الحكماء يأخذون دوماً بأسباب حياة تتسم بالبساطة والتقشف ليتفوقوا بذلك على حياة الفقراء. كان الفلاسفة القدماء، الصينيون، الهندوس، الإيرانيون، الإغريق، أفقر الطبقات مادياً، ولا مخلوق أغنى منهم روحياً. لا ندري عنهم الكثير، ومن المدهش حقاً أننا نَعرف عنهم كل هذا القدر. يصح الشيء نفسه عن معرفتنا للمصْلحين والمحسنين في العصر الحديث. لا أحد بمقدوره أن يصبح مراقباً لحياة البشر يتوخى الحياد ويتحلى بالحكمة إلا من منظور ما قد نسميه الفقر الطوعي. فمن حياة الترف تنمو فاكهة الترف، سواء في الزراعة أو التجارة أو الأدب أو الفن. هناك اليوم أساتذة في الفلسفة، ولكنهم ليسوا بفلاسفة. ولكن ممارستهم للمهنة جديرة بالإعجاب لأنه جدير بالإعجاب أن يعيش المرء يوماً. لا تنحصر الفلسفة في إضمار أفكار بارعة، ولا حتى تأسيس مَدرسة، وإنما تتعلق بحب الحكمة والحياة وفقاً لتعاليمها، حياة تشي بالبساطة والاعتماد على الذات والشهامة والثقة، إنها حل بعض مشكلات الحياة، لا نظرياً فحسب، ولكن عملياً. يكون نجاح الدارسين والمفكرين العظماء في المعتاد نجاحاً خليقاً بالحاشية، لا خليقاً بمَلك ولا رَجل. يدبرون رزقهم حتى يحيوا ليس إلا ممتثلين لقواعد للمجتمع، تقريباً مثلما عاش آباؤهم، وهم ليسوا بأي معنى من المعاني أسلاف سلالة نبيلة من البشر. ولكن لماذا ينحط الإنسان ويضعف؟ ماذا يجعل العائلات تختفي؟ ما هي طبيعة الترف الذي يوهن الأمم ويدمرها؟ هل نحن على ثقة أنه لا يشوب حياتنا؟ يَسبق الفيلسوف عصره، بل إنه يَسبقه في الصورة المادية للحياة. فهو لا يأكل أو يَسكن أو يَلبس أو يتدفأ مثل نظرائه. كيف بمقدور الإنسان أن يكون فيلسوفاً دون أن يصون حرارته الحيوية بوسائل أفضل من الآخرين؟

عندما يتدفأ المرء عن طريق الوسائل العديدة التي ذكرتها، ماذا يريد بعد ذلك؟ لا يريد بالقطع دفئاً إضافياً من النوع نفسه مثل المزيد من الطعام الشهي أو المنازل البديعة الضخمة أو الملابس الأنيقة الفاخرة أو النيران المتوالية الساخنة الوافرة، أو ما شابهها. عندما يحرز

كل تلك الأشياء – ضروريات الحياة – ثمة بديل آخر عن إحراز الفائض عن حاجته؛ وهو الإقدام على مغامرات الحياة، لقد استهل إجازته من الكدح الذليل. ويبدو أن التربة مستعدة للبذرة، فقد أرسلت جذرها في باطن الأرض، وقد تُطلق الآن برعمها عالياً، أيضاً في منتهى الثقة. لماذا رسَّخ الإنسان نفسه بمثل ذلك الإحكام في الأرض إلا أنه لا يعلو بالنسبة نفسها إلى السماء فوقه؟ لأن الإنسان يُثمن النباتات النبيلة لما تَحمله في النهاية من فاكهة في الهواء والضوء، بعيداً عن الأرض، ولا يعاملها معاملة مأكولات حقيرة قد يحرثها فقط إلى أن يكتمل جذرها مع أنها تنبت كل عامين، وغالباً ما يقطع قممها لهذا الغرض، وهكذا لا تقع عيون أغلب الناس عليها في موسمها المزدهر.

لا أعني هنا أن أفرض القواعد على أصحاب الطبائع القوية الشجاعة، أناس سوف يعتنون بشؤونهم الخاصة سواء في الفردوس أو الجحيم، وربما يشيدون مباني أروع ويصرفون أموالهم بسخاء يفوق سخاء الأغنياء، بدون أن يحل عليهم الفقر مطلقاً، لا يدرون كيف يأخذون بأسباب الحياة، لو أنهم يحيونها حقاً كما يحلمون؛ ولا أعني أن أفرض القواعد على من يجدون التشجيع والإلهام في وضعهم الحالي دون تغيير، ويقَدِّرونه بولع المحبين وحماستهم. أعتبر نفسي – إلى حد ما – من بين هؤلاء الناس؛ إنني لا أخاطب من لديهم وظيفة مربحة، مهما كانت ظروفهم، مَن لا يَعلمون إن كانت وظيفتهم مربحة أم لا، وإنما أخاطب في الأساس جموع الناس الساخطة، ناس يشتكون بنبرات كسول من قسوة نصيبهم أو قسوة العصر على حين بمقدورهم تحسينهما. ثمة من يرفع صوته بالشكوى بكل حماسة وحزن لأنهم – كما يدَّعون – يقُومون بواجبهم. تخطر في بالي أيضاً طبقة ثرية في الظاهر غير أنها فقيرة فقراً مدقعاً، طبقة كدست النفاية بيد أنها لا تفقه كيفية استخدامها أو التخلص منها، وعليه طرقت الحديد كي تصنع قيودها الذهبية والفضية.

لو حاولت أن أقص عليكم كيف رغبت في قضاء حياتي في السنوات الماضية، قد يعتري الاندهاش القراء المطلعين إلى حد ما على تاريخي الحقيقي؛ وبالطبع سوف يستحوذ الذهول على من لا يدرون شيئاً عنه. سوف ألمِّح – ليس إلا – إلى عدة مغامرات أضمر لها كل الإعزاز.

في أي جو، في أي ساعة من النهار أو الليل، تولتني اللهفة على اغتنام اللحظات الحرجة وحفرها أيضاً على عصاي؛ اللهفة على الوقوف عند ملتقى أبديتين؛ الماضي والمستقبل، أي

اللحظة الحالية بالضبط؛ الوقوف بأطراف أصابعي على ذلك الخط. سوف تغفر لي بعض النقاط الغامضة، إذ تحوي مهنتي أسراراً تفُوق أسرار مهن الآخرين إلا أني لن أخفيها طوعاً، فإخفاؤها يلازمها بحكم طبيعتها. سوف يسعدني أن أبوح بكل ما أعرفه عنها، ولن أكتب قط على بوابتي "ممنوع الدخول".

فقدت منذ فترة طويلة كلب صيد وحصاناً كُمَيْتاً وحمامة برية، ولا زلت أتعقبها. تحدثت عنها إلى الكثير من المسافرين، وصفت طريقها ونداءات استجابت إليها. قابلت شخصاً أو اثنين نمى إليهما صوت الكلب وخطوة الحصان الثقيلة، بل وأبصر أحدهما الحمامة تحتجب خلف سحابة، وقد لاحوا في مثل حماستي لاستعادتها وكأنهم فاقدوها.

ولكي أسبق، لا شروق الشمس والفجر فقط، وإنما الطبيعة نفسها إن أمكن! كم عدد الأصباح صيفاً وشتاء التي أسرعت فيها إلى عملي قبل أي جار من جيراني! لا شك أن العديد من أبناء بلدتي قابلوني عائداً من هذه المغامرة، كانوا فلاحين يقصدون بوسطن في الشفق أو حطابين متجهين إلى أعمالهم. الحق أني لم أعاون الشمس جسدياً قط في شروقها، ولكن لا شك أن الوجود أسفل أشعتها لم يحتل إلا أدنى أهمية.

أنفقت العديد والعديد من فصول الخريف، دائماً، وأيام الشتاء، خارج البلدة، أحاول أن أسمع ما يشوب الريح، أسمعه وأحمله بسرعة الريح! لقد أغرقت فيه كل رأس مالي تقريباً، وفقدت أنفاسي في الصفقة، راكضاً في وجه الريح. لو كان الأمر يخص أحد الحزبين السياسيين، تأكَّد أنه سيظهر في جريدة الجازيت بأسرع وقت ممكن. كنت أرصد في أوقات أخرى من إحدى نقاط المراقبة أعلى جرف أو شجرة كي أرسل برقية بأي وافد جديد؛ أو أنتظر مساء على قمم التلال حتى تَسقط السماء وألتقط شيئاً، وإن لم ألتقط الكثير، سوف يتلاشى ذلك المَنّ في الشمس مرة أخرى.

عملت لمدة طويلة مراسلاً في صحيفة محدودة التوزيع، لم يجد رئيس تحريرها قط أنه من الملائم أن ينشر معظم مقالاتي، وكما هو شائع مع الكتاب، حصلت على قوتي بشق الأنفس. ومع ذلك أسفر شق الأنفس في هذه الحالة عن مكاسب.

عينت نفسي لمدة سنوات عديدة مراقِباً للعواصف الثلجية والعواصف الممطرة، وقد قمت بواجبي مُخْلصاً على المعاينة والفحص؛ لا الطرق العامة، وإنما دروب الغابات وكل طرق الأرض، أبقيها مفتوحة، والوُهْدان سالكة صالحة الجسور في كل الفصول تَشهد كعوب العامة بنفعها وصلاحيتها.

اعتنيت بالماشية البرية في البلدة مما تسبب في إزعاج أحد الرعاة المخلصين بعد أن قفزتُ على الأسوار؛ كما رصدت أرجاء المزرعة غير المطروقة وأركانها وإن لم أعلم دائماً إن كان فلان أو غيره هو العامل يومها في أحد الحقول؛ لا شأن لي. سقيت التوت الأحمر والكرز الرملي وشجر القُرّاص وشجرة الصنوبر الحمراء وشجرة الدردار والعنب الأبيض والبنفسج الأصفر وإلا ستَذبل في الفصول الجافة.

باختصار واصلت هكذا لفترة طويلة (وأقولها بدون تفاخر)، أنصرف إلى شأني الخاص بكل أمانة إلى أن أصبح جلياً شيئاً فشيئاً أن أبناء بلدتي بالرغم من كل شيء لن يقبلوني في قائمة موظفي البلدة أو يوظفوني بعلاوة معتدلة. أقسم بأني أدون حساباتي بمنتهى الأمانة بيد أني لم أعمل حقاً على التدقيق فيها، إذ لم تزل غير مقبولة، والديون غير مدفوعة، ولكني لم أرغب حقاً في تسويتها.

ذهب أحد الهنود المتجولين منذ فترة قصيرة ليبيع سلالاً عند منزل محام مشهور في حيي. سأله، "هل ترغب في شراء أية سلال؟" وكانت الإجابة، "لا، لا نرغب في أي منها". هتف الهندي وهو يدلف من البوابة، "ماذا! هل تريد أن نموت من الجوع؟" كان قد أبصر ثراء جيرانه البيض الماهرين – لا يضطر المحامي إلا أن ينسج المناقشات، وبشيء من السحر يتبعها الغنى والمكانة – ثم قال في قرارة نفسه: سوف أباشر مشروعاً؛ سوف أنسج سلالاً، إنه شيء أستطيع القيام به. ظن أنه قد قام بدوره عندما صنع السلال، وبعدها سيحين دور الرجل الأبيض عندما يشتريها. لم يدرك أنه من الضروري أن يجعل سلعته تستحق الشراء، أو على الأقل يجعله يعتقد أنها تستحق، أو يصنع شيئاً آخر يستحق. لقد نسجت أنا الآخر نوعاً من السلال من مادة رقيقة إلا أني لم أجعلها تستحق أن يشتريها أحد. ولكني اعتقدت في حالتي أنها تستحق النسج، وبدلاً من دراسة كيفية جعل سلالي تستحق الشراء، درست كيفية تجنب الاضطرار إلى بيعها. تتألف الحياة التي يطري عليها الناس ويعتبرونها ناجحة من أكثر من نوع. لماذا يجب أن نبالغ في أهمية أي نوع على حساب الأنواع الأخرى؟

بعد أن وجدت أن أهل بلدتي لن يعرضوا على الأرجح عليّ مكاناً في دار القضاء أو رعاية الأبرشية أو العيش في أي مكان آخر، ولكني يجب أن أتدبر أمر معاشي بنفسي، أدرت وجهي بالكامل إلى الغابة حيث عرفني ناسها خير معرفة. قررت أن أشرع على الفور في التجارة دون انتظار الحصول على رأس المال المعتاد مستخدماً موارد هزيلة أمتلكها بالفعل. لم يكن غرضي من الذهاب إلى بحيرة ولدن أن أعيش هناك حياة رخيصة أو غالية، وإنما أن

أتولى عملاً خاصاً لا ينطوي إلا على أقل العقبات، لم تَبْدُ إعاقة المرء عن الإنجاز بسبب الافتقار إلى القليل من الفطرة السليمة والمغامرة وموهبة التجارة مؤسفة بقدر ما بدت حمقاء.

لقد سعيت دائماً إلى اكتساب عادات تجارية لا تَسلم من الصرامة؛ إذ لا مفر منها لكل إنسان. لو تتاجر مع الإمبراطورية الصينية، سيكون إذن مكتب محاسبة صغير على الساحل في أحد موانى مدينة سالم ترتيباً دائماً. سوف تُصَدِّر أصنافاً وفقاً لقدرة البلد الشرائية، منتجات أصلية خالصة، الكثير من الثلج وخشب الصنوبر والقليل من الجرانيت، دائماً في مراكب محلية. سوف تدير مشاريع مربحة. تشرف على كل التفاصيل بنفسك؛ تعمل ملاحاً وقبطاناً في الوقت نفسه، المالك والضامن؛ تشتري وتبيع وتتابع الحسابات؛ تقرأ كل خطاب يصل إليك، تكتب أو تقرأ كل خطاب مرسَل؛ تشرف على تفريغ السلع المستوردة ليلَ نهار؛ تزور عدة مناطقٍ ساحلية في الوقت نفسه تقريباً – غالباً ما ستُفرَّغ أغنى الشحنات على شاطئ جيرسي؛ تَكون تلغرافك الخاص، تكسح الأفق دون كلل أو ملل، تتحدث إلى كل المراكب العابرة بمحاذاة الساحل؛ تحافظ على شحن السلع المنتظم لتزويد الأسواق البعيدة الباهظة؛ تبقى عالماً بحالة الأسواق واحتمالية الحرب والسلام في كل دولة، تتوقع ميول التجارة والشعوب المتحضرة مستغلاً نتائج كل البعثات المستكشفة ومستخدماً الطرق البحرية الجديدة وكل تقدم يطرأ على الملاحة؛ تَدرس الخرائط وتتحقق من مواقع الأحياد البحرية والمنارات الجديدة وعوامات السفن، وتُصحح دائماً وأبداً الجداول اللوغارثمية لأن أي خطأ حسابي سوف يفضي في الغالب إلى أن تنفلق السفينة على إحدى الصخور بدلاً من أن تنتهي إلى ميناء آمن، هناك مصير لا يحكيه أحد واجه الرحالة لابيروز[1]؛ تتابع العلوم الكونية دارساً حيوات كل العظماء من المستكشفين والملاحين والمغامرين والتجار، بدءاً من الملاح المستكشف القَرْطاجي هانو والفينيقيين حتى يومنا هذا؛ وفي النهاية تحسب المخزون من آن لآخر كي تعرف موقفك. إنه لمجهود شاق أن تعهد إلى شخص بكل الصلاحيات – مثل تلك المشكلات الخاصة بالربح والخسارة، بالفائدة وصافي الوزن، وقياس كل الأصناف، وهو ما يتطلب من التاجر التسلح بمعرفة عالمية.

جال ببالي أن بحيرة ولدن سوف تغدو مكاناً ملائماً للتجارة، لا بسبب السكة الحديد وتجارة الثلج فقط، وإنما لأنها توفر عدة مزايا قد لا تكون سياسةً حصيفة أن أفشيها؛ إنها ميناء

1- لابيروز: (1741 – 1788) ملاح ومستكشف فرنسي فُقد هو وطاقمه في البحر.

جيد وأساس جيد. ليست كمستنقعات نهر نيفا يجب ردمها وإن كنتَ تُراكم في كل مكان أكواماً ترابية بعدما تشقها العربة. يقال إن فيضاً غامراً تصحبه رياح غربية وثلج في نهر نيفا سوف يكتسح سانت بيترسبرج من على وجه الأرض.

سوف أنخرط في هذه التجارة بدون رأس المال المعتاد، وعليه قد لا يكون من السهل تخمين من أين سآتي بهذه الموارد، موارد لم تزل لا غنى عنها لكل مشروع. أمّا عن الملابس – كي نخوض مباشرة في الجانب العملي من المسألة – فربما يقود اختياراتنا كثيراً حبنا للأشياء الجديدة والاهتمام برأي الآخرين حين نقتنيها، لا انتفاعنا الحقيقي منها. ليت مَن ينخرط في عمل يتذكر أن الملبس غرضه أولاً الاحتفاظ بالحرارة الحيوية، وثانياً، مع وضع هذا المجتمع في الاعتبار، تغطية العري، وعليه أن يَحكم على ضرورة العمل المنجَز أو أهميته بدون إضافة الملابس إلى دولابه. لا يسع الملوك والملكات – ممن يرتدون البذلة مرة واحدة لا غير – أن يدركوا إحساساً بالراحة يلازم ارتداء بذلة على مقاسهم مع أن خياطاً صنعها لفخامتهم. ليسوا بأفضل من أحصنة خشبية لتعليق الملابس النظيفة. تصبح أرديتنا كل يوم أشبه بأنفسنا، تتطبع بشخصية مرتديها إلى أن نتردد في وضعها جانباً دون تأجيل أو استخدام أدوات طبية أو التحلي بشيء من الوقار شأنها شأن أجسادنا. لم أجد قط شخصاً قليل القيمة في تقديري لوجود رقعة على ملابسه؛ ومع ذلك أثق أن هناك تلهفاً أعظم في المعتاد على الحصول على ملابس أنيقة، أو على الأقل نظيفة غير مرقعة، من الأخذ بأسباب الحياة بضمير مرتاح. ولكن حتى لو لم يرتق التمزق، لعل أسوأ رذيلة قد يبديها المرء هي الإسراف. أحياناً ما أمتحن معارفي من خلال هذه الاختبارات، مَن بإمكانه ارتداء رقعة أو غُرْزَتين اثنتين فقط على الركبة؟ يتصرف أغلبهم وكأنهم يعتقدون أن ضرراً سيَلحق بنجاحهم في الحياة لو فعلوا تلك الفعلة. سوف يَسهل عليهم أن يعرجوا إلى البلدة برجل مكسورة من أن يذهبوا إليها ببنطال مقطوع. إن وقَعت في الغالب حادثة لساقيّ رَجل، بمقدوره مداواتهما؛ ولكن لو وقَعت حادثة مماثلة لساقيّ بنطاله، فلا علاج لهما؛ لأنه يأخذ بعين الاعتبار ما يحترمه الآخرون، لا الجدير حقاً بالاحترام. إننا لا نَعرف إلا قلة من الرجال والعديد من المعاطف والبناطيل الرائعة. ألْبِس فَزَّاعَةً قميصك الجديد ثم قف إلى جانبها بدون قميص، مَن لن يُسْرع بتحية الفزاعة؟ كنت أمر بأحد حقول الذرة في اليوم الفائت، بجوار قبعة ومعطف على وتد، وتعرفت على صاحب المزرعة. ولكنه كان أسفع سفعة تفُوق ما كان عليه آخر مرة رأيته

فيها. سمعت عن كلب نبح في وجه كل غريب بملابس دنا من منزل سيده، ولكن هدوءاً حل عليه بكل سهولة حين أبصر لصاً عارياً. إنه سؤال خليق بالاهتمام، إلى أي مدى يمكن أن يحتفظ الناس بمكانتهم النسبية لو تجردوا من ملابسهم. هل بوسعك في مثل تلك الحالة أن تحدد بثقة أي مجموعة من الرجال المتحضرين تنتمي إلى أكثر الطبقات احتراماً؟ عندما طافت مدام فايفر[1] في رحلاتها المغامرة من شرق العالم إلى غربه واقتربت للغاية من روسيا الآسيوية، قالت إن حاجة راودتها إلى ارتداء ملابس غير فستان الترحال حين مضت للقاء المسؤولين لأنها "كانت الآن في دولة متحضرة حيث يحكم الآخرون على الناس من خلال ملابسهم". بل إن الامتلاك العرَضي للثروة وتجليه في الملبس والعربة وحدهما في بلداتنا بنيو إنجلاند الديمقراطية يُكسب المالك احتراماً يكاد يكون شاملاً. ولكن مَن يسبغ هذا الاحترام، وعددهم ضخم، وثنيون في حاجة إلى أن نرسل إليهم مبشراً. علاوة على أن الملابس قدَّمت إلينا مهنة الخياطة، نوعاً من الأعمال قد تصفه بأن لا نهاية له؛ ففساتين النساء، على الأقل، لا تنتهي قط.

مَن ألفى أخيراً عملاً يَقوم به، لن يحتاج إلى شراء بذلة جديدة كي يَقوم به؛ لأنه سيجد أن القديمة تقضي الغرض، بذلة متربة موضوعة في العلية لمدة لا يسعه تحديدها. سوف تخدم الأحذية القديمة البطل خدمة أطول من خادمه – لو أن هناك بطلاً لديه خادم. إن القدمين العاريتين أقدم من الأحذية، وهو بمقدوره جعلهما تفيان بالغرض. فقط مَن يمضون إلى الحفلات الساهرة وحفلات السلطة لديهم ولا بد معاطف جديدة، معاطف يغيرونها كلما تغير مرتدوها. ولكن لو أن سترتي أو بنطالي، قبعتي وحذائي، تصلح أن أرتديها أثناء عبادة الله، فهي ملائمة. أليس كذلك؟ لن يكون مَن رأى أبداً ملابسه القديمة، معطفه القديم، بالياً بالفعل ومنحَلاً إلى عوامله البدائية مُحسناً حين يهب صبياً فقيراً إياها، ليهبها بدوره صبياً أفقر، أو نقول أغنى؟ فالغني هو مَن يسعه الاستغناء عما هو أقل. الحق أقول لكم، حذار من كل المشاريع التي تتطلب ملابس جديدة، وليس بالأحرى مرتدياً جديداً للملابس. لو لا يوجد رجل جديد، كيف يمكن أن تنطبق عليه الملابس الجديدة؟ لو أمامك أي مشروع جديد، جرِّبه بملابسك القديمة. يريد الرجال جميعاً – لا شيئاً يستخدمونه – بل شيئاً يفعلونه، أو بالأحرى شيئاً ليكونوه. ربما لا يجب علينا شراء بذلة جديدة قط مهما تبدت القديمة مهلهلة بالية إلى أن

1– مدام فايفر: إدا فايفر (1797 – 1858) كاتبة نمساوية ألفت كتاب "رحلة سيدة حول العالم" عن زياراتها إلى أيسلندا والسويد والنرويج والبرازيل وتاهيتي والصين والهند وبغداد وموسكو.

نتصرف ونغامر ونبحر إبحاراً نشعر معه وكأننا رجال جدد في بذل قديمة، وسيكون عندئذ الاحتفاظ بالقديم أشبه بوضع نبيذ جديد في زجاجات قديمة. لا بد أن يكون موسم طرح الريش، كما الطيور، كارثة في حيواتنا. يخلو الطائر إلى نفسه في البحيرات المنعزلة كي يجتاز هذه الفترة. وهكذا يطرح أيضاً الثعبان جلده المنسلخ، ويرقانة الفراشة غطاءها الزاحف، بمثابرة وتمدد باطنيين؛ فالملابس ما هي إلا بشرة ميتة بعيدة وغطاء هالك. وإلا سيجدنا الناس نبحر أسفل ألوان مزيفة، وتنبذنا ولا شك آراؤنا في النهاية، وكذلك آراء البشرية.

نرتدي الرداء بعد الرداء وكأننا ننمو إلى الخارج مثلنا مثل سيقان بعض النباتات. إن مظهرنا الخارجي، وغالباً ملابسنا الهزيلة الغريبة، بمثابة بشرتنا أو جلدنا الزائف، جلد لا يشاركنا حياتنا، وقد ننزعه هنا وهناك من غير أي إصابات قاتلة؛ إن أرديتنا الأغلظ، البالية على الدوام، هي غشاؤنا الخلوي أو قشرتنا؛ ولكن قمصاننا هي لحاؤنا أو لحاؤنا الحقيقي الذي لا يمكن نزعه بدون إحداث حلقة حول جذوعنا، وعليه تدمير الإنسان. أعتقد أن كل الأعراق ترتدي في مواسم معينة ما يساوي القميص. من المرغوب فيه أن يلبس الإنسان ملابس غاية في البساطة حتى يسعه أن يضع يديه على جسمه في الظلام ويحيا من كل النواحي حياة موجزة مستعدة، حتى إن عدواً لو استولى على المدينة، يستطيع كما الفيلسوف العجوز أن يَخرج من البوابة صفر اليدين دون أن يستحوذ عليه أثر من قلق. وبينما يصبح رداء واحد سميك لأغلب الأغراض في مثل جودة ثلاثة أردية رقيقة، يمْكن الحصول على الملابس الرخيصة بأسعار تناسب حقاً المستهلكين؛ وبينما يمْكن شراء معطف سميك بخمسة دولارات، وسيدوم العديد من السنين، يمْكن شراء بنطال سميك بدولارين، وجزمة من جلد البقر بدولار ونصف، وقبعة صيفية بربع دولار، وقلنسوة شتوية باثنين وستين سنتاً ونصفاً، أو الأفضل أن يحيكها المرء في البيت بسعر رمزي، أين هو الرازح في الفقر المرتدي مثل تلك البذلة 'من مكسبه' ولا يجد رجالاً حكماء يكنون إليه احتراماً؟

عندما أطلب ثوباً ذا شكل معين، تخبرني الخياطة بلسان يدل على الجدية، "لم يعودوا يخيطونه الآن،" دون أن توضح على الإطلاق مَن "هُم" وكأنها تستشهد بكلمات سلطة في مثل تجرُّد القَدَر، وعندئذ يصعب عليّ الحصول على بغيتي، ببساطة لأنها لا تستطيع أن تصدق أني أعني ما أقوله، وأني على هذا القدر من التهور. حينما أسمع هذه الجملة الحكيمة المهيبة، أنهمك لحظات في التفكير مشدداً في قرارة نفسي على كل كلمة على حدة كي أتبين معناها وأفطن إلى أي درجة يرتبط "هم" بي، وأي سلطة لديهم في موضوع يؤثر

عليّ كل هذا التأثير اللصيق؛ وفي النهاية أنزع إلى الإجابة عليها بغموض مماثل، وبدون أي توضيح لمن "هم". "صحيح، لم يخيطوها مؤخراً، ولكنهم يخيطونها الآن". ما هي فائدة أخذ مقاييسي إن لم تقس شخصيتي، وإنما عرْض منكبيّ، وكأنني خنزير سوف تعلق عليه المعطف؟ إننا لا نعبد إلهات الحُسن الثلاث[1] ولا آلهة القَدَر الرومانية، وإنما الموضة. تقحم الدبابيس وتحيك وتقص بسلطة ما بعدها سلطة. يرتدي زعيم القردة في باريس قلنسوة رحّالة، وكل القردة في أمريكا ترتدي مثلها. أحياناً ما يخامرني اليأس من أن أنال أي شيء بسيط وأمين في هذا العالم بمعاونة البشر. لا بد أولاً من كبهم بمكواة قوية تجبر الأفكار القديمة على الخروج كيلا تَبرز مرة ثانية إلى الوجود؛ وعندئذ سيتبقى شخص بين الحشد يضمر دودة في رأسه، فقستْها بيضة لا أحد يعلم متى وُضعت هناك، بل إن النيران نفسها لا تقتل هذه المخلوقات، وستكون قد خسرت كدك وتعبك. وبالرغم من ذلك لن ننسى ما قيل إننا أخذنا بعض القمح المصري من إحدى المومياوات.

أعتقد في المجمل أنه لا يمكن الادعاء بأن الملبس في هذا البلد أو أي بلد آخر قد سما إلى كرامة الفن. يدبر الرجال في الوقت الحالي أمورهم ويرتدون ما يستطيعون الحصول عليه كما هو خليق ببحارة سفينة محطمة، يرتدون ما يمكنهم إيجاده على الشاطئ؛ وعلى بُعد بسيط، سواء مكاني أو زمني، يضحك كل منهم على رداء الآخر التنكري. يسخر كل جيل من الموضات القديمة، غير أنه يتبع بكل تفان ودقة الموضة الجديدة. يتولانا العجب حين نرنو إلى زي هنري الثامن أو الملكة إليزابيث وكأنهما ملك أو ملكة جزر آكلي لحوم البشر. نلفي كل الثياب غير الملبوسة مضحكة غريبة الشكل تثير الشفقة. وما يكبح الضحك ويحيط زي أي شخص بهالة من القداسة ما هو إلا العين الجادة المحَدقة والحياة المخلصة المارة عبرها. دع نوبة من المغص تحل بهارلكوين[2]، وسوف تخدم ملابسه المبهرجة ذلك المزاج أيضاً. عندما يصاب الجندي بقذيفة مدفع، تصير الخرق ملائمة بلون الأرجوان.

يبقي ميل الرجال والنساء الطفولي البدائي إلى النماذج الجديدة العديد من الأشخاص مرتعشين بعيون نصف مغمضة أمام مشكال كي يكتشفوا شكلاً معَيناً يتطلبه هذا الجيل اليوم. لقد أدرك أصحاب المصانع أن هذا الميل يخضع للنزوات ليس إلا. من بين نموذجين لا يختلف الواحد عن الآخر إلا بضعة خيوط من اللون نفسه تقريباً، سوف يباع واحد على

1- إلهات الحُسن الثلاث: ثلاث إلهات شقيقات كان الإغريق يعتبرونهن مانحات للفتنة والجمال.
2 - هارلكوين: شخصية كوميدية إيطالية.

الفور بينما سيَرقد الآخر على الرف وإن كان يَحدث كثيراً أن يصير الآخر هو الأكثر شيوعاً وأناقة بعد انتهاء موسم. وبالمقارنة لا تصبح الوُشُوم عادة بشعة كما يزعمون. ليست همجية لأن الآثار تنغرز ببساطة عميقاً في البشرة ويستحيل تغييرها.

لا أستطيع أن أصدق أن نظام المصانع هو أفضل وسيلة ينال من خلالها الناس ملابسهم. تغدو منزلة العمال كل يوم أشبه بمنزلة العمال الإنجليز[1]؛ ولا يمكن أن نتعجب إذن – مما سمعته ولاحظته – من أن الغرض الأساسي هو أن تغتني الشركات ولا شك، لا أن ترتدي البشرية ملابس جيدة أصلية. يبلغ الإنسان على المدى الطويل ما يطمح إليه. وبالرغم من أنه يخفق على الفور، خير له أن يطمح إلى هدف سام.

لن أنكر أن الملجأ ضرورة الآن من ضروريات الحياة وإن وجدت أمثلة على رجال استغنوا عنه لفترات طويلة في بلاد أبرد من هذا البلد. يقول الرحالة البريطاني صامويل لانغ إن "الفنلندي الأصلي في رداء من الجلد وحقيبة من الجلد يضعها على رأسه وكتفيه سوف ينام الليلة تلو الليلة على الثلج في برودة بمقدورها أن تفني حياة مَن يتعرض لها في ملابس صوفية". رآهم نائمين على هذا النحو. ومع ذلك يضيف قائلاً، "ليسوا أقوى من الآخرين. ولكن، لعل الإنسان لم يعش طويلاً على الأرض بدون أن يكتشف راحة المنزل، رفاهية البيت، كلمات ربما دلت في الأساس على الرضا عن المنزل أكثر من الرضا عن الأسرة وإن كانت ولا بد جزئية وعرَضية في تلك الأقاليم حيث يرتبط المنزل في أذهاننا بالشتاء أو موسم المطر في الأغلب، ويصبح المنزل – عدا المظلة – غير ضروري ثلثيّ العام. وفي إقليمنا كاد يكون في الماضي مجرد غطاء في ليل الصيف. كان الكوخ البيضوي في الجرائد الهندية رمزاً لمسيرة اليوم، ويشير صف الأكواخ المحفور أو المرسوم على لحاء شجرة إلى عدد مرات التخييم. لم يُخلق الإنسان قوى البنية بأطراف ضخمة إلا وعليه أن يسعى إلى تضييق عالمه ويحيط نفسه بمساحة تنطبق عليه. كان في البداية عارياً في العراء؛ ومع أن عريه كان مُرضياً في الجو الصافي الدافئ نهاراً، سوف يقضي موسم المطر والشتاء، فضلاً عن الشمس الحارقة، على سلالته في مهدها إن لم يسرع بتغطية نفسه بملجأ المنزل. كان آدم وحواء وفقاً للحكاية قد تغطيا بالتعريشة قبل الملابس. أراد الإنسان بيتاً، مكاناً للدفء أو الراحة، أولاً الدفء ثم دفء العواطف.

1 –كان الرجال والصبية في الثورة الصناعية الإنجليزية يعملون ساعات طويلة طوال ستة أيام أو سبعة في الأسبوع.

قد نتخيل زمناً في مستهل الجنس البشري حين زحف الإنسان المغامر في تجويف بصخرة طالباً المأوى. يبدأ كل طفل العالَم من جديد، بمعنى ما، يروقه أن يظل في العراء، حتى وإن أمطرت السماء أو برَد الجو. يلعب لعبة المنزل، وكذا الحصان، بغريزة تدفعه إليهما. مَن لا يتذكر اهتمامه في الصغر حين نظر إلى الصخور المنحدرة أو أي ممر يفضي إلى كهف؟ إنه الحنين الطبيعي إلى ذلك الجزء، أي جزء من أسلافنا البدائيين الذي لا يزال حياً داخلنا. ارتقينا من الكهف إلى أسقف من أسعف النخيل، من اللحاء والأغصان، من كتان محاك مشدود، من عشب وقش، من ألواح خشبية، من صخور وقراميد. وفي النهاية لا ندري كيف نعيش في الهواء الطلق، وحياتنا مُدَجَّنة بعدة معانٍ لم نكن لنحسبها. يبدو الحقل من البيت بعيداً غاية في البعد. ربما سنرضى لو قضينا المزيدَ من الأيام والليالي بدون عائق بيننا والأجسام السماوية، لو لم يتكلم الشاعر كثيراً من أسفل سقف أو يتأمل القس هناك طويلاً. لا تُغني الطيور في كهوف ولا يتعلق الحمام ببراءته في أبراج الحمام.

ولكن لو خطط أحدهم لبناء منزل، ينبغي عليه أن يتحلى ببراعة أبناء نيو إنجلاند وإلا سيجد نفسه في النهاية داخل منزل للفقراء، متاهة بدون دليل، متحف، ملجأ للمعوزين، سجن، ضريح مهيب، لا منزل للسكن. تفكر أولاً إلى أي مدى يصير الملجأ غير ضروري على الإطلاق. لقد رأيت في هذه البلدة هنوداً من قبيلة بينوبسكوت يعيشون في خيم من قماش قطني خفيف والثلج يكاد يرتفع قدماً حولهم، ودار في ذهني أنهم قد يَسعدون بالمزيد من العمق كي يدفعوا عنهم الرياح. في الماضي عندما كانت كيفية كسب رزقي بوسيلة أمينة – مع حرية تتبقى لي لمواصلة مسعى آخر ملائم – سؤالاً بث فيّ الحيرة، بل وحيرة أكبر من الآن لأني أصبحت للأسف قاسياً بعض الشيء، كنت أبصر صندوقاً ضخماً بحذاء السكة الحديد، طوله ست أقدام وعرضه ثلاث أقدام، وضع فيه العمال أدواتهم ليلاً؛ وقد أوحى لي بأن كل شخص يعاني أزمة قد يحصل على مثله بدولار واحد، وبعد أن يثقب فيه حفراً قليلة ليسمح على الأقل بدخول الهواء، يَدخل إليه حين تمطر وحين يهبط الليل ثم يغلق الغطاء بكُلاَّب، وهكذا ينال الحرية في عشقه، وتتحرر روحه. لم يبدُ هذا الخيار الأسوأ، و لم يبدُ بديلاً حقيراً بأي معنى من المعاني. باستطاعتك أن تَنهض متأخراً كما يروقك، ومتى تَقوم، سافر إلى الخارج بدون أن يطاردك مالك المنزل أو الأرض طالباً الإيجار. يجد العديد من الرجال ضيقاً أي ضيق لكي يدفعوا إيجار صندوق أكبر وأكثر ترفاً بيد أنهم لن يتجمدوا موتاً في مثل هذا الصندوق الأصغر. إنني لا أمزح على الإطلاق. يتيح لنا موضوع الاقتصاد أن نعامله

بخفة غير أننا لا يمْكننا التخلص منه. منزلٌ مريح لسلالة فظة لا تَنقصها الجسارة، عاشت في الأغلب في العراء، شيدوه هنا ذات يوم بالكامل تقريباً من مواد وفرتها الطبيعة بين أيديهم. كان جوكين[1] مُشْرِف الهنود من رعايا مستعمرة ماسيتشوسيتس قد كتب عام 1674 قائلاً إن "أجمل منازلهم مغطاة بدقة شديدة، محكَمة ودافئة، بلحاء شجر انزلق من فوق أجسامهم في مواسم زاد فيها النسغ وتحول إلى رقائق ضخمة الحجم تحت ضغط الخشب الثقيل عندما انقلبت خضراء... تتغطى المنازل الأدنى بحصائر يصنعونها من نوع من الأعشاب المائية، وهي أيضاً محكَمة ودافئة دفئاً معتدلاً، ولكنها ليست في جودة المنازل الأخرى... وقَعت عيناي على بعضها، طولها ستون أو مئة قدم وعرضها ثلاثون قدماً... كثيراً ما بِتُّ في أكواخهم البيضوية وألفيتها في مثل دفء أفضل المنازل الإنجليزية". يضيف أنها كانت في المعتاد مكسوة ومغطاة بحصائر مزخرفة مشغولة بعناية ومزوَّدة بأوعية متنوعة. لقد تطور الهنود لدرجة أنهم ضبطوا أثر الرياح بواسطة حصيرة يحركها خيط معلَّقة من فتحة في السقف. كانوا يبنون مثل ذلك المنزل خلال يوم أو اثنين على حد أقصى في المرحلة الأولى؛ يُهدم ويُقام في خلال بضع ساعات؛ وقد امتلكت كل أسرة منزلاً من هذه المنازل أو وقَعت شقتها في واحدة منها.

تمتلك كل عائلة بدائية ملجأ في مثل جودة أفضل المنازل، ملجأ يكفي لقضاء حاجاتها الفظة البسيطة؛ ولكني أظن أنني لا أبالغ حين أقول إنه بالرغم من أن طيور الهواء لديها أعشاشها والثعالب جحورها والبدائيين أكواخهم البيضوية، ما لا يربو على نصف العائلات في المجتمع المتحضر الحديث تمتلك ملجأ. يمثل عدد مالكي المنازل نسبة ضئيلة للغاية من مجمل سكان البلدات والمدن الكبيرة حيث تسود المدنية بصورة خاصة. يدفع باقي الناس ضريبة سنوية مقابل هذا الكساء الخارجي، بات لا غنى عنه صيفاً وشتاء، ضريبة قد تشتري قرية من الأكواخ الهندية، ولكنها تعمل الآن على إفقارهم ما داموا على قيد الحياة. لا أعني أن أشدد هنا على عيوب الاستئجار مقارنةً بالتملك، ولكن من الجلي أن البدائي يمتلك منزله لأنه يكلف أقل القليل بينما يستأجر الرجل المتحضر منزله في العادة لأنه لا يَقدر على تكلفة تملكه، ولا يَقدر على المدى الطويل على تكلفة استئجاره. يجيبني أحدهم: ولكن بمجرد دفع هذه الضريبة يضمن الرجل المتحضر الفقير مسكناً كما القصر مقارنة بمسكن البدائي.

---

1 – جوكين: دانيال جوكين (1612 – 1687)، من "المجموعات التاريخية للهنود في نيو إنجلاند"، كُتب عام 1674، ونُشر عام 1792.

يؤهله إيجار سنوي يبدأ من خمسة وعشرين إلى مئة دولار (هذه أسعار الريف) للاستفادة مما شهدته القرون من تطور: شقق فسيحة، دهان وورق حائط نظيف، مدفأة من تصميم السير رامفورد[1]، جص خلفي، ستائر على طراز فينيسيا، مضخة من النحاس، قفل بزنبرك، قبو واسع، والعديد من الأشياء الأخرى. ولكن كيف يعاني مَن يقال إنه متحضر يستمتع بهذه الأشياء الفقر في الغالب بينما يَنعم البدائي المفتقر إليها بالثراء وهو البدائي؟ لو أكدنا على أن الحضارة هي التحسن الحقيقي في وضع الإنسان – وهو ما أؤمن به مع أن الحكماء فقط هم من يطورون مزاياهم – ينبغي إثبات أنها أنتجت منازل أفضل بدون أن تجعلها أغلى؛ ويعادل ثمن شيء ما سأسميه الحياة المطلوبة لمبادلتها به، في الحال أو على المدى الطويل. ربما يكلف أي منزل متوسط في هذا الحي ثمانمئة دولار، وسوف يستغرق جمع هذا المبلغ من عشر سنوات إلى خمس عشرة سنة من حياة العامل، حتى لو لم تثقله أسرة بمتطلباتها – وهكذا نستطيع أن نقدِّر القيمة المالية لعمل كل رجل بدولار واحد يومياً لأنه لو كسب البعض أكثر، يجني آخرون أقل؛ وهكذا يجب أن ينفق الرجل في الغالب أكثر من نصف حياته قبل أن ينال كوخه البيضوي. ولو افترضنا أنه يدفع إيجاراً بدلاً من التملك، لن يكون هذا إلا خياراً مريباً بين شرَّين. هل سيغدو البدائي حكيماً حين يستبدل الكوخ بقصر وفقاً لهذه الشروط؟

قد تخمنون أني أختصر تقريباً كل ميزة الاحتفاظ بهذه الملكية الزائدة عن الحاجة في موارد مدَّخرة مستقبلاً – حين يتعلق الأمر بالفرد – لدفع نفقات الجنازة بالأساس، إلا أن المرء قد لا يضطر إلى دفن نفسه. ولكن هذه المسألة تشير إلى فارق مهم بين المتحضر والبدائي؛ ولا شك أنهم يخططون من أجل فائدتنا ونفعنا حين يجعلون حياة المتحضرين مؤسسة، فيها حياة الفرد مستغرَقة استغراقاً بغرض الحفاظ على الجنس البشري وتهذيبه. ولكني أود أن أبين تضحية يتحملها الإنسان حالياً ليحوز هذه الميزة وأقترح أننا قد نحيا وننال كل المزايا من غير أن نكابد أي خسارة. ماذا تعنون حين تصرحون أن الفقراء معكم على الدوام أو أن الآباء أكلوا عنباً مراً والأطفال يعانون خطايا الآباء؟

"حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، لاَ يَكُونُ لَكُمْ مِنْ بَعْدُ أَنْ تَضْرِبُوا هذَا الْمَثَلَ فِي إِسْرَائِيلَ".

1 – رامفورد: الكونت رامفورد (1753 – 1814) عالم ومخترع صمم مدفأة شاعت من عام 1796 إلى العقد السادس من القرن التاسع عشر، وكانت طويلة ضحلة لتعكس المزيد من الحرارة.

"هَا كُلُّ النُّفُوسِ هِيَ لِي. نَفْسُ الأَبِ كَنَفْسِ الابْنِ، كِلاَهُمَا لِي. اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ".[1]

عندما أتفكر في أحوال جيراني، فلاحي بلدة كونكورد، مَن ينعمون على الأقل براحة مادية مثل الطبقات الأخرى، أجد أن معظمهم كدحوا عشرين أو ثلاثين أو أربعين عاماً حتى يصيروا الملاك الحقيقيين لمزارعهم، مزارع ورثوها في الغالب ومعها ديون أو اشتروها بأموال اقترضوها – وقد نعتبر ثلث ذلك الكدح ثمناً لمنازلهم – ولكنهم لم يدفعوه في المعتاد بعد. الحق أن الرهن يفوق أحياناً قيمة المزرعة، وعليه تصبح المزرعة نفسها رهناً كبيراً، ومع ذلك نكتشف أن هناك من يرثها لأنه يعرفها حق المعرفة مثلما يقول. حينما قدَّمت طلباً لمحصلي الضرائب، انتابتني الدهشة حين علمت أنهم لا يستطيعون جميعاً تحديد 12 فرداً في البلدة يمتلكون مزارعهم بدون أي رهن. لو كنتَ تعلم تاريخ هذه المنازل، اسأل في البنك المرهونة فيه. بل إن مَن دفع حقاً ثمن مزرعته بكدِّه نادر للغاية حتى إن كل جار يشير إليه. أشك في أن بلدة كونكورد تضم ثلاثة رجال مثله. قيل عن التجار إن الغالبية العظمى منهم – بل سبعة وتسعين في المئة – سوف يفشلون ولا ريب، وهو ما يصح في حالة الفلاحين. وإشارةً إلى التجار، يقول أحدهم إن جانباً كبيراً من فشلهم ليس فشلاً مالياً فعلياً، وإنما مجرد فشل في الإيفاء بارتباطاتهم لأنها غير ملائمة؛ أي إن الصفة الأدبية هي المنهارة. ولكن هذا التفسير يطبع وجهاً أسوأ بكثير على الموقف، بل ويوحي أيضاً بأن الثلاثة الآخرين لم يفلحوا في إنقاذ أرواحهم، وإنما ربما مفلسون بمعنى أسوأ ممن يفشلون بطرق أمينة. إن الإفلاس والجحود نقطتان تقفز منهما أغلب حضارتنا وتتشقلب، غير أن البدائي يقف على لوح غير مرن من المجاعة. ومع ذلك يقام عرض ماشية ميدلسيكس هنا سنوياً بنجاح عظيم وكأن كل وصلات الماكينة الزراعية تعمل بسلاسة.

يسعى الفلاح إلى حل مشكلة رزقه مستعيناً بوصفة أعقد من المشكلة ذاتها. فهو يضارب في قطعان الماشية لكي ينال قدراً ضئيلاً من المال. نصب فخه بزنبرك رفيع بمهارة ما بعدها مهارة كي يصطاد الراحة والاستقلالية، وبعدها، وأثناء التفاته، علقت رجله بالفخ. هذا هو سبب فقره؛ ولسبب مشابه نصير كلنا فقراء مقارنةً بألف رفاهية بدائية وإن حاقت بنا وسائل الترف. كما قال جورج تشابمان في شعره[2]:

1– الكتاب المقدس، إنجيل متى 26:11، سفر حزقيال 18 : 3 – 4.

2– جورج تشابمان: (1559 – 1634)، "تراجيديا قيصر وبومبي".

"مجتمع الرجال الزائف –

للعظمة الدنيوية –

كل وسائل الترف السماوية تتبخر في الهواء"

وعندما يمتلك الفلاح منزله، قد لا يكون الأغنى، وإنما الأفقر، وسيكون المنزل هو مالكه. وحسبما أفهم الوضع، كان ذلك اعتراضاً وجيهاً طرحه إله السخرية الإغريقي مومس معترضاً على منزل شيدته آلهة الحكمة الإغريقية مينريفا، "لأنها لم تصنعه متحركاً كي يتجنبا الجيران المزعجين". لا تزال هذه الحجة مطروحة، فمنازلنا ملكيات ثقيلة ضخمة غالباً ما تسجننا بدلاً من أن تؤوينا؛ والجار المزعج المراد تجنبه هو أنفسنا الوضيعة. أعرف عائلة أو اثنتين على الأقل في هذه البلدة رغبا لمدة جيل تقريباً في بيع منزليهما في الضواحي بغرض الانتقال إلى القرية إلا أنهما عجزا عن بيعهما، والموت وحده سوف يحررهما.

من المسلّم به أن الغالبية العظمى من الناس قادرون في النهاية على امتلاك منزل عصري بكل تحسيناته أو استئجاره. بينما تُطور الحضارة منازلنا، لم تُطور بالقدر نفسه أناساً سوف يعيشون فيها. خلَقت قصوراً إلا أنها لم يَسهل عليها خلق رجال نبلاء وملوك. ولو أن مساعي الرجل المتحضر ليست في مثل قيمة مساعي البدائي، لو أنه يعمل أغلب حياته كي ينال ضروريات أساسية ووسائل ترفيه ليس إلا، لماذا ينبغي أن يحرز منزلاً أحسن من منزل الآخر البدائي؟

ولكن كيف تَنجح الأقلية الفقيرة أو تخفق؟ وحين نقارن، قد نجد أن البعض احتلوا في ظروف خارجة عن إرادتهم مرتبة أعلى من البدائي بينما انحط عنه قدْر آخرين. تُوازن رفاهية إحدى الطبقات فقر طبقة أخرى. يَقوم القصر على جانب، وعلى الجانب الآخر ثمة ملجأ للفقراء و"الفقراء الصامتين". كان العدد اللانهائي من بناة الأهرامات – كي تصير مقابر للفراعنة – يعيشون على الثوم، وربما لم يدفنهم أحد كما ينبغي. ربما يعود البنّاء المنتهي من إفريز القصر ليلاً إلى عش لا يتحلى براحة الكوخ. سوف يجانبنا الصواب إن افترضنا أن بلداً يتسم بالدلائل المعتادة على الحضارة قد لا تنحط حالة جمع هائل من سكانه لتبلغ حالة البدائي. أشير الآن إلى الفقير المنحط، لا إلى الغني المنحط. ولكي أقف على هذا الأمر لا حاجة بي إلى البحث بعيداً عن الأكواخ المحيطة بالسكة الحديد، ذلك التطور الأخير المنسوب إلى

الحضارة؛ أمد بصري هناك في خلال سيري اليومي إلى أناس يعيشون في زرائب خنازير، بابهم مفتوح طوال الشتاء لجلب الضوء بدون أي ركام حطب مرئي – وأحياناً متخيّل – تتقلص دوماً أشكال كل من الكبار والصغار من جراء عادة اتخذوها طويلاً بالانكماش برداً وبؤساً، ولا تَبرأ تنمية كل قدراتهم وأطراف أجسامهم من الكبح والقمع. من الإنصاف ولا شك أن نرنو إلى تلك الطبقة التي تحقق بكدها أعمالاً تميِّز هذا الجيل. ينطبق الشيء نفسه، إلى حد أكبر أو أقل، على وضع عمال كل طائفة في إنجلترا، وهي أكبر مأوى للفقراء في العالم. أو قد أحيلك إلى أيرلندا[1] المشهورة كواحدة من البقاع البيضاء أو المتنورة على الخريطة. قارن حالة الأيرلندي الجسدية بحالة الهندي في أمريكا الشمالية أو أحد سكان جزر البحر الجنوبي أو أي عرق بدائي قبل أن ينحط باتصاله بالإنسان المتحضر. ولكن شكاً لا يخامرني أن حكام هذه الشعوب في مثل حكمة الحكام المتحضرين. لا تثْبت حالتهم إلا قذارة قد تنشأ مع الحضارة. لست مضطراً الآن إلى الإشارة إلى عمال ولايات الجنوب ممن ينتجون الصادرات الرئيسية في هذا البلد، وهُم أنفسهم منتَج رئيسي من منتجات الجنوب، ولكني حصرت نفسي فيمن يقال إنهم يعيشون في ظروف معتدلة.

يخيل إليّ وكأن أغلب الرجال لم يتفكروا قط في ماهية المنزل، الواقع أنهم يمضون طيلة حياتهم فقراء – وإن كان فقراً لا ضرورة له – لأنهم يظنون أنهم ينبغي أن يمتلكوا منزلاً مثل منزل الجيران. وكأن المرء عليه أن يرتدي أي معطف قد يحيكه الخياط من أجله أو يترك شيئاً فشيئاً قبعة من سعف النخل أو قلنسوة من جلد حيوان المرموط ثم يشتكي من قسوة الحال لأنه لم يَقدر أن يتحمل تكلفة شراء تاج! من الممكن مع ذلك أن يبتكر المرء منزلاً أكثر ملائمة وترفاً مما لدينا، ولكن الجميع سيعترفون أنهم لن يستطيعوا شراءه. هل يجب أن نفكر دوماً في كيفية نيل المزيد من هذه الأشياء، ولا نرضى أحياناً بما هو أقل؟ هل ينبغي إذن على المواطن المحترم أن يُدرِّس برزانة – من خلال التلقين والقدوة – ضرورة أن يعكس الشاب صوراً معينة من التألق غير الضروري – الحذاء، المظلات، غرف فارغة للضيوف الفارغين – قبل أن توافيه المنية؟ لماذا لا ينبغي أن يتسم أثاثنا ببساطة أثاث العرب أو الهنود؟ حينما أفكر في محسني الجنس البشري – أشخاص مجّدناهم باعتبارهم رسلاً من السماء، حمَلة الهدايا الإلهية إلى الإنسان – لا يرى ذهني أي حاشية في أثرهم أو حمولة من أثاث أنيق. أو ماذا لو سلّمت – ألن يكون تسليماً فريداً؟ – بأن أثاثنا أعقد من أثاث العرب، مقارنةً بهم، لأننا

1 – أيرلندا: الإشارة هنا إلى مجاعة البطاطس الأيرلندية.

أخلاقياً وفكرياً أسمى منهم! تتراءى منازلنا في الوقت الحالي ملوَّثة مزدحمة تقبع في حال من الفوضى، سوف تكنس ربة المنزل الماهرة الجانب الأعظم منها في النفاية دون أن تترك عمل الصباح بدون إتمام. عمل الصباح! بحق تورد آلهة الفجر أوروررا وموسيقى تمثال ميمنون، ما هو عمل الرجل الصباحي في هذا العالم؟ كان لديّ ثلاث قطع من حجر الكلس على مكتبي، ولكن ذعراً استبد بي حين اكتشفت أني يجب أن أنفض عنهما التراب يومياً على حين لم يزل أثاث عقلي مكسواً بالتراب، فرميتهما من النافذة والاشمئزاز يسودني. كيف، إذن، أمتلك منزلاً مؤثثاً؟ أؤثر أن أجلس في العراء لأن لا غبار يتجمع على العشب إلا إذا كانت الأرض محروثة.

لا يحدد خطوط الموضة إلا المولعون بالترف والمنغمسون في الملذات، موضة يتتبعها القطيع بكل عناية واجتهاد. سرعان ما يكتشف هذه الحقيقة المسافر المتوقف عند أجمل المنازل – أجملها وفقاً لزعم الآخرين – لافتراض أصحاب الحانات أنه آشور بانيبال[1]، ولو سلّم نفسه لرحمتهم الرقيقة، لن يلبث أن ينقلب مخصياً بالكامل. أظننا نميل إلى أن ننفق على رفاهية عربة القطار أكثر مما ننفقه على الأمان والراحة، وبدون هذه الرفاهية ينذر القطار بألا يصير أفضل من حجرة معيشة حديثة بأرائكها ومتكآتها ومظلاتها ومئة شيء آخر شرقي نأخذه معنا إلى الغرب، أشياء ابتكرها مبتكرها من أجل الحريم ومواطني الإمبراطورية الصينية المخنثين، أشياء سوف يخجل أي رجل من رجال نيو إنجلاند أن يقف على أسمائها. أُفضل الجلوس على يقطينة وأمتلكها كلها من الجلوس على وسادة مخملية مكتظة بالناس. أُفضل أن أسافر في الأرض مستخدماً عربة يجرها ثور يطوف بحريته على أن أمضي إلى السماء في عربة فاخرة من عربات قطار يقطع رحلات قصيرة محدَّدة سلفاً مستنشقاً الملاريا طيلة الطريق.

لا تخلو بساطة حياة الإنسان نفسها وتجردها في العصور البدائية من هذه الميزة، على الأقل، حتى إنهما خلفتاه لا يزال مقيماً بين الطبيعة. وعندما انتعش بالطعام والنوم، تأمل من جديد رحلته. أقام – بمعنى ما – داخل خيمة في هذا العالَم، وكان إمّا يشق الوديان بقدمين حذرتين أو يَعبر السهول أو يتسلق قمم الجبال. ولكن عجباً! لقد صار البشر أدوات لأدواتهم. لقد صار مَن قطف مستقلاً الثمار وهو جائع مزارعاً؛ ومَن وقفت أسفل شجرة

1– آشور بانيبال: تقول الخرافة الاغريقية إنه ملك أشوري تم حصاره مدة ستين، أشعل النار في قصره وحرق نفسه وحاشيته.

طالبة الملجأ صارت مدبرة منزل. لم نعُد الآن نقيم معسكراً في الليل، وإنما استقرينا على الأرض ونسينا السماء. لقد اتخذنا المسيحية ديناً كوسيلة متطورة للزراعة ليس إلا. شيدنا لهذا العالَم قصراً عائلياً، وللعالَم التالي قبراً عائلياً. وما أجملُ الأعمال الفنية إلا تعبير عن صراع الإنسان لتحرير نفسه من هذه الحالة، ولكن فنوننا لم تسهم إلا في جعل هذه الحالة المتدنية مريحة ونسيان تلك الحالة الأسمى. الحق أن لا مكان في هذه القرية لوضع أي عمل فني رفيع لو حدَث وحصلنا على هذا العمل، إذ لا تضم حيواتنا ومنازلنا وشوارعنا أي قاعدة ملائمة له. لا مسمار لتعليق لوحة، لا رف لوضع تمثال نصفي يصور بطلاً أو قديساً. عندما أتدبر كيف نبني منازلنا وندفع ثمنها – أو لا ندفع ثمنها – وكيف نقتصد في نفقاتها وصيانتها، أتعجب من عدم انهيار الأرضية أسفل قدميّ الزائر وهو يسدد نظرات الإعجاب إلى أشياء تافهة تستقر على رف المدفأة كي تَحمله إلى القبو نحو أساس متين أمين وإن كان ترابياً. لا يسعني إلا أن أعتقد أن هذه الحياة الغنية الراقية المزعومة شيء قفز الإنسان إليه بلهفة ما بعدها لهفة، إنني لا أفلح في الاستمتاع بفنون جميلة أعشقها، فانتباهي مشغول كل الانشغال بتلك القفزة؛ أتذكر أن أكبر وثبة حقيقية مسجَّلة، اعتماداً على العضلات البشرية وحدها، وثبة عرب رُحَّال يقال إنهم قفزوا خمساً وعشرين قدماً عن مستوى الأرض. ولا ريب أن الإنسان سوف يَهبط إلى الأرض مجدداً من مسافة أبعد بدون أي دعم صناعي. إن أول سؤال أشعر بالإغراء لأن أطرحه أمام مالك ذلك المنزل البذيء الهائل، مَن يدعمك؟ هل أنت واحد من سبعة وتسعين فرداً فاشلين أم أحد الثلاثة الناجحين؟ أجب على هذه الأسئلة، وبعدها قد أرمق أشياءك ضئيلة القيمة وأجدها محلاة بالزينة. حين نضع العربة قبل الحصان، لا تتسم بالجمال ولا الفائدة. قبل أن نزين منازلنا بسلع جميلة، لا بد من تعرية الجدران وتعرية حيواتنا، ولا بد أن يُعَد التدبير المنزلي الجميل والحياة الجميلة كي نضع عليهما الأساس: ينبغي الآن أن يتم تعزيز تذوق الجمال في الهواء الطلق حيث لا منزل ولا مدبرة منزل.

كان العجوز جونسون[1] يتحدث في كتابه "عناية إلهية تفعل المعجزات" عن المستعمرين الأوائل ممن عاصرهم في هذه البلدة، يخبرنا "أنهم حفروا جحوراً في الأرض لتجهيز مأواهم الأول أسفل جانب أحد التلال، ثم رموا التربة عالياً على الخشب وأشعلوا عند الجانب الأعلى من الأرض ناراً انبعث منها دخان كثيف". يشير إلى أنهم لم "تتوفر لهم منازل إلى أن

1– العجوز جونسون: إدوارد جونسون (1598 – 1672)، مؤرخ أمريكي نشر كتاب "عناية إلهية تفعل المعجزات" عام 1654.

أخرجت الأرض بنعمة الرب خبزاً لإطعامهم"، وقد كان محصول أول عام شحيحاً للغاية حتى إنهم "اضطروا إلى جعل خبزهم رفيعاً جداً لمدة فصل طويل". تكتب سكرتيرة مقاطعة هولندا الجديدة[1] بالهولندية عام 1650 لإعلام من يود استغلال أرض هناك معلنة بوضوح أن "مَن تعوزهم الأموال في هولندا الجديدة، وبخاصة في نيو إنجلاند، لبناء مزارع تفي في البداية برغباتهم، احفروا حفرة مربعة في الأرض على غرار القبو، عمقها ست أقدام أو سبع، فلتجعلوا طولها وعرضها حسبما يناسبكم، غطوا الأرض من الداخل بطول الحائط بالخشب، وبطنوا الخشب بلحاء الأشجار أو شيء آخر كي تحولوا دون هبوط الأرض؛ ضعوا ألواحاً من الخشب على أرضية هذا القبو وألواحاً أخرى فوق الرؤوس لبناء سقف، ارفعوا عالياً سقفاً من الصواري وغطوا الصواري بلحاء الشجر أو الأعشاب الخضراء، وهكذا تتمكنون من الأخذ بأسباب حياة جافة دافئة في هذه المنازل مع عائلاتكم لمدة عامين أو ثلاثة أو أربعة، فمن المفهوم أن الحواجز تقام لتقسيم هذه الأقباء وتكييفها وفقاً لحجم الأسرة. كان الرجال الأغنياء المهمون في نيو إنجلاند قد استهلوا في بداية المستعمرات منازلهم الأولى على هذا الطراز لسببين: الأول، كي يتجنبوا إهدار الوقت في البناء أو يحتاجوا إلى الطعام في الموسم التالي؛ ثانياً، كي يحُولوا دون إحباط العمال الفقراء الذي جلبوهم بأعداد كبيرة من مسقط رأسهم. وفي غضون ثلاثة أعوام أو أربعة عندما تكيفت البلد مع الزراعة، شيدوا منازل أنيقة وأنفقوا عليها عدة آلاف".

لقد دل هذا الطريق الذي سلكه أسلافنا على الحكمة على أقل تقدير وكأن مبدأهم كان إشباع أشد الحاجات إلحاحاً أولاً. ولكن هل أشبعنا الآن أشد الحاجات إلحاحاً؟ حينما أفكر في أن أحصل على أحد هذه المساكن المترفة، ينثني عزمي لأن البلد ليست — إن جاز التعبير — متكيفة بعد مع الثقافة الإنسانية، ولازلنا مرغَمين على تقليص خبزنا الروحي تقليصاً يفوق ما فعل جدودنا مع قمحهم. لا أعني هنا أننا ينبغي أن نهمل الزينة المعمارية حتى في الفترات القاحلة؛ ولكن فلنملأ منازلنا أولاً بالجمال، في اتصالها بحيواتنا، مثلها مثل مسكن المحار. ولكن، خسارة! لقد دخلت منزلاً أو اثنين منها، وأعلم ما يملؤها.

بالرغم من أننا لا نقبع في التفسخ، وقد نعيش اليوم أيضاً في كهف أو كوخ بيضوي أو نرتدي الجلود، لا شك أنه خير لنا أن نقبل مميزات — وإن اشتريناها بأعز ما نملك — يقدمها

1– سكرتيرة مقاطعة هولندا الجديدة: كورنيليز فان تاينهوفن (1601 – 1656)، سكرتيرة هولندا الجديدة، وهو الاسم الهولندي لمدينة نيويورك (1638 – 1656).

ابتكار البشر ومثابرتهم. سوف نجد في مثل هذا الحي أن الألواح الخشبية الطويلة وتلك القصيرة، والجير والطوب، أرخص وأسهل منالاً من الكهوف الملائمة أو جذوع الشجر الكاملة أو اللحاء بكميات كافية أو حتى صلصال معالَج أو أحجار مسطَّحة. أتحدث في هذا الموضوع عن فهم لأني تعرفت إليه نظرياً وعملياً. وبالاستعانة بالقليل من الفطنة قد نستخدم هذه المواد كي نغدو الآن أغنى من أغنى الأغنياء ونحول حضارتنا إلى نعمة. إن الرجل المتحضر ما هو إلا بدائي أحكم وأكثر خبرة. ولكن فلأسرع بتقديم تجربتي الخاصة.

بالقرب من نهاية شهر مارس من عام 1845 استعرت فأساً ومضيت إلى الغابة المجاورة لبحيرة ولدن، بالقرب من بقعة نويت أن أبني فيها منزلي. أخذت أقطع عدة أشجار من أشجار الصنوبر البيضاء الطويلة الشبيهة بالسهام – أشجار لا تزال في ريعانها – كي آخذ الخشب. من الصعب أن أبدأ بدون استعارة، ولكن لعلها أكرم طريقة قد أنتهجها، السماح لرفقائي بالاهتمام بمشروعي. أنهى إليّ مالك الفأس وهو يحرر قبضته عنه أنه مقلة عينه، بيد أني أعدته إليه أكثر حدة مما كان. عملت على منحدر تل لطيف، تغطيه أشجار الصنوبر، ومن خلاله أشرفت على البحيرة وحقل صغير مفتوح في الغابة تنمو فيه أشجار الصنوبر والجوز. لم يكن ثلج البحيرة قد ذاب بعد، وإن ظهرت فيه بعض المساحات المفتوحة، عم السواد تلك المساحات، وتشبعت بالمياه. تساقطت بعض هبّات الثلج الخفيفة خلال أيام عملي هناك، ولكن عندما خرجت إلى السكة الحديد في سبيلي إلى البيت، امتدت في أغلب الأوقات كومة الرمل الصفراء لامعة في الجو الضبابي، وتلألأت قضبان السكة الحديد تحت شمس الربيع، وتناهت إلى مسمعيّ طيور القنبرة والبيوي والطيور الأخرى آتية مبكرة لتستهل عاماً آخر معنا. كانت أيام ربيعية معتدلة الجو، فيها ذاب شتاء سخط الإنسان[1] وكذا الأرض، وانبسطت الحياة بليدة وطفقت تتوسع. وعندما أخذت فأسي يوماً وقطعت شجرة جوز أخضر لأنال بعض الأوتاد دافعاً إياها بحجر، ووضعتها كلها حتى تنتقع في حفرة بالبحيرة كي ينتفخ الخشب، ارتطم بصري بثعبان مخطط يجري صوب المياه، رقد في القاع، دون انزعاج على ما يبدو، طيلة بقائي هناك أو لمدة تزيد على ربع الساعة؛ عله لم يَخرج بعد من حالة السبات. بدا لي أن الإنسان يظل لسبب ما مماثل في حالته الوضيعة البدائية؛ ولكنه لو استشعر تأثير ينبوع الربيع يستحثه، سوف يرتفع بحكم الضرورة إلى حياة أسمى وأكثر سماوية. كنت قد أبصرت الثعابين من قبل في طريقي خلال أصباح مكسوة بالصقيع وأجزاء

1– شتاء شاب سخط الإنسان: "الآن شتاء سخْطنا" من مسرحية ويليام شكسبير "ريتشارد الثالث".

من أجسامها لا تزال خدرة تفتقر إلى المرونة، في انتظار أن تخلصها الشمس من البرودة. أمطرت السماء في أول أيام إبريل لتذيب الثلج، وفي ساعة مبكرة من اليوم، وكان غائماً ملبداً بالضباب، سمعت إوزة هائمة تتلمس طريقها في البحيرة وترسل صوتها كالتائهة أو كروح الضباب.

وهكذا واصلت لعدة أيام، أُسقط الأشجار وأقطعها، وكذلك الأخشاب الطويلة والروافد، كلها بفأسي الصغير، دون أن تراودني أفكار يمْكنني نقلها إلى الآخرين أو أفكار خليقة بالعلماء، فقط أغني لنفسي:

يقول الناس إنهم يعرفون العديد من الأشياء؛
ولكن عجباً! لقد ركبُوا أجنحة –
الفنون والعلوم،
وألف أداة؛
إن الرياح الهابة
هي كل ما يقف عليه أي إنسان.[1]

نحتُّ قطع الأخشاب الكبيرة ليصبح حجمها ست بوصات مربعة، أغلب الأخشاب الطويلة على الجانبين، الروافد وأخشاب الأرضية على جانب واحد، تاركاً بقية اللحاء على حاله كي يكون الخشب في مثل استقامة الأخشاب المنشورة وأقوى منها. ثبّتّ كل عود بلسان في الجدعة، إذ كنت قد استعرت أدوات أخرى بحلول هذه الفترة. لم تكن أيامي في الغابة مفرطة الطول وإن حملت في العادة عشاءً من الخبز والزبد وقرأت جريدة لففته فيها ظهراً أثناء جلوسي بين أغصان صنوبر خضراء قطعتها، التقط خبزي بعضاً من رائحتها، فقط كانت يداي مغطاتين بطبقة سميكة من القار. كنت قبلها صديق شجرة الصنوبر، لا عدوها، وإن قطعت بعضاً منها بعد أن زادت معرفتي بها. أحياناً ما كان صوت الفأس يجذب أحد الهائمين على وجوههم، وعندئذ نتجاذب أطراف حديث ودود بلا كلفة ونحن نتناول رقائق بطاطس كنت قد حمرتها.

ولأني لم أتسرع في إنجاز عملي، وإنما استغليت وقتي خير استغلال، كان منزلي بحلول

1- قصيدة لثورو.

منتصف إبريل موطراً على أهبة الاستعداد أن يرتفع عن سطح الأرض. كنت قد اشتريت بالفعل كوخ جيمز كولينز، رجل أيرلندي عمل في سكة حديد مدينة فيتشبيرج، اشتريته بغرض انتزاع أخشابه. اعتبر الناس كوخ جيمز كولينز جميلاً جمالاً غير معتاد. عندما عرجت عليه لأراه، لم يكن في البيت. تمشيت خارجه دون أن ينتبه في البداية إليّ أحد في الداخل، إذ كانت النافذة عميقة غاية في العلو. كان الكوخ ذا أبعاد صغيرة، بسقف مستدق، ولا شيء آخر يمكن ملاحظته، فقد ارتفع التراب خمس أقدام حوله وكأنه ركام من الروث وأوراق الشجر. كان السقف أصلح جزء وإن التوى التواء شديداً وحاقت به الهشاشة من جراء الشمس. لم أجد عتبة باب إلا أني وجدت ممراً دائماً للدجاج أسفل لوح الباب. أقبلت السيدة سي إلى الباب وطلبت مني التفرج على الكوخ من الداخل. اندفع الدجاج إلى الداخل لمجيئي. كانت العتمة تخيم على المنزل، والتراب يسود أغلب الأرضية، والرطوبة والنداوة والبرودة تعم، هنا وهناك لوح أو آخر ليس إلا يستعصي على النزع. أضاءت مصباحاً كي تريني السقف والجدران، وكذا ألواح الأرضية الممتدة أسفل السرير، حذرتني ألا أخطو إلى القبو، هناك حفرة ترابية عمقها قدمان. ووفقاً لكلماتها كانت "الألواح الخشبية جيدة في السقف، ألواح جيدة في كل مكان، ونافذة جيدة" من مربعين كاملين في البداية، ولكن القطة ماتت مؤخراً بتلك الطريقة. كان هناك موقد وسرير ومكان للجلوس وطفل في المنزل، مكان ميلاده، مظلة من الحرير، مرآة بإطار ذهبي اللون، مطحنة قهوة جديدة مثبتة في شجيرة بلوط، وهو كل ما كان هناك. سرعان ما عقدنا الصفقة لأن جيمز عاد في تلك الأثناء. سوف أدفع أربعة دولارات وخمسة وعشرين سنتاً الليلة، وسوف يخلي الكوخ في الخامسة من صباح الغد، ولن يبيع إلى أحد في هذه الفترة: سوف أتملك الكوخ في السادسة. قال إنه من الأفضل أن أبكر بالحضور وأتوقع بعض الأشخاص ممن يطالبون بغير وضوح – وإنما بغير إنصاف على الإطلاق – بإيجار قطعة الأرض والوقود. أكد لي أنها العقبة الوحيدة. مررت به وبعائلته في طريقي في الساعة السادسة. حوت رزمة واحدة ضخمة كل متعلقاتهم – الفراش، مطحنة القهوة، المرآة، الدجاج – كل شيء عدا القطة؛ انطلقت إلى الغابة وتحولت إلى قطة برية، علمت بعدها أنها داست فخاً منصوباً لحيوانات المرموط، وهكذا استحالت قطة ميتة في النهاية.

فككت هذا المنزل في الصباح نفسه، نزعت المسامير ثم نقلته إلى جوار البحيرة بواسطة عربة صغيرة، بسطت الألواح على العشب هناك كي تمسي حائلة اللون وتلتوي من جديد

تحت أشعة الشمس. أرسل طائر مبكر من طيور السمنة نغمة أو اثنتين وأنا أقود العربة بحذاء سبيل الغابة. أخبرني الشاب باتريك بما حاق بي من غدر، حوّل الجار سيلي – رجل أيرلندي – إلى جيبه مسامير ورزّات مدقوقة لم تزل جيدة مستقيمة أثناء فترات ابتعادي بالعربة، وبعدها وقف حين رجعت لكي يقضي وقت النهار، رفع ناظريه عالياً في انتعاش ولا مبالاة – ومعه أفكار الربيع – صوب الدمار؛ هناك أقل القليل من العمل مثلما قال. كان هناك ليمثل المتفرجين ويعاون في جعل هذا الحدث الضئيل حدثاً أشبه بإزاحة آلهة مدينة طروادة[1].

حفرت قبوي على جانب أحد التلال المنحدرة جنوباً، وهناك حفَر في الماضي أحد حيوانات المرموط جحره وصولاً إلى جذور أشجار السُّماق والعليق وأدنى بقعة من الحياة النباتية، ست أقدام مربعة بعمق سبع أقدام، إلى رمال ناعمة لا تتجمد فيها الطماطم شتاء. تركت رفوف الجوانب دون أن أبلطها بالحجارة غير أن الشمس لم تتسلط قط عليها، و لم تزل الرمال تحتفظ بمكانها. لم يستغرق العمل إلا ساعتين. خالجني منتهى الاستمتاع وأنا أشق الأرض، ففي كل المناطق تقريباً يحفر الإنسان الأرض بحثاً عن درجة حرارة مستقرة. ولا يزال يوجد تحت أروع منازل المدينة قبو خزنوا فيه جذورهم القديمة، وبعد فترة طويلة من اختفاء البنية الفوقية، تلاحظ الذرية ما أحدثه الأولون من غور في الأرض. لا يزال المنزل مجرد شرفة عند مدخل الجُحْر.

وأخيراً في مستهل شهر مايو، وبمساعدة بعض معارفي – لا من قبيل الحاجة، وإنما كي أوطد بهذه المناسبة علاقتي بجيراني – أقمت هيكل منزلي. لم أجد إنساناً على الإطلاق أكثر مني فخراً بطبيعة مبناه. أثق أن القدَر يرتب لهم أن يعاونوا في إقامة مبان أشمخ ذات يوم. بدأت أشغل منزلي في الرابع من يوليو بمجرد أن كسوت الأرض بالألواح الخشبية ورفعت السقف لأن أحرف الألواح الخشبية كانت في سُمْك الريش، يتراكب اللوح على الآخر، وعليه كانت منيعة بالكامل من الأمطار، ولكني أقمت قبل وضع الألواح أساس مدخنة في طرف من الأطراف، جلبت بين يديّ من البحيرة حمولتين من الأحجار باستخدام العربة وصعدت التل. شيدت المدخنة بعد أن عزقت في الخريف وقبل أن تصبح المدفأة ضرورة لجلب الدفء، كنت أطبخ في تلك الأثناء في العراء على الأرض، خلال الصباح الباكر: لا زلت أظن أن هذه الطريقة أنسب وأوفق من عدة نواح من الطريقة المعتادة. وعندما عصفت

1– إزاحة آلهة مدينة طروادة: استعداداً لهزيمة طروادة العتيقة على يد الإغريق.

الرياح قبل أن أخبز عيشي، ثبّت بضعة ألواح على النار وجلست أسفلها مراقباً الرغيف، وأنفقت على هذا النحو عدة ساعات لطيفة. عندما كنت أستعمل يديّ كثيراً في خلال تلك الأيام، لم أقرأ كثيراً، ولكن أقل قصاصات الورق المرمية على الأرضية أو مفرش المائدة وفرت لي المتعة نفسها، بل إنها في الحقيقة حققت غرض قصيدة الإلياذة نفسه[1].

ومع ذلك سوف يستحق التعبَ أن أبني المنزل بالمزيد من التروي مع الوضع في الاعتبار مثلاً ما للباب والنافذة والقبو والعلية من أساس في طبيعة الإنسان، وربما لا نقيم قط أية بنية فوقية إلى أن نجد سبباً أفضل لها من ضرورياتنا المؤقتة. إن الإنسان مهيأ لبناء منزله مثلما نلفي الطائر مهيأ لبناء عشه. مَن العالم؟ ولكن لو شيد الإنسان منزله بيديه ووفر الطعام لنفسه وأسرته بما يكفي من بساطة وأمانة، قد تتطور الموهبة الشعرية في كل بقعة من بقاع الأرض، مثلما تغني الطيور في كل مكان حين تنهمك كل الانهماك فيما تفعله. ولكن واحسرتاه! إننا نكن حقاً الإعجاب بطيور البقر والوقواق، طيور تضع بيضها في أعشاش بنتها طيور أخرى ولا تبهج المسافرين بزقزقتها ونغماتها غير الموسيقية. هل نتخلى إلى الأبد عن متعة البناء للنجار؟ ماذا ستنتهي إليه العمارة في إطار خبرة جموع الناس؟ لم أقابل البتة في كل سبلي وطرقي رجلاً منخرطاً في مهمة بسيطة طبيعية كمهمة بناء منزله. إننا ننتمي إلى المجتمع. ليس الخياط وحده هو مَن يمثل تُسع الإنسان[2]؛ كذلك الواعظ والتاجر والفلاح. أين ينتهي هذا التقسيم للعمل؟ وما الغرض الذي يخدمه في النهاية؟ لا شك أن آخر قد يفكر أيضاً نيابة عني بيد أنه ليس مستحباً أن يفكر لدرجة إلغاء تفكيري. صحيح أن هناك معماريين مزعومين في هذا البلد، وقد بلغني أن واحداً على الأقل مهووس بفكرة إدماج جوهر الحقيقة، الحاجة، وعليه الجمال، في الزخرفة المعمارية، وكأنها وحي بالنسبة إليه. ربما ألفى كل شيء على ما يرام من وجهة نظره، ولكنه أفضل – قليلاً ليس إلا – من الهواة العاديين. وبوصفه مصلحاً لفن العمارة يفيض بالعاطفة بدأ من الإفريز، وليس الأساس. لم ينصَبّ اهتمامه إلا على كيفية وضع جوهر الحقيقة داخل الزخارف حتى إن كل قطعة حلوى قد تحوي في الحقيقة لوزة أو بذرة كرويا – وإن كنت أعتقد أن اللوز صحي بدون السكر – ولم ينصَب على كيفية بناء الساكن، المقيم، ما بداخله وخارجه بصدق وترك الزخارف تتكفل بنفسها. أي إنسان عاقل افترض قط أن الزخارف أشياء خارجية تنطبع على الجلد فقط –

1– قصيدة الإلياذة: قصيدة ملحمية بقلم هومر تصف هزيمة مدينة طروادة.
2– تُسع إنسان: عبارة شاعت لوصف الخياطين في عهد ثورو.

وأن السلحفاة لديها هيكلها المنقط أو المحار لديه ألوان عرق اللؤلؤ، ووفقاً لهذا العقد لدى سكان برودواي أيضاً كنيسة الثالوث؟ ولكن الإنسان لا علاقة له بأسلوب معمار منزله مثلما لا ترتبط السلحفاة بهيكلها: ولا ينبغي أن يكون الجندي كسولاً ويحاول أن يدهن عَلَمه بلون فضيلته نفسه. سوف يكتشفه العدو. وقد ينقلب شاحباً حين يحين وقت المحاكمة. بدا لي وكأن هذا الرجل يميل على الإفريز ليهمس خائف النبرات بنصف الحقيقة إلى السكان الأفظاظ، سكان يعرفونها حقاً معرفة أفضل منه. أعلم أن ما أراه الآن من جمال معماري نمى بالتدريج من الخارج، من الضروريات وطبيعة الساكن – وهو الباني الوحيد – ومن صدق لا واع ونبل بدون التفكير مطلقاً في المظاهر، وأي جمال إضافي من هذا النوع مقدّر له النشأة سوف يَسبقه جمال للحياة لا واع مماثل له. يَعلم الدهّان أن أكثر المنازل إثارة للانتباه في هذا البلد هي أكواخ بسيطة متواضعةً مشيَّدة من جذوع الأشجار يسكنها في الغالب الفقراء؛ إنها بمثابة هياكل لحياة السكان، تخلو أسطحها من أية غرابة مما يجعلها فاتنة المنظر؛ ومثلها على حد سواء في إثارة الانتباه سيكون صندوق المواطن في الضواحي عندما تصبح حياته في بساطة الخيال وتناغمه، ويَعدم أسلوب سكنه الآثار الثانوية الموترة. إن النسبة الأعظم من الزخارف المعمارية مجوفة حرفياً، سوف تقتلعها أي عاصفة في شهر سبتمبر مثلها مثل ريش طائر مستعار، بدون أن تنال من الجوهر. بإمكان مَن تخلو قبوهم من الزيتون والنبيذ الاستغناء عن فن العمارة. ماذا لو ثارت ضجة مساوية حول زخارف الأسلوب الأدبي وأمضى معماريو الأناجيل الفترة نفسها في أفاريزه مثلما يفعل معماريو الكنائس؟ هكذا يحاك الأدب والفن وأساتذتهما. سوف يكترث المرء في الواقع لعصي قليلة تميل عليه أو تحته، وأي الألوان يصطبغ بها صندوقه. سوف تدل بعض الشيء – لو دلت على شيء بأي مَعنى جاد – على أنه أمالها أو صبغها، ولكن مع مغادرة الروح الساكن، باتت منسجمة مع تشييد كفنه – بناء القبر – و"النجار" ما هو إلا اسم آخر "لصانع الكفن". يقول أحد الرجال، وهو في حال من اليأس أو اللامبالاة بالحياة، خذ حفنة من الأرض الواقعة عند قدميك وادهن منزلك بذلك اللون. هل يفكر في منزله الضيق الأخير؟ انقر عملة كي تحدد موقفك. لا شك أن لديه وقت فراغ كبيراً! لم تأخذ حفنة تراب؟ خيرٌ لك أن تدهن منزلك بلون بشرتك؛ فلتجعله شاحباً أو متورداً. مَشروعٌ لتحسين أسلوب معمار الأكواخ! عندما تمتلك أية حلى جاهزة، سوف أرتديها.

بنيت قبل حلول الشتاء مدخنة وكسوت جوانب منزلي بألواح خشبية، جوانب كانت

بالفعل منيعة من الأمطار بقطع خشبية معيبة غضة مصنوعة من أول شريحة من جذع الشجرة، اضطررت أن أعدل أطرافها بفأرة النجار.

وهكذا أمتلك منزلاً محكَماً بالألواح الخشبية وطبقات الجص، عرْضه عشر أقدام وطوله خمس عشرة أقدام، ارتفاع دعائمه ثماني أقدام، يضم علية وخزانة، ونافذة ضخمة في كل جانب من جوانبه، وبابين صغيرين في السقف، وباباً في نهاية المنزل، ومدفأة من الطوب قبالته. كانت تكلفة المنزل بالضبط، بعد دفع الثمن المعتاد لمثل تلك المواد المستخدَمة، ولكن بدون حساب العمل، عمل قمت به كله بنفسي، كما هو تالٍ؛ أقَدم إليكم التفاصيل لأن أقل القليل من الناس بوسعهم تقدير التكلفة الدقيقة لمنازلهم، وبِسع عدد أقل منهم – لو أن هناك أحداً على الإطلاق – تحديد الأثمان المنفصلة للمواد المختلفة التي يتألف منها المنزل:

ألواح خشبية... ½ 8.03 $ (أغلبها ألواح كوخ)

ألواح خشبية صغيرة من النفاية... 4.00

شرائح خشبية رقيقة للجص... 1.25

نافذتان مستعملتان بالزجاج... 2.43

ألف طوبة قديمة... 4.00

برميلان من الجير... 2.40 (كان غالياً.)

وَبَر... 0.31 (أكثر من حاجتي.)

عوارض من الحديد... 0.15

مسامير... 3.90

مفصلات ولوالب... 0.14

مزلاج... 0.10

طباشير... 0.01

تنقلات... 1.40 (حملت معظم المواد على ظهري.)

الإجمالي... ½ 28.12 $

هذه هي كل المواد عدا الخشب والحجارة والرمال التي حصلت عليها كحق من حقوق

واضع اليد على الأرض. لديّ أيضاً سقيفة صغيرة مجاورة لتخزين الحطب، بنيت معظمها بمواد تبقت من تشييد المنزل.

أعتزم أن أبني لنفسي منزلاً سوف يفوق أي منزل في الشارع الرئيسي من بلدة كونكورد في فخامته ورفاهيته بمجرد أن أرغب في بنائه ولن يكلفني أكثر من منزلي الحالي.

وهكذا وجدت أن الطالب الراغب في ملجأ يمكنه الحصول عليه طيلة عمره بتكلفة لا تربو على إيجار يدفعه الآن سنوياً. لو بدوت أني أتفاخر تفاخراً أكثر من الملائم، فعذري أني أتفاخر بالبشرية لا بنفسي؛ وعيوبي وتناقضاتي لا تؤثر على صدق روايتي. وبالرغم من الكثير من الرياء والنفاق – عُصافة أجد من الصعب فصلها عن حنطتي غير أني آسف عليها مثل أي إنسان – سوف أتنفس بحرية وأتمطى، إنها لراحة ما بعدها راحة للمنظومة الأخلاقية والجسدية كليهما؛ وأنا عاقد العزم ألا أصبح من قبيل التواضع محامي الشيطان. سوف أسعى ألا أتكلم سوى بالخير عن الحقيقة. يُقدَّر في كلية كامبريدج[1] إيجار غرفة الطالب وحده – غرفة أكبر قليلاً من غرفتي – بثلاثين دولاراً سنوياً مع أن المؤسسة واتتها الفرصة لبناء اثنتين وثلاثين غرفة، كل واحدة بجانب الأخرى، وأسفل سقف واحد، وعليه يعاني المستأجر انزعاجاً من العديد من الجيران المتطفلين، وربما من ساكن في الطابق الرابع. لا يسعني إلا أن أعتقد أننا لو تحلينا بالمزيد من الحكمة الحقيقية في هذه المسائل، لن نحتاج إلى تعليم أقل فقط لأننا في الواقع سنكتسب بالفعل المزيد، وإنما ستختفي بشكل كبير نفقات مالية نؤديها للحصول على التعليم. ما يحتاج إليه الطالب من وسائل راحة في كامبريدج أو أي مكان آخر تكلفه أو تكلف غيره عشرة أضعاف ما يضحي به من الحياة لو أحسن تدبير ماله من الجانبين. ليس ما يطلب من أجله الطالب معظم الأموال يحتاج إليه أبداً أشد الاحتياج. تُعتبر مصاريف التعليم على سبيل المثال بنداً مهماً في فاتورة الفصل الدراسي بينما لا توجد رسوم لتعليم أكثر قيمة يناله باختلاطه بمعاصريه المثقفين. المعتاد أن يتم تأسيس كلية عن طريق تبرع من الدولارات والسنتات، وبعدها يتم الالتزام الأعمى بمبادئ تقسيم العمل إلى أقصاه – مبدأ لا يجب إتباعه مطلقاً إلا بقدر من الحذر – إذ يتم الاتصال بمقاول يجعل هذا التشييد موضوعاً للمضاربة، يوظف أيرلنديين وعمالاً آخرين كي يضعوا في الواقع الأسس بينما يقال إن طلاب المستقبل يهيئون أنفسهم لها؛ وبسبب هذا السهو ينبغي أن تدفع الأجيال

1– كلية كامبريدج: كلية هارفارد بمدينة كامبريدج، ولاية ماسيتشوسيتس؛ تخرج ثورو عام 1837.

المتعاقبة الثمن. أظنه من الأفضل للطلاب أو الراغبين في الاستفادة من الكلية أن يضعوا الأساس بأنفسهم. لا يحصل الطالب الذي ينال ما يشتهيه من وقت فراغ واعتزال من خلال تجنب أي كد ضروري للإنسان تجنباً منهجياً إلا على وقت فراغ حقير لا ينفعه في شيء، يسلب نفسه تجربة بمقدورها دون غيرها أن تجعل الفراغ مثمراً. يقول أحدهم، "ولكنك لا تعني أن الطلاب يجب أن يمضوا إلى العمل بأيديهم بدلاً من عقولهم؟" لا أعني ذلك بالضبط إلا أني أقصد شيئاً قد يحسبه صعباً عسيراً هو الآخر؛ أقصد أنهم لا يجب أن يمثلوا الحياة أو يَدرسونها فحسب بينما يساندهم المجتمع في هذه اللعبة المكلفة، ولكنهم يجب أن يعيشوها بجدية من البداية إلى النهاية. كيف يمْكن أن يتعلم الشباب كيفية الحياة بطريقة أفضل من محاولة اختبار الحياة؟ يخيل إليّ أن اختبارها سوف يدرب عقولهم مثلما تدربها الرياضيات. لو رغبت أن يقف صبي على شيء في مجاليّ الفنون والعلوم على سبيل المثال، لن أسلك الطريق الشائع وأرسله ببساطة إلى حي أحد الأساتذة، وهناك يُدرِّس أي شيء ويُمارَس عدا فن الحياة؛ سوف يتفحص الصبي العالَم من خلال تليسكوب أو ميكروسكوب غير أنه لن يراه قط بعينه الطبيعية؛ سوف يَدرس الكيمياء، ولن يتعلم كيفية صناعة خبزه، أو يَدرس الميكانيكا، ولن يتعلم كيف توصلنا إليها؛ سوف يكتشف أقماراً جديدة تدور حول نبتون، ولن يتبين ذرات الغبار في عينيه أو أنه نفسه متشرد كما القمر؛ أو ستلتهمه وحوش محتشدة حوله وهو يتأمل الوحوش في قطرة خل. من منهما سيَشهد تطوراً أكبر في نهاية الشهر: الصبي صانع مديته من معدن خام نقب عنه وصهره – القراءة مهمة للاضطلاع بهذه المهمة – أم صبي حضَر في هذه الأثناء محاضرات عن علم المعادن في المعهد وتلقى مطواة ماركة روجرز من أبيه؟ من سيجرح على الأرجح أصابعه؟ علمت لدهشتي عند مغادرة الكلية أني درَست الملاحة! آه، لو أنني أخذت المقرر في الميناء، لعلمت عنها المزيد. بل إن الطالب الفقير يَدرس الاقتصاد السياسي لا غير بينما لا يُخْلص الأساتذة في تدريس اقتصاد الحياة المرادف للفلسفة في كلياتنا. النتيجة هي أنه يطالع كتابات آدم سميث وديفيد ريكاردو وجون ساي بينما يورط أباه في الديون بلا سبيل إلى الخلاص منها.

وكما هو حال كلياتنا وحال مئة "تطورات عصرية"، يخيم عليها الوهم؛ ولا تُحقق دوماً تحسناً إيجابياً. يواصل الشيطان حتى النهاية انتزاع فائدة مركّبة لحصته الأولى واستثماراته الناجحة المتعددة فيها. تنزع ابتكاراتنا إلى أن تنقلب ألعاباً لطيفة تشتت انتباهنا عن الشؤون الجادة. ما هي إلا وسائل محسَّنة لغاية غير محسَّنة، غاية كان بلوغها في منتهى السهولة بالفعل

مثلما تؤدي السكة الحديد إلى بوسطن أو نيويورك. نتعجل بأقصى سرعة لكي نُركب تلغرافاً مغناطيسياً من ولاية مين إلى ولاية تكساس، ولكن لعل لا شيء مهم ممكن أن تنقله مين إلى تكساس. كلاهما في مأزق أشبه بمأزق رجل تلهف على التعرف إلى امرأة صماء ذات مكانة بارزة، ولكنه عندما قدَّمه أحدهم ووضع في يده طرف بوق أذنها، تاهت منه الكلمات. وكأن الهدف الأساسي هو الحديث بسرعة، لا الحديث بعقلانية. إننا تواقون إلى شق نفق أسفل المحيط الأطلنطي لنُقرِّب العالَم القديم بعض الأسابيع إلى العالَم الجديد، ولكن أول الأخبار المتسربة إلى الأذن الأمريكية العريضة المتلهفة قد تكون أن الأميرة أديليد مصابة بسعال ديكي. وبالرغم من كل شيء مَن يخب حصانه ميلاً في الدقيقة الواحدة، لا يَحمل له أهم الرسائل؛ فهو ليس مبشِّراً، ولا يأتي آكلاً الجراد والعسل البري. بل إني أشك أن حصان السباق تشايلدرز الطائر حمل أبداً ذرة قمح إلى الطاحونة.

يقول لي أحدهم، "يخامرني الاندهاش لأنك لا تدخر أموالاً؛ إنك تحب السفر؛ قد تأخذ العربات وتمضي إلى فيتشبيرج اليوم لتتفرج على الريف". ولكن بي من الحكمة ما يفوق هذا. لقد تعلمت أن أسْرَع مسافر هو المسافر على قدميه. أقول لصديقي، هب أننا جربنا مَن سيصل إلى هناك أولاً. المسافة ثلاثون ميلاً؛ والأجرة تسعون سنتاً. تكاد تَبلغ أجر يوم كامل. أتذكر عندما كانت الرواتب ستين سنتاً في اليوم للعمال المشتغلين في هذا الطريق نفسه. حسناً، أبدأ الآن سائراً على قدميّ، وأنتهي إلى هناك قبل الليل؛ لقد سافرت بذلك المعدل طيلة الأسبوع دون انقطاع. وفي خلال سيري سوف تَربح أجرتك وتصل هناك في وقت ما من الغد أو ربما هذا المساء لو حالفك الحظ بما يكفي للحصول على عمل في الموسم. وبدلاً من الذهاب إلى فيتشبيرج سوف تعمل هنا معظم اليوم. وعليه أعتقد أنني سوف أسبقك لو دارت السكة الحديد حول العالم؛ وينبغي أن أضطر إلى الانقطاع كلية عن معرفتك لو كنت سأتفرج على الريف وأنال خبرات من ذلك النوع.

هذا هو القانون الكوني، ولا يوجد إنسان بمقدوره التغلب عليه، أمَّا فيما يتعلق بالسكة الحديد، قد نقول إنه غاية في العرض والطول. يعادل جعل السكة الحديد متاحة في كل مكان من العالم للبشرية جمعاء تمهيد سطح الكرة الأرضية بأكملها. يضمر الناس فكرة غامضة، وهي أنهم لو واصلوا هذا النشاط – ربط الأعمدة الخشبية وإعمال المجارف طويلاً بما يكفي – سوف يستقل كل الناس في النهاية القطار متجهين إلى مكان ما، بسرعة شديدة، من أجل لا شيء؛ ولكن بالرغم من أن حشداً يهرع إلى المحطة، وقاطع التذاكر يصرخ، "الكل على

القطار!"، عندما يطير الدخان مع الريح ويتكثف البخار، سوف يتبدى للعيان أن قلة من الناس راكبون، ومَن تبقى منهم مدهوسون، ولكنهم سوف يطلقون عليها - وسوف تكون - "حادثة سوداوية". لا شك أنهم يستطيعون الركوب في النهاية، مَن يجنون الأجرة، أي لو ظلوا طيلة هذه المدة على قيد الحياة، ولكن الأرجح أنهم يفقدون بحلول ذلك الوقت مرونتهم ورغبتهم في الترحال. ينفق المرء أجمل أيام حياته في كسب المال كي يستمتع بحرية مشكوك فيها خلال أقل أيام حياته قيمةً، مما يذكرني بإنجليزي ذهب إلى الهند حتى يجني أولاً ثروة ثم يعود يوماً إلى إنجلترا ليعيش حياة الشعراء. كان ينبغي عليه أن يَصعد في الحال إلى علية منزله. هتف مليون أيرلندي والإجفال يلم بهم من كل أكواخ الأرض، "ماذا! أليست هذه السكة الحديد التي شيدناها شيئاً نافعاً؟" أجيبهم، أجل، نافعاً نسبياً، أي أنكم كان من الممكن أن تقُوموا بما هو أسوأ؛ ولكني أتمنى - لأنكم بمثابة أخوة لي - لو أنكم قطعتم وقتكم في عمل أفضل من حفر هذه التربة.

رغبت قبل أن أنتهي من بناء منزلي في كسب عشرة دولارات أو اثنى عشر دولاراً بطريقة شريفة مقبولة كي أفي بمصاريفي غير المتوقَعة، زرعت معظم أكرين ونصف تقريباً من تربة رملية خفيفة بالقرب من المنزل، زرعتها فاصوليا، ولكني زرعت أيضاً قطعة أرض صغيرة طماطم وذرة وبسلة ولفت. تتألف قطعة الأرض كلها من أحد عشر أكراً، تنمو في معظمها أشجار الصنوبر والجوز، وقد بيع الأكر في الموسم السابق مقابل ثمانية دولارات وثمانية سنتات. قال أحد الفلاحين إنها "لا تصلح إلا لتربية سناجب تسقسق". لم أسمد هذه الأرض بأي نوع من السماد، لست مالكها، ما أنا إلا واضع يد، ولا أتوقع أن أزرعها مجدداً، كما أني لم أعزقها كلها مرة واحدة. اقتلعت بعض الأجذال أثناء حرث الأرض مما وفر لي وقوداً لوقت طويل وترك دوائر صغيرة من التربة البكر، يسْهل تمييزها طوال الصيف من خلال وفرة أكبر من محصول الفول هناك. زودني الخشب الميت وراء منزلي والخشب الطافي على البحيرة - غير الصالح للبيع في أغلبه - ببقية الوقود. اضطررت إلى تأجير زوج من الخيل ورَجل للعزق وإن أمسكت المحراث بنفسي. قدْرت نفقات مزرعتي في الموسم الأول، الأدوات والبذور والعمل، إلى آخره، بمبلغ ½ 14.72$. أعطاني أحدهم بذور الذرة. لا يكلف هذا قط أي شيء يمْكن ذكره إلا إذا زرعتَ أكثر من كفايتك. حصلت على 390 لتراً من الفول و585 لتراً من الطماطم بالإضافة إلى بعض البسلة والذرة الحلوة. تأخرتْ الذرة الصفراء واللفت فلم ينبت محصولهما على الإطلاق. وهكذا بلغ دخلي الكلي من المزرعة:

23.44 $ ومع خصم المصاريف... ½ 14.72...

يتبقى... ½ 8.71 $

علاوة على غلة استهلكتها ولا تزال متاحة حين قدَّرت هذا التقدير – 4.50$. ومع وضع كل شيء في الاعتبار، أي اعتبار أهمية روح الإنسان، ومن اليوم، بالرغم من فترة قصيرة شغلتْها تجربتي، لا، بل بسبب طبيعتها الزائلة، أعتقد أني أحسنت بلاء وتفوقت في تلك السنة على أي فلاح آخر في كونكورد. ومع ذلك تحسنت في العام التالي لأني جرفت كل الأرض المطلوبة، حوالي ثلث أكر، وعلمت من خبرة السنتين – إذ لم تبهرني على الإطلاق كتابات مشهورة تتناول الزراعة، وآرثر يونغ[1]× من بين المعنيين بالزراعة – أن لو عاش المرء عيشة بسيطة وأكل ما زرعه من محاصيل لا غير، و لم يزرع ما لا يزيد على ما يأكله دون أن يبادله بكمية غير كافية من السلع المرفهة الغالية، لن يحتاج إلا إلى زراعة بضع قصبات من الأرض، وسوف يكون جرفها أرخص من استخدام ثيران للعزق، كما أن اختيار بقعة نضرة بين الحين إلى الآخر أفضل من تسميد البقعة القديمة، وبوسعه أن يقُوم بكل أعمال المزرعة الضرورية بذراعه اليسرى في ساعات الفراغ صيفاً؛ وعليه لن يرتبط بثور أو حصان أو بقرة أو خنزير كما يجري في الوقت الحالي. لي رغبة في أن أتحدث بحيادية عن هذه النقطة بوصفي شخصاً غير مبالٍ بنجاح الترتيبات الاقتصادية والاجتماعية الحالية أو فشلها. لقد تمتعت باستقلالية تفُوق استقلالية أي فلاح بكونكورد لأني لم أعتمد على منزل أو مزرعة، ولكني استطعت في كل لحظة أن أتبع منحنى قدراتي – منحنى مقوس للغاية. وعلاوة على أني أفضل حالاً منهم بالفعل، لو احترق منزلي أو فشل محصولي، سوف يظل حالي ميسوراً كما السابق.

أميل إلى الاعتقاد بأن الرجال لا يحتفظون بالقطيع بقدر ما يحتفظ بهم القطيع، فالقطيع أكثر حرية بكثير. يتبادل الرجال والثيران العمل غير أننا لو تفكرنا في العمل الضروري فقط لا غير، سوف نجد أن الثيران لها الأفضلية، فمزرعتها هي الأضخم. يضطلع الإنسان ببعض دوره في العمل التبادلي خلال ستة أسابيع من علف الدواب، والدور ليس بالهين اليسير. لا ريب أن لا توجد أمة عاشت ببساطة من كل النواحي – أي، لا توجد أمة من الفلاسفة – سوف ترتكب هذا الخطأ الفادح: استخدام جهد الحيوانات. الواقع أنه لم توجد قط – ولن توجد قريباً على الأرجح – أمة من الفلاسفة، ولست متأكداً أنه من المستحب أن توجد في

1– آرثر يونغ : (1741 – 1820)، مؤلف بريطاني تناول كتاباته الزراعة.

الواقع. ومع ذلك لا ينبغي البتة أن أروض حصاناً أو ثوراً ثم آخذه لأركبه القيام بأي عمل من أجلي خشية أن أغدو فارساً أو راعياً فقط لا غير؛ ولو يبدو أن المجتمع هو الرابح بهذه الفعلة، هل نحن متأكدون أن ربح فرد ليس خسارة لآخر وأن صبي الإسطبل لديه قضية مساوية لقضية سيده يريد الإيفاء بها؟ من المسلَّم به أن بعض الأشغال الهندسية لن نشيدها إلا بهذه المساعدة، ولندع الإنسان يشارك الثور والحصان مجد هذه الأشغال؛ هل يصح بالضرورة أنه ما كان لينجز هذه الأعمال بنفسه في تلك الحالة؟ عندما يبدأ الإنسان يقُوم بالأعمال – لا الأعمال غير الضرورية أو الفنية فحسب، وإنما الأعمال المرفهة التافهة بالاستعانة بالحيوانات – من المحتوم أن يتولى قلة منهم كل العمل التبادلي مع الثيران أو، بمعنى آخر، أن يصبحوا عبيداً للأقوى. وهكذا لا يعمل الإنسان فقط عند الحيوان داخله، وإنما عند رمز من رموز هذا الحيوان، إنه يعمل لدى الحيوان خارجه. وبالرغم من أننا نمتلك العديد من المنازل الضخمة المشيَّدة من الطوب أو الحجر، لا يزال ازدهار الفلاح يقاس بضخامة ظل تطرحه حظيرة الماشية على منزله. يقال إن هذه البلدة تضم أضخم حظائر الثيران والأبقار والأحصنة في هذه الناحية، وليست مُقَصِّرة في مبانيها الحكومية، ولكن هذه المقاطعة لا تحوي إلا قاعات قليلة جداً للعبادة الحرة أو الخطابة الحرة. لم لا تستعين الأمم بقوة الفكر المجرَّد كي تحتفل بذكراها؟ لا يجب أن يتم الاحتفال من خلال معمارها. يا لإعجاب نكنه لمقطع "أغنية الرب" في قصيدة المهابهاراتا الهندوسية، إعجاب يتفوق على كل أطلال الشرق! إن الأبراج والمعابد وسائل رفاهية للأمراء. لا يكدح أي عقل بسيط مستقل بأوامر من أي أمير. ليست العبقرية خادماً عند أي إمبراطور، وليست مصنوعة من فضة أو ذهب أو مرمر عدا لدرجة ضئيلة. لأي غرض، من فضلك، نطرق الحجارة كل هذا الطرق؟ حينما زرت منطقة أركيديا باليونان، لم أر أي طَرق للحجارة. إن الأمم ممسوسة بطموح مجنون لتخليد ذاكرة نفسها من خلال ما تخلفه من حجارة مطرَقة. ماذا لو تجشموا العناء نفسه لتهذيب سلوكياتهم وصقلها؟ سوف تتذكر البشرية عقلاً واحداً راجحاً أكثر من تذكرها لنصب تذكاري في مثل علو القمر. يروقني أن أبصر الحجارة في موضعها. لا يَعدم جلال مدينة 'طِيبَة' الابتذال. إن جداراً من الأعمدة الحجرية يحيط بحقل رجل أمين أفيد من 'طِيبَة' تحيق بها ألف بوابة هائمة بعيداً عن الهدف الحقيقي للحياة. يبني الدين والحضارة، وهما بربريان وثنيان، معابد مذهلة؛ ولكن ما قد تسميه 'المسيحية' لا تبنيها. يتجه أغلب ما تَطْرقه الأمة من حجارة نحو قبرها ليس إلا. إنها تدفن نفسها حية. أما الأهرامات، فلا عجب يسودها إلا حقيقة الحط من

قدر العديد من الرجال وإرغامهم على قضاء حيواتهم في تشييد قبر مغفل ما يتولاه الطموح، إنه لمن الحكمة والرجولة أن يغرقوه في النيل ثم يمنحوا الكلاب جثته. قد أخترع عذراً ما لهم وله غير أن لا وقت لديّ. أمّا الدين وحب فن البناة، فهما لا يختلفان تقريباً في العالم بأسره، سواء كان البناء معبداً مصرياً أو بنكاً أمريكياً. يكلف أكثر من فائدته. إن الباعث الرئيس هو الغرور، يعاونه حب الثوم والخبز والزبد. يصممه السيد بالكوم، معماري شاب واعد، في ظهر كتيب للمعماريين الرومان بقلم رصاص حاد ومسطرة، وقد تولى المهمة دوبسون & وأبناؤه الحجارون. عندما بدأ ثلاثون قرناً يحتقرون البناء، بدأت البشرية توقره. أمّا أبراجنا العالية ونصبنا التذكارية، فقد كان هناك شخص مجنون ذات مرة في هذه البلدة أخذ على عاتقه حفر نفق حتى الصين، وقد بلغها كما أعلن يوماً حتى إنه سمع القدور والغلايات الصينية تقعقع؛ ولكنني أظن أني لن أنحرف عن سبيلي كي أسدد إلى حفرته نظرات الإعجاب. يهتم الكثيرون بآثار الغرب والشرق، يهتمون بمعرفة هوية بانيها. يروقني أن أقف على هوية مَن لم يشيدها في تلك الأيام، مَن سموا فوق مثل هذه التفاهة. ولكني سوف أتابع إحصائياتي.

ربحت من خلال مسح الأراضي والنجارة ومختلف الأعمال اليومية التي قمت بها في القرية في تلك الأثناء 13.34$، وهي تكلفة الطعام لمدة ثمانية شهور، أعني بدءاً من 4 يوليو إلى 1 مارس، فترة قمت فيها بهذه التقديرات رغم أني عشت هناك أكثر من عامين – دون حساب البطاطس والقليل من الذرة الخضراء وبعض الفاصوليا، كلها زرعتها دون اعتبار قيمة المتاح في التاريخ الأخير، والتكلفة هي:

أرز... ½ 1.73 $

دِبس سكر... 1.73 $ (نوع أرخص من السُكّرين)

جريش نبات الجاودار... 3/4 1.04 $

دقيق الذرة... 3/4 0.99 $ (أرخص من الجاودار)

لحم خنزير... 0.22 $

كل التجارب الفاشلة:

دقيق... 0.88 $

(يكلف أكثر من دقيق الذرة من حيث المال والجهد.)

سكر... 0.80 $

دهن خنزير... 0.65 $

تفاح... 0.25 $

تفاح جاف... 0.22 $

بطاطا... 0.10 $

يقطينة... 0.06 $

بطيخ أحمر... 0.02 $

ملح... 0.03 $

أجل، لقد أكلت بالفعل ما قيمته في الإجمالي 8.74$؛ ولكني ما كنت لأنشر ذنبي إذن دون خجل لو لم أعلم أن أغلب قرائي مذنبون مثلي، وأن تصرفاتهم لن تتبدى أفضل من تصرفاتي على الورق. أحياناً ما اصطدت في العام المقبل عدة أسماك في العشاء، بل إني ذبحت ذات مرة مرموطاً أتلف محصول الفول، اعترضتُ هجرته مثلما يقول التتار ثم التهمته، جانب من الأمر هو التجربة فحسب، ولكن مع أني نلت متعة خاطفة – رغم النكهة الشبيهة بالمسك – وجدت أن التناول الأطول لن يجعل من هذه العادة مفيدة مهما قد يبدو من أن حيوانات المرموط مذبوحة جاهزة على يد جزار القرية.

بلغت تكلفة الملابس وبعض المصاريف العرضية في أثناء الفترة نفسها – وإن لا يمكن إلا استنتاج القليل من هذا البند التالي – ¾ 8.40 $:

والزيت وبعض الأدوات المنزلية... 2.00 $

ها هي كل النفقات المالية عدا غسيل وإصلاح ممّا في الأغلب خارج المنزل، و لم أستلم فاتورتهما بعد، وتلك هي كل الطرق التي من خلالها يصرف المرء بالضرورة أمواله في هذا الجزء من العالم:

المنزل... ½ 28.12 $

المزرعة لمدة عام... ½ 14.72 $

طعام لمدة ثمانية شهور... 8.74 $

ملابس وغيرها لمدة ثمانية شهور... ¾ 8.40 $

زيت وغيره من مواد لمدة ثمانية شهور... 2.00 $

الإجمالي... ¾ 61.99 $

أخاطب الآن قرائي ممن يسعون إلى الرزق. بعت لكي أفي بمتطلبات الحياة غلة المزرعة بثمن قدره 23.44 $، وربحت من عملي اليومي 13.34 $، الإجمالي إذن... 36.78 $، طرحته من مجموع المصاريف ليتبقى على جانب مبلغاً قدره ¾ 25.21$ – مبلغ بدأت به تقريباً، ومقدار المصاريف المفروض دفعها – وعلى الجانب الآخر هناك منزل مريح لي ما دمت اخترت السكن فيه علاوة على وقت الفراغ والاستقلالية والصحة المضمونة بهذه الطريقة.

إن هذه الأرقام – مهما بدت عرضية، وعليه لا تساهم في التعريف بالموقف لانطوائها على قدر من الكمال – لها قيمتها أيضاً. لم يمنحني أحد قط شيئاً و لم أقدم عنه حساباً. يبدو من التقدير أعلاه أن طعامي وحده كلفني أسبوعياً حوالي سبعة وعشرين سنتاً. وقد تألف لمدة نحو سنتين بعدها من جاودار ودقيق ذرة بدون خميرة وبطاطس وأرز وكمية ضئيلة من لحم الخنزير المملح ودبس سكر وملح؛ وكان شرابي هو الماء. كان خليقاً بمن يعشق فلسفة الهند أن يعيش على الأرز بالأساس. ولكن دحضاً لاعتراضات تافهة لا تَسلم من العند من البعض، قد أعلن أيضاً أني لو تناولت الغذاء في الخارج من الحين للآخر – مثلما فعلت دوماً، وأرجو أن تتسنى لي الفرصة لأفعلها مرة ثانية – كثيراً ما تسبب في ضرر لترتيباتي المنزلية. ولكن تناول الطعام في الخارج كما قلت من قبل كان أمراً مستمراً، ولا يؤثر مطلقاً على مثل هذا التصريح النسبي.

علمت من خبرة سنتين أن المرء سوف يبذل أقل مجهود ممكن بغرض نيل طعامه الأساسي، حتى في هذه المنطقة، علمت أيضاً أن الإنسان قد يتناول غذاء بسيطاً كغذاء الحيوانات، وفي الوقت نفسه يحتفظ بصحته وقوته. لقد أعددت عشاء مُرضياً، مُرضياً من عدة أوجه، عشاء بسيطاً من نبات الرجلة (*Portulaca oleracea*)، نبات جمعته في حقل الذرة ثم غليته وملحته. أكتب الاسم اللاتيني لِمَا يتميز به الاسم المتداول من جاذبية. ومن فضلك، ماذا يريد الإنسان العاقل في الظهيرة المعتادة وقت السلم أكثر من عدد كاف من كيزان الذرة الخضراء الحلوة، يغليها ويضيف إليها الملح؟ بل إن ما لجأت إليه من تنوع بسيط خضع لمتطلبات الشهية، لا الصحة. بلغ الإنسان مع ذلك حالة كثيراً ما تُعرضه للموت جوعاً، لا بسبب

حاجته إلى الضروريات، وإنما بسبب حاجته إلى وسائل الرفاهية؛ وأعلم امرأة طيبة تعتقد أن ابنها فقد حياته لأنه اعتاد احتساء الماء فقط لا غير.

سوف يلاحظ القارئ أني أتناول الموضوع من وجهة نظر اقتصادية بمعنى ما، وليس وجهة نظر غذائية، ولن يغامر باختبار اعتدالي في الغذاء من لم يمتلك خزانة عامرة لحفظ المأكولات.

خبزت الخبز في البداية من دقيق الذرة النقي والملح، فطائر ذرة أصلية خبزتها أمام النار في العراء على لوح خشبي أو طرف عصا من الخشب نشرتها أثناء تشييد منزلي؛ ولكن شاب الخبز الدخان وخالطته نكهة أشبه بالصنوبر، جربت أيضاً الدقيق غير أني ألفيت في النهاية أن مزيجاً من الجاودار ودقيق الذرة أنسب وأكثر قبولاً. وجدت متعة حين خبزت عدة أرغفة صغيرة على التوالي في الجو البارد، أعتني بها وأقلبها بحرص مثلما يقلب المصري بيض دجاجاته. كان محصول حبوب حقيقية أنضجتها، وقد فاحت منها في أنفي رائحة كروائح الفواكه الشهية الأخرى، فواكه حافظت عليها بقدر الإمكان بلفها في الملابس. درَست فناً عتيقاً لا غنى عنه لصناعة الخبز، استشرت بعض الخبرات المتاحة عائداً إلى الأيام البدائية والاختراع الأول للخبز غير المختمر حينما انتهى الإنسان من برية المكسرات واللحوم إلى هذه الحمية المعتدلة النقية، تنقلت بعدها بالتدريج في دراساتي عبر تخمر العجين بالصدفة، درَست عملية التخمر ثم مررت بعمليات التخمر المختلفة إلى أن وصلت إلى "الخبز الطيب الحلو الصحي،" قوام الحياة. خميرةٌ يعتبرها البعض روح الخبز، روح يملأ نسيجها الخلوي، يحافظ عليها بكل عناية مثلها مثل نار فيستا – ربّة نار الموقد عند الرومان – ملء زجاجة ثمينة، على ما أظن، جاء بها أحدهم في البداية على سفينة مايفلاور من بريطانيا إلى أمريكا، قامت بمهمتها في أمريكا، ولا يزال أثرها في ارتفاع، تضخم، انتشار، في كتل من الحبوب على الكرة الأرضية – حبة قمح أجلبها بانتظام وإخلاص من القرية إلى أن هل أخيراً أحد الأصباح ونسيت القواعد وحرقت الخميرة، وبهذه الحادثة اكتشفت أني يمكنني الاستغناء عنها هي الأخرى، إذ لم تكن اكتشافاتي ذات طبيعة مصطنعة، وإنما تحليلية، ومنذ وقتذاك أسقطت بكل سرور الخميرة من الوصفة على تأكيد معظم ربات البيوت لي بلهجة جادة أن الخبز الآمن الصحي لا يجوز بدون خميرة، وتنبؤ الكبار في السن بتحلل سريع لقوتي الحيوية. ولكني لا أعتبرها مكوناً أساسياً، وبعد الاستمرار بدونها لمدة عام، لا زلت ضمن عالم الأحياء؛ يخالجني السرور لهروبي من سخافة حمل زجاجة مليئة بها في جيبي، زجاجة

فرقعت أحياناً واطلقت محتوياتها مسببة لي إزعاجاً لا حد له. من الأسهل والأكثر احتراماً أن أكف عن إضافتها. إن الإنسان حيوان يسعه أكثر من أي حيوان آخر أن يكيف نفسه حسب كل مناخ وظرف. كما أني لم أضف إلى خبزي أي كربونات صوديوم أو حمض آخر. البادي أني صنعت خبزي وفقاً لوصفة استخدمها ماركوس بوركيوس كاتو[1] قبل الميلاد.

"Panem depsticium sic facito. Manus mortariumque bene lavato. Farinam in mortarium indito, aquae paulatim addito, subigitoque pulchre. Ubi bene subegeris, defingito, coquitoque sub testu".

ومعناها، "هكذا تصنع الخبز من العجين. اغسل يديك ووعاءك جيداً. ضع الدقيق في الوعاء وأضف الماء بالتدريج ثم اعجنها كلها. عندما تَفرغ من العجن الجيد، شكل العجينة واخبزها أسفل غطاء،" أي في غلاية الخبز. لم يذكر كلمة عن الخميرة بيد أني لم آكل دوماً قوام الحياة هذا. ففي مرة من المرات لم أر خبزاً لمدة تربو على الشهر بسبب خلو محفظتي.

بوسع كل مواطن في منطقة نيو إنجلاند أن يزرع بسهولة كل الحنطة في هذه الأرض من الجاودار والذرة دون أن يتكل على أسواق بعيدة متقلبة. ومع ذلك نبتعد كل الابتعاد عن البساطة والاستقلالية إلى هذه اللحظة في بلدة كونكورد حتى إننا قلما نبيع الدقيق الطازج النقي في المحلات، ويكاد لا يستخدم أحد الذرة الجافة المغلية أو الحنطة في صورتها الخشنة. غالباً ما يمنح الفلاح ماشيته وخنازيره حبوب غلته ثم يشتري من المتجر دقيقاً أغلى، دقيقاً ليس أفيد على الأقل لصحته. وجدت أنه من اليسير أن أزرع 32 لتراً أو 64 لتراً من الجاودار والذرة، فالنبات الأول ينمو في أجدب الأراضي والثاني لا يتطلب أخصب الأراضي، ثم أطحنهما في مطحنة يدوية، وهكذا أستغني عن الأرز ولحم الخنزير؛ ولو شعرت بحاجة شديدة إلى تناول بعض الحلوى المركزة، ألفيت بالتجربة أن بمقدوري عمل دبس سكر شهي للغاية من اليقطين أو الشمندر، وكنت أدرك أني لست في حاجة إلا إلى زراعة بعض أشجار القيقب كي أحصل عليه بسهولة أكبر، وبينما كانت تنمو، وسعني أن أستخدم بدائل متعددة غير ما ذكرته. فكما غنَّى أجدادنا،

"لأننا نستطيع أن نصنع خمراً لتحلية شفاهنا من اليقطين والجزر الأبيض ورقائق شجر الجوز".

1- ماركوس بوركيوس كاتو: (234 – 149) كاتب روماني يتناول أمور الزراعة.

وأخيراً يجب من أجل الملح – أرخص البقالة – ترتيب مناسبة ملائمة لزيارة الشاطئ أو لعلي ينبغي أن أحتسي مياهاً أقل لو استغنيت عنه كلية. لم أسمع أن الهنود تكبدوا مطلقاً مشقة السعي إلى الملح.

وهكذا وسعني أن أتحاشى كل المقايضات فيما يتعلق بطعامي، ولأن لديّ مأوى بالفعل، لن يتبقى إلا أن أوفر الكساء والوقود. لقد حاكت البنطال الذي أرتديه الآن عائلة فلاح – شكراً للرب، لا يزال الإنسان يتحلى بالكثير من الفضيلة، لأني أعتقد أن الانتقال من الفلاح إلى العامل في مثل عظمة الانتقال من الإنسان إلى الفلاح وأهميته – وفي بلد جديد، يمثل الوقود عائقاً. أمّا عن المسكن، لو وجدت وضع اليد على الأرض غير مسموح به، قد أبتاع أكراً بسعر بيع الأرض التي زرعتها – أي، ثمانية دولارات وثمانية سنتات. ولكني رأيت أني رفعت قيمة الأرض بمعنى ما بعد أن وضعت يدي عليها.

هناك نوع معيّن من المتشككين ممن يسألونني بين الحين والآخر إن كنت أعتقد أن بمقدوري العيش على الخضراوات وحدها؛ ولكي أبلغ فوراً لب الموضوع لأن اللب بمثابة الإيمان، اعتدت أن أجيبهم، بمقدوري أن أعيش على مسامير الألواح. لو لا يسعهم استيعاب ذلك، لن يسعهم استيعاب الكثير مما سأقوله. تتولاني السعادة من ناحيتي أن أشهد تجربة مثل هذه التجارب؛ مثلما حاول شاب أن يعيش على الذرة الصلبة النية فوق الكيزان لمدة أسبوعين، مستخدماً أسنانه لطحنها: حاولت السناجب الشيء نفسه ونجحت. يهتم الجنس البشري بهذه التجارب وإن قد يتولى الفزع عدة عجائز غير مؤهلات لها أو يمتلكن ثلث قيمة المصانع.

صنعت بعض أثاثي بنفسي، والباقي لم يكلفني شيئاً لم أحسب حسابه. تكوّن الأثاث من سرير ومائدة ومكتب وثلاثة مقاعد ومرآة قطرها ثلاث بوصات وملقط وزوجين من مساند الحطب وغلاية وقدر ومقلاة تحمير ومغرفة وحوض للغسل وسكينين وشوكتين وثلاثة أطباق وفنجان وملعقة وإبريق للزيت وإبريق لدبس السكر ومصباح مطلي بالورنيش. ليس هناك فقيراً يَحمله فقره على الجلوس على يقطينة. لا ينم هذا إلا على الكسل وعدم الحيلة. هناك العديد من مثل تلك الكراسي كما أرغب وأُفضل يمكن أخذها من علالي القرية. أثاث! الشكر لله، بوسعي أن أجلس وأقف بدون عون من أي مخزن للأثاث. مَن – عدا الفيلسوف – لن ينتابه الخجل من رؤية أثاثه معبأ في عربة، يطوف البلدة معرّضاً لضوء السماء وأعين

الرجال؟ عددٌ معدَم من الصناديق الفارغة. إنه أثاث سبولدينج. عندما كنت أعاين مثل هذا الحمل، ما أمكنني قط أن أحدد إن كان يخص رجلاً ثرياً مزعوماً أم رجلاً فقيراً؛ فقد بدا المالك دوماً مبتلى بالفقر. الحق أن كلما امتلكتَ المزيد من تلك الأشياء، كلما زاد فقرك. تتبدى كل حمولة وكأنما تضم محتويات دستة أكواخ؛ ولو حل الفقر على كوخ واحد، كان هذا أفقر اثنتي عشرة مرة. من فضلك، لم ننتقل على الإطلاق إلا للتخلص من أثاثنا، جلد الحية؛ على الأقل كي ننتقل من هذا العالَم إلى آخر مؤثَّث أثاثاً جديداً وترك هذا الأثاث ليحترق؟ إنه الحال نفسه وكأن كل هذه المصائد ثبّتها الإنسان في حزامه ولا يقْدر التجوال فوق الأرض الوعرة حيث تنطرح صنانيرنا بدون أن يجرها – يجر مصيدته. كان ثعلباً محظوظاً، خلّف ذيله في المصيدة. سوف يقرض فأر المسك رجله الثالثة ليتحرر. لا عجب أن فقد الإنسان مرونته. كثيراً ما يصبح في موقف متحجر. "سيدي، لو سمحتَ لي بأن أتجرأ بالسؤال، "ماذا تعني بموقف متحجر؟" لو أنك عراف، متى تقابل رجلاً، سوف تبصر خلفه كل ما يمتلكه، أجل، وسوف تبصر كثيراً مما يتظاهر بإنكاره والتبرؤ منه، بل إنك ستبصر أثاث مطبخه وكل ما يدخره من حاجات تافهة لن يحرقها، وسوف يتراءى كالمشدود إلى نيرها محاولاً أن يتقدم بقدر الإمكان. أظن أن الإنسان يكون في موقف متحجر حينما يجتاز ثقب عقدة أو قوس بوابة بدون أن تتبعه مزلجته محمَّلة بأثاثه. ولا أتمالك إلا الشعور بالشفقة حين يتناهى إلي رجل مكتنز البنية، حر الإرادة في الظاهر، مستعد ومتأهب للعمل، يتحدث عن "أثاثه،" إن كان مؤمَّناً عليه أم لا. "ولكن ماذا أصنع بأثاثي؟" تقع فراشتي المرحة عندئذ في شرك شبكة عنكبوت. بل إن مَن لا يمتلكون على ما يبدو أي أثاث لفترة طويلة، لو وجهتَ إليهم أسئلة دقيقة، سوف تجد أنهم يمتلكون بعض الأثاث المخزَّن في حظيرة أحدهم. أتطلع إلى إنجلترا اليوم كمن يتطلع إلى رجل نبيل عجوز يرتحل بكمية ضخمة من الحقائب، أمتعة تافهة تراكمت من جراء تدبير طويل الأمد لشؤون منزله، أمتعة لم يتحل بالشجاعة لحرقها؛ صندوق سفر كبير وصندوق سفر صغير وعلبة قبعات وصرة. تَخَلَّص من أول ثلاثة أمتعة على الأقل. سوف يتجاوز قوى رجل صحيح الجسد في هذه الأيام أن يأخذ سريره ويسير، وينبغي ولا شك أن أنصح العليل أن يضع سريره ويجري. عندما التقيت بمهاجر يترنح أسفل صرة حوت كل ما يمتلكه، فبدت وكأنها بثر هائل الحجم نمى من قفاه، خالجتني الشفقة عليه، لا لأن ذلك كل ما ملكه، وإنما لأنه اضطر أن يحمل كل تلك الحمولة. لو أُرغمت على جر

حاجياتي، سوف أحرص على أن تكون خفيفة وألا تقرصني في مكان حساس. ولكن عله من الأحكم ألا يضع المرء يده أبداً في صرته.

سوف أردف، بالمناسبة، أنني لم أنفق سنتاً على شراء الستائر لأن لا متفرس فيّ لأبعده عني عدا الشمس والقمر، وأنا مستعد أن يسترقا إليّ النظر. لن يجعل القمر لبني رائباً أو يوسخ لحمي، ولن تجرح الشمس أثاثي أو تقلب لون سجادتي حائلاً؛ ولو أنها أحياناً صديقة دافئة زيادة عن اللازم، لا أزال أجده من حسن التدبير أن أتراجع خلف ستارة وفرتها لي الطبيعة بدلاً من أن أضيف قطعة واحدة إلى تفاصيل منزلي. قدَّمتْ إليّ إحدى السيدات ذات مرة حصيرة، ولكني رفضتها لأن لا مكان لها داخل المنزل، ولا وقت للاستغناء عنه داخل المنزل أو خارجه لتنفيضها، فضّلت أن أمسح قدميّ في العشب أمام الباب. من الأفضل أن يتجنب المرء بدايات الشر.

كنت موجوداً منذ وقت قريب في مزاد يَعرض متعلقات شماس إحدى الكنائس لأن حياته أثرّت كثيراً على الآخرين:

"يستمر ما يصنعه البشر من شرور بعد موتهم.[1]"

وكما هي العادة كان جزء هائل منها أشياء تافهة طفقت تتكدس في عهد أبيه. تقبع بين بقية المتعلقات دودة جافة. والآن، بعد أن رقدت نصف قرن في عليته وحُفر مُغبرة أخرى، لم تتعرض هذه الأشياء للحرق؛ وبدلاً من إضرام نار في الهواء الطلق أو تدميرها تدميراً مطهّراً، تم عقد مزاد أو زيادتهم. احتشد الجيران وكلهم لهفة حتى يتفحصوها، اشتروها كلها ثم نقلوها بأياد حريصة إلى العلالي والحُفر المُغبرة كي تَرقد هناك إلى أن يرث أحدهم ممتلكاتهم، وعندها تبدأ الدورة من جديد. عندما يدرك الموت رجلاً، يرفس التراب.

قد يكون من المفيد أن نقلد عادات بعض الأمم البدائية لأنهم يَقومون على الأقل بطرح جلودهم سنوياً؛ تنطوي صدورهم على فكرة عن العملية سواء يفعلونها حقاً أم لا. ألن يكون خير لنا أن نحتفي بمثل ذلك "المشَد" أو "وليمة من الفواكه الأولى" مثلما يصف بارترام[2] عادة هنود الماكلاس؟ يحكي لنا، "عندما تحتفل بلدة بالمشَد، بعد أن وفروا لأنفسهم الجديد من الملابس والقدور والمقالي والأواني المنزلية والأثاث الجديد، يجمعون كل ثيابهم البالية

1 – ويليام شكسبير: (1562 – 1616)، من مسرحية "يوليوس قيصر".
2 – ويليام بارترام: (1739 – 1823) عالم طبيعة أمريكي.

ومتعلقاتهم الحقيرة الأخرى ويكنسون منازلهم وساحاتهم وينظفونها، ينظفون البلدة كلها من القذارة، يرمون القذارة ومعها كل الحبوب المتبقية والمؤن القديمة الأخرى في ركام واحد مشترك لتلتهمه النيران. وبعد تناول الدواء والصيام ثلاثة أيام تنطفئ كل النار في البلدة. يمتنعون في خلال هذا الصيام عن إرضاء كل شهوة وكل عاطفة أياً كانت. يعلنون عفواً عاماً، ويسمحون لكل المجرمين بالعودة إلى البلدة".

"يحك الكاهن الأكبر في الصباح الرابع خشبة جافة بأخرى ليُنتج ناراً جديدة في الميدان العام، ومنها يتوفر لكل مساكن البلدة لسان لهب جديد نقي". يتناولون بعدها وليمة من الذرة والفواكه الجديدة، ويرقصون ويغنون لمدة ثلاثة أيام، "وفي الأيام الأربعة التالية يستقبلون الضيوف ويمرحون مع أصدقائهم من البلدات المجاورة، أصدقاء تطهروا بالطريقة ذاتها وأعدوا أنفسهم".

مارس المكسيكيون أيضاً تطهراً مماثلاً عند نهاية كل خمس وعشرين سنة معتقدين أن الأوان قد آن لانتهاء العالم.

قلما سمعت عن قربان مقدس أصدق منه، أي كما يُعرِّفه القاموس، "علامة خارجية مرئية لنعمة داخلية روحية،" ولا شك لديّ أنهم استلهموه مباشرة من الله وإن لم يمتلكوا سجلاً إنجيلياً يثْبت هذا الكشف والإلهام.

أنفقت على نفسي كلية بما بذلته يداي لما يزيد على خمسة أعوام، وقد وجدت أن العمل نحو ستة أسابيع في العام يمكنني من الإيفاء بكل نفقات المعيشة. تفرغت كل الأشتية، وكذا أغلب الأصياف، للدراسة. حاولت جاهداً الالتزام بالكلية إلا أني ألفيت أن نفقاتي لا تناسب دخلي، فقد اضطررت إلى لبس الملابس والسفر بالقطار، لا مثلاً التفكير وإضمار المعتقدات نتيجة للدراسة في الكلية، كما أني أهدرت أيضاً وقتي.

ولأني لم أُدرس لنفع رفقائي، ولكن ببساطة لأحقق دخلاً، فشلت في التدريس. حاولت امتهان مهنة التجارة غير أني وجدت أني سأستغرق عشر سنوات حتى أتقدم في ذلك المجال، وعندها ربما ينبغي أن أكون في طريقي إلى الشيطان. ساورني الخوف حقاً من أن أحقق في تلك الفترة ما يسمى "بالتجارة الرابحة". عندما كنت أبحث في الماضي عما يمكنني فعله لكسب العيش، تجربة حزينة من العمل وفق رغبات الأصدقاء، تجربة حية في ذاكرتي لفرض ضريبة على إبداعي، كثيراً ما فكرت بجدية في جني الكرز؛ باستطاعتي ولا ريب أن أتولى

هذه المهمة، وقد تكفيني أرباحها الضئيلة، إذ انصبت موهبتي العظمى على عدم الرغبة إلا في أقل القليل، وقد تطلبت القليل من رأس المال والقليل من تشتيت الانتباه عن مزاجي المعتاد، هكذا تصورت عن حماقة. بينما خاض معارفي في التجارة بلا تردد أو تولوا مهناً، تفكرت في هذه المهنة مثلما يتفكرون في مهنهم؛ التجول بين التلال طيلة الصيف لقصف كرز اتفق أن وجدته في طريقي ثم بيعه بلامبالاة من أجل الحفاظ على قطيع الملك أدميتوس. حلمت أيضاً أني قد أجمع الأعشاب البرية أو أحمل الأغصان دائمة الخضرة بعربات القش إلى قرويين يحبون تذكر الغابة، بل وإلى المدينة. ولكني فطنت منذ حينها إلى أن التجارة تلعن كل شيء تتعامل معه، وبالرغم من أنك تتاجر في رسائلَ من السماء، تلتصق لعنة التجارة كلها بالتجارة. ولأني آثرت بعض الأشياء على أشياء أخرى، وبخاصة ثمنت حريتي، ولأني استطعت أن أنجح بصعوبة – ولكني نجحت نجاحاً ملحوظاً – لم أرغب بعد في قضاء وقتي في إحراز سجاجيد فاخرة أو أي أثاث آخر أنيق أو مطبخ لذيذ أو منزل على الطراز اليوناني أو القوطي. لو أن هناك أناساً لن يعترض حياتهم نيل هذه الأشياء، أناس يعلمون كيفية استخدامها حين يحصلون عليها، سوف أتنازل لهم عن هذا السعي. يتسم بعضهم "بالاجتهاد"، والبادي أنهم يحبون الكدح ما لغرض إلا الكدح، أو ربما لأنه يقيهم بعيداً عن أسوأ الأذى؛ وليس لديّ حالياً كلمة أقولها لهم. أمّا مَن لا يَعلمون ما يصنعونه بوقت فارغ لا يستمتعون به، قد أنصحهم بمضاعفة عملهم حتى يدفعوا مصاريفهم وينالوا جرائد مجانية. أمّا عن نفسي فقد وجدت أن مهمة الأجير أكثر استقلالية من أي مهنة، ولا سيما لأنها تتطلب العمل ثلاثين أو أربعين يوماً فقط لا غير في العام للقيام بنفقات المرء. ينتهي يوم الأجير بغروب الشمس، وبعدها يصبح حراً لتكريس نفسه لمسعاه المختار، بمنأى عن عمله؛ ولكن رئيسه في العمل – المضارب في السوق من الشهر تلو الشهر – لا راحة لديه من بداية العام إلى نهايته. تخالجني باختصار قناعة – منبعها الإيمان والتجربة كلاهما – أن إعالة المرء لنفسه على هذه الأرض ليست مشقة، وإنما تسلية لو سنعيش ببساطة وحكمة؛ لا تزال مساعي الأمم الأبسط هي لهو الأمم المتكلفة. ليس من الضروري أن يجني المرء رزقه بعرق جبينه ما لم يبذل في عرقه جهداً أسهل مني.

ورث شاب من معارفي بعض الأطيان، أخبرني أنه فكر في الحياة بمثل أسلوبي، "لو لديه الموارد الكافية". لن أفرض على أي شخص تحت أي ظرف اختيار أسلوبي في الحياة، فبالإضافة إلى أني قد أجد لنفسي أسلوباً آخر قبل أن يتعلمه بصورة سليمة، لي رغبة في أن

يحوي العالم أشخصاً مختلفين بقدر المستطاع؛ ولكني أريد أن يحرص كل فرد منتهى الحرص على اكتشاف سبيله ومتابعته، لا سبيل أبيه ولا سبيل أمه ولا سبيل جاره. قد يبني الشاب أو يزرع أو يبحر، فقط لا تعيقه أنت عن فعل ما يخبرني برغبته في فعله. إنه من قبيل اليقين فقط أن نتحلى بالحكمة، مثلما يسلط البحار أو العبد اللاجئ عينيه على النجم القطبي، ولكنه إرشاد كاف لكل حياتنا. قد لا ننتهي إلى الميناء في خلال فترة محسوبة غير أننا سوف نحافظ على الطريق الصحيح.

لا شك أن ما يصح للفرد في هذه الحالة يصير أصح لألف فرد، فالمنزل الأضخم ليس تناسبياً أكثر تكلفة من المنزل الصغير بما أن سقفاً واحداً يغطيه، وقبواً واحداً يشكل أساسه، وحائطاً واحداً يفصل عدة شقق. ولكني أُفضل عن نفسي السكن المنعزل. كما أنه أرخص في العادة أن تبني المنزل كاملاً بنفسك من أن تقنع آخر بفائدة الجدار المشترك؛ وعندما تنجز هذا الحاجز المشترك كي تتوخى الاقتصاد، لا بد أن يكون رفيعاً، وقد يتضح أن ذلك الآخر جار سيء لا يحافظ على جانبه في حالة جيدة. وينقلب التعاون الوحيد الممكن في الغالب جزئياً وظاهرياً إلى أبعد حد؛ ويبدو التعاون الحقيقي الضئيل المتاح وكأن لا وجود له لأنه إيقاع يتعذر على الناس سماعه. لو أن الإنسان يَنعم بالإيمان، سوف يتعاون بإيمان مساوٍ في كل مكان؛ لو أنه معدوم الإيمان، سوف يستأنف حياته مثل بقية العالَم أياً كانت الصحبة المرتبط بها. يعني تعاون الناس بالمعنى الأوسع وكذا الأضيق للكلمة أن نجني رزقنا معاً. سمعت أحدهم يقترح مؤخراً أن يرتحل رجلان معاً حول العالم، شخص تَنقصه الأموال سيكسب رزقه أثناء السفر وراء صاري المركب وخلف المحراث، والآخر يَحمل في جيبه كمبيالة. كان من السهل أن أدرك أنهما لا يُمكن أن يظلا رفيقين أو يتعاونا طويلاً بما أن أحدهما لن يعمل على الإطلاق. سوف يفترقان عند أول كارثة مثيرة في مغامراتهما. وقبل كل شيء، وكما ألمحت من قبل، بإمكان مَن يمضي وحده أن يستهل رحلته الآن؛ ولكن من يسافر مع آخر يجب أن ينتظر إلى أن يستعد الآخر، وقد ينقضي وقت طويل قبل أن ينطلقا.

ولكني سمعت البعض من أبناء بلدتي يصارحونني بأن كل هذه الحياة في منتهى الأنانية. أعترف أني لم أنخرط حتى الآن إلا بصورة طفيفة في الأعمال الخيرية. ضحيت ببعض الشيء بمعنى الواجب، وكذلك ضحيت من بين أشياء أخرى بهذه المتعة. ثمة أشخاص استخدموا كل مهاراتهم لإقناعي بتولي دعم أسرة ما فقيرة في البلدة؛ ولو لم أجد ما أفعله – لأن الشيطان يجد عملاً للعاطل – قد أجرب نفسي في مثل تلك السلوى. ولكن خطر في بالي أن أنغمس

في هذا المضمار وأتعهد بتحقيق نعيمهم من خلال إعالة فقراء بعينهم من كل النواحي، أكفيهم مثلما أكفي نفسي، بل إني غامرت بتقديم العرض إليهم، آثروا جميعاً بدون تردد أن يظلوا على فقرهم. وبينما كرس رجال بلدتي ونساؤها أنفسهم بطرق عديدة لخير رفقائهم، آمل أن يُستثنى واحد على الأقل في سبيل مساعٍ إنسانية أخرى أقل. لا بد أن تتمتع بموهبة للقيام بالأعمال الخيرية، وكذا أي شيء آخر. أمّا بالنسبة إلى عمل الخير، سوف تجده إحدى المهن المشغولة. علاوة على أني حاولت بإخلاص، وعلى غرابة ما سأقوله، أشعر بالرضا لعدم اتفاق المهنة مع عُرْفي. ربما لا ينبغي أن أنبذ عن وعي وتعمد أي دعوة معَينة لفعل الخير يطالبني بها المجتمع كي أنقذ الكون من الإبادة؛ أعتقد أن رسوخاً مماثلاً وإنما أعظم كثيراً في مكان آخر هو كل ما يحافظ عليه الآن. ولكنني لن أَحول دون أي رجلٍ وموهبته؛ وأقول له – مَن يَقوم بهذا العمل الذي رفضتُه بكل قلبه وروحه وحياته – ثابِر، حتى لو أطلق عليه العالَم 'فعل الشر'، وهو ما سيَحدث على الأرجح.

لا أفترض قط أن حالتي حالة فريدة؛ لا مراء أن الدفاع نفسهُ سوف يدر من العديد من قرائي. لا أنشغل عند الاضطلاع بعمل بأن يعلن جيراني رأيهم فيه بوصفه خيراً، لا أتردد في قول إني عامل ممتاز لتأجيره؛ ولكن المسألة هي أن مهمة رئيسي في العمل أن يكتشف ذلك. ما أصنعه من خير – بالمعنى الشائع لتلك الكلمة – يجب أن يتم بالإضافة إلى سبيلي الأساسي، وينبغي أن يخلو تماماً من تعمد في أغلب الأوقات. يقول الناس في الواقع، ابدأ من مكانك، كما أنت، دون أن تهدف في الأساس إلى أن تتحلى بقيمة أكبر، وبطيبة مبيَّتة انطلق في فعل الخير. لو كنت سأعظ على الإطلاق في هذا المسعى، ينبغي أن أقول، ابدأ بالخَير في نفسك. وكأن الشمس ينبغي أن تكف عندما أضمر ناره عالياً إلى بهاء القمر أو نجم من المرتبة السادسة، وانطلق مثل روبين جودفيلو[1]، استرق النظر إلى نافذة كل كوخ، يلهم المخابيل ويلوث اللحوم ويجعل الظلمة مرئية بدلاً من زيادة حرارته الصحية وإحسانه بانتظام إلى أن يشرق إشراقاً لا يسع أي فانٍ التطلع إلى وجهه، وبعدها، في الوقت نفسه أيضاً، يجول العالَم في مداره الخاص، يسبغ عليه خيره، أو بالأحرى، كما اكتشفتُ فلسفة أصدق، يجول العالَم حوله ليسبغ عليه خيره. عندما ود فيثون ابن إله الشمس إثبات مولده المقدّس عن طريق الإحسان، أخذ عربة الشمس يوماً واحداً ليس إلا وقادها خارج السبيل المطروق ليحرق

1– روبين جودفيلو: جني في الفلكلور الإنجليزي، وهو معروف أيضاً باسم باك.

عدة منازل في الشوارع الجنوبية للفردوس ويسفع سطح الأرض ويجفف كل ربيع ويخلق الصحراء الكبرى إلى أن قذفه جوبيتر في النهاية من غير تردد إلى الأرض بصاعقة، و لم تشرق الشمس في حزنها على موته لمدة عام.

لا رائحة أردأ من رائحة تفيح من الطيبة الملوثة. إنها بشرية، إلهية، جيفة. لو علمتُ علم اليقين أن رجلاً سيأتي إلى منزلي بهدف واع، وهو الإحسان إليّ، لا بد أن أهرب وأنقذ حياتي، أهرب من تلك الرياح الجافة جفافاً الهابة على الصحاري الأفريقية المسماة برياح السموم، رياح تملأ الفم والأنف والأذنين والعينين بغبار حتى تختنق، خوفاً من أن يطولني ما سيُقَدمه من إحسان أو يمتزج فيروسه بدمي. لا، أؤثر في هذه الحالة أن أعاني الشر بالطريقة الطبيعية. لا يصبح الرجل طيباً لأنه يطعمني إن أشرفت على الموت جوعاً أو يدفئني إن قاربت التجمد أو ينتزعني من خندق إن وقعت فيه. يمكنني أن أجد لك كلب من نوعية نيوفاوندلند بمقدوره أن يؤدي المهمة نفسها. ليس الإحسان حباً للآخر بالمعنى الواسع للكلمة. لا ريب أن هاوارد[1] كان رجلاً طيباً فاضلاً إلى أقصى درجة بطريقته الخاصة، ولديه مكافأته؛ ولكن على سبيل المقارنة، ما قيمة مئة هاوارد بالنسبة إلينا، لو أن إحسانهم لا يساعدنا في أفضل أحوالنا، حين نكون أشد استحقاقاً للمساعدة؟ لم أسمع قط عن اجتماع خيري اقترح بإخلاص الإحسان إليّ أو إلى أمثالي.

تولى اليسوعيين الإحباط من هؤلاء الهنود الذين اقترحوا على معذبيهم طرقاً جديدة للتعذيب بعد أن احترقوا على الخازوق. ولسموهم على المعاناة الجسدية، اتفق أنهم يسْمون أحياناً على أي عزاء يستطيع أن يقدمه المبشرون؛ لم يعُد القانون المنفِّذ مقنعاً على أسماع من لا يكترثون من جانبهم لكيفية تعامل القانون معهم، من أحبوا أعداءهم على غرار جديد، وأوشكوا أن يصفحوا عن طيب خاطر عن كل ما اقترفوه.

احرص على أن تهب الفقراء معونة هم في أشد الحاجة إليها وإن كان مثالك قد يتركهم في الخلفية. لو أعطيتهم أموالاً، أنفِقْ نفسك معها ولا تكتفي بتركها لهم. أحياناً ما نرتكب أخطاء غريبة. لا يعاني الفقير في الغالب البرد والجوع مثلما يعاني القذارة والرثاثة والبذاءة. يرجع جانب من حاله إلى ذوقه، وليس فقط حظه في الحياة. لو منحته أموالاً، الأرجح أنه سيشتري بها المزيد من الأسمال البالية. كنت أميل إلى الشفقة على العمال الأيرلنديين الخرق

1– هاوارد: جون هاوارد (1726 – 1790)، مصلح سجون إنجليزي.

الذين يكسرون جليد البحيرة في ملابسهم الحقيرة المهلهلة بينما تولاني الارتعاد في ملابسي الأكثر ترتيباً وأناقة بعض الشيء إلى أن جاء يوم بارد قارص وتعثر أحدهم في المياه ثم أتى إلى منزلي ليتدفأ. رأيته يتجرد من ثلاثة أزواج من الملابس الداخلية وزوجين من الجوارب قبل أن يتعرى تماماً، ومع أن ملابسه كانت قذرة ومتهرئة تماماً بالفعل، رفض ما عرضته عليه من ثياب إضافية، فقد كان لديه الكثير من الثياب الداخلية. كانت هذه السقطة في الماء كل ما يحتاج إليه. بدأت بعدها أشفق على نفسي، ورأيت أنه سيكون إحساناً أكبر أن أمنح نفسي قميصاً خفيفاً من أن أمنحه متجراً كاملاً لبيع الملابس الرخيصة. هناك ألف ضربة تصيب أغصان الشر بالنسبة إلى شخص يضرب جذر الشجرة، قد يسهم أسلوب حياة مَن يمنح المحتاجين القدر الأكبر من الوقت والأموال في إحداث هذا البؤس الساعي جاهداً وعبثاً إلى تخفيفه. إنه مربي العبيد التقي يكرس أرباح كل عبد عاشر لشراء الحرية للآخرين يوم الأحد. يُظهر البعض عطفهم على الفقراء بتوظيفهم في مطابخهم. ألن يتسموا بالمزيد من الكرم إن وظفوا أنفسهم هناك؟ تتفاخر بصرف عشر دخلك على الإحسان؛ ربما ينبغي أن تصرف تسعة أعشار، وينتهي الأمر. لا يستعيد المجتمع عندئذ إلا عشر الملكية. هل يَرجع هذا إلى كرم مالك الملكية أم إلى إهمال ضباط العدل؟

يكاد يكون الإحسان الفضيلة الوحيدة التي تُقدرها البشرية تقديراً كافياً. لا، يبالغ البشر كل المبالغة في تقديرها؛ وأنانيتنا هي السبب. أثنى فقير قوي البنية ذات يوم مشمس هنا في كونكورد على أحد أبناء البلدة لأنه، كما وصفه، كريم مع الفقراء، ويعني هنا نفسه. ينال الأعمام والعمات الكرماء من الجنس البشري تقديراً يزيد على ما يناله آباؤه وأمهاته الحقيقيون الروحيون. سمعت ذات مرة محاضراً موقراً يتحدث عن إنجلترا، رجل لا يَعدم المعرفة أو الذكاء، جاهر بأسماء مشاهير إنجلترا في مجالات العلم والأدب والسياسية: شكسبير وبيكون وكرومويل وميلتون ونيوتن وغيرهم، تحدث بعد ذاك عن أبطالها المسيحيين وكأن مهنته حتمت عليه ذكرهم ووضعهم في مرتبة أعلى من الباقين بوصفهم أعظم العظماء. كانوا بِن وهاوارد والسيدة فراي. لا بد أن الجميع يدركون نفاق هذا الادعاء وكذبه. لم تكن الأخيرة واحدة من خيرة رجال إنجلترا ونسائها، بل ربما من خيرة محسنيها.

لن أخرِم الإحسان أي مديح يستحقه غير أني أطالب فحسب بالعدل لكل من باتت حياتهم وأعمالهم نعمة للإنسانية. لا أُقدر في المقام الأول استقامة رجل وإحسانه، وهما في الواقع بمثابة ساقه وأوراقه. تذبل خضرة تلك النباتات لنصنع منها شراباً للمرضى، ولا تُحقق

إلا نفعاً ضئيلاً، ويستغلها في الأغلب الدجالون. أريد زهرة الرجل وثمرته؛ عبيرٌ يتطاير منه إليّ ونضجٌ يضفي نكهة على تعاملنا. لا يجب أن تصبح طيبته فعلاً جزئياً مؤقتاً، وإنما فيض متواصل لا يعيه ولا يكلفه شيئاً. إنه إحسان يخفي عدداً كبيراً من الخطايا. كثيراً ما يطوق المحسن البشرية بتذكر أساه المنبوذ وكأنما بات جواً يحيق به، ويطلق عليه 'شفقة'. ينبغي أن ننقل شجاعتنا، لا يأسنا، صحتنا وطمأنينتنا، لا مرضنا، ونحرص ألا ينتشر كما العدوى. من اي سهول جنوبية يأتي صوت العويل؟ في أي منطقة يقطن وثني سوف نرسل إليه النور؟ مَن هو ذلك الرجل المدمن المتوحش الذي سوف نُخَلصه من الخطيئة؟ لو ثمة أي شيء يوجع رجلاً، فلا يؤدي واجباته، بل لو أنه مصاب بألم في أمعائه – وهي مركز الشفقة – يَشرع على الفور في إصلاح العالَم. وبما أنه نفْسه عالَم صغير، يكتشف – اكتشاف صادق، وهو الخليق بالوقوع عليه – أن العالَم كان يأكل تفاحاً أخضر؛ الحق أنه يرى الكرة الأرضية ذاتها تفاحة خضراء ضخمة الحجم، ومن الخطر الهائل أن يظن المرء أن الأطفال سوف يقضمونها قبل النضج؛ وعلى الفور ينشد إحسانه المتطرف الإسكيمو وسكان منطقة باتاجونيا، ويعانق القرى الهندية والصينية المزدحمة؛ وعليه، بعد عدة سنوات من النشاط الخيري، يستخدمه في خلالها ذوو النفوذ لأغراضهم ولا شك، يشفي نفسه من سوء الهضم، تتطلب الكرة الأرضية أحمر خدود باهتاً على إحدى وجنتيها أو الاثنتين وكأنها على وشك النضج، وتَفقد الحياة فجاجتها لتعود مجدداً حلوة المذاق نافعة للحياة. لم أحلم قط بشناعة أكبر مما ارتكبتها. لم أعلم قط، ولن أعلم قط، رجلاً أسوأ مني.

أعتقد أن ما يحزن المصلح كل الحزن ليس شفقته على رفقائه المكروبين، وإنما – مع أنه أتقى أبناء الله – وجعه الخاص. فلتصحح هذا، فلتدع الربيع يهل عليه، الصباح يشرق على أريكته، وسوف ينبذ رفقاءه الكرماء بدون اعتذار. لم أوبخ أحدهم من قبل لاستخدام التبغ لأني لم أمضغه قط، إنها عقوبة ينبغي أن يدفعها ماضغو التبغ المقوَّمون بالرغم من أني مضغت ما يكفي من أشياء، وبمقدوري أن أوبخ الآخرين لمضغها. لو ضللك أحدهم في أي وقت من الأوقات كي تنهمك في هذه الأعمال الخيرية، لا تدع يسراك تَعلم بما تصنعه يمناك، فالأمر لا يستحق العلم. أنقذ الغريق ثم اربط رباط حذائك. خذ وقتك، واستهل بعض الأعمال الحرة.

لقد فسدت سلوكياتنا بتعاملنا مع القديسين. تدوي كتب التراتيل بلعنات رخيمة موجَّهة إلى الله وتَحَمُّله إلى الأبد. قد يقول المرء إن حتى الأنبياء والمصلحين واسوا المخاوف و لم يعززوا

آمال الإنسان. لا توجد إشارة تدل على رضا سهل لا سبيل إلى كبحه عن هبة الحياة، أي ثناء جدير بالذكر على الله. يفيدني كل الصحة والنجاح مهما لاحا بعيدين منعزلين؛ يجعلني كل المرض والفشل حزيناً ويؤذياني شر إيذاء، أياً كانت شفقة يسبغاها عليّ أو أسبغها عليهما. لو أننا، إذن، شفينا بحق البشرية بوسائل هندية أو نباتية أو مغناطيسية أو طبيعية، فلنكن أولاً في مثل بساطة الطبيعة ذاتها وعافيتها، نبدد سحباً تتعلق فوق حواجبنا، ونملأ مسامنا بالقليل من الحياة. لا تمكث لكي تصبح مشرفاً على الفقراء، ولكن جاهد لتصبح واحداً من البارزين في هذا العالَم.

قرأت في ديوان "كلستان" أو "روضة الورد" للشيخ سعدي الشيرازي "أنهم سألوا حكيماً: من بين العديد من الأشجار المعروفة التي خلقها الله تعالى سامقة ظليلة، لا يطلقون على واحدة منها 'أزاد' أو 'حرة' فيما عدا شجرة السَّرْو، شجرة لا تطرح ثمراً؛ ما سر هذا؟ أجابهم: لكل شجرة طرحها الملائم، وموسمها المجدَّد، تتحلى خلال موسمها بالنضارة والازدهار، وعند انقضائه يَنزل بها الجفاف والذبول؛ أما شجرة السَّرْو فهي لا تتعرض لكلتا الحالتين، فهي تَنعم دوماً بالازدهار؛ ويشترك 'أزاد' أو 'المستقلون دينياً' في تلك الطبيعة. لا تُثبِّت قلبك على الزائل لأن نهر دجلة سوف يواصل تدفقه عبر بغداد بعد أن تنقرض سلالة الخلفاء: لو بين يديك وفرة، كن كريماً كرم شجرة البلح؛ ولكن لو لم يكلفك شيئاً أن تعطي، كن 'أزاداً' أو رجلاً حراً مثلك مثل شجرة السَّرْو".

أبيات متمّمة

دعاوى الفقر

إنك تتجرأ حقاً كثيراً، أيها البائس الفقير المحتاج،

حين تطالب بمكان في السماء

لأن كوخك الحقير أو حوضك

يعزز فضائل الكسل أو الوسوسة

في ضوء شمس ضئيل أو بجوار ينابيع ظليلة،

بجذور وأعشاب التتبيل؛ حيث يمناك،

تنتزع تلك العواطف الإنسانية من العقل،

على جذوعها تزهر فضائل مزهرة جميلة،
تحط الطبيعة، وتخدر الحس،
ومثل الغرغونة الإغريقية، تُحول الرجال النشطين إلى حجر.
إننا لا نحتاج إلى المجتمع المتبلد
من اعتدالك الواجب،
أو ذلك الغباء غير الطبيعي
الذي لا يَعرف البهجة ولا الحزن؛ ولا جَلَدك
السلبي المفروض عليك الممجَّد بالزيف
فوق النَشِط.
هذا النوع المتدني الدنيء،
بقدراته المتوسطة يثبِّت مقعده،
يصير عقولك الذليلة؛ ولكننا نقدِّم
مثل تلك الفضائل فقط بوصفها أفعالاً
مفرطة شجاعة كريمة، مهابة جليلة،
كل الحصافة المرئية، شهامة
لا تَعرف الحدود، وتلك الفضيلة النبيلة
التي لم تترك لها العصور العتيقة اسماً،
وإنما نماذج لا غير، مثل هرقل،
أخيل، ثيزيوس. رجوعاً إلى صومعتك الوضيعة؛
وعندما تبصر الكرة السماوية الجديدة المنيرة
ادرس لتَعلم من كانوا هؤلاء الشخصيات البارزة

توماس كرو[1]

1- توماس كرو: (1595 - 1645)، شاعر إنجليزي. العنوان عنوان ثورو.

2 – أين عشتُ، ولم عشتُ؟

نعتاد في فترة معينة من حياتنا أن نرنو إلى كل بقعة باعتبارها موقعاً محتملاً لمنزل. وعليه عاينت كل ناحية من الريف ضمن حدود اثنى عشر ميلاً من مكان سكني. اشتريت في خيالي كل المزارع على التوالي لأنها كانت كلها معروضة للبيع ولأني عرفت أثمانها. سِرت فوق أرض كل مُزارع، تذوقت تفاحه البري، تحدثت إليه عن الزراعة، أخذت مزرعته بالسعر المطلوب، بأي سعر، ثم رهنتها له في ذهني؛ بل إني حددت لها سعراً أعلى، حصلت على كل شيء عدا صك الملكية، قبِلت كلمته بدلاً من الصك لأني أحب الحديث كل الحب، حرثتها، وصادقته هو أيضاً إلى حد ما، كما أتمنى، وبعدها انسحبت حين استمتعت بها بما يكفي، تاركاً إياه ليواصل المهمة. أهَلّتني هذه التجربة لأن يعتبرني أصدقائي سمسار عقارات بمعنى ما. أينما أحل، هنا قد أعيش، وقد أشعّت المشاهد الطبيعية مني وفقاً للمكان. ما هو المنزل إلا 'سيديس'، مَقعد؟ والأفضل أن يكون مقعداً ريفياً. اكتشفت العديد من المواقع الملائمة لبناء منزل، مواقع لن تَشهد على الأرجح تحسناً قريباً، قد يجدها البعض بعيدة أكثر مما ينبغي

عن القرية، ولكن القرية كانت لعينيّ بعيدة عنها أكثر مما ينبغي. حسناً، قلت إني قد أعيش هناك؛ وهناك عشت بالفعل، ساعةً، صيفاً، شتاء من الحياة؛ أبصرت كيف بمقدوري أن أدع السنوات تنسل، أقاوم الشتاء حتى ينقضي لأشهد حلول الربيع. لا بد أن يتأكد سكان هذه المنطقة في المستقبل – أينما سيشيدون منازلهم – أن هناك مَن سبقهم. كفى الأصيل لبسط الأرض وتقسيمها إلى بستان وغابة ومرعى، ولتقرير أي أشجار البلوط أو أشجار الصنوبر الجميلة يجب تركها لتَقوم أمام الباب، وعليه يمكن رؤية كل شجرة عاطلة من الورق خير رؤية؛ وبعدها تركتُها تَرقد، ربما أرحت الأرض من الزراعة، فالإنسان لا يصير غنياً إلا بقدر ما يمْكنه نبذه من أشياء.

شطح بي خيالي شطحاً حتى إني مارست حق الشفعة في عدة مزارع – كان حق الشفعة هو كل مرادي – ولكنني لم أحرق أصابعي حقاً بامتلاكها فعلياً. أقْرَب ما بلَغته من التملك الحقيقي كان حين ابتعت منزل هالوويل، وطفقت أفرز بذوري وأجمع المواد لصنع عجلة يد لأغراض الحمل، ولكن قبل أن يعطيني المالك صكاً، غيرت زوجته – كل رجل لديه مثل تلك الزوجة – رأيها ورغبت في الاحتفاظ به، وقد عرض عليّ عشرة دولارات للتخلي عن الملكية. والآن، ولتوخي الصراحة، لم أمتلك إلا عشرة سنتات في العالَم، وقد فاق حساباتي أن أحدد إن كنت ذلك الرجل الذي يمتلك عشرة سنتات أو مزرعة أو عشرة دولارات، أو كل هذه الأشياء. ومع ذلك، سمحت له بالاحتفاظ بالعشر دولارات، وكذا المزرعة، لأني عملت فيها بما يكفيني؛ أو بالأحرى، ولأكون كريماً، بعت له المزرعة بثمن يساوي ما منحته مقابلها، ولأنه لم يكن رجلاً غنياً، وهبته عشرة دولارات على سبيل الهدية، و لم أزل أمتلك عشرة سنتات وبذوراً وأدوات متبقية لصنع عربة يد. وهكذا ألفيت أني كنت رجلاً غنياً بدون أي ضرر ينال من فقري. ولكني واصلت استغلال قطعة الأرض، ونقلت منذ حينها كل غلتها سنوياً بدون عربة يد. وفيما يتعلق بقطع الأرض،

"أنا مَلِك على كل ما أمسحه،

ولا جدال في حقي فيه".[1]

كثيراً ما رأيت شاعراً ينسحب بعد أن استمتع بأثمن جزء في المزرعة بينما افترض المزارع الفظ أنه لم ينل إلا بعض التفاح البري. ياه، لا يَعلم المالك لمدة سنوات عديدة أن الشاعر

1 – كلمات ويليام كوبر: (1731 – 1800) شاعر ومؤلف تراتيل إنجليزي. من قصيدة "عزلة ألكسندر سيلكيرك". كتب ثورو كلمة "أمسحه" مائلة كي يشدد عليها لأنه عمل ماسحاً للأراضي.

عندما يضع مزرعته في قصيدة مقفاة – أكثر الأسياج المخفية روعة – يحتفظ بها لنفسه، يحلبها، يزيل قشدتها ليحصل على كل القشدة ويترك المزارع اللبن المقشود.

ألفيت مواضع الجاذبية الحقيقية في مزرعة هالوويل كما يلي: انعزالها التام، إذ تَبعد عن القرية حوالي ميلين، نصف ميل عن أقرب جار، ويفصلها حقل عريض عن الطريق العام؛ أطلت على النهر، وقد قال المالك إن ضبابه حمى المنزل من صقيع الربيع وإن لم أجده شيئاً ذا بال؛ نزل لون رمادي وحالة متهدمة بالمنزل ومخزن الحبوب، خلقت أسياج متداعية فاصلاً بيني وبين الساكن الأخير؛ أشجار تفاح مجوَّفة مغطاة بطحالب الأشنة، يقرضها الأرانب، دالة على طبيعة جيراني؛ ولكن فوق كل شيء، ذكرى راودتني من رحلاتي السابقة أعلى النهر عندما توارى المنزل خلف بستان كثيف من التفاح الأحمر، ومنه تناهى إليّ نباح كلب المنزل. تعجلت شراءه قبل أن يَفرغ المالك من إخراج بعض الأحجار وقَطع أشجار التفاح المجوفة واستئصال بعض أشجار البتولا الصغيرة النابتة في المرعى، أو باختصار قبل أن ينجز المزيد من تحسيناته. ولكي أنعم بهذه المزايا كنت مستعداً أن أواصل؛ مثل أطلس – نصف الإله – حاملاً العالَم على كتفيّ – لم أَعلم قط ما تلقَّاه من تعويض في مقابل ذلك – أُنجز كل هذه الأشياء من غير دافع أو مبرر عدا دفعي مقابلها دون أن يضايقني أحد في امتلاكي إياها؛ فقد علمت طيلة الوقت أن الأرض ستنتج أوفر المحاصيل المرغوب فيها إن تمكنت فقط من تركها وشأنها. ولكن الأمر انتهى إلى ما ذكرته من قبل.

كل ما وسعني أن أقوله إذن فيما يتعلق بالزراعة على نطاق واسع – كنت أزرع دوماً حديقتي – إن بذوري كانت جاهزة. يعتقد الكثيرون أن البذور تتحسن بالعمر. ولا شك يخامرني أن الوقت يميز البذور الجيدة عن الرديئة؛ وعندما أزرع في النهاية، ليس من المحتمل أن يلم بي الإحباط. ولكني سأقول لرفقائي في نهاية المطاف، عش حراً دون ارتباطات بقدر الإمكان. ولا فرق بين أن ترتبط بمزرعة أو ترتبط بسجن المقاطعة.

يقول السياسي الروماني ماركوس بوركيوس كاتو – كان كتابه "عن حياة الريف" بمثابة جريدة "الحارث" بالنسبة إليّ، والترجمة الوحيدة التي رأيتها تحيل الفقرة إلى مجرد كلام فارغ – "عندما تُفكر في شراء مزرعة، تدبّر المسألة إذن في عقلك، لا تشتري شراء الطماع؛ ولا توفر جهداً في التطلع إليها، ولا تعتقد أن التجول فيها ذات مرة كاف. كلما مضيت إليها، كلما بثت فيك السعادة إن كانت جيدة". أعتقد أني لن أتصرف تصرفاتَ الطماع عند الشراء،

وإنما سأقصدها طالما حييت، وسوف أندفن أولاً في ترابها كي أجد السعادة في النهاية.

كان تجربتي الحالية هي التجربة الثانية من هذا النوع، أعتزم وصفها بالتفصيل، سوف أختصر من أجل سهولة التناول ليس إلا تجربة سنتين في سنة واحدة. وكما قلت من قبل، لا نية لديّ أن أؤلف قصيدة غنائية تحتفي بالتعاسة، وإنما أن أتفاخر كل التفاخر كما الديك الواقف على مجثمه صباحاً، ما لهدف إلا إيقاظ جيراني.

عندما شغلت مسكني في الغابة في أول الأمر، أي طفقت أقضي الليالي وكذا الأنهُر هناك – اتفق أن كان يوم عيد الاستقلال، 4 يوليو 1845 – لم يكن منزلي جاهزاً لاستقبال الشتاء، وإنما مجرد حصن ضد المطر، بدون طبقات من الجص أو مدخنة. كانت الجدران عبارة عن ألواح خشبية خشنة تتلطخ بالبقع بفعل العوامل الجوية، طالتها شقوق عريضة بعثت البرودة ليلاً. أضفى الخشب الأبيض العمودي والباب المسحوج حديثاً وإطارات النوافذ على المنزل مظهراً نظيفاً لا تَنقصه البهجة، وبخاصة في الصباح عندما يتشبع الخشب بالندى، وعليه تخيلته سيفرز صمغاً حلواً بحلول الظهيرة. احتفظتُ في مخيلتي طيلة النهار بتلك الصفة الخليقة بالفجر، فذكّرتني بمنزل على أحد الجبال زرته منذ سنة خلت. كانت كابينة طلقة الهواء عارية من الجص، ملائمة لاستضافة إله من آلهة الترحال، وفيه قد تجرجر إلهة ملابسها. لم تقلل الرياح الهابة فوق منزلي من اكتساحها فوق قمم الجبال، حاملة الألحان الناقصة أو المقاطع السماوية ليس إلا من الموسيقى الأرضية. لا تمتنع رياح الصباح عن الهبوب، قصيدة الخلق لا يعترضها معترض؛ ولكن ثمة القليل من الآذان مرهفة السمع. وما جبل الأوليمب[1] إلا مظهر الأرض الخارجي في كل مكان.

امتلكت في الماضي منزلاً واحداً – لو استثنيت قارباً – وكان خيمة. استخدمتها من الحين إلى الآخر أثناء التنزه صيفاً، ولا تزال ملفوفة في العلية؛ ولكن القارب غاب في تيار الزمن بعد التنقل من يد إلى أخرى. وبهذا الملجأ المتين حولي تقدمت بعض الشيء نحو الاستقرار في العالَم. كان هذا الإطار – المغطى قليلاً – نوعاً من التبلور حولي، وقد أثّر على الباني. كان مثيراً للذكريات شأنه شأن لوحة من الخطوط السوداء خالية من التظليل. ما احتجت إلى الخروج في الهواء الطلق حتى أستنشق الهواء لأن الجو داخل المنزل لم يفقد أي نقاء. لم أجلس بين الأبواب بقدر ما جلست خلف باب، حتى في الجو المطير. تقول الهاريفامسا[2]،

1 – جبل الأوليمب: بيت الآلهة في الميثولوجيا الاغريقية.

2– الهاريفامسا: قصيدة ملحمية هندوسية كتبت في القرن الخامس.

"مسكنٌ بدون طيور أشبه بلحم بدون توابل". لم يكن هذا المنزل منزلي لأني وجدت نفسي فجأة جاراً للطيور؛ لا لأني سجنت طيراً، ولكن لأني حبست نفسي بالقرب من الطيور. لم أكن قريباً فحسب من طيور ترتاد في العادة الحديقة والبستان، وإنما قريب من طيور مغردة أصغر وأكثر إمتاعاً في الغابة، طيور لا تعزف أبداً – أو في النادر – للقروي، طائر السُّمْنَة، الدُّج، التّناجر القرمزي، عصفور الحقل، السُّبَد، والعديد من الطيور الأخرى.

جلست بحذاء شاطئ بحيرة صغيرة على بعد نحو ميل ونصف جنوب قرية كونكورد، على ارتفاع أعلى منها إلى حد ما، في منتصف غابة واسعة بين تلك البلدة ومدينة لينكون، يقع على بعد نحو ميلين جنوباً ميداننا الوحيد المشهور: أرض معركة كونكورد؛ ولكن منزلي كان منخفضاً في الغابة حتى إن الشاطئ المقابل – على بعد نحو ميل، مثل الشواطئ الأخرى، مغطى بالغابة – كان أقصى آفاقي. في الأسبوع الأول متى أشرفت على البحيرة تولاني الانبهار وكأنها بحيرة جبلية عالية تمتد إلى جانب الجبل، يرتفع قاعها فوق سطح البحيرات الأخرى، وبينما كانت الشمس تشرق، أبصرتها تطرح رداءها الليلي من السديم، وهنا وهناك، بالتدريج، تنقشع للعيان مويجاتها الرقيقة أو سطحها المتدفق العاكس للعيان على حين تَقهقر السديم خلسة كما الأشباح في كل اتجاه ناحية الغابة مثلما يتفرق ليلاً المشاركون في أحد الاجتماعات السرية. تراءى الندى نفسه وكأنما يتعلق فوق الأشجار في وقت متأخر أكثر من المعتاد نهاراً مثلما يتعلق فوق جوانب الجبال.

كانت البحيرة الصغيرة خير جار في خلال فترات هبت فيها عاصفة ممطرة خفيفة في أغسطس عندما سكن الهواء والماء كل السكون، ولكن تلبدت السماء بالغيوم، وران صفاء المساء على منتصف الظهيرة، وغنى السُّمْنَة في كل بقعة ليتناهى غناؤه من الشاطئ إلى الشاطئ. لن تجد أبداً مثل هذه البحيرة أهدأ في هذا الوقت؛ الهواء الصافي فوقها ضحل غامق بفعل السحب، يصبح الهواء المترع بالضوء والانعكاسات فردوساً سفلياً. ومن إحدى قمم التلال القريبة، حيث قُطع الخشب مؤخراً، هناك مشهد جميل يمتع الناظرين ناحية الجنوب عبر البحيرة، تبدى من خلال فجوة عريضة في التلال شكلت الشاطئ، وهناك أوحى جانباها المقابلان المنحدران نحو بعضهما البعض بجدول يسيل في ذلك الاتجاه عبر وادي عامر بالأشجار، ولكن المكان هناك خلا من أي جداول. رميت بصري في ذلك الاتجاه بين التلال الخضراء القريبة، وفوقها صوب تلال بعيدة أعلى في الأفق، تصطبغ بلون أزرق. الحق أني وسعني بعد أن وقفت على أطراف أصابعي أن ألمح بعض قمم سلاسل

الجبال في الشمال الغربي، جبال أبعد لم تزل أكثر زرقة، تلك العملات الزرقاء العصية على البهت من دار سك العملة بالفردوس، ولمحت أيضاً جزءاً من القرية. ولكنني لم أستطع في اتجاهات أخرى أن أبصر حتى من هذه النقطة ما فوق الغابة المحيقة بي أو ما وراءها. من الأفضل لك أن تمتلك بعض المياه في حيك كي تطفو فوق سطح الأرض. بل إن هناك فائدة للبئر الصغير، حين ترنو إليه، تبصر الأرض وكأنها ليست قارة، وإنما جزيرة. إنه أمر غاية في الأهمية لأنه يحتفظ بالقشدة باردة. عندما أشرفت عبر البحيرة من هذه القمة إلى مروج صادبيري، لاحظت أنها مرتفعة في وقت الفضيان، ربما بفعل سراب في الوادي المضطرب، مثل عُملة في حوض، بدت كل الأرض وراء البحيرة أشبه بقشرة رفيعة معزولة، بل وطافية بفعل هذه الصفحة الصغيرة من المياه الفاصلة، فتذكرت أني أتأمل أرضاً جافة ليس إلا.

ومع أن المشهد من بابي لم يزل ضيقاً، لم أشعر بالاكتظاظ أو الضيق على الإطلاق. كان هناك مرعى كاف لخيالي. امتد سهل منخفض حافل بشجيرات البلوط ارتفع إليه الشاطئ المقابل، امتد بعيداً نحو براري الغرب وسُهُوب تارتيري ليوفر فراغاً وافراً لعائلات الرجال الجوالة. "لا سعيد في العالم إلا كائنات تستمتع بأفق فسيح بحرية،" هكذا قال دامودارا[1] حين احتاجت قطعانه مراعي جديدة أرحب.

تغير كل من المكان والزمان، وقد أعملت عقلي مقترباً من تلك المناطق من العالم وتلك العصور التاريخية التي شدت انتباهي. لقد عشت في مكان بعيد بعد العديد من المناطق التي يرصدها الفلكيون ليلاً. ننزع إلى تخيل أماكن نادرة مبهجة في ركن نائي سماوي من الكون خلف كوكبة ذات الكرسي بعيداً عن الضوضاء والإزعاج. اكتشفت أن منزلي يحتل حقاً موقعاً منعزلاً – وإنما جديد دوماً لا يمسه دنس – من الكون. لو يستحق الأمر أن يستقر المرء في تلك المناطق بجانب نجوم الثريا أو القلائص، نجم الثور أو النسر الطائر، فقد كنت هناك إذن بحق أو على بعد مماثل من حياة خلفتها ورائي، تتضاءل وتومض بشعاع دقيق موجّه إلى أقرب جيراني، لا يراه إلا في ليالٍ عارية من القمر. لقد شغلت ذلك الجزء من الكون؛

"كان هناك راعياً عاش حقاً،

وأضمر أفكاره في مثل ارتفاع

جبال أطعمته عليها

1– دامودارا: اسم آخر للإله الهندوسي كريشنا.

قطعانه كل ساعة".

كيف ينبغي أن نظن في حياة الراعي لو هامت قطعانه دوماً إلى مراع أعلى من أفكاره؟

كان كل صباح دعوة بهيجة لجعل حياتي تتحلى بسهولة مماثلة لسهولة – وقد أقول براءة – الطبيعة ذاتها. لقد كنت عابداً مخلصاً للشفق القطبي مثلي مثل الإغريق. نهضت مبكراً واستحممت في البحيرة؛ كانت ممارسة روحية وواحدة من أجمل ما قمت بها. يقولون إن هناك كلمات محفورة على حوض الاستحمام الخاص بالملك تشينج–ثانج بهذا المعنى: "جدِّد نفسك كلية كل يوم؛ جدِّدها مرة أخرى، وأخرى، جدِّدها إلى الأبد". بمقدوري أن أستوعب تلك الفكرة. فالصباح يعيد العصور البطولية. كنت متأثراً بلسعة خفيفة من ناموسة تَقوم بجولة متخفية غير متخيَّلة في شقتي في اللحظات المبكرة من الفجر، حين كنت أبحر بباب مفتوح ونوافذ مفتوحة، خامرني التأثر نفسه بفعل أي بوق غنى في أي وقت من الأوقات طلباً للشهرة. كانت ترتيلة هومر لإراحة الموتى؛ هي نفسها إلياذة وأوديسة في الهواء، تغني حنقها وتجوالها. داخَله شيء كوني؛ إعلانٌ مستديم – إلى أن تم حظره – عن قوة العالم الدائمة وخصوبته. إن الصباح – أبرز فترات اليوم – هو ساعة اليقظة. نشعر بأقل نعاس؛ يصحو جزء منا لمدة ساعة على الأقل، وبعدها ينام كل بقية النهار والليل. لا يمْكن إلا توقع القليل في ذلك النهار، لو يمْكن تسميته نهاراً، فيه لا يوقظنا نبوغنا، وإنما وكْز آلي من خادم، لا توقظنا قوة اكتسبناها حديثاً وطموحات باطنية، ترافقها مويجات من الموسيقى السماوية بدلاً من أجراس المصانع وعبير يملأ الهواء، نمضي إلى حياة أسمى من حياتنا قبل النوم؛ وعليه يَحمل الظلام ثمرته ويبرهن على صلاحه، بما لا يقل عن الضوء. مَن لا يصدق أن كل يوم يحوي ساعة مبكرة في الفجر أكثر قداسة من ساعات لوثها من قبل، يئس من الحياة، وبات يسلك سبيلاً هابطاً تعمه الظلمة. تنشط روح الإنسان أو بالأحرى أعضاؤه كل يوم مجدداً بعد توقف جزئي عن حياته الحسية، ويجرب نبوغه مرة أخرى حياة نبيلة بمقدوره أن يصنعها. ينبغي أن أذكر أن كل الأحداث المشهودة تقع وقت الصباح أو في جو خليق بالصباح. تقول الفيدا، كتب الهندوس الدينية، إن "كل ذكاء يصحو في الصباح". يعود الشعر والفن الجديران بذاكرة البشر إلى تلك الساعة. إن كل الشعراء والأبطال مثل ممنون[1] هم أبناء الفجر، يرسلون موسيقاهم إلى شروق الشمس. مَن يجاري فكرُه المرن

1– ممنون: تمثال في مصر القديمة يقال إنه يرسل الموسيقى فجراً.

النشيط الشمس سوف يجد يومه كله صباحاً لا ينقطع. لا يهم ما تعلنه الساعات أو مواقف الرجال وأعمالهم. يهل الصباح حين أستيقظ وبداخلي فجر. والإصلاح المعنوي ما هو إلا مسعى للتخلص من النوم. لماذا يفشل الرجال في يومهم إن لم يناموا؟ ليسوا محاسبين فاشلين. لو لم يغلبهم النعاس، لحققوا شيئاً. إن الملايين أيقاظ بما يكفي لإنجاز الأعمال الجسدية؛ ولكن واحداً فقط من بين مليون شخص يقظ بما يكفي لبذل جهد فكري فعال، واحد فقط من بين مئة مليون للأخذ بأسباب حياة شعرية إلهية. أن تكون يقظاً هو أن تكون حياً. ما قابلت قط بعد رجلاً يقظاً كل اليقظة. كيف يسعني أن أتطلع إلى وجهه؟

يجب أن نتعلم أن نستيقظ من جديد ونبقي أنفسنا مستيقظين، لا بمساعدة ميكانيكية، ولكن بتوقع مطلق للفجر، فجر لا ينبذنا في نومنا العميق. لا أعلم حقيقة مشجِّعة أكثر من قدرة الإنسان – قدرة لا يرقى إليها الشك – على تطوير حياته بسعيه الواعي. لا ريب في أهمية قدرة الإنسان على رسم لوحة معينة أو نحت تمثال، وعليه إضفاء الجمال على عدة أشياء؛ ولكن روعة أي روعة تتجلى عند نحت الجو ذاته ورسمه، وكذا بيئة نتطلع إليها، وهو ما يسعنا معنوياً أن نفعله. إن التأثير على نوعية اليوم لهو أسمى أنواع الفن. لدى كل شخص مهمة، ألا وهي جعل حياته – حتى في تفاصيلها – تستحق تأمل ساعته الرفيعة الحاسمة. ولو رفضنا، أو بالأحرى استهلكنا، مثل هذه المعلومات التافهة، سوف ينهي إلينا الوحي برسائل واضحة كيف نتصرف.

قصدت الغابة لأني رغبت في الحياة بترو وتعمد، رغبت ألا أجابه إلا حقائق الحياة الجوهرية، رغبت أن أتبين إن كان باستطاعتي أن أتعلم ما لديها لتُعلِّمه، وألا أكتشف – حين أشرف على الموت – أني لم أعش حياتي. لم أرغب في الآخذ بأسباب حياة ليست بالحياة، فالحياة عزيزة غالية؛ لم أرغب في الإذعان ما لم يكن ضرورياً ملحاً. أردت أن أعيش حياة عميقة أمص فيها لب الحياة كله، أعيش بثبات جدير بأبناء إسبارطة هازماً كل ما هو ليس بحياة، أجذب إليّ الانتباه وأنجو بأعجوبة، أدفع الحياة إلى ركن لأحولها إلى أبسط معانيها، ولو اتضح أنها وضيعة، فلننل إذن وضاعتها الكاملة الحقيقية وننشرها أمام العالم؛ أو لو ألفيتها مهيبة، تيقنت منها بالتجربة واستطعت أن أصفها وصفاً دقيقاً في رحلتي التالية. يبدو لي أن شكاً غريباً في الحياة يستولي على معظم الرجال، إن كانت من الشيطان أو الله، وقد تسرعوا في الاستنتاج أن الغاية الأعظم للإنسان هنا هو "تمجيد الله والاستمتاع به إلى الأبد".

ومع ذلك نحيا حياة دنيئة كما النمل؛ بالرغم من أن الخرافة تحكي لنا أننا تحولنا منذ دهر طويل إلى رجال، نحارب مثل الأقزام طيور الغرنوق؛ إنه خطأ فوق خطأ، ضربة بعد ضربة، وأحسن فضائلنا لا تَعدم بؤساً حتمياً لا ضرورة له. لقد أهدرت التفاصيل حياتنا. لا يكاد أي رجل شريف يحتاج إلى أن يعد ما يربو على أصابعه العشرة، وفي حالات قصوى قد يضيف أصابع قدميه العشرة، ويهمل الباقي. البساطة، البساطة، البساطة! نصيحتي هو أن تتناول شأنين أو ثلاثة، لا مئة أو ألف؛ وبدلاً من مليون أَحْصِ نصف دستة، واجعل حساباتك بقدر ظفر إبهامك. وسط هذا البحر متلاطم الأمواج من الحَياة المتحضرة، تلك السحب والعواصف والرمال المتحركة وألف شيء يجب أخذه بعين الاعتبار، يجب أن يعايشه الإنسان، لو لم ينهار ويهبط إلى القاع دون أن يصل إلى ميناء قط، يُقدِّر موضع السفينة دون الاستعانة بآلات، لا بد أن يَنجح من يُحْسن ولا ريب حساباته. البساطة، البساطة. بدلاً من ثلاث وجبات في اليوم، تناول وجبة واحدة لو من الضروري؛ بدلاً من مئة طبق، خذ خمسة؛ وقلص الحاجيات الأخرى بالمقدار نفسه. تشْبه حياتنا كونفدرالية ألمانية[1]، مؤلَّفة من ولايات صغيرة، تتبدل على الدوام حدودها حتى إن الألماني لا يسعه أن يخبرك بحدودها في أية لحظة. إن الأمة ذاتها – بكل تحسيناتها الداخلية المزعومة، وجميعها خارجية ظاهرية على كل حال – عبارة عن مؤسسة مفرطة في النمو يتعذر التحكم فيها، تكتظ بالأثاث، تتعثر بأشراكها، تفسدها الرفاهية والنفقات الطائشة بسبب افتقارها إلى الرؤية والهدف المستَحق، مثلها مثل مليون أسرة في الأرض؛ والعلاج الوحيد لهم هو اقتصاد صارم، هدف سام وبساطة قاسية في الحياة تفُوق بساطة أبناء إسبارطة. يحيا في منتهى السرعة. يظن الناس أنه من الجوهري أن تدير <الأمة> تجارة ما، تستورد الثلج، يتحادث أفرادها من خلال التلغراف، ترتحل ثلاثين ميلاً في الساعة، من غير شك، سواء يفعلون ذلك أم لا؛ ولكن سواء ينبغي أن نعيش مثل القرود أو البشر، فهو أمر مشكوك فيه. إن لم نُخْرج العوارض الخشبية ونطرق القضبان ونكرس أيامنا ولياليها للعمل، وإنما ننهمك في حيواتنا لتحسينها، مَن سيشيِّد السكة الحديد؟ ولو لم نشيِّد السكة الحديد، كيف سنمضي إلى الفردوس في الأوان المناسب؟ ولكن لو مكثنا في البيوت وانشغلنا بأحوالنا، من سيرغب في السكة الحديد؟ إننا لا نَركب السكة الحديد، بالأحرى تَركبنا السكة الحديد. هل تفكرتَ أبداً في هذه القضبان المشكّلة لأساس السكة الحديد؟ إن كل قضيب ما هو إلا رَجل، أيرلندي أو أحد أبناء نيو إنجلاند. يضعون عليهم السكة الحديد،

1– كونفدرالية ألمانية: مجموعة من الدول الأوروبية، 1815 – 1866.

تغطيهم الرمال، وتجري العربات فوقهم بسلالة. إنهم نائمون نوماً عميقاً على ما أخال. وكل بضع سنوات يتمدد حشد جديد لتدهسه السكة الحديد؛ وعليه، لو تمتع البعض بلذة ركوب القطار، كان الدهس من سوء حظ آخرين. وحينما يدهسون رجلاً يسير في نومه – نائماً آخر في الوضع الخاطئ – ويوقظونه، يوقفون فجأة العربات ويثيرون احتجاجاً شعبياً على الحادث وكأنه استثناء. يسعدني أن أعلم أن إبقاء النائمين راقدين مسطحين في أسرّتهم يتطلب عصابة من الرجال لكل خمسة أميال لأنها علامة على أنهم قد يستيقظون أحياناً مرة أخرى.

لم ينبغي أن نعيش مع هذا الاستعجال وإهدار الحياة؟ إننا عاقدون العزم على الموت جوعاً قبل أن نجوع. يقول الناس إن الغرزة في الوقت الملائم توفر تسع غرز، وهكذا يخيطون ألف غرزة اليوم ليوفروا تسع غرز غداً. أمّا العمل، فنحن لا نعمل عملاً ذا بال. إننا مصابون بمرض الرُّقاص، ونعجز تماماً عن تثبيت رؤوسنا. لو سأجذب حبل جرس الأبرشية عدة مرات، منذراً بحريق، بدون أن أثبّت الجرس، لا يوجد رجل في مزرعته بضواحي كونكورد – بالرغم من ضغوط ارتباطاته، وهو ما كان عذره عدة مرات هذا الصباح – وقد أقول أيضاً: ولا يوجد صبي ولا امرأة، لن يهجر كل شيء ليتتبع ذلك الصوت، لا لينقذوا ملكية أحدهم من ألسنة النار، وإنما، لو اعترفنا بالحقيقة، ليروها تحترق بما أن احتراقها لا شك فيه، ولا بد أن نُعلِم الجميع أننا لم نشعل الحريق أو نراقب النار وهي تنطفئ أو نشارك في العملية لو تمت ببراعة؛ أجل، حتى لو كانت كنيسة الأبرشية ذاتها. قلما يأخذ الرجل قيلولة لمدة نصف ساعة بعد العشاء، ولكنه حين يستيقظ، يمسك رأسه سائلاً، "ما الأخبار؟" وكأن بقية البشر يحرسونه. يعطي البعض تعليمات بإيقاظه كل نصف ساعة لا لغرض آخر في أغلب الظن؛ وبعدها، يدفعون الثمن، يسردون أحلامهم. تصبح الأخبار بعد ليلة من النوم لا غنى عنها كما الإفطار. "أرجوك قل لي أي شيء جديد جرى لأي رجل في أي مكان من هذا الكون،" يطالع الأخبار مع قهوته وخبزه، ثم اقتلاع عينيّ رجل في هذا الصباح بنهر واتشيتو؛ لا يحلم أبداً أثناء نومه أنه يعيش في كهف عملاق مظلم لا سبيل إلى سبر غوره من هذا العالم، وهو نفسه لا يملك إلا بقايا عين.

بوسعي أن أستغني بسهولة عن مكتب البريد. أعتقد أن أقل القليل من الاتصالات المهمة تجري من خلاله. ولتوخي دقة النقد، لم أتلق قط في حياتي أكثر من جواب أو اثنين – كتبت هذه الكلمات منذ بضع سنوات – و لم يستحقا ثمن طوابع البريد. إن مكاتب البريد التي

ترسل خطاباً مقابل بنس ما هي في المعتاد إلا مؤسسة من خلالها تُقَدِّم جاداً ذلك البنس إلى رجل مقابل أفكاره، أفكار يُقدِّمها في الغالب مازحاً دون ضرر. إنني على ثقة أني لم أقرأ أية أخبار ذات قيمة في أية جريدة. لو قرأنا أن رجلاً تعرض للسرقة أو الاغتيال أو القتل في حادثة، أو قرأنا أن منزلاً احترق أو سفينة تحطمت، أو باخرة تفجرت، أو بقرة دهستها سكة الحديد الغربية، أو قُتل كلب مسعور، أو غزت الجنادب قطعة أرض في الشتاء، لن نحتاج إلى القراءة عن شيء آخر. شيء واحد يكفي. لو أنك تلم بالمبدأ، لَم تكترث لآلاف الأمثلة والتطبيقات؟ يجد الفيلسوف كل الأخبار – مثلما يُطلَق عليها – ثرثرة، ومَن يحررونها ويطالعونها ما هم إلا عجائز يشربن القهوة. ومع ذلك يتوق الكثيرون إلى هذه الثرثرة. سمعت أن اندفاعاً حدَث في اليوم الماضي عند أحد المكاتب لمعرفة الأخبار الأجنبية من الوافد الأخير، وأن قطعاً كبيرة من البلور التابع للمؤسسة تكسر من جراء التدافع – أخبار أعتقد جاداً أن ذكياً سريع البديهة ربما كتبها منذ اثنى عشر شهراً أو اثنى عشر عاماً بدقة كافية. أما بالنسبة إلى إسبانيا على سبيل المثال، لو علِمت كيف تضيف من حين لآخر دون كارلوس المطالب بالعرش وابنة ملك أسبانيا ودون بيدرو وميناء سيفيل وغرناطة بالنسَب المضبوطة – علهم غيَّروا الأسماء قليلاً منذ كنت أقرأ الجرائد – وتُقَدِّم عراكاً عنيفاً حين تفشل التسالي الأخرى، سوف يصح الخبر حرفياً وسيوفر لنا فكرة جيدة عن الحالة الدقيقة أو سبب دمار الأوضاع في أسبانيا مثل أبلغ التقارير وأوضحها أسفل هذا العنوان في الجرائد: أمّا بالنسبة إلى إنجلترا، فقد كان آخر نبذة مهمة من الأخبار من تلك الجهة هي تقريباً ثورة 1649؛ ولو فطنت إلى تاريخ محاصيلها لمدة نحو عام، لن تحتاج قط إلى الاهتمام بتلك الأخبار مرة أخرى ما لم تتسم تخميناتك بطبيعة مالية بحتة. لو أذان المرء مَن يقرأ الجرائد في النادر، لا يقع شيء جديد قط في المناطق الأجنبية، فليس من المتوقع أن تنشب ثورة فرنسية.

أي أخبار! من الأهم بمكان أن يعي المرء ما لن يصير قديماً البتة! "أرسل كياو–هي–يو[1] (صاحب مقام رفيع في دولة سلالة واي الصينية) رجلاً إلى كونغ تسي – كونفوشيوس – كي يقف على أخباره. حمل كونغ تسي الرسول على الجلوس بالقرب منه، وسأله مستخدماً هذه الكلمات: ماذا يفعل سيدك؟ أجاب الرسول بهجة تشي بالاحترام: يرغب سيدي أن يقلل عدد أخطائه، ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى نهايتها. غاب الرسول ثم جاهر الفيلسوف: يا له من رسول كفؤ! يا له من رسول كفؤ!" وبدلاً من أن يزعج الكاهن آذان الفلاحين النعسانين

1– كياو–هي–يو: شخصية في أحد كتب كونفوشيوس.

خلال يوم راحتهم في نهاية الأسبوع – لأن الأحد هو الخاتمة اللائقة بأسبوع مُهْدَر، وليس بداية رائعة مفعمة بالنشاط لأسبوع جديد – بهذه العظة المهلهَلة، ينبغي أن يصرخ بهم كالرعد، "توقفوا! كفوا! لم تبدون متعجلين، ولكنكم بطيئون بطء الموتى؟"

يُقدِّر الناس الخدع والأوهام باعتبارها حقائق مضبوطة بينما يعتبرون الواقع خرافة. لو تقيَّد الناس بالحقائق لا غير دون السماح لأنفسهم بالانخداع، سوف تصبح الحياة – عند مقارنتها بأشياء أخرى نعهدها – أشبه بحكايات الجن وألف ليلة وليلة. لو لم نحترم إلا المحتوم وما له الحق في الوجود، سوف يتردد في الشوارع صدى الموسيقى والشعر. حين لا نتعجل الأمور ونتحلى بالحكمة، نعي أن الأشياء العظيمة القيِّمة هي المتسمة فقط بوجود دائم مطلق، وأن المخاوف الصغيرة والمتع التافهة ما هي إلا ظل للواقع. إنه دوماً أمر مبهج مهيب. عندما يغلق الناس أعينهم وينامون ويَقْبلون الانخداع بالمظاهر، يرسخون حياة يومية من الروتين والعادة ويؤكدونها في كل بقعة، حياة لا تزال مبنية على أسس وهمية تماماً. يدرك الأطفال اللاهون في الحياة قانونها وعلاقاتها الحقيقية إدراكاً أوضح من الفاشلين في الأخذ بأسبابها على نحو كفء، ولكنهم يظنون أنهم أكثر حكمة بالتجربة، أي، بالفشل. قرأت في أحد الكتب الهندوسية أن "ابناً لأحد الملوك طُرِد طفلاً من مسقط رأسه، وبعدها تربى على يد حرَّاج وكبر حتى النضج في ذلك الوضع، تخيل نفسه منتمياً إلى سلالة همجية عاش معها. اكتشفه أحد وزراء أبيه وكشف له عن هويته فانحسر عن شخصه الاعتقاد الخاطئ، وفطن إلى أنه أمير. يردف الفيلسوف الهندوسي، "تسيء الروح إذن تحت وطأة الظروف فهم شخصيتها إلى أن تنكشف لها الحقيقة على يد مُعلِّم تقي، وبعدها تَعرف نفسها بوصفها براما[1]". أدرك أننا سكان نيو إنجلاند نعيش هذه الحياة الوضيعة لأن بصرنا لا ينفذ إلى سطح الأشياء. نظن أن الشيء هو ما يبدو عليه. لو سار رجل في هذه البلدة و لم ير إلا الواقع، أين سيذهب في ظنك سد الطاحونة؟ لو سيمنحنا وصفاً لحقائق يلاحظها هناك، لن نتعرف على المكان الموصوف. انظر إلى مُصَلَّى أو محكمة أو سجن أو متجر أو مسكن، وقل حقاً ما هو هذا المكان وأنت تحَدق إليه بالفعل، وسوف تتهشم كلها تهشماً أثناء وصفك إياها. يحسب الناس الحقيقة بعيدة، في ضواحي الكون، خلف النجم القصي، قبل آدم وبعد الإنسان الأخير. ثمة شيء صادق ومهيب فعلاً يساور الخلود. ولكن كل هذه الفترات والأماكن والمناسبات موجودة في الوقت الحالي. يَبلغ الله نفسه الأَوْج في الحاضر، ولن يصبح أكثر

1– براهما: الذات العليا، إله الخلق عند الهندوس.

قداسة مع انقضاء كل العصور. لا نستطيع أن نستوعب أبداً ما هو الجليل والنبيل إلا من خلال الغرس الدائم لواقعنا المحيط والتشبع به. ينطبق العالم دوماً بكل طاعة على أفكارنا؛ سواء ارتحلنا سريعاً أو بطيئاً، فالطريق ممهد أمامنا. فلنقض حياتنا في التخيل إذن. لم يكن لدى الشاعر أو الفنان مطلقاً هدفاً رائعاً نبيلاً لم يستطع أن يحققه بعض أفراد ذريته على الأقل.

فلنقض يوماً واحداً بمثل تروي الطبيعة دون أن نرتمي بعيداً عن خط السكة الحديد بفعل كل قشرة جوزة أو جناح ناموسة تقع على القضبان. فلنستيقظ مبكراً وسريعاً أو نصوم، برقة وبدون تشوش؛ فلندع الصحبة تأتي، ولندع الصحبة تذهب، فلندع الأجراس تدق والأطفال يبكون، فلنصر على الاستمتاع باليوم بأكمله. لم ينبغي أن ننهار ونندفع مع التيار؟ لا ينبغي أن ننزعج ونرتبك وسط تلك الدوامة الرهيبة المتسارعة المسماة بوجبة العشاء. انج من هذا الخطر لتنعم بالأمان لأن بقية الطريق يهبط نحو سفح التل. وبأعصاب لا تعرف الوهن، بنشاط الصباح، أبحر في المياه وعيناك في اتجاه آخر، مربوطاً في الصاري مثلك مثل البطل عوليس. لو أصدر المحرك صفيراً، دعه يصفر حتى يصير أجش مكافأةً له. لو رن الجرس، لم ينبغي أن نجري؟ سوف نتدبر نوعية الموسيقى. فلنستقر، نعمل ونقحم أقدامنا في طين الرأي وثلجه، والتحامل، والتقليد، والوهم، والمظهر، ذلك الطمي المغطي للكرة الأرضية، عبر باريس ولندن، عبر نيويورك وبوسطن وكونكورد، عبر الكنيسة والدولة، عبر الشعر والفلسفة والدين، إلى أن نصل إلى القاع والأحجار الصلبة في المكان السليم، وهو ما نسميه 'الحقيقة'، ونقول إنها الحقيقة ولا شك؛ وبعد ذاك نبدأ، نحوز نقطة ارتكاز، أسفل الطوفان والصقيع والنيران، مكاناً قد تشيّد فيه حائطاً أو ولاية، أو تضع أعمدة النور في أمان، أو ربما معياراً، لا عدّاداً للأمتار، ولكن عدّاد الواقع كي تُعَلِّم أجيال المستقبل مدى عمق طوفان الخدع والمظاهر المتراكم من وقت لآخر. لو تقف مستقيماً تجابه إحدى الحقائق، سوف تبصر وميض الشمس على سطحيها الاثنين وكأنها سيف من سيوف العرب، تشعر بحده الحلو يقسم قلبك ومخ عظمك، وهكذا ستنهي مسيرتك عن طيب خاطر باعتبارك فانياً. فلتكن حياة أو موتاً، إننا لا نتوق إلا إلى الواقع. لو أننا نموت حقاً، فلنسمع الخشخشة في حلوقنا ونشعر بالبرودة في أطرافنا؛ لو أننا أحياء، فلننهمك في أشغالنا.

ما الوقت إلا تيار أصطاد فيه. أشرب عنده، ولكن أبصر القاع الرملي وأتبين ضحالته أثناء الشرب. ينزلق تياره الرقيق بعيداً، ولكن يلبث الخلود. سوف أشرب شرباً أعمق؛ أصطاد في السماء، فقاعها مفروش بالنجوم. لا يسعني أن أعد أحدهما. لا أعلم أول حرف من حروف

الأبجدية. كنت أندم دائماً لأني لست حكيماً حكمة ولدت بها. العقل ساطور؛ يعي طريقه ويشقه في سر الأشياء. لا أروم أن أشتغل بيديّ دون ضرورة. يتألف عقلي من يدين وقدمين. أشعر بخير قدراتي مركّزة كلها فيه. تخبرني غريزتي بأن عقلي عضو لحفر الجحور، مثلما تستخدم بعض الكائنات خطمها وبراثنها الأمامية، وبه سوف أنقب وأحفر طريقي عبر هذه التلال. أعتقد أن أغنى عروق المعادن تقع في أحد الأماكن القريبة؛ وهكذا أصدر حكمي مستعيناً بعصا التنبؤ والأبخرة الهزيلة المتصاعدة؛ وهنا سوف أبدأ التعدين.

3 – القـراءة

قد يغدو كل الناس طُلاب ومشْرفين بالقليل من التروي الإضافي في اختيار مساعيهم لأن طبائعهم وأقدارهم ستثير بالتأكيد اهتمام الجميع على حد سواء. حين نجمع الملكيات لأنفسنا أو ذريتنا، حين نؤسس أسرة أو منزلة رفيعة، بل وحين ننال الشهرة، لا نَعدم الفناء؛ ولكن حين نتعامل مع الحقيقة، نحن خالدون، ولا حاجة بنا إلى الخوف من التغيير أو الحوادث. لقد رفَع أقدم فيلسوف مصري أو هندوسي أحد أركان الحجاب عن تمثال الإلوهية؛ ولا يزال الرداء المرتجف مرفوعاً، أحملق إلى مجد في مثل نضارة ما حملق إليه من مجد بما أني – الجسور وقتها – قبعت داخله، وكان هو في داخلي، يستعرض الآن الرؤية. لم يستقر غبار على ذلك الرداء؛ لم ينقضِ وقت منذ انكشفت تلك الإلوهية. إن ذلك الوقت الذي نحسّنه بحق أو القابل للتحسينَ ليس ماضياً ولا حاضراً ولا مستقبلاً.

آثرت مسكني على الجامعة، لا للتفكير فقط، بل وللقراءة الجادة؛ وبالرغم من أني كنت خارج نطاق مكتبة الاستعارة، خضعت أكثر مما مضى لتأثير كتب منتشرة حول العالم، كُتبت

عباراتها لأول مرة على لحاء الأشجار، والآن تنطبع على ورق بين الفينة والأخرى ليس إلا. يقول مير قمر الدين[1]، "بالرغم من جلوسك، تركض عبر منطقة العالَم الروحي؛ فقد نلت تلك الميزة عن طريق الكتب. تسكر بكأس واحدة من النبيذ؛ تولتني تلك المتعة حين شربت خمر عقائد لا يدركها إلا القليلون". احتفظت بإلياذة هومر[2] على المائدة طيلة الصيف وإن لم ألق نظرة على صفحاتها إلا بين الحين والآخر. كان من المستحيل أن أنجز المزيد من الدراسة مع العمل المتواصل بيديّ في البداية، إذ كان يجب أن أنتهي من بناء منزلي وفي الوقت نفسه عزق الأرض لزراعة الفاصوليا. ولكني تحاملت لاحتمالية إتمام هذه القراءة في المستقبل. طالعت بين المهمة والأخرى كتاباً أو اثنين سطحيين عن السفر إلى أن بث فيّ ذلك العمل الخجل من نفسي، وسألت نفسي أين عشت من قبل.

قد يقرأ الطالب هومر أو إسخيلوس[3] باليونانية بدون خطر الإسراف أو الترف. فالقراءة توحي بأنه يحاكي أبطالهما بعض المحاكاة أو يكرس ساعات الصباح لصفحاتهما. سوف تكون الكتب العظيمة، حتى لو كانت مكتوبة بحروف لغتنا الأم، مكتوبة دوماً بلغة ميتة بالنسبة إلى العصور المتفسخة؛ ويجب أن نسعى جاهدين إلى معنى كل كلمة وكل جملة، نحدس معنى أكبر مما يسمح به الاستخدام الشائع عما لدينا من حكمة وشجاعة وكرم. لم تسهم المطبعة الحديثة الرخيصة وافرة الإنتاج - بكل تراجمها - كثيراً في تقريبنا من كتاب عظماء عاشوا في العصور القديمة. يبدون متفردين، والمعرفة التي طبعوها نادرة لا يَنقصها الفضول. سوف يستحق تعلمُ عدة كلمات ليس إلا من لغة عتيقة إنفاقَ أيام الشباب والساعات النفيسة، كلمات تتعالى عن تفاهة الشارع لتصير اقتراحات وأفكاراً محرِّضة أبدية. ليس من العبث أن يتذكر الفلاح ويكرر عدة كلمات لاتينية سمعها. يتحدث الناس أحياناً وكأن دراسة الكلاسيكيات سوف تفسح المجال أخيراً لدراسات أكثر عصرية وعملية؛ ولكن الطالب المغامر سوف يدرس دوماً الكلاسيكيات أياً كانت لغتها ومهما بلغ عتقها. فما هي الكلاسيكيات إلا أنبل أفكار الإنسان المسجَّلة. إنها الوحي الوحيد غير الفاسد، تحوي إجابات على معظم التساؤلات العصرية، إجابات لم يمنحها قط مهبطا الوحي، دلفي ودودونا[4]. قد نهمل أيضاً دراسة الطبيعة لأنها عتيقة. إن القراءة الجيدة - أي قراءة الكتب

1- مير قمر الدين: شاعر فارسي في القرن الثامن عشر.

2- هومر: شاعر ملحمي إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

3- إسخيلوس: (525 - 456 قبل الميلاد): كاتب مسرحي إغريقي.

4- مدينة دلفي وبلدة دودونا اليونانيتان

الحقيقية المتسمة بروح حقيقية – ممارسة نبيلة سوف تعهد إلى القارئ بمهام أكثر من أي ممارسة قد تسمح بها عادات اليوم. تتطلب تمريناً أشبه بتمرينات يخضع لها الرياضيون، تتطلب عزماً مطرداً طيلة الحياة كلها تقريباً من أجل تحقيق هذا الغرض. يجب أن تُقرأ الكتب بمثل ما كُتبت بهما من ترو وتحفظ. بل إنه ليس كافياً أن تتمكن من تحدث لغة تلك الأمة المكتوبة بها لأن هناك فارقاً بارزاً بين اللغة المنطوقة وتلك المكتوبة، اللغة المسموعة واللغة المقروءة. هناك لغة عابرة في المعتاد، صوت، لسان، لهجة لا غير، تكاد تكون فظة، ونحن نتعلمها دون وعي كما المتوحشين من أمهاتنا. تتمثل اللغة الأخرى في النضج والخبرة؛ لو أن الأولى هي لغتنا الأم، فتلك هي لغتنا الأب، إنه تعبير متحفظ مختار، أعظم شاناً من أن تَسمعه الأذن، وهو أننا يجب أن نولَد مرة أخرى كي نتكلم. لم يكن حشود الناس التي لم يتحدثوا إلا اليونانية واللاتينية في العصور الوسطى مؤهلين بسبب صدفة مولدهم لمطالعة أعمال عباقرة مكتوبة بهاتين اللغتين لأنها لم تكن مكتوبة بيونانية أو لاتينية يعرفونها، وإنما بلغة أدبية منتقاة. لم يتعلموا لهجات أنبل تتحدث بها اليونان وروما، بل إن المواد ذاتها المكتوبة عليها كانت ورقاً مهمَلاً، وقدّروا بدلاً منها أدباً معاصراً رديئاً. ولكن عندما اكتسبت عدة أمم أوروبية لغات بارزة كافية – وإن كانت بدائية – لخدمة أغراض آدابها الناهضة، انتعش التعلم المباشر وتمكن الطلاب رغم البعد الزمني من إدراك كنوز العصور العتيقة. ما لم تستطع جماهير الرومان واليونانيين سماعه طالعه قلة من الطلاب بعد مرور عصور ولا يزال يطالعه القليل منهم.

مهما بلغ إعجابنا بخطابات الخطيب، خطابات عنيفة بليغة يلقيها من حين لآخر، تقبع في العادة أنبل الكلمات المكتوبة خلف اللغة المتكلمة الزائلة أو فوقها مثلما تقبع السماء بنجومها خلف السحب. هناك النجوم، وهناك مَن بمقدوره قراءتها. يُعلق علماء الفلك دوماً عليها ويراقبونها. إنها ليست زفيراً مثل أحاديثنا اليومية وأنفاسنا المتطايرة. غالباً ما يكون المسمى "فصاحة" في المنتدى لغة طنانة في الدراسة. يستسلم الخطيب لوحي مناسبة عابرة ويتحدث إلى العامة الماثلين أمامه، من يستطيعون سماعه؛ ولكن الكاتب بحياة رصينة وطبع قد يتشتت بالحدث والحشد الذي يلهم الخطيب، يتحدث إلى عقل البشرية ورخائها، يتحدث إلى كل من يستطيع فهمه في كل العصور.

لا عجب أن حمَل الإسكندر الأكبر الإلياذة معه في حملاته داخل علبة ثمينة. كلمة مكتوبة في أروع الآثار. إنه عمل أكثر حميمية لدينا، وفي الوقت نفسه أكثر عالمية من أي

عمل فني آخر. عملٌ فني أقرب إلى الحياة ذاتها. قد يُترجم إلى كل اللغات، لا يُقرأ فقط، وإنما تتنفسه بحق كل الألسنة البشرية؛ لا يصوّر على قماش القنب أو الرخام فحسب، وإنما يُنحت من نفَس الحياة ذاته. إن رمز فكر الرجل العتيق يصبح حديث الرجل العصري. لم يسبغ ألفان من الأصياف على آثار الأدب اليوناني – وكذا تماثيلها الرخامية – إلا درجة ذهبية خريفية أنضج، فقد حمَلوا جوهم الصافي السماوي إلى كل الأراضي كي يحموا أنفسهم من تآكل الزمن. إن الكتب هي ثروة العالَم الثمينة والإرث اللائق للأجيال والأمم. تقف الكتب الأقدم والأفضل على نحو طبيعي ومستحَق على رفوف كل كوخ. لا قضية خاصة تدافع عنها، ولكن بينما تنير القارئ وتغذي فكره، لن ترفضها فطرته السليمة. مؤلفوها نخبة طبيعية لا سبيل إلى مقاومتها من كل مجتمع، يمارسون تأثيراً على البشرية يفوق تأثير الملوك والأباطرة. حين كسب التاجر الأمي – وربما المحتقِر – بالمغامرة والمثابرة راحة واستقلالية اشتهاهما ثم انضم إلى دوائر الثروة والمنزلة الرفيعة، من المحتوم أن ينصرف في النهاية إلى دوائر لا تزال أرقى وإن استعصى عليه دخولها، دوائر من الفكر والنبوغ، ولا يكون حساساً إلا من نقص ثقافته وفراغ ثروته وقصورها، ويبرهن أيضاً على فطنته حين لا يألو جهداً لضمان تلك الثقافة الفكرية لأطفاله، ثقافة يشعر بافتقارها بكل جوارحه؛ وهكذا يؤسس أسرته.

لا بد أن علِم مَن لم يتعلموا قراءة الكلاسيكيات العتيقة بلغتها ناقص كل النقص عن معرفة الجنس البشري وتاريخه؛ فمن اللافت للنظر عدم وجود نسخة لها في أية لغة حديثة ما لم يُنظر إلى حضارتنا نفسها باعتبارها تلك النسخة. لم ينطبع الشاعر هومر نفسه باللغة الإنجليزية بعد، ولا إسخيلوس، ولا حتى فرجيل[1] – أعمال في مثل نقاء الصباح ذاته ورسوخه وجماله؛ فالكتاب اللاحقون، وقل ما تشاء عن عبقريتهم، نادراً ما – إن حدَث على الإطلاق – ضاهوا جمالاً وكمالاً متقنين تميز بهما القدماء وجهداً أدبياً عظيماً متواصلاً مدى الحياة بذلوه. مَن يتحدث عن نسيانهم هم الجاهلون بهم. لن نلبث أن ننساهم حين ننال علماً وعبقرية تمكناننا من الاهتمام بهم وتقديرهم. الحق أن هذا العصر سوف يتميز بالثراء حين تتجمع تلك الآثار المسماة بالكلاسيكيات – بل وكتب الأمة المقدسة، كتب أقدم وأكثر كلاسيكية وأقل شهرة – حين يمتلئ الفاتيكان بكتب الهندوس الدينية الفيدا وكتاب الزرادشتية زندافيستا والأناجيل، بكتب هومر ودانتي وشكسبير، وسوف تودِع كل القرون

1 – فرجيل: شاعر روماني (70 – 19 قبل الميلاد). كان ثورو يحتقر التراجم المتاحة وقتذاك.

القادمة تذكاراتها على التوالي في منتدى العالَم. وبهذا الركام قد نأمل أن نصعد أخيراً إلى قمة الفردوس.

لم تقرأ البشرية بعد أعمال الشعراء العظام، فالشعراء العظام هم القادرون وحدهم على قراءتها. لم تُقرأ إلا كما يقرأ العامة النجوم، بالتنجيم، لا علم الفلك. تَعلَّم أغلب الناس القراءة لانتهاز فرصة تافه، مثلما تعلموا الحساب ليقيدوا مواردهم دون أن يغشهم شخص في التجارة؛ ولكنهم يعرفون القليل عن القراءة كممارسة فكرية نبيلة أو لا يعرفون شيئاً؛ ولكن تلك القراءة، بمعنى أسمى، ليست قراءة تهدئنا بوصفها ترفاً، ومن ثم نعاني طيلة الوقت نوم ملكاتنا العقلية الأنبل، ولكنها ما ينبغي أن نقف على أطراف أصابعنا لنقرأه ونكرس له ساعاتنا الأكثر يقظة وانتباهاً.

أعتقد أننا ينبغي أن نطالع أجمل ما في الأدب بعد تعلم الأبجدية، لا أن نكرر إلى الأبد حروفاً أبجدية وكلمات من مقطع واحد، في الصف الرابع أو الخامس، ونحن جالسون في أدنى صورة، في صورتنا الأولية، طيلة حياتنا. يخالج معظم الرجال الرضا إن طالعوا أو سمعوا أحدهم يطالع الإنجيل – علهم لا يدانون إلا بحكمة كتاب واحد جيد، ويقضون بقية حياتهم في بلادة وخمول، يبددون ملكاتهم العقلية فيما يسمى "بالقراءة السهلة". ثمة كتاب من عدة مجلدات في مكتبة الاستعارة يَحمل عنوان "القراءة الضئيلة،" حسبت أنه يشير إلى بلدة لم أزرها من قبل تتخذ ذلك الاسم[1]. هناك من يسعهم – كطيور الغاق والنعام – هضم كل الأنواع، بل وهضمها بعد عشاء كامل من اللحوم الخضراوات، لأنهم لا يتحملون إهدار ما لديهم. لو أن الآخرين آلات توفر هذا الطعام، إنهم إذن الآلات القارئة إياه. يطالعون الحكاية رقم تسعة آلاف عن زيلون وسوفرونيا، وكيف أنهما أحبا كما لم يحب مخلوق من قبل، لم يسلك سبيل حبهما الحقيقي طريقاً سلساً – على أي حال من الأحوال، كيف سار حبهما وتعثر، ثم نهض مجدداً وواصل! كيف صعد تعيس مسكين إلى برج الكنيسة – تعيس كان من الأفضل ألا يصل قط إلى برج الجرس – وبعد أن حمّله على الصعود إلى هناك بلا داع، قرع الروائي السعيد الجرس كي يحتشد كل العالَم ويَسمع، يا إلهي! كيف هبط مرة أخرى؟ أعتقد من جانبي أن خيراً لهم أن يمسخوا كل هؤلاء الأبطال، أبطال الرواية العالميين، إلى أدوات على شكل ديوك هدفها إظهار اتجاه الرياح – فقد اعتادوا

1– "القراءة الضئيلة": المقصود هنا بلدة Reading الواقعة في ولاية ماسيتشوسيتس الأمريكية.

أن يضعوا الأبطال بين كواكب النجوم – ثم يتركوهم يتأرجحون هناك إلى أن يكسوهم الصدأ، ولا ينزلوا على الإطلاق ليزعجوا الشرفاء بنكاتهم. عندما يقرع الروائي الجرس في المرة التالية، لن أتحرك أقل حركة ولو احترق دار العبادة. "'وثبة قفزة أصابع الأقدام'، إنها رواية رومانسية تدور في العصور الوسطى بقلم المؤلف المشهور 'ليتل–تول–تان'، سوف تَصدر في أجزاء شهرية؛ الضغط عليها رهيب؛ لا تأتوا جميعاً معاً". يطالعون الرواية بعيون أشبه بالفناجين، بفضول قائم يشي بالبدائية، وبأحشاء لا تعرف التعب، لا تحتاج الغضون إلى أي شحذ بعد، مثلها مثل نسخة مذهبة من سندريلا يطالعها ذو الرابعة وهو جالس على مقعده – بدون أي تحسينات يسعني أن أتبينها في النطق أو اللهجة أو التشديد أو أي موهبة أخرى في اقتباس العامل الأخلاقي أو إضافته. والنتيجة هي تبلد البصر، وركود في الدورة الدموية، والإغماء الشامل، والافتقار إلى كل القدرات الفكرية. يخبز الخبّاز يومياً هذا النوع من كعكة الزنجبيل ويواظب عليه مواظبة أكثر من القمح الخالص أو الجاودار ودقيق الذرة في كل فرن تقريباً، ويجد سوقاً مضموناً.

بل إن ما يطلق عليهم 'قراء جيدين' لم يطالعوا خيرة الكتب. إلام تنتهي ثقافة قرية كونكورد؟ وعدا استثناءات قليلة للغاية تَعدم هذه البلدة ذوقاً لاختيار الأفضل أو الكتب الممتازة حتى في الأدب الإنجليزي، لغة يَقدر الجميع قراءتها وتهجيها. بل إن خريجي الكليات والمتعلمين تعليماً عقلياً كما يزعمون هنا وفي مكان آخر لديهم حقاً – أو يَنقصهم – القليل من الاطلاع على الكلاسيكيات الإنجليزية؛ أمّا عن حكمة البشر المدوّنة، أي الكلاسيكيات العتيقة والكتب المقدّسة المتاحة لجميع من يعرفونها، هناك جهود ضئيلة في أي مكان للوقوف عليها. أعلم حطّاباً في منتصف العمر يأخذ جريدة فرنسية، لا ابتغاء للأخبار كما يزعم لأنه أسمى من ذلك، وإنما "لممارسة اللغة" فهو كندي المولد؛ وعندما سألته عن أفضل شيء يمْكنه فعله في العالَم، أنهى إليّ، "إلى جانب هذا، البقاء على اطلاع حسن والإضافة إلى لغته الإنجليزية". إنه تقريباً ما يَقوم به خريجو الكليات بوجه عام أو ما يطمحون إلى القيام به، وهم يأخذون جريدة إنجليزية لتحقيق هذا الغرض. كم شخص سيجدهم فرد انتهى لتوه من قراءة أحد أفضل الكتب الإنجليزية ليتحدث إليه عنه؟ أو افترِض أنه يقرأ كتاباً كلاسيكياً باليونانية أو اللاتينية – والإطراء على اللغتين مألوف حتى للأميين، لن يجد أحداً على الإطلاق للتحدث إليه، ولكنه يجب أن يلتزم الصمت حيال مأزقه. الحق أن هناك بالكاد أستاذاً في كليتنا – لو أجاد معضلات اللغة – أجاد بالقدر نفسه صعوبات

فطنة الشاعر الإغريقي وشعره، ويخامره أي تعاطف يسبغه على القارئ اليقظ النبيل؛ أمّا بالنسبة إلى الكتب المقدسة أو أناجيل البشرية، مَن في هذه البلدة بمقدوره أن يُبلغني بعناوينها؟ لا يَعرف معظم الرجال أن أي أمة عدا اليهود لديها كتاب مقدس. سوف يحيد الرجل، أي رجل، كثيراً عن طريقه ليلتقط دولاراً فضياً؛ ولكن ها هي كلمات ذهبية نطقها أحكم رجال العصور العتيقة، وأكد على قيمتها حكماء كل العصور المتتالية؛ ومع ذلك نتعلم ألا نقرأ إلا "القراءة السهلة"، كتب القراءة والكتابة والكتب المدرسية، وعندما نغادر المدرسة، تصير "القراءة الضئيلة" وكتب الحكايات المخصصة للصبية والمبتدئين وقراءتنا وحوارنا وتفكيرنا، تصير كلها في مستوى ضعيف للغاية، ليس جديراً بها إلا الأقزام وتماثيل عرض الملابس.

أطمح إلى التعرف برجال أحكم من رجال أنتجتهم تربة كونكورد، يكاد يَعرف أحد هنا أسماءهم. أم هل سأقرأ اسم أفلاطون[1] ولن أقرأ كتابه أبداً؟ وكأن أفلاطون ابن بلدتي، ولم تقع عليه عيناي قط – وكأنه جاري ولم يتناه إليّ صوته وهو يتحدث أو أشهد حكمة كلماته.

ولكن ما هي طبيعة الكتاب حقاً؟ تستقر محاوراته[2] – وتحوي كل ما هو خالد فيه – على الرف المجاور، ومع ذلكَ لم أقرأها مطلقاً. لقد نشأنا نشأة سيئة، نعيش عيشة حقيرة، في جهل وأمية؛ وأعترف أني لا أفرق تفريقاً كبيراً في هذه النقطة بين أمية أبناء بلدتي العاجزين تماماً عن القراءة وأمية مَن تعَلَّم قراءة مواد مكرّسة للأطفال والعقول الواهنة. ينبغي أن نَبلغ براعة عظماء العصور القديمة غير أننا ينبغي أولاً أن نقف جزئياً على مدى براعتهم. إننا جنس من رجال صغار لا نحلق في رحلاتنا الفكرية تحليقاً أبعد من أعمدة الجريدة اليومية.

ليس كل الكتب في مثل ملل قرائها. الأرجح أن هناك كلمات موجَّهة إلى حالتنا بالضبط، كلمات لو وسعنا تقبلها وفهمها، سوف تكون أفيد من الصباح أو الربيع لحيواتنا، وربما تضع لنا سيماء جديدة على وجه الموجودات. كم رجلاً أرَّخ عهداً جديداً لحياته عقب قراءة كتاب! ربما يوجد الكتاب لخدمتنا، يفسر معجزاتنا ويحسر النقاب عن معجزات جديدة. قد نجد أشياء لا توصف حالياً قابلة للوصف في مكان آخر. لقد خطرت هذه الأسئلة نفسها – أسئلة تبث في نفوسنا الضيق والحيرة والانزعاج – في بال جميع الرجال الحكماء؛ لم يغفل

1 – أفلاطون: (427 – 347)، فيلسوف يوناني.
2 – أفلاطون (427 – 347 قبل الميلاد) فيلسوف إغريقي، وتضم محاوراته شخصيات تسأل الواحدة الأخرى عدة أسئلة لتسمح لأفلاطون بطرح وجهات نظر متباينة، وهكذا يسمح للقارئ بتقرير الرأي السديد.

واحد منهم سؤالاً واحداً؛ فقد أجاب كل فرد منهم عليها وفقاً لقدرته، بكلماته وحياته. علاوة على أننا سوف نتعلم التسامح عن طريق الحكمة. قد يعتقد الرجل المنعزل الأجير في مزرعة واقعة بضواحي كونكورد، مَن وُلد روحياً من جديد ويضمر تجربة دينية فريدة، يدفعه إيمانه إلى وقار وهيبة صامتة، أن كلامي يجانبه الصواب، ولكن زرادشت[1] ارتحل من آلاف السنين في الطريق نفسه وخاض التجربة نفسها؛ ولكنه أدرك لحكمته أنها تجربة كونية وعامل جيرانه وفقاً لإدراكه، بل قيل إنه ابتكر عبادة ورسخها بين الناس. فليتحدث إذن إلى زرادشت بتواضع من خلال تأثير تحرري ينبع من كل الشخصيات البارزة، يتحدث إلى يسوع المسيح نفسه، وليتجاهل "كنيستنا".

يستولي علينا الفخر لأننا ننتمي إلى القرن التاسع عشر ونقطع خطوات أوسع وأسرع من أية أمة. ولكن تفكّر في إسهام قليل تضيفه هذه القرية إلى ثقافتها. لا أرغب في أن أطري على أبناء بلدي أو أن يطروا عليّ لأن الإطراء لن يرتقي بنا. إننا في حاجة إلى نُستفَز، ننخَس بالمهماز شأن الثيران كي نهرول. لدينا نظام محترم نسبياً من المدارس المجانية، مدارس من أجل الأطفال دون غيرهم، ولكن عدا جمعية المحاضرات والحفلات[2] الهزيلة في الشتاء، والبداية الضعيفة لمكتبة اقترحتها الولاية مؤخراً، لا توجد كليّة تخصنا. ننفق على غذاء الجسم أو المرض أكثر مما ننفقه على مرضنا العقلي. آن الأوان أن نشّيد مدارس تبتعد عن المألوف، ألا ننبذ تعليمنا حين ننضج رجالاً ونساء. آن الأوان أن تنقلب القرى جامعات، وأن يصبح سكانها الأكبر سناً خريجيها الحاصلين على المنح، يَنعمون بوقت فراغ – لو أنهم حقاً أغنياء – كي يواصلوا دراساتهم العقلية بقية حياتهم. هل يقتصر العالَم على باريس واحدة وأكسفورد واحدة إلى الأبد؟ ألا يستطيع الطلاب أن يعيشوا هنا وينالوا تعليماً عقلياً أسفل سماء كونكورد؟

ألا يسعنا أن نوظف أمثال أبيلارد[3] ليلقوا علينا المحاضرات؟ يا للحسرة! مع علف الماشية والعناية بالمتجر نبتعد طويلاً عن الكليّة ونهمل للأسف تعليمنا. ينبغي في بعض النواحي أن تَقوم القرية في هذا البلد مقام النبيل في أوروبا. ينبغي أن تغدو راعية للفنون الجميلة. إنها غنية بما يكفي. لا تروم إلا الشهامة والدماثة. بإمكانها إنفاق ما يكفي على ما يقيّمه

1- زرادشت: نبي فارسي، 600 قبل الميلاد.
2- منظمة ترعى الفعاليات الثقافية.
3- أبيلارد: بيتر أبيلارد (1079 – 1142)، فيلسوف ولاهوتي فرنسي.

الفلاحين والتجار غير أنها يُنظر إليها بصفتها يوطوبيا لو اقترحت صرف الأموال على أشياء يؤمن الأذكياء بقيمتها. لقد صرفت هذه البلدة سبعة عشر آلاف دولار على بيت في المدينة، بفضل الثروة أو السياسة، ولكن الأرجح أنها لن تصرف المبلغ نفسه على أحد المفكرين الأحياء – لُب حقيقي تضعه في تلك الصَدَفة – في خلال مئة سنة. هناك تبرعات قيمتها مئة وخمسة وعشرين دولار تذهب سنوياً إلى جمعية المحاضرات والحفلات في الشتاء، ويتم إنفاقها على نحو أفضل من أي مبلغ مماثل في البلدة. لو أننا نعيش في القرن التاسع عشر، لم لا ينبغي أن نستمتع بمميزات يوفرها لنا القرن التاسع عشر؟ لم ينبغي أن تصبح حياتنا ضيقَة الأفق بأية صورة من الصور؟ لو سنقرأ الجرائد، لم لا نتخطى ثَرثرة بوسطن وفي الوقت نفسه نأخذ أفضل جريدة في العالَم؟ لا نمص حلمة جَرائد "العائلة المحايدة" أو نتصفح 'أغصان الزيتون'[1] هنا في نيو إنجلاند. فلتصل إلينا كل التقارير عن المجتمعات المتعلمة، وسنرى إن كانت تفقه أي شيء. لم ينبغي أن نترك اختيار قراءاتنا لهاربر & برازرز وريدينج & وشركاؤه[2]؟ يحيط النبيل ذو الذوق المصقول نفسه بما يفضي إلى تثقيفه أياً كان – التعلم النابغ، الحصافة، الكتب، الرسم، النحت، الموسيقى، الوسائل الفلسفية، وغيرها؛ لا تدع إذن القرية تتوقف فجأة عند مُعلم وكاهن وخادم كنيسة ومكتبة أبرشية وثلاثة موظفين بالبلدية لأن أسلافنا الرحالة اجتازوا شتاء بارداً ذات يوم على صخرة مكشوفة معرضة للرياح مع هذه الشخصيات. يتفق العمل معاً مع روح مؤسساتنا؛ وإنني على ثقة أن مع ازدهار ظروفنا سوف تصبح وسائلنا أعظم من وسائل النبيل. باستطاعة نيو إنجلاند أن تعَين كل حكماء العالَم كي يأتوا ويُدرسوا لها، وتستضيفهم في تلك الأثناء، دون أن تقع مطلقاً في فخ ضيق الأفق. تلك هي الكليّة غير المألوفة التي نريدها. بدلاً من النبلاء، فلنحصل على قرى نبيلة عامرة بالرجال. ولو أنه من الضروري، أهمِل جسراً على النهر، انعطف قليلاً هناك وشيّد قنطرة واحدة على الأقل فوق خليج مظلم من الجهل يحيط بنا.

1– أغصان الزيتون: منشورات لا تحوي آراء تحريرية.

2 – هاربر & برازرز وريدينج & وشركاؤه: ناشران في نيويورك وبوسطن.

4 – الأصوات

ولكن بينما نحصر أنفسنا في الكتب – مع أنها أكثر النشاطات امتيازاً وكلاسيكية – ولا نقرأ إلا كتباً بلغات معيَّنة ما هي ذاتها إلا لهجات محلية، نتعرض لخطر نسيان لغة تتحدث بها كل الأشياء والأحداث دون استعارة، لغة غزيرة فصحى في حد ذاتها. ينشر الناشرون الكثير من الكتب، ولكن ينطبع القليل منها. لن يتذكر أحد أشعة تتدفق عبر مصراع النافذة حين نخلع المصراع كلية. لا منهج ولا نظام يستطيع أن يحل محل ضرورة أن نتوخى دوماً الحرص واليقظة. ما هو مسار التاريخ أو الفلسفة أو الشعر – مهما كان حسن الانتقاء – أو المجتمع الأفضل أو أكثر أنظمة الحياة إبهاراً مقارنةً بقاعدة سلوكية تحرص على النظر دوماً إلى ما ينبغي رؤيته؟ هل تود أن تصير قارئاً أم طالباً فقط أم ناظراً؟ اقرأ قَدَرك، أبصِر ما يَلوح إمامك، وسِر نحو المستقبل.

لم أقرأ كتباً في الصيف الأول؛ فقد عزقت الأرض لزراعة الفاصوليا. لا، كنت أقوم في الغالب بمهمة أفضل. لم أستطع أحياناً أن أتحمل التضحية بريعان اللحظة الحالية في سبيل أي

عمل، سواء كان عقلياً أم يدوياً. أحب أن تحوي حياتي هامشاً عريضاً. أحياناً بعد أن أستحم كما هي عادتي في أحد أصباح الصيف، أجلس في مدخلي المشمس منذ لحظة الشروق حتى الظهيرة، منتشياً في أحلام اليقظة، وسط أشجار الصنوبر والجوز والسُماق في عزلة وهدوء لا يقلق صفوهما أحد بينما تغني الطيور هنا وهناك أو تطير بلا صوت عبر المنزل. لا أتذكر مرور الوقت إلا عندما تغرب الشمس عند نافذتي الغربية أو ترد إليّ ضوضاء عربة مسافر في الطريق العام البعيدة. نَموت في تلك المواسم مثلي مثل الذرة ليلاً، وقد كانت أفضل من أي عمل يدوي قد أقوم به. ما كان وقتاً مطروحاً من حياتي، وإنما وقت زائد على نصيبي المعتاد. فطنت إلى ما يعنيه الشرقيون بالتأمل ونبذ الأعمال. لم أكترث في الأغلب لكيفية مرور الساعات. تقدَّم اليوم وكأنما ينير عملاً ما من صنعي؛ كان صباحاً، ويا للعجب، إنه الآن المساء، ولا شيء جدير بالذكر تم إنجازه. وبدلاً من الغناء كالعصافير، ابتسمت صامتاً لما نلته من حظ سعيد لا ينقطع. وفيما كان العصفور يصدح مرتعش الصوت، جاثماً على شَجرة الجوز أمام بابي، ضحكت بيني وبين نفسي في خفوت أو غردت بصوت مكبوح قد يتناهى إليه من صدري. لم تكن أيامي كأيام الأسبوع، لم تحمل بصمة أي إله وثني، و لم تتفتت إلى ساعات وتتآكل بتكات الساعة؛ لأني عشت مثل هنود البوري[1]، هنود قيل إن "لديهم كلمة واحدة تعني 'الأمس' و'اليوم' و'غداً'، ويُعبرون عن تنوع المعنى بالإشارة إلى الخلف ليقصدوا الأمس، وإلى الأمام ليقصدوا الغد، وفوق الرؤوس ليقصدوا اليوم الجاري".[2] لا شك أن أبناء بلدتي ألفوا هذا التقليد محض كسل؛ ولكن لو حاكمتني الطيور والأزهار بمقاييسها، لا ينبغي أن تجدني ناقصاً. يجب أن يجد الرجل احتفالاته في ذاته، إنه أمر صحيح. يتصف اليوم الطبيعي بمنتهى الهدوء، ولن يوبخ تراخيه إلا بالكاد.

تمتع أسلوب حياتي بهذه الميزة على الأقل – ميزة لا يتمتع بها من يضطر إلى التطلع إلى الخارج طلباً للتسلية، إلى المجتمع أو المسرح – حتى إن حياتي ذاتها صارت تسلية و لم تكف قط عن التجدد. كانت دراما تتألف من عدة مشاهد لا نهاية لها. الحق أننا لو أخذنا دوماً بأسباب الحياة ونظمنا حيواتنا وفقاً لأفضل أسلوب تعلمناه، لا ينبغي أن يزعجنا أبداً الضجَر. اتبِع نبوغك عن كثب، ولن يخفق في أن يريك احتمالاً متجدداً للفلاَح في كل

1 – هنود البوري: قبائل من السكان الأصليين في برازيل.
2– وفقاً لإدا فايفر (1797 – 1858) كاتبة ورحالة نمساوية ألفت كتاب "رحلة سيدة حول العالَم" عن زياراتها إلى أيسلندا والسويد والنرويج والبرازيل وتاهيتي والصين والهند وبغداد وموسكو.

ساعة. ألفيت أعمال البيت تسلية ممتعة. عندما اتسخت أرضيتي، استيقظت مبكراً ووضعت كل الأثاث على العشب خارجاً – الفراش وهيكل السرير في كومة واحدة – رميت المياه على الأرضية ورششت عليها رمالاً بيضاء من البحيرة، وبعدها حككتها بمقشة حتى أصبحت نظيفة بيضاء؛ وعندما تناول القرويون إفطارهم، كانت شمس الصباح قد جففت منزلي تجفيفاً كافياً بما يسمح لي بالدخول مجدداً، وبما لا يقاطع تأملاتي. كان من الممتع أن أرى كل متعلقات منزلي على العشب، في ركام أشبه بصرة الغجري، قامت مائدتي ذات الأرجل الثلاث دون أن أرفع عنها الكتب والقلم والحبر بين أشجار الصنوبر والجوز. بدت متعلقاتي نفسها سعيدة بالخروج، وكأنها عازفة على الدخول. ساورني الإغراء أحياناً أن أبسط فوقها ظلة وأتخذ مجلسي هناك. استحق الأمر أن أبصر الشمس مشرقة على هذه المتعلقات، وأسمع رياحاً طليقة تهب عليها؛ تتراءى أغلب الأشياء المألوفة أكثر إثارة للاهتمام حين تضعها في الخارج بدلاً من المنزل. يَجلس على الغصن المجاور طائر، تنمو أسفل المائدة خضرة دائمة النضارة، تلتف حول أرجلها كرمة العليق؛ تنتثر في كل مكان كيزان الصنوبر وثمر الكستناء وأغصان الفراولة. بدا وكأن هذه الأشكال تحولت إلى أثاثنا وموائدنا ومقاعدنا وأسِرتنا لأنها قامت يوماً بينها.

قام منزلي على أحد جوانب تل، على طرف أيكة أكبر، في منتصف غابة حديثة من أشجار الصنوبر والجوز، وعلى بعد نصف دستة قَصَبات من بحيرة يفضي إليها ممر ضيق يهبط التل. نَمت في باحتي الأمامية الفراولة والعليق وأعشاب دائمة النضارة وحشيشة سان جون ونبتة عصا الذهب وشجيرات البلوط والكرز الرملي وثمار العنبية والفول السوداني. ومع اقتراب نهاية شهر مايو زين الكرز الرملي جوانب الطريق بأزهار رقيقة مرتبة على شكل اسطوانات عند سيقانها القصيرة، وفي الخريف أثقل كرز كبير رائع الشكل السيقان في النهاية، فسقط الكرز على شكل أكاليل مثله مثل الأشعة في كل جانب. تذوقته من قبيل مجاملة الطبيعة مع أني لم أستسغ طعمه. نمى السُماق وافراً حول المنزل، شق طريقه عبر سد شيدته لينبت خمس أقدام أو ستاً في الموسم الأول. راقني النظر إلى ورق السماق الاستوائي، ورق عريض كما الريش، وإن استغربت شكله. نَمت على بغتة براعم كبيرة متأخرة ربيعاً من عيدان جافة بدت ميتة، نَمت وكأنما بالسحر لتستحيل إلى أغصان رشيقة خضراء نضرة، بوصة في القُطر. وفي أثناء جلوسي أحياناً بجوار النافذة، غافلاً عن نموها وإرهاقها بعُقَدها الضعيفة، كان يتناهى إليّ غصن نضر طري يَسقط فجأة كالمروحة على الأرض دون أن يهب

أدنى نفَس من هواء، كسَره ثقله ذاته. جذبت أعداد ثمار العليق الضخمة وهي تزهر في أغسطس عديداً من النحل البري، وتدريجياً اتخذت درجة لون قرمزية مخملية زاهية، ومرة أخرى انثنت تحت ثقلها لتكسر الأغصان الطرية.

بينما أجلس عند نافذتي في ظهيرة هذا الصيف، تدور الصقور في أرضي الخالية من الأشجار؛ يندفع الحمام البري – تطير كل حمامة مع أخرى أو في مجموعات من ثلاث – أمام المشهد أو يجثم قلقاً على أغصان صنوبر أبيض خلف منزلي، يطلق صوته في الهواء؛ يُحدث عُقاب السمك غمازات في سطح البحيرة اللامع أثناء جلب السمك؛ ينسل أحد حيوانات المنك من المستنقع ليجيء أمام بابي ويقبض على ضفدع بالقرب من الشاطئ؛ يميل نبات السُعادَى أسفل ثقل طيور المِراح وهي تطير سريعة من هنا إلى هناك؛ وفي خلال آخر نصف ساعة سمعت قعقعة عربات السكة الحديد، تتضاءل الآن ثم تتعالى مجدداً مثل نقرة طائر الحجل، تنقل المسافرين من بوسطن إلى الريف. لم أعش خارج العالم تماماً مثل ذلك الصبي الذي منح إياه شخص، كما سمعت، مزارعاً في الجانب الشرقي من البلدة غير أنه سرعان ما هرب وعاد إلى بيته، مهلهل المظهر مشتاقاً إلى بيته. لم ير قط مثل تلك البقعة المملة النائية؛ غادرها الجميع؛ بل إنك لم تستطع أن تسمع صفيراً! أشك لو أن هناك مكاناً مثله في ماسيتشوسيتس الآن:

"الحق أن قريتنا أصبحت عَقِباً
لمر من ممرات السكة الحديد السريعة، وفوق
سهلنا المسالم صوتها المهدئ هو... كونكورد".[1]

تُلامس سكة حديد فيتشبيرج البحيرة على بعد مئة قصبات جنوب مسكني. أذهب في العادة إلى القرية بحذاء طريقها الموازي، والبادي أني ارتبطت بالمجتمع عن طريق هذه الصلة. يحني رجال قطارات الشحن المرتحلون طيلة الطريق رؤوسهم إليّ وكأني معرفة قديمة، كثيراً ما يمرون بي، والظاهر أنهم يحسبونني بالخطأ أجيراً؛ وهكذا أصبحت أجيراً. سوف يسعدني أن أصير أنا الآخر مصلحاً للسكة الحديد في مكان ما من مدار الكرة الأرضية.

تخترق صفارة القاطرة غابتي صيفاً وشتاء، تبدو للآذان مثل صرخة صقر فوق فناء أحد المزارعين، تنهي إليّ أن العديد من تجار المدينة المفعمين بالقلق سوف يصلون في حدود دائرة

1– إلري تشانينج (1818 – 1901)، من قصيدة "نبع ولدن".

المدينة أو سيصل من الجانب الآخر تجار ريفيون مغامرون. وعلى حين يَقْبِلون أسفل أفق واحد، يصيحون بالآخرين محذرين للابتعاد عن خط السكة الحديد، تَسمع دوائر البلدتين أحياناً التحذير. ها هي البقالة تأتي أيها الريف؛ مؤنكم أيها القرويون! ولا يوجد أي رجل مستقل في مزرعته كل الاستقلال حتى إنه يستطيع أن يرفض لهم طلباً. "وها هو الثمن!" تصرخ صفارة الريفي؛ يسافر خشب مثل الأكباش الحربية الطويلة عشرين ميلاً في الساعة عبر جدران المدينة، وهناك مقاعد كافية لإجلاس كل المتعَبين والمثقلين بالهموم الساكنين فيها. وبكل تلك الكياسة الهائلة المعيقة يقَدم الريف كرسياً إلى المدينة. تتجرد كل تلال الكرز الهندية، وتستوي كل سهول التوت البري بالأرض في اتجاه المدينة. ها يأتي القطن، فليَسقط القماش المنسوج؛ ها يأتي الحرير، فليَسقط الصوف؛ ها تأتي الكتب، فليَسقط عقل يكتبها.

عندما ألتقي بالمحرك بقطار عرباته المتحرك كما هو خليق بالكواكب – أو بالأحرى كما هو خليق بمُذَنَّب، فالمشاهد لا يَعرف إن كان بتلك السرعة وبذلك الاتجاه سوف يزور تلك الكرة الأرضية من جديد بما أن مداره لا يتراءى منعطفاً عائداً – بسحابة من الدخان مثل راية تجري خلفه مثل أكاليل ذهبية وفضية شأن سحب زغبة عديدة رأيتها، عالية في السماء، تفض كُتَلها للضوء – وكأن نصف الإله المسافر وذلك الخاضع للسحب لن يلبث أن يأخذ سماء الشمس الغاربة زياً لقطاره؛ حينما أسمع الجواد الحديدي وهو يجعل المناجل تدوي بصهيله الشبيه بالرعد، يهز الأرض بقدميه، وينفث من منخريه ناراً ودخاناً (لا أدري نوع الحصان المجنَّح أو التنين الناري الذي سيسردونه في الميثولوجيا الجديدة)، يبدو وكأن الكرة الأرضية تحوي جنساً بشرياً جديراً الآن بالعيش فيها. لو أن كل شيء على ما يبدو، وأخضع الرجال العوامل الجوية عبيداً لهم لخدمة أهداف نبيلة! لو كانت السحب المعلَّقة فوق المحرك ما هي إلا عَرَق المآثر البطولية أو مفيدة كسُحب تطفو فوق حقول الفلاح، سوف تصحب العوامل الجوية والطبيعة ذاتها إذن بكل ابتهاج الرجال في رحلاتهم وتكون حرساً لهم.

أشاهد مرور عربات الصباح بإحساس يخالجني حين أشاهد شروق الشمس. يمتد قطار السحب خلفها ويتصاعد عالياً، يصعد إلى السماء بينما تقصد العربات بوسطن، يخفي الشمس لمدة دقيقة ويطرح حقلي القصي في الظلمة، ما القطار السماوي – مقارنة بقطار حقير من العربات يزعج الكرة الأرضية – إلا طرف الحربة. استيقظ صاحب الجواد الحديدي مبكراً في صبيحة هذا الشتاء على ضوء النجوم وسط الجبال كي يعلف جواده ويشد عليه

طقمه. بكّرت النار أيضاً بالاستيقاظ كي تبث في قلبه الحرارة الحيوية وتحثه على بدء الرحلة لو أن المغامرة بريئة وكذا مبكرة! لو يستقر الثلج عميقاً، يلتصق بحذاء الثلج، وبمحراث هائل الحجم يشق أخدوداً من الجبال إلى الساحل، وهناك تنثر العربات – مثلها مثل عربة يد تالية تبعثر البذور – كل الرجال القلقين والبضائع المتنقلة في البلد وكأنما تلقي بذوراً. يطير الجواد الناري فوق البلد طيلة النهار، ولا يكف إلا ليرتاح سيده، أستيقظ على وقع أقدامه وصهيله المتحدي في منتصف الليل على حين يجابه في أحد وديان الغابة المنعزلة البعيدة العوامل الجوية ويتغطى بالثلج والجليد؛ ولن يصل إلى مربطه إلا مع ظهور نجم الصباح كي يبدأ رحلاته من جديد دون راحة أوٍ نوم. أو ربما أسمعه مساءً في الإسطبل يلهث مُخرجاً طاقة النهار الزائدة ليهدئ أعصابه ويُسَكن كبده وعقله عدة ساعات من الهجوع المعافى. لو أن المغامرة نبيلة تتطلب الكثير، وكذا طويلة الأمد لا تَعرف الكلل!

في أعماق غابات لا تطأها قدم على حدود البلدات، حيث يخترق النهار الصياد نفسه مرة واحدة فقط، تنطلق هذه العربات المشرقة في أظلم ليلة بدون معرفة سكانها؛ تتوقف هذه اللحظة عند مخفر شرطة منير في البلدة أو المدينة حيث يتجمع حشد اجتماعي، الحشد التالي في 'مستنقع ديزمل'[1]، مخيفاً بومة أو ثعلب. إن انطلاق العربات ووصولها بمثابة فترات بارزة في يوم القرية. تذهب وتجيء منتظمة دقيقة، يسمع صفارتها السامع من بعيد حتى إن الفلاحين يضبطون ساعاتهم وفقاً لها، وعليه تنظم منشأة جيدة الإدارة بلداً كاملاً. ألم تتزايد دقة الناس إلى حد ما منذ اختراع السكة الحديد؟ ألا يتحدثون ويفكرون في محطة القطار بسرعة تفُوق تحدثهم وتفكيرهم في رصيف الميناء؟ ثمة شيء مثير في جو المكان الأول. اعتراني الاندهاش لمعجزات قام بها؛ يتأهب الآن استعداداً مع رنين الجرس بعض جيراني ممن تنبأت أنهم لن يسافروا على الإطلاق إلى بوسطن بوسيلة النقل السريعة تلك. إن السفر باستخدام "نمط السكة الحديد" هو الآن النموذج المتداول؛ والأمر يستحق أنْ تُحذر أي سلطة بصورة متواصلة مخْلصة الناس كي يبتعدوا عن خط السكة الحديد. لا توقُف لقراءة قانون الشغب، لا نار فوق رؤوس الغوغاء، في هذه الحالة. لقد بنينا قَدَراً، قَدَراً يَقطع خط الحياة، لن ينعطف عن مساره. (فليكن ذلك اسم محركك.) قيل للناس إن هذه السهام سوف تنطلق في دقيقة معَينة وساعة معَينة في اتجاه نقاط معَينة من البوصلة غير أنها لا تتدخل في شئون

1– مستنقع ديزمِل: مستنقع ساحلي بولايتيّ فيرجينيا ونورث كارولينا.

الإنسان، والأطفال يذهبون إلى مدارسهم على خط السكة الحديد الآخر. نحيا بسببه حياة مطردة ثابتة. نتعلم جميعاً إذن أن نكون أبناء 'تِل' [1]. يترع الهواء بالسهام المختفية. كل الطرق عدا طريقك هي طرق القَدَر. واصل السير في طريقك إذن.

ما يزكي التجارة في رأيي هو المغامرة والشجاعة. إنها لا تشبك يديها وتصلي لجوبيتر كبير آلهة الرومان. أبصر كل هؤلاء الرجال يومياً وهم ينهمكون في شؤونهم ببعض الشجاعة والرضا، بل إنهم يفعلون ما هو أكثر من المتوقَع، وعلهم يشتغلون بصورة أفضل مما يعتزمون في عقلهم الواعي. لا تؤثر فيّ بطولة مَن وقفوا نصف ساعة في الجبهة الأمامية من معركة بوينا فيستا[2] مثلما أتأثر بشجاعة مستمرة مرحة يتسم بها رجال يستخدمون محراث الثلج في مساكنهم شتاءً؛ مَن لا يمتلكون فقط شجاعة الساعة الثالثة صباحاً، شجاعة حسبها بونابرت نادرة، وإنما مَن لا تخلد شجاعتهم إلى الراحة مبكراً، من يذهبون إلى النوم فقط عندما تنام العاصفة أو تتجمد أوتار جوادهم الحديدي. وربما في هذا الصباح من الثلج العظيم الذي لا يزال يهيج دماء الإنسان ويُنزل به البرد، أسمع نبرة مكتومة لجرس المحرك قادمة من طبقة ضباب كونتها أنفاسه الباردة، تعلن مجيء العربات بدون تأخير طويل بالرغم من منع عاصفة ثلجية في شمال شرق نيو إنجلاند. أمد بصري إلى حُرَّاث يتغطون بالثلج والصقيع، تبدو رؤوسهم للعيان، فوق حديدة محراث لا تقلب زهور الربيع وأعشاش فئران الحقل مثل جلاميد جبل سيرا نيفادا التي تحتل مكاناً بعيداً في الكون.

تتسم التجارة على غير توقع بالثقة والصفاء واليقظة والمغامرة، لا تَعرف التعب. إنها كذلك طبيعية للغاية في أساليبها، أكثر كثيراً من العديد من المشاريع الخيالية والتجارب العاطفية، وعليه تنجح نجاحاً فريداً. يتولاني الانتعاش والتفاؤل حين يقعقع قطار الشحن بجواري، أستنشق متاجر يفيح عبيرها طيلة الطريق من رصيف لونغ إلى بحيرة شامبلين، لتذكرني بالمناطق الأجنبية والحيود البحرية المرجانية والمحيطات الهندية والمناخ الاستوائي وامتداد الكرة الأرضية. أشعر وكأني مواطن العالَم بأسره حين أبصر سعف النخيل الذي سيغطي العديد من الرؤوس كتانية اللون بنيو إنجلاند في الصيف القادم، قنب مانيلا وقشر جوز الهند، الخردة القديمة، حقائب من الخيش، الحديد الخردة، المسامير الصدئة. أجد حمولة العربة من الأشرعة الممزقة أوضح وأكثر إثارة للاهتمام الآن من عجنها لتصير ورقاً ثم

1- تِل: بطل أسطوري سويسري أصاب تفاحة على رأس ابنه.
2- بوينا فيستا: معركة مكسيكية في عام 1847.

كتاباً مطبوعاً. مَن يستطيع أن يكتب كتابة حية يصف بها تاريخ عواصف نجت منها مثلما نجت هذه الأشياء المقطوعة؟ إنها صور متتابعة لا تحتاج إلى التصحيح. ها هو خشب غابات ولاية مين، خشب لم يخرج إلى البحر في الطوفان الأخير، ارتفع أربعة دولارات للألف بسبب ما انجرف بالفعل إلى البحر أو ما انشق؛ خشب الصنوبر والراتينجية والأرْز، أصناف أولى وثانية وثالثة ورابعة، باتت كلها مؤخراً صنفاً واحداً كي يُلوح بها الإنسان فوق الدب والموظ والرنة. ثم يتدحرج ليمون بلدة ثوماستون، حصة أرض ممتازة، سوف يتوغل بين التلال قبل أن يَضعف. هذه الخِرَق في البالات، من كل درجات الألوان والنوعيات، أسوأ حالة انحدر إليها القطن والكتان، النتيجة النهائية لفستان، من نماذج لم تعد تجد إطراء عليها إلا لو كانت في ميناء ميلواكي، وهذه الأصناف الباهرة، الإنجليزية والفرنسية والأقمشة المطبوعة الأمريكية والأنسجة القطنية المخططة والأنسجة القطنية الرقيقة إلى آخره، جمَّعها الناس من كل المناطق الأنيقة والفقيرة لتصبح ورقاً من لون واحد أو درجات قليلة ليس إلا، عليها سوف يكتب حقاً أناس من طبقات مختلفة حكايات من الحياة الواقعية، حكايات تتكل على الحقيقة! تتطاير رائحة السمك المملح من هذه العربة المغلقة، رائحة نفاذة تجارية خليقة بنيو إنجلاند، أستحضر معها الضفاف العظمى ومواطن صيد السمك. مَن لم ير سمكة مملحة، مقددة تماماً من أجل هذا العالَم كيلا يفسدها أي شيء، تخزي مثابرة القديسين؟ بها يمْكنك أن تكنس أو تُعبد الشارع، وتشق مواداً تضرم بها النار، وسائق الخيل يقينفْسه وشحنته من الشمس والريح والأمطار - والتاجر، مثلما فعل أحد تجار كونكورد، علَّقها بجوار بابه كعلامة على بدء العمل حتى إن أقدم زبائنه لم يستطع في النهاية أن يحدد بشكل قاطع إن كانت حيواناً أم خضاراً أم معدناً، ومع ذلك سوف تكون في نقاء رقاقة الثلج، ولو وُضعت في قدر وتعرضت للغلي، سوف تغدو سمكة قُد شهية لعشاء يوم السبت. وبعدها الجلود الأسبانية، بذيول لا تزال تحتفظ بالتوائها وزاوية ارتفاعها عندما كان الثور الذي يرتديها يعدو فوق سهول مترامية من بر 'مين الأسبانية' - نوع من أنواع العناد، تبرهن كيف أن كل الخطايا الأساسية تقريباً لا سبيل إلى الشفاء منها. أعترف أني حين فطنت بصورة عملية إلى طبع الإنسان الحقيقي، عدمت الأمل أن يتغير للأفضل أو الأسوأ في هذه الحالة الوجودية. كما يقول الشرقيون، "قد تدفئ ذيل الكلب وتضغط عليه وتربطه بالأربطة، وبعد عمل يتواصل اثنتي عشرة سنة، لن يزال يحتفظ بشكله الطبيعي". إن العلاج الوحيد الفعال

لمثل ذلك العند والرسوخ كما تُبين هذه الذيول هو صنع غراء منها، وأعتقد أنه ما يُصنع منها في الغالب، وعندئذ سوف تَثبت في مكانها وتلتصق. ها هو برميل كبير من دبس السكر أو شراب البراندي موجّه إلى جون سميث من مقاطعة كاتينجسفيل بولاية فيرمونت، أحد التجار بين جبال جرين ماونتنز، يستورد السلع للفلاحين المقيمين بالقرب من أرضه، عله يقف الآن فوق حاجز السفينة يتفكر في آخر الشحن الوافدة إلى الساحل، كيف قد تؤثر على السعر، يخبر زبائنه في هذه اللحظة، كما أخبرهم عشرين مرة قبل هذا الصباح، أنه يتوقع بعضاً من نوعية ممتازة مع القطار التالي. أعلن عنها في جريدة 'كاتينجسفيل تايمز'.

بينما ترتفع هذه الأشياء، تنخفض أشياء أخرى. حذرني الأزيز فارتقى بصري من كتابي لأرى شجرة صنوبر طويلة، مقطوعة على تلال شمالية بعيدة، شقت طريقها وكأنها تطير فوق جبال جرين ماونتنز ونهر كونيتيكيت، اندفعت مثلها مثل سهم عبر الناحية في خلال عشر دقائق لتخيف عيناً أخرى تراقبها؛ سوف

"تصيـر صـاري
أدميـرال عظيم".

عودةً إلى الموضوع السابق! ها يأتي قطار ماشية يحمل ماشية ألف تل، حظائر غنم، إسطبلات، زرائب أبقار في الهواء، رعاة ماشية بعصيهم، صِبية من الرعاة وسط قطعانهم، تلتف كلها، عدا المراعي الجبلية، في الهواء مثل أوراق شجر تهب من الجبال بفعل عواصف سبتمبر. يغص الهواء بثغاء العجول والخرفان، واندفاع الثيران وكأن وادياً رعوياً يمر بي. عندما يقعقع الكبش العجوز جرسه في المقدمة، تطفر الجبال بحق كما الخرفان، والتلال الصغيرة كما الحملان. ثمة حِمْل عربة من رعاة الماشية أيضاً في المنتصف، في مستوى قطعانهم الآن، راحت مهنتهم غير أنهم لا يزالون يتشبثون بعصيهم العقيمة وكأنها شارة دالة على حرفتهم. ولكن أين كلابهم؟ إنها تشتت القطيع؛ لقد راحت منهم؛ فقدوا الرائحة. يخيل إلي أني أسمعها تنبح خلف تلال بيتربورو هيلز أو تلهث صاعدة المنحدر الغربي لجبال جرين ماونتنز. لن تكون موجودة عند الموت. لقد راحت حرفتها هي الأخرى. بات إخلاصها وذكاؤها دون المستوى الآن. سوف تنسل خلسة عائدة إلى وجارها في حال من الخزي أو علها ستركض هائجة لتُشكل تحالفاً مع الذئب والثعلب. كذلك تندفع حياتك

الريفية بمحاذاتك وتبتعد. ولكن الجرس يرن، ولا بد أن أبتعد عن خط السكة الحديد وأسمح للعربات بالعبور؛

ما السكة الحديد بالنسبة إليّ؟
لا أذهب أبداً لأري
أين تنتهي.
تملأ بعض التجاويف،
وتصنع مقاعد لطيور السنونو،
تذري الرمال،
وتُنبت ثمار العليق.[1]

ولكني أعبره كمن يعبر سبيل عربة في الغابة. لن أزعج عينيّ وألوث أذنيّ بدخانه وبخاره وهسيسه.

أمّا قد اجتازتني العربات ومعها كل العالم القلق، و لم تعد الأسماك في البحيرة تشعر بدمدمتها، أصبح وحيداً وحدة تامة. قد لا يعيق تأملاتي خلال بقية الظهيرة الطويلة إلا قعقعة خفيضة من إحدى العربات أو زوج من خيل على طول الطريق البعيد.

أحياناً ما تَرِد إلي سمعيّ الأجراس في أيام الآحاد - جرس لينكولن أو آكتون أو بيدفورد أو كونكورد - حين تكون الرياح مواتية، نغم خافت عذب طبيعي يستحق استيراده من البرية. وعند مسافة كافية فوق الغابة يكتسب هذا الصوت دندنة مرتعشة معينة وكأن أوراق الصنوبر الشبيهة بالإبر انقلبت في الأفق أوتار قيثارة جرَت عليه بكل رشاقة. يُنتج كل الصوت المسموع من أبعد مسافة ممكنة الأثر نفسه، يُنتج اهتزازاً من قيثارة كونية، تماماً مثلما يصنع الغلاف الجوي المتداخِل حرفاً نائياً من الأرض يثير اهتمام عيوننا بدرجة زرقاء سماوية يسبغها عليه. ها قد أتت إليّ في هذه الحالة نغمة وتَّرها الهواء، نغمة تحدثت إلى كل ورق الشجر في الغابة، ذلك الجزء من الصوت الذي غنته العوامل الجوية ورنمته ورددت صداه من وادٍ إلى وادٍ. إن الصدى صوت أصيل بمعنى ما، وهنا يكمن سحره وجاذبيته. إنه ليس

1- قصيدة لثورو

مجرد تكرار لِما استحق التكرار في الجرس، ولكن جزءاً منه صوت الغابة؛ الكلمات والألحان العادية نفسها تغنيها حورية من حوريات الغابة.

بدا خوار إحدى الأبقار البعيد مساءً شجياً عذب الصوت في الأفق وراء الغابة، أخطأت وظننته في البداية مغنيين غنوا لي أحياناً، علهم كانوا يهيمون فوق التل والوادي؛ ولكن سرعان ما لم يخب ظني – بكل سرور – حين طال الصوت ليبدو موسيقى رخيصة طبيعية نابعة من البقرة. لا أعنى أن أهجوهم، وإنما أن أعبر عن تقديري لغناء هؤلاء الشبان حين أعلن أني لاحظت بوضوح أن غناءهم يشْبه موسيقى البقرة، إنهم في النهاية تعبير عن الطبيعة.

في خلال إحدى فترات الصيف كانت طيور السُّبَد الأميركي تغني بانتظام صلاة المساء لمدة نصف ساعة في السابعة والنصف بعد مرور قطار المساء، تجلس على جدعة بجوار بابي أو فوق رافدة المنزل. كانت تبدأ الغناء بدقة تكاد تماثل دقة الساعة، في خلال خمس دقائق من وقت محدَّد، مشيرة إلى غروب الشمس كل مساء. تسنت لي فرصة نادرة كي أتعرف إلى عاداتها. أحياناً ما كنت أسمع أربعاً أو خمساً في الوقت نفسه في أماكن مختلفة من الغابة، اتفق أن سمعت الفاصلة الموسيقية وراء الأخرى، قريبة مني للغاية حتى إني لم أميز فقط القَرْق خلف كل لحن، وإنما في الغالب ذلك الطنين المتفرد الأشبه بصوت ذبابة في شبكة عنكبوت، ولكنه أعلى صوتاً تناسبياً. يلف أحدها بين الحين والآخر في الغابة على بعد عدة أقدام وكأن خيطاً يربطها بي حين أكون على الأرجح قريباً من بيضها. تغني بين الفترة والأخرى طيلة الليل، يتحلى غناؤها مرة أخرى برخامة أي رخامة قبيل الفجر وعنده.

عندما تصمت الطيور الأخرى، يستأنف البوم الصيَّاح الغناء شأن نساء يندبن بصيحتهن العتيقة لولولو. لا ريب أن صرخته الموحشة خليقة بشعر بن جونسون. عرافات منتصف الليل الحكيمات! إنه ليس تو-ويت-تو، ليس صياحاً صريحاً فظاً يليق بالشعراء، وإنما – بدون مزاح – أغنية قصيرة وقورة خليقة بالمقابر، عزاء متبادل لأحباء منتحرين يتذكرون أوجاع الحب السماوي ومباهجه في البساتين الجهنمية.

يروقني مع ذلك سماع عويله، ردود أفعاله الحزينة، يرتعش على طول جانب الغابة ليُذكرني أحياناً بموسيقى الطيور وغنائها وكأنها الجانب الكئيب الدامع من الموسيقى، ندمٌ وتنهدٌ يغنيهما عن طيب خاطر. إنها الأرواح، الأرواح السفلية ونُذُر السوداوية، أرواح ساقطة سارت ذات يوم ليلاً على الأرض في هيئة إنسان وارتكبت أفعال الشر، تكفِّر الآن

عن خطاياها بتراتيلها وترانيمها المنتحبة في مشهد الإثم. تمنحني إحساساً جديداً بتنوع الطبيعة وقدرتها، وما هي إلا مسكننا المشترك. "أواااه، لم أولد أبدااااا!" يقول أحد الطيور متنهداً على جانب البحيرة ويدور في ضجر يشوبه اليأس إلى مجثم جديد على أشجار البلوط الرمادية. وبعدها تتردد على الجانب الآخر "لم أولد أبداااااا!" بما ينم عن إخلاص لا حد له و"أبداااااا" تصل إليّ خافتة من بعيد في غابة لينكولن.

غنّت لي أيضاً بومة نعّابة. تستطيع بالقرب منها أن تتخيلها أكثر الأصوات السوداوية في الطبيعة وكأنها تقصد أن تكرر أنين شخص محتضر وتجعله دائماً في جوقتها – أثر ضعيف هزيل من الفناء ترك أملاً خلفه، يصرخ كما الحيوان، ولكن بمصاحبة بكاء بشري عند دخول الوادي المظلم، بات الصوت أكثر بشاعة برخامة تقرقر – أجد نفسي أبدأ بحرفيّ "ج" "ل" عندما أحاول تقليدها – صوت يُعبر عن عقل بلغ مرحلة لزجة متعفنة من مراحل إماتة الفكر الصحي الشجاع. ذكّرني بالغيلان والمعاتيه والولولة المجنونة. ولكن بومة تجيب الآن من الغابة البعيدة بلحن أضفى عليه البعد شجناً حقيقياً: هوو هوو هوو، هوورر هوو: والواقع أنها لم تبح في الأغلب إلا بذكريات سارة، سواء سمعتها نهاراً أو ليلاً، صيفاً أو شتاء.

يتولاني الابتهاج لوجود البوم. فليطلق نعيبه الأبله المسعور على مسمع من الناس. من الجدير بالإعجاب أن الصوت يلائم مستنقعات وغابات وقت الشفق لا يُعبر عنها أي يوم، يوحي بطبيعة شاسعة لا تَعرف التطور، طبيعة لم يكتشفها الإنسان. تُمثل شفقاً صارخاً وأفكاراً غير مُشْبَعة نضمرها جميعاً. أشرقت الشمس طيلة النهار على سطح مستنقع بدائي حيث تَقوم شجرة وحيدة من أشجار الراتينجيّة، تتعلق عليها طحالب رمادية، تدور الصقور الصغيرة في السماء، وتلثغ طيور القرقف بين أغصان نباتات دائمة الخضرة، ويتسلل طائر الحجل والأرنب خلسة أسفلها؛ ولكن يبزغ الآن يوم ملائم أشد وحشة وجدباً فيما يستيقظ جنس مختلف من الكائنات مُعبراً عن معنى الطبيعة هناك.

تناهى إليّ في وقت متأخر من المساء قعقعة بعيدة صادرة من العربات فوق الجسور – صوت أبعد من أي صوت آخر ليلاً – ونباح الكلاب، وأحياناً مرة أخرى خوار بقرة مغتمة في فناء قصي. دوى في غضون ذلك كل الشاطئ بأبواق الضفادع، أرواح لا تَعرف الاستسلام للقدماء من مدمني النبيذ والمنهمكين في السُكر، لا تزال غير نادمة، تحاول أن تشدو بأغنية في بحيرتها الجهنمية – لو أن حوريات ولدن سيغفرن التشبيه، فبالرغم من

عدم وجود أعشاب ضارة، هناك ضفادع هناك – سوف تحافظ عن طيب خاطر على قواعد مرحة تتحلى بها موائدها البهيجة القديمة وإن جشُت أصواتها وصارت وقورة جليلة، تَسخر من الطرب، خسر النبيذ نكهته وبات مجرد خمر لنفخ كروشهم، لا يجيء قط السُكْر الحلو ليحجب ذكري الماضي، وإنما مجرد تخمة وتشبع وانتفاخ. صاحب أعظم الكروش، بذقن على ورقة شجر على شكل قلب تَقُوم مقام منديل المائدة لفكين يسل لعابهما، أسفل هذا الشاطئ الشمالي يعب جفاف عميق لمياه كانت يوماً محتقَرة، يمرر الفنجان هاتفاً، شرر راب، شرر راب، شرر راب! وعلى الفور تأتي المياه من خليج صغير مع تكرار كلمة السر؛ وعندما يدور هذا الطقس على الشواطئ، يهتف إذن رئيس المراسم والرضا يخامره، شرر راب! والكل يكرر بدوره وصولاً حتى أقلهم انتفاخاً وتَرَشُحاً، أقل الكروش ترهلاً أن لا خطأ وقع؛ وبعدها يدور الصراخ مراراً وتكراراً إلى أن تُبدد الشمس سديم الصباح، وعندئذ يصبح زعيم الجماعة هو الوحيد غير القابع أسفل البحيرة، وإنما يصرخ عبثاً، شرر راب، بين الفينة والأخرى ثم يكف منتظراً الرد.

لست متأكداً أني سمعت الديك يصيح أبداً من أرضي، وقد ظننت أن تربية ديك تستحق من أجل موسيقاه ليس إلا، باعتباره طائراً يغني. لا شك أن نداء طائر التَدْرُج الهندي، البري يوماً، هو أكثر نداءات الطيور تميزاً، ولو بالإمكان أقلمته في المنطقة بدون تدجينه، سرعان ما سيصبح أشهر الأصوات في غابتنا متفوقاً على قعقعة الإوز ونعيب البوم؛ وبعدها تخيَّل نقنقة الدجاج تملأ الفراغات حين ترتاح أبواق الأسياد! لا عجب أن الإنسان أضاف هذا الطائر إلى دواجنه فضلاً عن بيض الطائر وأفخاذه. المشي في صباح الشتاء في غابة تعج بهذه الطيور، موطنها الأصلي، وسماع الديوك البرية تصيح على الأشجار صياحاً واضحاً حاداً على بعد أميال يغطي على الأرض المدوية حاجباً نغمات أضعف صادرة من الطيور الأخرى – فكِّر في الأمر! سوف يجعل الأمم منتبه محترسة من الخطر. مَن لن يبكر بالاستيقاظ، ويستيقظ أبكر وأبكر في كل يوم متعاقب من حياته إلى أن ينال ما لا يوصف من الصحة والثراء والحكمة؟ لقد احتفى الشعراء من كل البلاد بصوت هذا الطائر الأجنبي، ومعه أصوات طيورهم المغردة المحلية. ينسجم الديك الشجاع مع كل مناخ. بل إنه بلدي أكثر من سكان البلد. صحته دائماً جيدة، رئتاه سليمتان، لا تذبل روحه المعنوية أبداً. بل إن البحَّار في المحيط الأطلنطي والمحيط الهادي يستيقظ على صوته؛ ولكن صوته الحاد لم يوقظني البتة من نومي. لا أربي كلباً أو قطة أو بقرة أو خنزيراً أو دجاجاً، وعليه قد تقول إن هناك نقصاً في الأصوات

المنزلية؛ ولا صديق أو مغزل أو حتى غناء الغلاية أو هسهسة وعاء الشاي أو أطفال تبكي، لا شيء ليبث في نفسي العزاء. كان أي رجل محافظ ليفقد عقله أو يموت ضجراً بسبب هذا الوضع. بل إن فئران الحائط اضطرت إلى الابتعاد لعدم وجود طعام، أو بالأحرى لم تجد قط طعاماً يغريها بالدخول – فقط السناجب على السطح وأسفل الأرضية، طائر من طيور الشّبَد على الرافدة، طائر أزرق من طيور أبو زُريق يصرخ أسفل النافذة، أرنب وحشي أو مرموط أسفل المنزل، بومة صيّاحة أو بومة كما القطة خلفه، سربٌ من الإوز البري أو طيور الغواص السامك الضاحكة في البحيرة، ثعلب ينبح في الليل. بل إن طائر القُنْبُرَة أو الصافر – طيور مزارع لطيفة – لم تزر قط أرضي. لا ديك يصيح ولا دجاجة تَقيق في الفناء. لا فناء، ولكن طبيعة لا يحدها سور تترامى إلى عتبة نافذتك نفسها. غابة شابة تَكبر أسفل مروجك، وشجرة سُمّاق برية وكرمة عليق تخترق قبوك؛ أشجار صنوبر راتنجي قوية تحك الألواح الخشبية مرسلة صريرها طلباً للمساحة، جذورها تصل إلى أسفل المنزل. بدلاً من كوّة أو ستارة تطير مع العاصفة – انقصفت شجرة صنوبر أو انشقت من جذرها خلف منزلك للوقود – بدلاً من سبيل إلى بوابة الفناء الأمامي في الثلج العظيم – لا بوابة – ولا فناء – ولا سبيل إلى العالم المتحضر.

5- العزلـة

إنها أمسية فاتنة حين يصبح الجسم كله إحساساً واحداً، يمتص البهجة من كل المسام. أذهب وأجيء بحرية غريبة في الطبيعة، جزء من نفْسها. عندما أسير على طول شاطئ البحيرة الصخري بدون سترة، بالرغم من برودة الجو وغيوم السماء والرياح الهابة دون أن أرى شيئاً مميزاً يشد انتباهي، تلائم كل العوامل الجوية – على غير عادتها – طبعي ومزاجي. تتعالى أبواق الضفادع كي تبشر باقتراب الليل، وتنتقل نغمة طائر السُّبَد مع الرياح المتموجة فوق المياه. يكاد التعاطف مع شجر الماء المرتعد وأوراق نبات الحور يحبس أنفاسي؛ ومع ذلك، يترقرق صفائي دون أن يتكدر مثله مثل البحيرة. إن هذه الموجات الصغيرة التي تثيرها رياح المساء في مثل بُعد السطح العاكس الصقيل عن العاصفة. مع أن الدنيا أظلمت الآن، لا يزال العقل يلهث ويهدر في الغابة، لا تزال الأمواج تندفع، وتهدئ بعض المخلوقات الآخرين بألحانها. لا يكتمل السكون قط. لا تَسكن الحيوانات الأكثر برية إلا أنها تسعى الآن إلى فريستها؛ يهيم الثعلب والظربان والأرنب الآن في الحقول والغابة دون أن يساورها خوف. إنها حراس الغابة، روابط تصل أيام الحياة الحية.

عندما أعود إلى منزلي، أجد زواراً أتوا وتركوا بطاقاتهم، باقة من الزهور أو إكليلاً من نباتات دائمة الخضرة أو اسماً مكتوباً بالقلم الرصاص على ورقة جوز صفراء أو رقاقة خشب. يأخذ القادمون إلى الغابة في النادر جزءاً صغيراً منها كي يلعبوا به في الطريق ثم يتركوه عندي سواء عن عمد أو من قبيل المصادفة. قشّر أحدهم قطعة خشب من شجرة صفصاف، لواها كما الخاتم ثم أوقعها على مائدتي. يسعني دوماً أن أعلم إن أتاني زوار أثناء غيبتي سواء من خلال الأغصان المثنية أو العشب أو آثار أحذيتهم، وعموماً جنسهم أو عمرهم أو مزاجهم ببعض الآثار المتخلفة عنهم مثل وردة واقعة أو حزمة من العشب مقتلَعة أو مرمية وصولاً إلى السكة الحديد على بعد نصف ميل أو رائحة متخلفة من سيجار أو غليون. لا، كثيراً ما لاحظت مرور مسافر في الطريق العام على بعد ستين قصبة من رائحة غليونه.

تقع في المعتاد مسافة كافية بيننا. لا يمتد أفقنا على مقربة منا مطلقاً. لا نجد الخشب السميك عند أبوابنا ببساطة، ولا عند البحيرة، وإنما يُقطع دوماً إلى حد ما، مألوف نبليه، خشب نأخذه بدون إذن لنصنع أسياجاً بصورة من الصور، نسترده من الطبيعة. لأي سبب تغدو لديّ هذه المساحة الفسيحة – بضعة أميال مربعة من غابة غير مطروقة لخصوصيتي– التي تركها لي الآخرون؟ يبعد أقرب جيراني عني ميلاً، ولا يوجد من موقعي منزل مرئي عدا قمم التلال في إطار نصف ميل من منزلي. هناك أفق تحده الغابة كله لي وحدي؛ مشهد بعيد للسكة الحديد حيث تحاذي البحيرة من جانب، وسياج يطوق طريق الغابة على الجانب الآخر. ولكن يتسم محل سكني في الأغلب بعزلة أشبه بعزلة البراري. إنها آسيا أو أفريقيا بقدر ما هي نيو إنجلاند. لديّ بمعنى ما شمسي الخاصة وقمري ونجومي، وعالم صغير لي وحدي. لا يمر بمنزلي مسافر قط ليلاً أو يدق بابي وكأني أول رجل وآخر رجل ما لم يكن الفصل ربيعاً حين يأتي البعض من القرية لاصطياد سمك البوت في فترات متباعدة – اصطادوا ببساطة صيداً أكبر في بحيرة ولدن المترامية، وزودوا صنانير الصيد بطُعم الظلام – ولكنهم سرعان ما رجعوا، في الغالب بسلال خفيفة، وتركوا "العالم للظلمة ولي،" دون أن يدنس جوهر الليل الأسود أي جيران من البشر. أعتقد أن الإنسان لا يزال بوجه عام يخاف الظلام قليلاً بالرغم من إعدام كل الساحرات وتقديم المسيحية والشموع إلى العالَم.

ومع ذلك شهدت أحياناً أن أكثر المجتمعات عذوبة ورقة، أكثرها براءة وتشجيعاً، يمكن إيجادها في أي شيء طبيعي، حتى في مُبغض البشر المسكين والشخص السوداوي. لا يمكن أن يلقى مَن يعيش وسط الطبيعة وحواسه سليمة أية كآبة سوداء. لم تكن قط عاصفة، وإنما

موسيقى كما الريح للأذن المعافاة البريئة. لا شيء باستطاعته أن يرغم حقاً رجلاً بسيطاً شجاعاً على الحزن المبتذل. وبينما أستمتع بصداقة الفصول، أثق أن شيئاً لن يجعل الحياة عبئاً عليّ. يروي المطر الرقيق حبوبي ويبقيني في المنزل اليوم، إنه ليس حزيناً كئيباً، وإنما مفيد لي أنا الآخر. بالرغم من أنه يحول دون أن أعزق الأرض، فهو أفيد بكثير من عزقي. لو استمر طويلاً وتسبب في تعفن البذور في الأرض وتدمير البطاطس في الأراضي المنخفضة، سوف يفيد مع ذلك عشب النِجاد، ولأنه مفيد للعشب، سيفيدني أن الآخر. عندما أقارن نفسي أحياناً بالرجال الآخرين، يبدو وكأن الآلهة تفضلني عليهم، وراء نطاق أي صحارى أفطن إليها؛ وكأن لديّ رخصة وكفالة في أيديها، رخصة وكفالة لا يمتلكهما الآخرون، تحرسني وتوجهني. لا أطري على نفسي بيد أنها سوف تطري عليّ لو باستطاعتها. لم تراودني الوحدة أبداً، ولم يقهرني على الإطلاق شعور بالعزلة، عدا مرة واحدة، منذ عدة أسابيع بعد أن وفدت إلى الغابة حين خامرتني الريبة لمدة ساعة إن كان حي الناس المجاور ضرورياً لحياة هادئة صحية. كانت الوحدة بغيضة. ولكنني وعيت في الوقت نفسه بجنون طفيف يداخل مزاجي، وبدا وكأني أتنبأ بشفائي. وسط تساقط المطر الخفيف وهذه الأفكار تطغي على عقلي، أحسست فجأة بمثل هذا المجتمع اللطيف الخيِّر الموجود في الطبيعة، وفي دمدمة قطرات المطر نفسها، في كل صوت ومشهد حول منزلي، ثمة ود لا متناه لا تفسير له أشبه بجو يؤازرني فجأة، لقد جعل المزايا الوهمية للجيران البشريين بلا قيمة، ولم أفكر فيهم مرة أخرى قط. تمددت كل ورقة صنوبر صغيرة وانتفخت بالتعاطف وصادقتني. وقد أدركت بكل وضوح وجود شيء أشبه بطبيعتي، بل في مشاهد نعتاد وصفها بالوحشية أو الحزن. لم يكن هناك كذلك شخص أو قروي هو الأقرب إلى دمائي وإنسانيتي حتى إني ظننت أني لن أحسب أي مكان غريباً عني مجدداً.

"يبدد الصباح الحزن مبكراً؛

قليلة أيامهم في أرض الأحياء،

ابنة توسكار الجميلة[1]".

شهدت بعض أجمل ساعاتي أثناء العواصف الممطرة الطويلة ربيعاً أو خريفاً، عواصف حبستني في المنزل طيلة الظهيرة وكذا صدر الصباح، هدأ أعصابي هديرها وضربها المتواصل؛

1- شعر جيمز ماكفيرسون (1736 – 1796)، مؤلف ومترجم اسكتلندي.

عندما بشَّر شفق مبكر بأمسية طويلة، تسنى الوقت لرسوخ أفكار عديدة وتجليها للذهن. وفي خلال تلك الأمطار الشمالية الشرقية العاتية التي ابتليت بها منازل القرية، عندما وقفت الخادمات على أهبة الاستعداد بمقشة ودلو أمام المداخل كي يمنعن الطوفان، جلستُ خلف باب منزلي الصغير – منزل بأكمله عبارة عن مدخل – واستمتعت تمام الاستمتاع بالحماية. ومع وابل رعدي غزير ضرب البرق شجرة ضخمة من أشجار الصنوبر الراتنجي على الجانب الآخر من البحيرة فصنع ثلماً لولبياً في منتهى الوضوح والاتساق من القمة إلى القاع، عمقه نحو بوصة، وعرضه أربع بوصات أو خمس، وكأنك تحفر ثلماً في عصا للمشي. مررت بها مرة أخرى في اليوم الفائت، وقد عرتني خشية حين ارتقى بصري ولاحظت تلك العلامة وقد باتت أوضح من ذي قبل حيث حلت صاعقة رهيبة لا تُقاوم من السماء المسالمة منذ ثمانية أعوام[1]. كثيراً ما يقول لي الرجال، "أظنك تشعر بالوحدة هناك وترغب في الاقتراب من الناس وخاصة في الأيام المطيرة المثلجة والليالي". يتولاني الإغراء بأن أرد بالتالي: إن تلك الكرة الأرضية بأكملها التي نسكنها ما هي إلا نقطة في الفضاء. إلى أي مدى يَبعد في ظنك منزلا أبعد ساكنين من سكان أحد النجوم المرئية، نجم لا يسعنا إدراك عرض قرصه بأدواتنا؟ لم يجب أن أشعر بالوحدة؟ أليس كوكبنا في دَرْب اللبَّانة؟ لا يبدو سؤالك وكأنه أهم الأسئلة. ما نوع الفراغ الذي يفرق بين الإنسان ورفقائه ويجعله يشعر بالعزلة؟ لقد ألفيت أن إجهاد الساقين لا يمكن أن يُقرِّب عقلاً من عقل آخر. ما هو الشيء الذي نريد أن نَسكنِ بالقرب منه؟ لا بالقرب من العديد من الرجال ولا شك، المحطة، مكتب البريد، البار، المُصَلى، مبنى المدرسة، متجر البقال، منطقة بيكون هيل[2]، حي فايف بوينتس[3] حيث يتجمع الناس، وإنما بالقرب من مصدر حياتنا الدائم، منه تتولد كل تجربتنا، مثلما تَقُوم شجرة الصفصاف بالقرب من المياه وترسل جذورها في ذلك الاتجاه. سوف يختلف الأمر مع الطبائع المختلفة، ولكنه مكان سوف يحفر فيه أي رجل حكيم قبوه... أدركت ذات مساء على طريق ولدن أحد أبناء بلدتي، رجلاً كدَّس ما قيل إنها "ملكية ضخمة" وإن لم أرها مطلقاً. كنتُ أقود اثنين من المواشي متجهاً إلى السوق حين سألني كيف أحمل نفْسي على التخلي عن العديد من وسائل الترف في الحياة. أجبته بأني على يقين من محبتي لحياتي؛ لم أكن أمزح. وهكذا

1– عاش ثورو بجانب بحيرة ولدن من عام 1845 إلى عام 1847، و لم يُنشر كتاب "ولدن" حتى عام 1854.
2– منطقة بيكون هيل: منطقة أنيقة من بوسطن.
3– حي فايف بوينتس: منطقة سابقة سيئة السمعة من مدينة نيويورك.

عدت إلى بيتي وفراشي وتركته ليشق طريقه في الظلام والوحل إلى برايتون أو برايت—تاون، مكان سوف ينتهي إليه صباحاً.

يجعل أي احتمال للاستيقاظ أو تحولي إلى رجل ميت كل العصور والأماكن بلا أهمية. إن المكان محل الواقعة هو المكان نفسه دوماً، مكان تسر به كل حواسنا سروراً لا يوصف. لا نسمح في الأغلب إلا للظروف النائية العابرة بتحديد شؤوننا. الحق أنها مصدر تشتتنا. والأقرب إلى كل الأشياء هو تلك القوة التي تصوغ كينونتها. تُنَفَذ أعظم القوانين 'بالقرب منا' باستمرار. ليس 'بالقرب منا' عاملاً استأجرناه، عاملاً نحب الحديث إليه كثيراً، وإنما عامل يمثلنا عمله.

"يا لاتساع وعمق تأثير قوى السماء والأرض الماهرة!"

"نسعى إلى إدراكها، ولا نراها؛ نسعى إلى سماعها، ولا نسمعها؛ تتماثل مع جوهر الأشياء، فلا يمكن فصلها عنها".

"تؤدي إلى أن يطهر الناس قلوبهم ويقدسونها في كل الكون، يُلبسون أنفسهم أردية العطلات لتقديم الذبائح والقرابين إلى أسلافهم. إنه محيط من العقول الذكية الحاذقة. تستقر في كل مكان، فوقنا، على اليسار، على اليمين؛ تكتنفنا من كل جانب".[1]

إننا موضوع تجربة أجدها عظيمة الأهمية. ألا نستطيع أن نستغني قليلاً عن مجتمع القيل والقال ونحن نخضع لهذه الظروف وندع أفكارنا تبعث فينا البهجة؟ يقول كونفوشيوس حقاً، "لا تبقى الفضيلة يتيماً منبوذاً؛ لا بد من قبيل الضرورة أن تجد الجيران".

قد نخرج عن طورنا مع التفكير خروجاً عاقلاً. وبمجهود واع من العقل بمقدورنا أن نقف بعيداً عن الأحداث ونتائجها؛ وتمر بنا كل الأشياء، الخيرة والشريرة، كما السيل. لسنا منهمكين كل الانهماك في الطبيعة. قد أكون خشباً طافياً في الجدول أو غندرا[2] في السماء تطل عليه. قد أتأثر بعرض مسرحي؛ وعلى الجانب الآخر قد لا أتأثر بحدث واقعي يبدو وكأنه يتعلق بي. لا أعرف نفسي إلا كياناً بشرياً؛ مشهد الأفكار والعواطف إن جاز القول؛ إنني واع لازدواجية يسعني من خلالها أن أقف بعيداً عن نفسي وعن الآخرين. ومهما بلغت حدة تجربتي، أفطن إلى وجود جزء مني أنتقده، جزء ليس —بمعنى ما— مني، ولكنه متفرج لا

1- ثلاث فقرات بقلم كونفوشيوس: (551 – 487 قبل الميلاد)، فيلسوف ومُعلم صيني.
2- غندرا: إله المطر والرعد عند الهندوس

يشارك التجربة، وإنما يسجلها، ليس أنا مثلما هو ليس أنت. عندما تنتهي مسرحية الحياة، قد تكون مأساة، وينصرف المتفرج إلى سبيله. إنه عمل أدبي، عمل خيالي ليس إلا. من السهل أن تجعلنا هذه الازدواجية أحياناً جيران أو أصدقاء سيئين.

أجد وحدتي في أغلب الوقت صحية مفيدة. لا تلبث أن تصير الصحبة – حتى مع خيرة الصحبة – مرهقة تشتت الذهن. يروقني أن أظل بمفردي. لم أجد قط صاحباً عشرته أحلى من العزلة. غالباً ما نشعر بوحدة بين الناس عندما نسافر إلى الخارج أشد من وحدة نشعر بها عندما نمكث في حجراتنا. مَن يفكر أو يعمل دوماً بمفرده، دعه وشأنه. لا تُقاس العزلة بأميال تفصل الفرد عن رفقائه. إن الطالب المجتهد بحق في إحدى خلايا النحل المكتظة بكلية كامبريدج في مثل عزلة درويش في الصحراء. بمقدور الفلاح أن يشتغل بمفرده في الحقل أو الغابة طيلة النهار، يعزق ويقطع، دون أن تراوده الوحدة لأنه عامل، ولكنه عندما يؤوب إلى بيته، لا يستطيع أن يجلس في غرفة بمفرده، تحت رحمة أفكاره، ولكنه يجب أن يمضي إلى مكان "ليرى الأصحاب" ويستجم، ويكافئ – حسبما يظن – نفسه على عزلة اليوم؛ وعليه يتساءل كيف يَقدر الطالب أن يجلس وحيداً في منزله طيلة الليل وأغلب النهار بدون أن يحل عليه السأم أو "الكآبة"؛ ولكنه لا يدرك أن مع أن الطالب في المنزل، يعمل في حقله ويقطع الأخشاب في غابته كما يفعل الفلاح، ويسعى بدوره إلى الاستجمام والرفقة نفسهما التي يسعى إليها الفلاح وإن كانا في صورة مكثفة.

إن الرفقة في المعتاد رخيصة للغاية. نتقابل في فترات متقاربة جداً دون أن يتسنى لنا الوقت لننال أي قيمة جديدة من بعضنا بعضاً. نتقابل ثلاث مرات في اليوم أثناء الوجبات، وكل منا يمنح الآخر مذاقاً من ذلك الجبن القديم العفن. يجب أن نتفق على مجموعة معينة من القواعد، نطلق عليها 'الآداب والتهذب' كي نجعل هذا اللقاء المتكرر محتملاً وكيلا نضطر إلى أن نشن حرباً مفتوحاً. نتقابل في مكتب البريد وحفلات الأنس وإلى جوار المدفأة كل ليلة؛ نعيش عيشة سريعة، يعترض أحدنا طريق الآخر، ونتعثر بالآخرين، وأظن أننا نفقد هكذا بعض الاحترام لبعضنا بعضاً. لا ريب أن تكراراً أقل سيكفي لكل الاتصالات المهمة الودية. فكِّر في فتيات المصانع – لسن وحدهن أبداً، ولا حتى في أحلامهن. سوف يكون من الأفضل أن يَشغل ساكن واحد فقط مساحة ميل مربع، مثلما أعيش. لا تتحدد قيمة الإنسان في جلده، في ضرورة لمسه.

سمعت عن رجل تاه في الغابة ومات من الجوع والإنهاك عند سفح شجرة، وقد خففت من وحدته رؤى بشعة حاصره خياله المريض بها لضعف جسده، رؤى اعتقد أنها واقعية. وبسبب أيضاً الصحة والقوة الجسدية والعقلية قد يشعرنا مجتمع مشابه، وإنما أكثر طبيعية واعتيادية، ببهجة متواصلة لندرك أننا لسنا بمفردها قط.

لديّ الكثير من الرفقة في منزلي، وبخاصة صباحاً حين لا يزورني أحد. دعني أقترح بعض المقارنات كي ينال أحدهم فكرة عن موقفي. لست أكثر وحدة من طائر الغوّاص السّامك في البحيرة، طائر يضحك عالياً، أو أكثر وحدة من بحيرة ولدن ذاتها. أين رفقة البحيرة الوحيدة من فضلك؟ ومع ذلك لا تحوي شياطين زرقاء، وإنما ملائكة زرقاء بلون المياه اللازوردية. الشمس وحيدة، عدا في الجو الضبابي، حين تظهر أحياناً وكأنها اثنين، ولكن الأخرى شمس زائفة. الله وحيد إلا أن الشيطان ليس بمفرده على الإطلاق؛ إنه يقابل الكثير من الرفقاء؛ إنه حشد. لست أكثر وحدة من نبات آذان الدب أو نبات الهندباء البريَّة في المرعى أو ورقة فاصوليا أو نبات الحُمّاض أو ذبابة النّعَرة أو نحلة طنّانة. لست أكثر وحدة من الجدول أو أداة على شكل ديك لإبراز اتجاه الرياح أو نجم الشمال أو الرياح الجنوبية أو أمطار إبريل أو جو يناير الأقل برودة أو أول عنكبوت في منزل جديد.

أستقبل بين الحين والآخر الزيارات خلال أمسيات الشتاء الطويلة عندما يَسقط الثلج سريعاً وتصرخ الرياح في الغابة، زيارات من مستوطِن قديم ومالك أصلي قيل إنه حفر بحيرة ولدن ودعمها بالحجارة وهدَّبها بأخشاب الصنوبر؛ يحكي لي قصصاً عن الأيام الخوالي والأبدية الجديدة؛ تتأتى لنا الاثنين تقضية أمسية مرحة يغلفها طرب اجتماعي ومناظر لطيفة، بل وبدون تفاح أو عصير – صديق في منتهى الحكمة والفكاهة أكن له كل الحب، يحتفظ بنفسه سراً أعمق من السياسي ويليام جوف والقائد العسكري إدوارد والي[1]؛ وبالرغم من أن الناس ظنوا أنه مات، لم يستطع أحد أن يجد قبره. هناك أيضاً سيدة في سن الكهولة تسكن في حيي، لا يراها أغلب الناس، لديها حديقة أعشاب عطرة الرائحة، يروقني أن أتمشى فيها أحياناً، أجمع النباتات الطبية وأنصت إلى حكاياتها؛ فهي تَنعم بنبوغ وخصوبة لا تضاهى، وتعود ذاكرتها إلى ما هو أبعد من الميثولوجيا، وباستطاعتها أن تخبرني بالنسخة الأصلية من كل خرافة، وحقيقةً ترتكز عليها كل واحدة منها، فقد وقعت تلك الحوادث في صغرها.

1– السياسي ويليام جوف والقائد العسكري إدوارد والي: قتلا تشارلز الأول ملك إنجلترا وعاشا مختبئين في أمريكا.

سيدة عجوز متوردة الخدين مفعمة بالحيوية تستمتع بكل الأجواء والمواسم، والأرجح أن تحيا حياة أطول من أولادها.

براءة لا توصف وهبة الطبيعة – هبة الشمس والريح والمطر، الصيف والشتاء – مثل تلك الصحة والمرح التي توفرها للإنسان إلى الأبد! وتعاطف تبديه دوماً مع الجنس البشري حتى إن الطبيعة كلها تتأثر، يبهت بريق الشمس، وتتنهد الشمس تنهدات بشرية، وتمطر السحب دموعاً، وتطرح الغابة أوراقها لترتدي ثوب الحداد في منتصف الصيف لو تولى أي رجل الحزن من أجل قضية عادلة. ألا أتصل بالأرض؟ أليس جزءاً مني أوراق شجر وعفن خضراوات؟

ما هي الحَبَّة التي ستبقينا في عافية وصفاء ورضا؟ لا حبة جد جدي أو جد جدك، وإنما أدوية كونية قدمتها جدة جدتي، الطبيعة، الخضراوات والنباتات، أدوية حافظت دوماً على شبابها لتأخذ بأسباب حياة أطول من حياة بارس العجوز[1]، وأطعمت صحتَها سمنته المتعفنة. أما دوائي الشافي لجميع الأمراض، فبدلاً من واحدة من زجاجات الدجالين، زجاجة تحوي مزيجاً مغموساً في نهر الجحيم أو النهر الميت، زجاجة تَخرج من عربات طويلة مسطحة نراها أحياناً تَحمل الزجاجات، أَعْطِني تياراً من هواء الصباح الخالص. هواء الصباح! إنِ لم يشرب منه الناس في منبع اليوم، ينبغي إذن أن نضعه في زجاجات ونبيعه في المتاجر لنفع مَن فقدوا تذكرة الاشتراك في وقت الصباح في هذا العالَم. ولكن تذكَّر أنه لن يهدأ حتى الظهر حتى في أبرد قبو، ولكن سرعان ما سيطرد سدادات الزجاجات ويتبع خطوات أورورا[2] غرباً. لا أعبد هَيْجيا[3] ابنة طبيب الأعشاب العتيق أسقليبيوس، إلهة مصوَّرة على الجبال وهي تَحمل حية في يد وفي اليد الأخرى فنجاناً تشرب منه الحية أحياناً؛ ولكني أعبد هيبي[4]، ساقية الخمر لجوبيتر كبير الآلهة، ابنة جونو والخس البري[5]، كانت لديها القدرة على إعادة قوة الشباب إلى الآلهة والرجال. الأرجح أنها كانت الشابة المعافاة القوية تماماً الوحيدة التي سارت على سطح الكرة الأرضية، وأينما حلت حلَّ الربيع.

1– بارس العجوز: توماس بارس رجل إنجليزي قيل إنه عاش 152 عاماً.
2– أورورا: إلهة الفجر في الميثولوجيا الرومانية.
3– هَيْجيا: إلهة الصحة عند الإغريق.
4– هيبي: إلهة الشباب في الميثولوجيا الإغريقية.
5– جونو: ملكة الفردوس في الميثولوجيا الرومانية، حملت بهيبي بعد أن أكلت خساً.

6 - الزوار

أعتقد أني أحب المجتمع مثلما يحبه أغلب الناس، وأنا على استعداد كاف أن أثبّت نفسي حيناً مثل مصاص الدماء حين يُقْبل في طريقي أي رجل قوى معافى. لست بطبيعتي ناسكاً غير أني قد أجلس منتظراً خروج أعند المترددين على الحانة إن تطلب عملي ذلك.

أمتلك ثلاثة مقاعد في منزلي، واحداً للعزلة، الثاني للصداقة، الثالث للمجتمع. عندما أقبل الزوار بأعداد أكبر من المتوقع، ما كان هناك إلا الكرسي الثالث لهم جميعاً، ولكنهم وفروا المساحة بوجه عام بالوقوف. من المدهش عدد الرجال والنساء العظماء الذين قد يسع لهم منزل صغير. كان لديّ خمس وعشرون روحاً أو ثلاثون، بأجسامهم، معاً أسفل سقف بيتي، ومع ذلك افترقنا في الغالب دون أن نعي أننا اقتربنا كل هذا الاقتراب من بعضنا بعضاً. يبدو الكثير من منازلنا - العامة والخاصة، بشقق تكاد تستعصي على العد، وأروقة ضخمة وأقباء لتخزين النبيذ وذخائر السلام الأخرى - ضخمة ضخامة مفرطة مقارنةً بسكانها. إنها في منتهى الرحابة والفخامة حتى إن السكان يبدون وكأنهم حشرات طفيلية تغزوها.

إحدى العقبات التي واجهتها في المنزل الصغير هي صعوبة الابتعاد بالقدر الكافي عن أحد الضيوف حين نبدأ نعبر عن أفكارنا الكبيرة بكلمات كبيرة. ترغب في مساحة لأفكارك كي تَبلغ حالة الإبحار وتسلك طريقاً أو اثنتين قبل أن ترسو عند الميناء. لا بد أن تتغلب طلقة فكرتك على حركتها الجانبية المرتدة وتنتظم في سبيلها المطرد الأخير قبل أن تنتهي إلى أذن السامع، وإلا قد تشق طريقها مرة أخرى عبر جانب رأسه. أرادت عبارتنا أيضاً مساحة كي تنفَض وتكوِّن أعمدتها في الفترات الفاصلة. لا بد أن يحصل الأفراد، مثل الأمم، على حدود مناسبة واسعة طبيعية، بل وأرض محايدة فسيحة بينهم. لقد ألفيتها رفاهية فريدة أن أتحدث إلى رفيق على الجانب الآخر من البحيرة. كنا في منزلي قريبين قرباً لم نحتمله – لم نَقدر أن نتكلم بصوت خفيض بما يكفي ليسمع كلانا الآخر؛ حين ترمي في المياه الساكنة حجرين قريبين، تتقاطع المويجات. لو أننا مجرد متحدثين ثرثارين أصواتهما عالية، سوف يتحمل كلانا إذن الوقوف بجانب الآخر، الوجنة بجوار الفك، ويحس كلانا بأنفاس الآخر؛ ولكن لو تحدثنا بنبرة متحفظة متفكرة، سوف نرغب في الابتعاد كي تتسنى لكل الحرارة والرطوبة الحيوانية فرصة كي تتبخر. لو سنتمتع بمجتمع ينعم بحميمية قصوى في باطن كل واحد منا دون أن نتحدث، لا يجب أن نصمت فقط، وإنما يجب أن نبتعد عموماً جسدياً حتى نعجز عن سماع بعضنا بعضاً في أي حال من الأحوال. وبالإشارة إلى هذا المعيار، يلاءم الحديث ضعيفي السمع؛ ولكن هناك أشياء كثيرة رائعة لا يسعنا قولها لو اضطررنا إلى الصراخ. عندما طفق الحوار يتخذ نبرة أرفع وأكثر مهابة، دفعنا بالتدريج مقاعدنا بمبعد عن بعضنا بعضاً إلى أن لامسا الحائط في الركنين المتقابلين، وعندها افتقرنا في المعتاد إلى المساحة الكافية.

ومع ذلك "أفضل" غرفة لديّ – قاعة المعيشة المعدّة دائماً للرفقة، غرفة نادراً ما تَسقط على سجادتها أشعة الشمس – هي غابة الصنوبر الواقعة خلف منزلي. أذهب إلى هناك في أيام الصيف حين يزورني ضيوف بارزون أصطحبهم إليها، لقد كنس خادم لا يقدَّر بثمن الأرضية وأزال التراب عن الأثاث وحافظ على نظام كل شيء.

لو أتى أحد الضيوف، أحياناً ما يشاطرني وجبتي الرخيصة، وما قاطع حديثي أن أقلب عصيدة الذرة أو أراقب ارتفاع رغيف الخبز ونضجه في الرماد. ولكن لو أتى عشرون شخصاً وجلسوا في منزلي، لا نذكر وجبة العشاء مع أن هناك ربما خبزاً يكفي اثنين، وكأنما الأكل عادة منبوذة؛ ولكننا امتنعنا بصورة طبيعية عن الأكل؛ و لم يشعروا قط أنها إهانة للترحاب، ولكنه السلوك الأكثر لياقة ومراعاة. بدت نفاية الحياة الجسدية وفسادها – في حاجة غالباً إلى

إصلاح – معوّقة إعاقة أشبه بالمعجزة في تلك الحالة، وتشبثت القوة الحيوية بموقفها. وسعني إذن أن أستضيف ألفاً من الناس، وكذا عشرين فرداً؛ ولو غادر أي منهم منزلي خائب الأمل أو جائعاً حين وجدوني في المنزل، قد يثقون على الأقل بتعاطفي معهم. إنه في منتهى السهولة – بالرغم من أن الكثير من أرباب البيوت يرتابون في المسألة – ترسيخ عادات جديدة أفضل بدلاً من العادات القديمة. لا يجب أن ترتكن سمعتك على ما تقدمه من وجبات عشاء. أما بالنسبة إليّ، لم يردعني تماماً عن ارتياد منزل أحدهم – أكثر من أي كلب حارس مخيف – إلا عرض أدّاه لإطعامي وجبة العشاء، عرْض اعتبرته تلميحاً مؤدباً ملتوياً إلى عدم إزعاجه مجدداً البتة. أعتقد أني لن أزور أبداً هذه المناظر مرة أخرى. ينبغي أن يخالجني الفخر بأن أضع شعاراً لكوخي سطوراً ألّفها سبنسر[1]، وحفرها أحد زواري على ورقة جوز صفراء كبطاقة:

"وصلوا هناك، منزل صغير يغص بهم،
لا بحثاً عن الضيافة حيث لا توجد؛
الراحة هي المأدبة، وكل الأشياء كما يرغبونها:
أنبل العقول هي الأكثر رضا".

عندما ذهب وينزلو – حاكم مستعمرة بليموث بعدئذ – مع رفيقة في زيارة رسمية إلى الزعيم الهندي ماساسويت سيراً على الأقدام عبر الغابة ووصل إلى كوخه متعباً جائعاً، استقبلهم الملك استقبالاً حسناً إلا أنه لم يذكر يومها شيئاً عن الطعام. حين حل الليل، وأستشهد هنا بكلماتهما، "وضعنا على الفراش معه ومع زوجته، هما عند طرف، ونحن عند طرف، فقد كان مجرد ألواح خشبية منبسطة على بعد قدم عن الأرضية تستقر عليها مَرتبة رفيعة. انضغط في المنتصف اثنان آخران من رجاله الكبار رغبةً منهما في مكان؛ وهكذا تسببت إقامتنا في إرهاق أكبر من الرحلة". وفي الساعة الواحدة من اليوم التالي "جلب ماساسويت سمكتين اصطادهما،" أكبر ثلاث مرات من سمك الأبراميس. "غلاهما، وتواجد أربعون فرداً على الأقل يبحثون عن حصة منهما؛ أكثر نصيب فيهما. تناولنا هذه الوجبة في خلال ليلتين ويوم؛ ولأننا لم نشتر طائراً من طيور الحجَل، أمضينا الرحلة صائمين". خوفاً من أن يصابا بالدوار لحاجتهما إلى الطعام وكذا النوم بسبب غناء "المتوحشين" البربري، (لأنهم اعتادوا الغناء حتى يناموا)"، ولرغبتهما في الوصول إلى بيتهما ولديهما قوة تمكنهما من

1– إدموند سبنسر: (1552 – 1599)، شاعر إنجليزي من قصيدة "ملكة الجن".

السفر، غادرا المكان. أمّا السَكَن، من الصحيح أن الاستضافة كانت رديئة مع أن ما وجداه إزعاجاً قصدوا منه تكريماً ولا ريب؛ ولكن فيما يخص الأكل، لا أرى كيف يمْكن أن يقدّم الهنود طعاماً أفضل. لا يحوزون هم أنفسهم طعاماً، وقد كانوا أحكم من أن يظنوا أن الاعتذار قد يحل محل الطعام لضيفيهما؛ وعليه شدوا أحزمتهم و لم يتحدثوا في الموضوع. عندما زارهم وينزلو مرة ثانية، كان فصل الوفرة و لم يَشهد نقصاً في الطعام.

أمّا الرجال، بالكاد سوف ينقطعوا عني في أي مكان. فقد زارني أثناء سكني في الغابة زوار يزيد عددهم على زوار أي فترة من حياتي؛ أعني زارني البعض. قابلت العديد منهم هناك في ظروف أنسب من أي مكان آخر. ولكن أقل القليل منهم أتوا ليروني بخصوص أمور تافهة. وفي هذا الإطار تغربلت رفقتي لمجرد ابتعادي عن البلدة. لقد انسحبت بعيداً إلى محيط العزلة الهائل، فيه أنهار المجتمع خالية في أغلب الأوقات، أمّا فيما يتعلق بحاجاتي، لم تترسب حولي إلا أرفع الثُفالة علاوة على أن دلائل على قارات غير مكتشفة غير محروثة هبّت نحوي من الجانب الآخر.

مَن ينبغي أن يأتي إلى كوخي في هذا الصباح عدا رجل من الأبطال أشبه بالشاعر هومر أو أحد سكان دولة بافلاجونيا الرومانية العتيقة – لديه اسم شعري مناسب حتى إني آسف لعدم استطاعتي كتابته هنا – كندي وحطاب وصانع أعمدة يسعه أن يثقب خمسين عاموداً في اليوم، أعد عشاءه الأخير بمرموط اصطاده كلبه. سمع هو الآخر عن هومر، و"لولا الكتب، ما كان ليَعلم ما يصنعه في الأيام المطيرة،" بالرغم من أنه لم يُكمل قراءة كتاب واحد لعدة فصول مطيرة. علّمه أحد القساوسة القادر على نطق اليونانية نفسها قراءة شعره في العهد الجديد في أبرشيته المحلية بعيداً؛ والآن يجب أن أترجم له، وهو يمسك الكتاب، توبيخ أخيل لباتروكلس لِما انطبع على ملامحه من حزن، "لِم تدمع عيناك يا باتروكلس كما الفتاة الصغيرة؟"

"أم سمعت بمفردك أخبار من فثيا؟
يقولون إن مينويتوس لا يزال حياً، ابن أكتور،
وبيليوس، ابن أياكوس، يعيش بين المرميدونيين،
لو مات أي منهما، سوف يستحوذ علينا حزن أي حزن".[1]

1- من "إلياذة" هومر.

يقول، "حسناً". يَحمل تحت ذراعه رزمة من لحاء الصنوبر الأبيض ضخمة ضخامة لا تليق برجل حل عليه المرض، جمعها في صباح الأحد. يردف، "أظن أن لا ضرر من السعي إلى هذا اليوم". يعتقد أن هومر كاتب عظيم مع أنه لم يحط علماً بكتاباته. سوف يصعب عليه – وهو رجل أبسط وأكثر طبيعية – أن يدرك كتاباته. تطرح الرذيلة والمرض شكلاً أخلاقياً كئيباً على العالَم، لاحتا وكأن لا وجود لهما عنده. كان في نحو الثامنة والعشرين من عمره، غادر كندا ومنزل أبيه منذ اثنتي عشرة سنة للعمل في الولايات المتحدة وكسب الأموال لشراء مزرعة على الأقل، في موطنه ربما. بدا منظره فظاً كل الفظاظة، لاح صبياً قوي البنيان، ولكن بليد، وإن سار بشكل رشيق، رقبته سميكة سفعتها الشمس، وشعره غامق كثيف، عيناه زرقاوان ناعستان لا بريق فيهما إلا أنهما التمعا بالتعبير بين الفينة والأخرى. ارتدى قبعة رمادية مسطحة من القماش ومعطفاً قذراً بلون الصوف وجزمة من جلد البقر. استهلك كميات وافرة من اللحوم، وغالباً ما كان يَحمل عشاءه إلى العمل على بعد ميلين من منزلي – لأنه كان يقطع الخشب طيلة الصيف – في دلو من القصدير؛ لحوم باردة، مرموط بارد في الغالب، وقهوة في زجاجة حجرية تدلت من حزامه بخيط؛ أحياناً ما كان يَعرض عليّ شراباً. جاء مبكراً عابراً حقلي – حقل الفاصوليا – وإن لم يتوخ القلق أو التسرع للوصول إلى عمله كما هو خليق بأهل نيو إنجلاند. لن يؤذي نفسه. لم يكترث إن لم يكسب إلا طعامه. كثيراً ما كان يترك عشاءه في الغابة حين يصطاد كلبه مرموطاً في الطريق، فيعود ميلاً ونصف ليذبحه ويتركه في قبو المنزل محل سكنه بعد أن يتفكر أولاً نصف ساعة إن لم يستطع أن يغرقه في البحيرة حتى هبوط الليل – فقد راقه تدبر هذه المواضيع طويلاً. كان يبادرني وهو يمر بي صباحاً، "يا لاكتناز الحمَام! إن لم يكن العمل يومياً حرفتي، بوسعي أن أنال كل ما أريده من لحم عن طريق اصطياد الحمام والمراميط والأرانب والحجْلان – يا إلهي! يمكنني أن أحصل على كل ما أريده لمدة أسبوع في يوم واحد". كان قاطع أخشاب ماهراً، ولم تخل براعته من الزخرفة والتأنق. قطع الأشجار مستوية قريبة من الأرض كي يبزغ الشّطْأ بعدئذ بزوغاً أقوى، بما يسمح للزلاجة أن تَعبر فوق الأجذال؛ وبدلاً من ترك شجرة كاملة لتدعم خشبه المكدّس، كان يكشطها لتصبح وتداً نحيلاً أو شظية بمقدورك كسرها في النهاية بيدك.

شد انتباهي لأنه اتسم بمنتهى الهدوء والعزلة، وكذا منتهى السعادة؛ فاض من عينيه نبع من الفكاهة والرضا. لا يشوب مرحه شائبة. أحياناً ما كنت أراه يعمل بالغابة، يقطع الأشجار، كان يلقي عليّ التحية بضحكة تدل على رضا يفوق الوصف، وتحية بفرنسية

كندية مع أنه تحدث أيضاً الإنجليزية. عندما دنوت منه، أمسك عن العمل، وبابتهاج شبه مكبوح رقد على جذع شجرة صنوبر قطعها، قشر اللحاء الداخلي وكوَّره ثم مضغه وهو يضحك ويتحدث إليَّ. نعم بحيوية هائلة تتصف بها أرواح الحيوانات حتى إنه انقلب بين الحين والآخر وتدحرج على الأرض من فرط الضحك على أي شيء جعله يفكر ويدغدغه. رمى بصره حوله إلى الأشجار هاتفاً، "يا نهاري! بمقدوري الاستمتاع بما يكفي هنا أثناء تقطيع الأشجار؛ لا رغبة لي في تسلية أفضل منها". وأحياناً كان يسلي نفسه في وقت فراغه طيلة النهار في الغابة بمسدس جيب، يطلق طلقات التحية لنفسه في فترات منتظمة أثناء السير. أشعل في الشتاء ناراً أدفأ بها ظُهراً غلاية قهوته؛ وحينما يجلس على زند الخشب ليتناول عشاءه، كانت طيور القُرْقُف تأتي وتحط على ذراعه لتقضم البطاطس على أصابعه؛ قال إنه "أحب الرفقاء الصغار حوله".

لقد تطور 'الرجل الحيوان' في باطنه في المقام الأول. كان في جَلَده الجسدي ورضاه ابن عم شجرة الصنوبر والصخرة. سألته يوماً إن كان الإنهاك يتولاه أحياناً ليلاً بعد العمل طيلة النهار؛ فأجابني بوجه تنطبع عليه نظرة صادقة تتلون بالجدية، "اللعنة، لم أتعب قط في حياتي". ولكن المفكر وما يسمى بالرجل الروحي كانا نعسانين داخله مثلما ينعسان داخل طفل. تَعَلَّم بتلك الطريقة البريئة العقيمة فقط لا غير، بها يُعَلِّم القساوسة الكاثوليك سكان البلاد الأصليين، ووفقاً لتلك الطريقة لا يتعلم التلميذ قط ليَبلغ درجة الوعي، وإنما ليَبلغ فقط درجة الثقة والتبجيل، ولا يصير الطفل رجلاً، وإنما يظل طفلاً. حين خلقته الطبيعة، وهبته جسداً قوياً ورضا عن نصيبه، ودعمته من كل جانب بالتبجيل والاتكال ليحيا سنواته السبعين طفلاً. خلا من الرياء والتكلف حتى إن أي تعريف لا يمكن أن يُعرفه وكأنما تُعرف مرموطاً إلى جارك. ينبغي أن يكتشفه كما اكتشفتَه. لن يلعب أي دور. دفع له الرجال أجوراً للعمل، وعليه عاونوا على إطعامه وإلباسه غير أنه لم يتبادل معهم أي آراء. كان متواضعاً على نحو بسيط وطبيعي – لو بمقدورنا وصف المفتقر تماماً إلى أي طموحات "بالمتواضع" – حتى إن التواضع لم يُعتبر صفة جلية في شخصيته، ولا يمكن تصوره من خلالها. ألفى الرجال الحكماء نصف آلهة. لو أخبرته أن حكيماً سيأتي، تصرف وكأن شخصاً بهذه العظمة لن يتوقع منه شيئاً، وإنما سيضع كل المسؤولية على عاتقه ويتركه منسياً. ما تناهت إليه قط كلمة إطراء. أضمر توقيراً خاصاً للكاتب والواعظ. وجد أعمالهما أشبه بالمعجزات. عندما أخبرته أني كتبت كتابة جيدة، حسب طويلاً أني عنيت خطي فحسب، فقد كان بمقدوره أن يكتب

بخط جميل. ألفيت أحياناً اسم أبرشية مسقط رأسه مكتوباً بخط جميل في الثلج بجوار الطريق العام، بالعلامة الفرنسية المناسبة الدالة على النطق، فعلمت أنه اجتاز المكان. سألته إن ود ذات يوم أن يكتب أفكاره. أجاب أنه قرأ الخطابات وقرأها لأناس لم يستطيعوا الكتابة والقراءة غير أنه لم يحاول قط أن يكتب أفكاره – لا، لم يستطع، لم يستطع أن يحدد ما يكتبه أولاً، سوف تقتله الكتابة، وهناك أيضاً العناية بالتهجي!

سمعت أن حكيماً بارزاً ومصلحاً سألاه إن لم يرغب في تغير العالَم بيد أنه أجابهما بلهجته الكندية وضحكة خافتة تنبئ عن دهشة، دون أن يدرك أن أحداً تفكر في السؤال أبداً من قبل، "لا، يعجبني العالَم". سوف يوحي إلى الفيلسوف بالكثير عند التعامل معه. بدا لغريب أنه لا يفقه أي شيء بوجه عام؛ ومع ذلك رأيت فيه أحياناً رجلاً لم أره من قبل، و لم أعلم إن كان في مثل حكمة شكسبير أم أنه في مثل جهل طفل، هل أظن أنه يضمر وعياً شعرياً مرهفاً أم غباوة. باح إليّ أحد أبناء البلدة أنه ذكّره بأمير متنكر حين قابله في القرية وهو يرتدي قبعته الصغيرة المحبوكة ويصفر لنفسه.

لم يمتلك إلا كتابين، كتاباً سنوياً وكتاباً في علم الحساب، وقد اعتبره الناس خبيراً في علم الحساب. ألفى الأول موسوعة، إذ حوى من المفترض خلاصة المعرفة البشرية، وقد حواها حقاً بعض الشيء. راقني أن أستطلع رأيه في إصلاحات اليوم المختلفة، و لم يخفق قط في النظر إليها من منظور غاية في البساطة والعملية. لم يسمع البتة عن تلك الأشياء. سألته إن كان بمقدوره الاستغناء عن المصانع. أنهى إليّ أنه يرتدي قماشاً رمادياً منزلي الصنع من فيرمونت، وهو قماش متين. هل بمقدوره الاستغناء عن الشاي والقهوة؟ هل يقدم هذا البلد أي شراب آخر غير المياه؟ كان ينقع أوراق نبات الشّوْكَران في الماء ويشربه، واعتقد أنه أفضل من المياه في الجو الدافئ. عندما سألته إن كان يستطيع الاستغناء عن الأموال، أوضح نفع الأموال بطريقة أوحت بأكثر التفاسير الفلسفية لأصْل هذه المؤسسة واتفقت معها، وكذا أصل كلمة pecunia (ملكية) نفسها. لو أنه يمتلك ثوراً وأراد أن يجيء بإبرٍ وخيط من المتجر، ظن أنه سيكون مستحيلاً ومزعجاً أن يسارع المرء برهن جزء من هذا الكائن في كل مرة للحصول على ذلك المبلغ. وسعه أن يدافع عن العديد من المؤسسات بصورة أفضل من أي فيلسوف لأنه حين يصف أهميتها لديه يجاهر بالسبب الحقيقي لسيطرتها وغَلَبتها، و لم يوح إليه التأمل بأي أسباب أخرى. سمع في وقت آخر تعريف أفلاطون للإنسان – حيوان بدون ريش – وأن أحدهم عرض ديكاً منتوف الريش مطْلقاً عليه رجل أفلاطون، خال أن

الركبتين مثنيتان بطريقة خاطئة، وهو ما شكّل فرقاً كبيراً. كان يهتف أحياناً قائلاً، "يا لحبي للكلام. يا إلهي، بمقدوري أن أتكلم طيلة النهار". سألته ذات مرة حين لم أره عدة شهور إن كانت لديه فكرة جديدة هذا الصيف. فأجابني، "يا إلهي، رَجل يجب أن يَعمل مثلما أعمل، إن لا ينسى ما أضمره من أفكار، سوف يبلي بلاء حسناً. لعل الرجل الذي تعزق معه الأرض يميل إلى التسابق؛ يجب عندئذ أن تُسلط عقلك هناك؛ تُفكر في الأعشاب الضارة". أحياناً ما كان يسألني أولاً في مثل تلك المواقف إن كنت قد أجريت أية تحسينات. سألته ذات يوم شتوي إن كان الرضا يخالجه دوماً عن نفسه، رغبت في أن يقترح بديلاً داخله للقسيس الموجود خارجه، ودافعاً أسمى للحياة. أجابني، "راضٍ! بعض الرجال راضون عن شيء واحد، والبعض الآخر عن شيء آخر. ربما لو لدى رجل واحد ما يكفيه، سيكون راضياً بالجلوس طيلة النهار وظهره إلى النار وبطنه إلى المائدة، يا نهاري!" ومع ذلك لم أستطع أبداً، بأي دهاء كان، أن أحمله على التطلع إلى الصور الروحية للأشياء؛ كان أسمى ما فهمه، على ما يبدو، نفعية تتحلى بالبساطة، مثلما قد تتوقع من حيوان أن يُقدِّرها؛ ويصح هذا الكلام بصورة عملية على معظم الرجال. لو اقترحت تعديلاً في أسلوب حياته، أجاب فحسب، بدون إبداء أي ندم، أن الأوان قد فات. ومع ذلك آمن كلية بالصدق والفضائل المشابهة.

أمكنني أن أتبين فيه أصالة مُعَيَّنة إيجابية مع أنها طفيفة، لاحظت بين الحين والآخر أنه يفكر لنفسه ويعبر عن أفكاره الخاصة، ظاهرة غاية في الندرة حتى إني قد أسير عشرة أميال لأشاهدها، وقد أدت إلى نشأة العديد من مؤسسات المجتمع مرة أخرى. ومع أن تردداً ساوره، وربما فشل في التعبير عن نفسه بجلاء، أضمر دوماً فكرة محترمة. ومع ذلك كان تفكيره بدائياً مستغرقاً في الحياة الحيوانية حتى إنه، رغم أنه مُبَشِّر أكثر من تفكير الرجل المتعلم، قلما نضج ليستحيل شيئاً يمكن نقله. اقترح احتمالية وجود عباقرة في أسفل مراتب الحياة – مهما بلغت حقارتهم وأميتهم الأبدية – ممن يتمسكون دوماً بآرائهم ولا يدّعون إدراكاً على الإطلاق؛ بل إن لا قاع لهم مثلما حسبوا بحيرة ولدن مع أنهم قد يكونون معتمين موحلين.

انعطف العديد من المسافرين عن طريقهم ليروني ويروا بيتي، وكمبرر للزيارة المفاجئة طلبوا كوباً من الماء. أخبرتهم أني أشرب من البحيرة ثم أشرت إليها عارضاً أن أعيرهم مغرفة. وبالرغم من سكني البعيد، لم أعفى من زيارات سنوية يبدو أنها تقع في الأول من إبريل تقريباً حين يَشرع الجميع في التنقل؛ نلت نصيبي من حسن الحظ وإن تخلل زواري

أشخاص فضوليون. أتى لرؤيتي رجال بلهاء من الملجأ وبقاع أخرى، ولكني سعيت إلى حثهم على استغلال كل ما لديهم من عقل وتسجيل اعترافاتهم في كتاب ضخم؛ وفي مثل تلك الحالات تمحور موضوع الحديث حول صناعة الذكاء؛ وعليه حدَث بعض التعويض والتوازن. الحق أني ألفيت بعضهم أحكم من المزعومين من مشرفي الفقراء وموظفي البلدة، وحسبت أن الأوان قد آن لقلب الموائد. ومع احترامي للذكاء، تعلمت أن لا فرق كبير بين النصف والكامل. زارني ذات يوم على وجه التحديد رجل عالة مسا لم أبله - أبصرته كثيراً مع آخرين يُستخدَمون كأسياج، واقفاً أو جالساً على مكاييل للحبوب في الحقل لمنع الماشية ومنع نفسه من الشرود - وأفضى إليّ برغبته في الحياة مثلي. قال لي بلهجة تعكس غاية البساطة والصراحة، لهجة أسمى تماماً - أو بالأحرى أدنى - من أي شيء يسمى 'التواضع' إنه "ضعيف العقل". إنها كلماته. خلقه الرب هذه الخلقة، ومع ذلك افترض أن الرب عبأ به كما عبأ بالآخرين. استأنف، "كنتُ دائماً على هذا النحو، منذ طفولتي؛ لم أكن أبداً حاد الذكاء؛ لم أكن كالأطفال الآخرين؛ إنني معتل العقل. إرادة الرب على ما أظن". وها هو هناك ليثبت صحة كلماته. حسبته لغزاً ميتافيزيقياً. نادراً ما التقيت برجل يرتكز على مثل هذا الأساس الواعد - كان كل ما نطق به بسيطاً مخلصاً لا تنقصه الأمانة. الحق أن مقامه ارتفع وعلا مقارنةً بما بدا عليه من مظهر متواضع. لم أدرِ في البداية أنها نتيجة لسياسة حكيمة ليس إلا. بدا أن حوارنا قد يتقدم من ذلك الأساس من الحقيقة والصراحة - أساس وضعه العالة الفقير ضعيف العقل - ليستحيل حواراً أفضل من حوار الحكماء.

زارني ضيوف لا يُعتبَرون في المعتاد من بين فقراء البلدة، ولكن الآخرين ينبغي أن يعتبروهم فقراء؛ إنهم أفقر فقراء العالَم في تقديري؛ ضيوف لا ينشدون حسن الضيافة، وإنما المأوى؛ ضيوف يرغبون جدياً في الحصول على عون ويستهلون مناشدتهم بمعلومة، ألا وهي أنهم عاقدو العزم ألا يعاونون أنفسهم أبداً. أطلب من الزائر ألا يكون ميتاً حقاً من الجوع مع أنه قد يتمتع بأفضل شهية في العالَم. ليس الضيوف أهدافاً لفعل الإحسان، مَن لم يَعلم من الرجال موعد انتهاء زيارتهم رغم أني انهمكت مجدداً في شؤوني مجيباً إياهم من مسافة أبعد وأبعد. زارني رجال في موسم الهجرة يتصفون بكل درجات الذكاء تقريباً. نعم بعضهم بذكاء لم يفقهوا ما يفعلون به؛ عبيد هاربون بسلوكيات المَزارع[1] أنصتوا من حين لآخر

1- عبيد هاربون بسلوكيات المَزارع: كان ثورو عضواً في شبكة 'سكة حديد سرية'، شبكة من رافضي الاسترقاق أرشدوا العبيد الفارين إلى كندا.

شأنهم شأن ثعلب في حكاية خرافية وكأنما سمعوا الكلاب تنبح في أعقابهم وتطلعوا إليّ بما ينم عن تضرع قائلين،

"أيها المسيحي، هل ستعيدني؟"

ساعدت أحد العبيد الهاربين الحقيقيين كي يتقدم نحو نجم الشمال. إنهم رجال أصحاب فكرة واحدة مثل دجاجة بفَروج واحد وبطة صغيرة؛ رجال أصحاب ألف فكرة، وعقول مهمَلة مثل ذلك الدجاج المسئول عن ألف فَروج، كلهم لملاحقة حشرة واحدة، ينوء عدد لا حصر له منهم مع نداوة كل صباح، وعليه تتجعد عقولهم وتبلى؛ رجال ذوو أفكار بدلاً من أرجل، أم أربع وأربعين فكرية تزحف في كل مكان. اقترح أحد الرجال دفتراً يقيد فيه الزوار أسماءهم مثل سلسلة 'الجبال البيضاء'؛ ولكن، واحَسْرَتاه! ذاكرتي أقوى من أن أضطر إلى الاحتفاظ بمثل هذا الدفتر.

لم أتمالك أن ألاحظ بعض سمات تسم زواري. بدا الصبية والفتيات والشابات سعداء بوجه عام لزيارة الغابة. سددوا أنظارهم إلى البحيرة والأزهار وأحسنوا استغلال وقتهم. لم يفكر رجال الأعمال، بل والفلاحون، إلا في العزلة والعمل، ومسافة بعيدة تفصل سكني عن هذا المكان أو ذاك؛ ومع أنهم ادعوا أنهم يحبون التنزه في الغابة بين الحين والآخر، كان من الواضح أنهم لا يحبونه. رجال متململون ملتزمون شغلوا وقتهم في كسب القوت أو الاحتفاظ به؛ قساوسة يتحدثون عن الله وكأنهم يستمتعون باحتكار الموضوع، لم يحتملوا كل أنواع الآراء؛ أطباء، محامون، ربات بيوت مرتبكات تطلعن بعيون متطفلة إلى خزانتي وفراشي أثناء وجودي في الخارج – كيف للسيدة فلان أن تدري أن ملاءاتي ليست في مثل نظافة ملاءاتها؟ – شبان كفوا عن الشباب وقرروا أنه من الأسلم أن يَسلكوا سبيلاً مطروقاً من المهن – كل أولئك قالوا عموماً إن ليس بإمكاني صنع الكثير من الخير في موقفي. أجل! ها هي المشكلة. كان العجوز والمتردد والخائف، من أي عمر وجنس، يفكرون في المرض والحوادث المباغتة والموت؛ تراءت الحياة لهم حافلة بالمخاطر – أين الخطر إن لم تفكر فيه؟ – وظنوا أن رجلاً حصيفاً سيختار المكان الأسلم، وهناك يستطيع الطبيب باء[1] أن يصير في المتناول عند انطلاق لحظة التحذير. ينظرون إلى القرية نظرتهم إلى المجتمع بكل ما تضمه الكلمة من معني، عصبة للدفاع المشترك، وسوف تفترض أنهم لا يذهبون لالتقاط العليق

1- الطبيب باء: إشارة إلى دكتور جوسايه بارتلت، طبيب كونكورد.

بدون أخذ دواء للصدر. ولو أن الإنسان حي فهو معرّض دوماً لخطر الوفاة بفعل كمية ذلك الدواء وإن كان لا بد أن يكون الخطر أقل نسبياً لأنه ميت وحي منذ البداية. يتعرض الإنسان وهو جالس لخطر يتعرض لمثله أثناء الركض. وفي النهاية بزغ مصلحون مزيفون – أكثر المصلحين إضجاراً – حسبوا أني أغني دائماً وأبداً:

هذا هو المنزل الذي بنيته؛

هذا هو الرجل الذي يعيش في المنزل الذي بنيته؛

ولكنهم لم يفطنوا إلى أن السطر الثالث كان:

هؤلاء هم الناس الذين يقلقون الرجل

الذي يعيش في المنزل الذي بنيته.

ما انتابني خوف من كلاب الصيد لأني لم أرب دجاجاً غير أن خفت من صيادي الرجال.

زارني زوار أكثر ابتهاجاً من الزوار الأخيرين. أتى الأطفال لالتقاط التوت، تمشى رجال السكة الحديد صباح الأحد في قمصان نظيفة، صيادو سمك وصيادو حيوانات، شعراء وفلاسفة؛ باختصار، كل الرحالة المخلصين ممن وفدوا إلى الغابة من أجل الحرية، وتركوا حقاً القرية خلفهم، كنت على استعداد لتحيتهم – "أهلاً أيها الإنجليز! أهلاً أيها الإنجليز!" لأن اتصلت من قبل بتلك السلالة البشرية.

7 – حقل الفاصوليا

كانت الفاصوليا – ويبلغ طول صفوفها مجتمعةً سبعة أميال – مزروعة بالفعل في غضون تلك الأحداث، تاقت كل التوق لأن الأولى نَمت كثيراً قبل أن أضع الأخيرة في التربة؛ الحق أن تأجيل العزق لم يَسهل عليّ. ما معنى هذا الجهد المنتظم الفخور، هذا الجهد البسيط الخليق بهرقل، لا دراية لي. أصبحت أحب صفوفي، صفوف فاصوليا، وإن أحببتها حباً يفوق رغبتي. لقد ربطتني بالتربة، وعليه نلت قوة كقوة العملاق أنتايوس. ولكن لم ينبغي أن أزرعها؟ الله وحده يدري. كان هذا عملي الدقيق طيلة الصيف، عملي أن أجعلَ هذا الجزء من سطح الأرض – جزء لم يُنتج من قبل إلا نبات البُوْطَنْطلّة والعليق وعشبة القديس جون وغيرها من النباتات، وفواكه برية حلوة وأزهار لطيفة – ينتج هذه الحبوب. ماذا سأتعلم من الفاصوليا وماذا ستتعلم مني الفاصوليا؟ أعِزّها، أعزقها مبكراً، ومؤخراً أراقبها؛ هذا هو عمل اليوم. أرنو إلى ورقة عريضة رفيعة. يساعدني ندى ومطر يرويان هذه التربة الجافة، والخصوبة في التربة نفسها غالباً ما تكون هزيلة واهنة. أعدائي هم الدود والأيام الباردة،

ومعظم حيوانات المرموط. قضمت حيوانات المرموط لي ربع أكر حتى آخره. ولكن مَن أعطاني الحق في طرد عشبة القديس جون وغيرها وتدمير حديقة الأعشاب العتيقة؟ ومع ذلك سرعان ما ستغدو بقية الفاصوليا جامدة لا تَصلح للأكل وستمضي لمقابلة أعداء جدد.

زرعت حوالي آكرين ونصف نَجْد؛ ولأن الأرض لم تنظف منذ نحو خمس عشرة سنة، وأخرجت بنفسي ثلاثة أجذال أو أربعة، لم أسمد الأرض؛ ولكن بدا لي في غضون الصيف من خلال نباتات السُّهْمِيَّة التي قلبتها مع العزق أن أمة ما منقرضة سكنت هنا قديماً وزرعت ذرة وفاصوليا قبل مجيء الرجل الأبيض لتسوية الأرض، وعليه، فقد أرهقت التربة إلى حد ما بما حال دون زراعة هذا المحصول تحديداً.

قبل أن يعدو أي مرموط أو سنجاب في الطريق أو تعلو الشمس فوق شجيرات البلوط، بينما كل الندى ساقط – مع أن المزارعين حذروني من هذا الفعل، أنصحك بإتمام كل عملك لو أمكن والندى ساقط – بدأت أسوي صفوف الأعشاب الضارة المتغطرسة في حقل الفاصوليا وأرمي التراب على رؤوسها. عملت في الصباح الباكر حافي القدمين، ألعب بقدميّ كالنحّات في الندى والرمل المتفتت، ولكن الشمس تسببت في وقت لاحق من اليوم في إصابة قدميّ بالبثور. أرشدتني الشمس هناك إلى عزق الفاصوليا، مشيت ببطء ذهاباً وإياباً فوق ذلك النَّجْد الأصفر المفروش بالحصباء، بين الصفوف الخضراء الطويلة، خمس عشرة قصبة، انتهى أحد الطرفين عند أيكة من شجيرات البلوط، وعندها استطعت أن أستريح تحت ظلالها، بينما انتهى الطرف الثاني عند حقل عليق كان لون توته الأخضر يغمق كلما قمت بنوبة جديدة. أزلت الأعشاب الضارة ووضعت تربة جديدة حول سيقان الفاصوليا، شجعت هذا العشب الذي بذرت بذوره، تركت التربة الصفراء تُعبر عن فكرها الصيفي في شكل أوراق الفاصوليا وزهراتها بدلاً من نبات الأفَسنْتين وعشب الدُّخْن لتجعل الأرض تقول 'فاصوليا' بدلاً من 'عشب' – كان هذا هو عمليَ اليومي. ولأني لم أنل إلا مساعدة قليلة من الأحصنة أو الماشية، ولم أؤجر رجالاً أو صِبية ولم أحسِّن أدوات الزراعة، كنت بطيئاً للغاية، فأصبحت أكثر ألفة مع الفاصوليا من المعتاد. ولكن لعل العمل اليدوي – حتى لو واصله الإنسان لدرجة الكدح – ليس أبداً أسوأ أنواع الكسل. إنه يقدِّم درساً أخلاقياً دائماً لا ينقطع، ويسفر للعالم عن نتيجة كلاسيكية. اعتقد المسافرون المتجهون غرباً عبر لينكولن ووايلاند إلى مكان لَا يَعلمه أحد أني مزارع كادح؛ كانوا يجلسون على راحتهم في عرباتهم، ومرافقهم تستند على ركبهم، والعنان يتدلى طليقاً بين أشرطة العربة المتهدلة؛ وألبث أنا في البيت، ابن بلد

يكدح في التربة. ولكن سرعان ما يَغيب مسكني عن بصرهم وفكرهم. كان الحقل الوحيد المفتوح المزروع لمسافة كبيرة على جانبيّ الطريق، وعليه استغلوه أفضل استغلال؛ وأحياناً ما كان رجل الحقل يسمع بعضاً من ثرثرة المسافرين وتعليقاتهم، كلمات لم يكن من المفترض أن يسمعها: "فاصوليا متأخرة للغاية! بسلة متأخرة للغاية!" – فقد واليت الزراعة حين طفق الآخرون يعزقون – دون أن يخالج الشك مطلقاً المُزارع الكادح. "ذُرة، يا ولدي، للعلف؛ ذُرة للعلف". "هل يعيش هناك؟" يسأل ذو القبعة السوداء والمعطف الرمادي؛ ويكبح المزارع صلب الملامح فرسه الممتن ليسأل عما تفعله حيث لا يرى سماداً في الحقل، ينصحك برقائق قليلة من الوحل أو أي نفاية قليلة، قد تكون رماداً أو جصاً. ولكن يمتد هنا آكران ونصف من الأثلام، ومعزقة فقط بدلاً من العربة ويدان لجرها – أبغض عربات الآخرين وأحصنتهم – ورقائق الوحل بعيدة عني. وبينما قعقع الرفقاء المسافرون بحذائي، قارنوها بصوت عال بحقول اجتازوها، وهكذا فطنت إلى موقعي في دنيا الزراعة. كان هذا حقلاً لا يضمه تقرير السيد كولمان[1]. وبالمناسبة، مَن يُقدِّر قيمة المحصول الذي تنتجه الطبيعة في حقول لم تزل بوراً لم يطورها الإنسان؟ يتم وزن محصول القش الإنجليزي بدقة وحساب الرطوبة، أملاح السّليْكات والبوتاس؛ ولكن ينمو في كل الأودية الصغيرة وحُفر البحيرات بالغابة والمراعي والمستنقعات محصولاً غنياً متنوعاً لا يجنيه الإنسان. هكذا كان محصولي، ربطة وصْل بين البري والحقول المحروثة؛ وبينما بعض الولايات متحضرة، وولايات أخرى نصف متحضرة، وولايات أخرى همجية أو بربرية، أيضاً كان حقلي، ولكن ليس بمعنى سيء، حقل نصف محروث. كانت الفاصوليا تعود مبتهجة إلى ولاية برية بدائية حرثتها، وقد عزفت لها معزقتي لحن الرعاة السويسريين "صفوف الأبقار".

يغني طيلة الصباح بالقرب مني، أعلى أغصان شجر البتولا، طائر الدُّرّاس – أو طائر السُّمْنَة الأحمر كما يروق البعض تسميته، تستولي عليه السعادة بصحبتك، سوف يعثر على حقل فلاح آخر لو اختفى حقلك. وبينما تغرس البذور، يصيح: "أسقطها، أسقطها – غطها، غطها – اجذبها، اجذبها، اجذبها". ولكنها لم تكن ذُرة، وعليه كانت آمنةً من الأعداء مثله. قد تتساءل عن صلة هذا الهراء – أدائه الهاوي الخليق بباجانيني[2] على وتر أو عشرين وتراً – بزراعتك، ومع ذلك تفضله على الرماد المرشَّح أو الجص. كان نوعاً رخيصاً من السماد وضعت فيه كل ثقتي.

1– السيد كولمان: هنري كولمان (1785 – 1848)، موظف زراعي بولاية ماسيتشوسيتس.
2– نيكولو باجانيني: (1782 – 1840) ملحن وعازف كمان إيطالي.

بينما كنت أجذب بمعزقتي تربة أكثر نضارة حول الصفوف، أزرع رماد أمم غير مؤرَّخة، أم عاشت تحت هذه السموات خلال السنوات البدائية، ظهرت للعيان خلال العصر الحديث أدواتهم الصغيرة في الحرب والصيد. رقَد الرماد مختلطاً بأحجار طبيعية أخرى، حملت بعضها علامات الحرق بنار الهنود، والبعض الآخر حرقته الشمس، وكذلك أجزاء من فخار وزجاج جلبه إلى هنا مؤخراً حارثو التربة. عندما رنَّت معزقتي لارتطامها بالأحجار، رددت تلك الموسيقى الصدى في الغابة والسماء، ورافقت عملاً أنتج محصولاً فورياً يمكن قياسه. لم تعد فاصوليا، و لم أعزق فاصوليا؛ وتذكرت بأسف لا يقل عن الفخر – لو أني تذكرت على الإطلاق – معارفي ممن قصدوا المدينة لحضور الموشحات الدينية. دار طائر السُّبَد في السماء خلال الأصيل المشمس – فقد قضيت أحياناً النهار كله في مشاهدته – شأنه شأن ذَرَّة في العين أو في عين السماء، هبط منقضاً بين الفينة والأخرى مرسلاً صوته وكأن السماء تقطعت، تمزقت في النهاية أسمالاً وخِرَقاً، ومع ذلك لبثت السماء متجانسة؛ عفاريت صغيرة يغص بها الهواء، تضع بيضها على الأرض فوق رمل أجرد أو صخور على قمم التلال حيث يجدها قلة من الناس؛ رشيقة نحيلة مثلها مثل موجات صغيرة ترقرق على البحيرة بينما ترتفع أوراق الأشجار بفعل الريح لتطفو في السماء؛ إن مثل تلك القرابة من صفات الطبيعة. الصقر أخ هوائي للموجة، موجة يبحر فوقها ويراقبها، يجيب جناحاه المثاليان المنتفخان بالهواء على أجنحة البحر الأولية معدومة الريش. أو راقبت أحياناً زوجين من صقور الدجاج يدوران عالياً في السماء، يحلقان ويهبطان بالتناوب، يدنوان ثم يبتعدان وكأنهما تجسيد لأفكاري. أو شد انتباهي مرور الحمام البري من هذه الغابة إلى غابة أخرى بصوت خفيض مرتعش يرفرف وتعجُل جدير بساعي البريد؛ أو من أسفل جذل متعفنة أظهرتْ معزقتي سَمَنْدَلاً كسولاً عجيباً مُنقَّطاً، أثراً من آثار مصر والنيل يبد أنه معاصر لنا. عندما أمسكت لأنحني على المعزقة، سمعت وأبصرت هذه الأصوات والمشاهد في كل مكان من الصف، إنها جزء من تسلية لا تنضب يقدِّمها الريف.

تُطلق البلدة في أيام المهرجان بنادق هائلة يتردد صداها في هذه الغابة شأن بنادق الأطفال، تتخللها من حين لآخر بعض الموسيقى العسكرية الشاردة. وبعيداً هناك في حقل الفاصوليا في الطرف الآخر من البلدة، بدت لأذنيّ البنادق الكبيرة وكأن فُطراً نَفَّاثاً انفجر؛ وعندما يحين موعد اجتماع عسكري لا علم لي به، يساورني أحياناً طيلة اليوم إحساس خفيف بحكة ومرض في الأفق وكأن طفحاً جلدياً سوف ينفجر قريباً هناك، سواء حمى

قرمزية أو قرحة أكّالة، إلى أن نقلت إليّ في النهاية هبة رياح مواتية متسارعة عالياً فوق الحقوق على طريق وايلاند أخبار "المدرِّبين".

بدا من خلال الهمهمة البعيدة وكأن نحل أحدهم يحتشد، وكان الجيران، وفقاً لنصيحة الشاعر فيرجل، يحاولون دعوتهم إلى خلية النحل من جديد برنين أجراس خافت مستخدمين أكثر أدواتهم المنزلية رنيناً. وحين اضمحل الصوت وخفَت ثم انقطعت الهمهمة، وأحجم النسيم المواتي عن سرد القصص، علمت أنهم وضعوا آخر ذكر من ذكور النحل آمناً في الخلية بمنزل ميدلسكس، وأن عقولهم الآن مصممة على جلب عسل تلطخت به الخلية.

خالجني فخر أن أعلم أن حريات ماسيتشوسيتس ووطن أسلافنا في رعاية جديرة بالثقة؛ وحينما عاودت العزق من جديد، اعتراني إحساس بثقة عصية على الوصف وواليت عملي في مرح مغلّف بثقة هادئة في المستقبل.

عندما تواجدت عدة فرق موسيقية، بدا وكأن كل القرية منفاخ ضخم وكل المباني تفككت وانهارت بالتعاقب مرسلة جلبة. ولكن لحناً نبيلاً ملهماً بحق بلَغ أحياناً هذه الغابة، وكذلك بوقاً غنّى للشهرة، وشعرت وكأن بمقدوري أن اضرم النار في مكسيكي[1] لأنال تابلاً لذيذاً – لم ينبغي أن نتحمل دوماً التوافه؟ – أنظر حولي بحثاً عن مرموط أو ظربان لأظهر معه شهامتي. بدَت هذه الألحان العسكرية في بعد فلسطين، وقد ذكرتني بإحدى مسيرات الصليبيين في الأفق، باندفاع خفيف وحركة مرتجفة من قمم شجر الدّردار المتدلي على القرية. كان أحد الأيام العظيمة مع أن السماء تبدت من أرضي بالمظهر الرائع نفسه الذي تظهر به يومياً، و لم أشهد أي اختلاف يشوبها.

كان تعارفي الطويل مع الفاصوليا تجربة فريدة، مع كل هذا الغرس والعزق والحصاد والدرس والانتقاء والبيع – الخطوة الأخيرة هي الأصعب – وقد أضيف الأكل لأني تذوقتها بالفعل. عقدت العزم على معرفة الفاصوليا. حين كانت تنمو، عزقت بدءاً من الخامسة صباحاً إلى الظهيرة، واعتدت أن أمضي بقية اليوم في تأدية شؤون أخرى. تأمّل اطلاعاً حميماً دقيقاً يقُوم به المرء على أنواع مختلفة من الأعشاب الضارة – سوف يحوي بعض التكرار لأنه كثير في العمل – أزعج منظمات الأعشاب الرقيقة بقسوة ما بعدها قسوة، وأصنع بالمعزقة

1 – مكسيكي: إشارة ساخرة إلى الحرب المكسيكية الأمريكية التي نشبت وثورو يسكن جوار بحيرة ولدن، وقد عارضها ثورو بشدة لأنها أطالت أمد العبودية. ليست تلك عبارة عنصرية كما يبدو عليها في سياق العصر الحالي.

مثل تلك الفوارق المثيرة للحسد، إذ سويت بالأرض صفوفاً كاملة من صنف واحد وحرثت صنفاً آخر بعناية أي عناية. ذلك نبات الأفَسنْتين الروماني - ذلك نبات رِجْل الاوز - ذلك نبات الحُمّاض - انْقَض عليه، قَطّعه قطعاً قَطَعاً، قلّب جذوره عالياً نحو الشمس، لا تدع أليافه في الظل، لو تركتَها، سوف يقلب نفسه رأساً على عقب ويصبح خلال يومين في مثل اخضرار الكراث. حربٌ طويلة، لا مع طيور الغرنوق، وإنما مع الأعشاب الضارة، تشبه في عزمها أبناء طروادة، وإلى جانبها تقف الشمس والأمطار والندى. رأتني الفاصوليا يومياً آتياً لإنقاذها مسلّحاً بالمعزقة، أضعف صفوف أعدائها وأملأ الخنادق بالأعشاب الميتة. ارتفعت العديد من القمم القوية، وكأنما يُلوح البطل هيكتور[1] بيده، قدماً كاملةً فوق رفقائه المحتشدين، ولكنه سقط أمام سلاحي وتدحرج على التراب.

خصص بعض المعاصرين تلك الأيام الصيفية للفنون الجميلة في بوسطن أو روما، وخصصها آخرون للتأمل في الهند، وخصصها آخرون للتجارة في لندن ونيويورك، خصصتها أنا للزراعة مع المزارعين الآخرين في نيو إنجلاند. لا لأني أردت فاصوليا لآكل، فأنا بطبيعتي فيثاغورسي[2] فيما يتعلق بالفاصوليا، وقد استبدلت بها الأرز، ولكن يجب أن يعمل البعض في الحقول لو فقط من قبيل المجاز والتعبير كي يخدم يوماً أحد رواة الحكايات الرمزية. كانت في المجمل تسلية نادرة - استمرت طويلاً - قد تتحول إلى إسراف وتبذير. بالرغم من أني لم أضف إليها سماداً و لم أعزقها كلها مرة، عزقتها عزقاً جيداً غير معتاد كلما مضيت إلى الحقل ونلت الثمن في النهاية، كما يقول إيفلين[3]، "الحق أن لا روث أو سماد أياً كان يقارَن بهذه الحركة المتواصلة، الحرث مرة ثانية وقلب التربة بالمجرفة". ويضيف في فقرة أخرى، "تحوي التربة، ولا سيما لو نضرة، مغناطيساً مُعيّناً يجذب الملح أو القوة أو الفضيلة (أطلق عليها أي اسم) المانحة للحياة، وهي منطق كل عمل ونشاط نؤديه حولها لتمدنا بأسباب الحياة؛ وما كل التسميد بالروث والعلاج القذر الآخر إلا بديل عن هذا التطوير". علاوة على أنه واحد من تلك "الحقول البالية المنهَكة التي تستمتع بفترة الراحة" وتجذب كما يعتقد على الأرجح السير كينيلم ديجبي[4] "أرواحاً حيوية" من الهواء. لقد

1- البطل هيكتور: أحد محاربي طروادة قتله أخيل في ملحمة هومر "الإلياذة".

2- فيثاغورس: (582 - 507 قبل الميلاد) فيلسوف ورياضي يوناني أيد الامتناع عن أكل الفاصوليا ومنع تلاميذه من أكلها.

3 - جون إيفلين: (1620 - 1706)، مؤلف وعالم بساتين إنجليزي.

4- السير كينيلم ديجبي: (1665 - 1603)، دبلوماسي وفيزيائي وقائد بحري إنجليزي

حصدت ستة وتسعين جالوناً من الفاصوليا.

ولكن لكي أكون أكثر تحديداً – لأن هناك شكوى من أن السيد هنري كولمان سجل في الأساس تجارب مكلّفة خاضها المزارعون النبلاء – كانت مصاريفي كالتالي:

معزقة... $ 0.54

الحرث، التسوية، تثليم التربة... 7.50 غالي الثمن.

بذور فاصوليا... 3.12½

بذور بطاطس... 1.33

بذور بسلة... 0.40

بذور لفت... 0.06

سلك أبيض لسور الغربان... 0.02

حصان للعزق وصبي لمدة ثلاث ساعات... 1.00

حصان وعربة للحصول على المحصول... 0.75

الإجمالي... $14.72½

كان دخلي من

تسعة مكاييل واثنتي عشرة كُوارْتات من الفاصوليا... $16.94

خمسة مكاييل من البطاطس الضخمة... 2.50

تسعة مكاييل من البطاطس الصغيرة... 2.25

عشب... 1.00

سيقان... 0.75

الإجمالي... $23.44

ومع ترك فائدة مالية كما قلت في مكان آخر... $8.71½

هذه نتيجة تجربتي في زراعة الفاصوليا: ازرع فاصوليا بيضاء صغيرة عادية في بداية شهر يونيه، في صفوف مساحتها ثلاث أقدام، على بعد ثماني عشرة بوصة، احرص على اختيار بذور مستديرة طازجة غير مخلوطة. احذر أولاً من الدود ووفّر فراغات عن طريق الزراعة من

جديد. ثم انتبه إلى حيوانات المرموط لو المكان مكشوف لأنها سوف تقضم أثناء سيرها أول الأوراق الغضة حتى آخرها؛ ومرة ثانية، حين تبزغ الحوالق الصغيرة، تلاحظها وتجزها مع البراعم والقرنات الصغيرة وهي جالسة مستقيمة كما السناجب. ولكن قبل أي شيء احصد بأسرع وقت ممكن لو ستهرب من الصقيع وتحوز محصولاً ممتازاً يمْكن بيعه، قد توفر خسارة كبيرة بهذه الوسائل.

اكتسبت أيضاً هذه الخبرة الإضافية: قلت لنفسي، لن أزرع فاصوليا وذرة بكل هذه المثابرة صيفاً آخر، وإنما سأزرع بذور – لو لم تضِع – الأمانة والصدق والبساطة والإيمان والبراءة وما شبهها، وبعدها سأعلم لو لن تنبت في هذه التربة – حتى بكدح وتسميد أقل – وتدعمني لأنها لم تُنهَك ولا ريب من جراء هذه المحاصيل. قلت في قرارة نفسي: واحَسْرَتاه! ولكن صيفاً آخر انقضى وآخر وآخر، ولا بد أن أقول لك أيها القارئ إن البذور التي زرعتها – لو أنها حقاً بذور تلك الفضائل – تسوست أو فقدت حيويتها، وعليه لم تَنبت. لن يتسم الرجال في العادة بالشجاعة إلا بقدر شجاعة آبائهم أو جبنهم. يحرص هذا الجيل على زراعة ذرة وفاصوليا كل عام تحديداً كما فعل الهنود منذ قرون وعلّموا المستعمرين الأوائل كيفية زراعتها وكأن قدراً يقضي بذلك. أبصرت في اليوم الفائت لدهشتي رجلاً عجوزاً يحفر الحفر بمعزقة للمرة السبعين على الأقل، لا من أجل نفسه ليَرقد فيها! ولكن لم لا يجرب أهل نيو إنجلاند مغامرات جديدة دون أن يسبغوا كل هذه الأهمية على زراعة محاصيل الحبوب والبطاطس والنجيل والبساتين – لم لا يزرعون محاصيل غيرها؟ لم نَشغل أنفسنا كل هذا الانشغال ببذور الفاصوليا، ولا نكترث على الإطلاق لجيل جديدٍ من الرجال؟ لا بد حقاً أن نتغذى ونبتهج لو قابلنا رجلاً تبينا فيه على وجه اليقين بعض هذه الصفات التي ذكرتها – صفات نثمنها جميعاً تثميناً يفوق تلك المنتجات الأخرى، ولكنها في الأغلب منثورة طافية في الهواء – صفات ترسخت فيه وترعرعت. ها هي مثلاً صفة دقيقة تستعصي على الوصف كالصدق أو العدل على طول الطريق مع أنه أقل قدر منها أو نوع جديد منها. ينبغي أن يتلقى سفراؤنا تعليمات بإرسال مثل تلك البذور إلى الوطن ومساعدة الكونجرس على توزيعها في طول البلاد وعرضها. لا ينبغي أبداً أن نتوخى الرسميات فيما يتعلق الأمر بفضيلة الإخلاص. لا يجب أبداً نغش ونهين وننفي بعضنا بعضاً بحقارتنا إن كنا نطوي في صدورنا نواة القيمة الأخلاقية والود. وعليه لا ينبغي أن نتقابل متعجلين متسرعين. لا أقابل معظم الرجال على الإطلاق لأن الوقت يعوزهم على ما يبدو؛ إنهم مشغولون بالفاصوليا.

وبالتالي لن نتعامل مع رجل يكدح إلى الأبد، يتكئ على معزقة أو مجراف وكأنها عكاز بين المهمة والأخرى – لا كعيش غراب – وإنما نابت جزئياً من التربة، شيء أكثر من مستقيم، مثل طائر من طيور السنونو حط ويسير على الأرض:

"وبينما تحدث، فرد جناحيه بين الحين والآخر
ناوياً الطيران ثم طواهما من جديد".(1)

وعليه ينبغي أن نشك في أننا نتحدث إلى ملاك. قد لا يغذينا الخبز دوماً غير أنه يفيدنا دائماً، بل إنه يُخَلِّص مفاصلنا من التيبس ويجعلنا لينين مبتهجين – حين لا نفقه ما أمرضنا – لكي نميز أي كرم في الإنسان أو الطبيعة ونتشارك أي بهجة نبيلة لا تشوبها شائبة.

يوحي الشعر والميثولوجيا العتيقين على الأقل بأن الزراعة كانت يوماً فناً مقدّساً؛ ولكننا مارسناها بتعجل وطيش لا احترام فيهما، إذ انصب هدفنا فحسب على امتلاك مزارع شاسعة ومحاصيل ضخمة. لا مهرجانات لدينا، لا مسيرات، لا مراسم، عدا عروض الماشية والعيد المسمى بعيد الشكر، وفيه يُعبر المزارع عن شعور بالقداسة تجاه مهمته أو يتذكر أصلها المقدَّس. لا يغريه إلا العيد والمكافأة. إنه لا يقدِّم قرباناً لسيريْز آلهة الزراعة وجوبيتر كبير آلهة الرومان، وإنما لأفلُوطُس إله الثروة الجهنمي. وبالجشَع والأنانية، وعادة التذلل، صفات لا يَسلم أي شخص منا منها، نعتبر التربة ملكية أو وسيلة من وسائل امتلاك الملكية بالأساس، يتشوه المشهد الجغرافي، تنحط الزراعة بسببنا، ويأخذ المزارع بأحقر أسباب الحياة. لا يفقه عن الطبيعة إلا أنها سارقة. يقول المؤلف الزراعي كاتو إن أرباح الزراعة تقية أو عادلة إلى حد كبير، ووفقاً للعالم الروماني ماركوس فارو "أطلق الرومان القدماء على الأرض 'الأم' و'سيريْز'، واعتقدوا أن حارثيها أخذوا بأسباب حياة تقية نافعة، وهم وحدهم بقايا سلالة الملك ساتورن إله الزراعة".

نميل إلى نسيان أن الشمس تطل على كل حقولنا المحروثة والبراري والغابات بدون تمييز. تعكس جميعها الأشعة وتمتصها على حد سواء، وتُشكل الغابات جزءاً ضئيلاً ليس إلا من مشهد مجيد تشاهده الشمس في سبيلها اليومي. ترى الشمس الأرض من منظورها محروثة كلها على حد سواء مثلها مثل الحديقة. وعليه ينبغي أن نتلقى فائدة ضوئها وحرارتها بثقة وشهامة مماثلة. ماذا لو أني أُقدِّر بذور هذه الفاصوليا وأحصدها في خريف العام؟ لا يبدو

1 – فرانسيس كوارلز (1592 – 1644)، شاعر إنجليزي من "وَحي الراعي".

لي هذا الحقل الفسيح الذي تطلعت إليه طويلاً حارثاً أساسياً يرويه ويبث فيه الخضرة. لهذه الفاصوليا نتائج لا أحصدها. ألا تنمو إلى حد ما من أجل حيوانات المرموط؟ لا ينبغي أن تكون سنبلة القمح (في اللاتينية spica، وهي مشتقة من spe، وتعني الأمل) أمل المزارع الوحيد؛ ونواتها أو حبتها (كلمة granum مشتقة من كلمة gerendo، وتعني المحصول) ليست مطلقاً ما تُنتج. كيف يمْكن إذن أن يفشل محصولنا؟ ألن أبتهج أيضاً لوفرة الأعشاب الضارة، أعشاب بذورها حبوب للطيور؟ لا يهم كثيراً بالمقارنة إن ملأت الحقول مخازن المزارع. سوف يمسك المزارع الحقيقي عن القلق مثلما لا تبدي السناجب أي اهتمام إن كانت الغابة سوف تنتج الكستناء هذا العام أم لا، وسوف ينهي عمله كل يوم متخلياً عن كل حقه في غلة حقوله، لا يضحي في عقله بأول المحاصيل فقط، وإنما بآخرها أيضاً.

8 - القريــة

غالباً ما أستحم مرة أخرى في البحيرة بعد العزق، أو ربما القراءة والكتابة، في صدر النهار، أعوم هنيهة في أحد خلجانها لأغسل عن جسمي غبار العمل أو أُنعم آخر تجعيدة حفرتْها الدراسة، وفي الظهيرة لم أنشغل بشيء. كنت أتمشى كل يوم أو اثنين إلى القرية كي أسمع بعض الإشاعات السائدة هناك بلا انقطاع، تَذيع من ثغر إلى ثغر أو من جريدة إلى جريدة، أخذتها في جرعات صغيرة، فوجدتها منعشة حقاً مثلها مثل حفيف أوراق الشجر ونقيق الضفادع. وبينما كنت أسير في الغابة لأراقب الطيور والسناجب، دخلت القرية لأرى الرجال والصبية؛ وبدلاً من صوت الرياح بين أشجار الصنوبر، صكت أذنيّ قعقعة العربات. وفي أحد الاتجاهات من بيتي عاشت بمروج النهر مجموعة من فئران المسك؛ قبعت أسفل بستان من أشجار الدردار ونباتات الدّلب في الأفق الآخر قريةٌ حافلة بالرجال المشغولين، يعتريهم الفضول نحوي وكأنهم كلاب من كلاب البراري، يَجلس كل واحد منهم عند فتحة جُحر أو يعدو إلى أحد الجيران ساعياً إلى القيل والقال. ذهبت هناك بين

الحين والآخر بغرض رصد عاداتهم. بدت لي القرية كغرفة أخبار ضخمة؛ وضعوا في أحد جوانبها بهدف الدعم مكسرات وزبيباً أو ملحاً وجريشاً ومواد غذائية أخرى كما وضعوا يوماً في مكتبة 'ريدينج & شركاؤه' القائمة في شارع ستيت. لدى البعض شهية مفتوحة للسلعة السابقة – الأخبار – ويا لها من أعضاء هضمية سليمة، حتى إنهم يستطيعون الجلوس في الأماكن العامة بدون إبداء حركة، يتركونها تجيش وتهمس عبرهم كالرياح الموسمية أو كأنما يستنشقون الأثير، لا تتسبب إلا في خدر وعدم حساسية للألم – وإلا سيَلحق بهم في الغالب ألم غير محتمل – بدون التأثير على الوعي. حين أتجول في القرية، نادراً ما لا أرى صفاً من مثل تلك الشخصيات البارزة، إما يجلسون على سلم يتشمسون، بأجسام مائلة إلى الأمام وعيون تصوب النظرات إلى هنا وهناك بين الفينة والأخرى، بتعبير لا يَعدم الشهوانية، أو يتكئون على أحد مخازن الحبوب وأياديهم في جيوبهم، كتماثيل تَقُوم مقام أعمدة المباني وكأنهم يدعمون المخزن. ولأنهم في المعتاد خارج المنازل، سمعوا كل ما تحمله الريح أياً كان. إنها أكثر المطاحن فظاظة، تستوعب داخلها كل الشائعات بصورة بدائية أو تضغطها قبل أن تفرغها في صورة حشرات نطاطة أرقّ وأرفع في البيوت. لاحظت أن الأعضاء الحيوية للقرية هي البقال والحانة ومكتب البريد والبنك؛ وباعتبارها جزءاً أساسياً من بنية المجتمع، وضعوا جرساً وبندقية كبيرة وسيارة إطفاء في أماكن قريبة؛ وقد ترتبت المنازل بطريقة تستغل الناس أفضل استغلال، في حارات وأمام بعضها بعضاً، حتى يضطر كل مسافر إلى السير بين أهل القرية وعيونهم مسلطة عليه، وبمقدور كل رجل وامرأة وطفل أن يضربه ضربة. لا ريب أن المتمركزين في مكان قريب من بداية الصف – وهناك يستطيعون رؤية أغلب ما يَحدث ويستطيع الآخرون رؤيتهم – يتسنى لهم تسديد أول ضربة إليه، وقد دفعوا أثماناً غالية مقابل مواقعهم؛ أمّا القليل من السكان المترامين في الضواحي – حيث تبدأ الثغرات العريضة في الصف، ويستطيع المسافر تخطي الحوائط أو الانعطاف إلى ممرات البقر، وعليه يهربون – فقد دفعوا ضريبة هزيلة للغاية مقابل الأرض أو عدد نوافذ منازلهم. تعلقت اللافتات على كل الجوانب لإغرائهم؛ لاصطياد البعض من خلال شهيتهم وكأنها حانة وقبو للخمور؛ ولاصطياد البعض من خلال ذوقهم وكأنه متجر للملابس الجاهزة ومحل للجواهر؛ والبعض الآخر من خلال الشَعر أو القدمين أو التنورات كالحلاق وصانع الأحذية والخياط. بالإضافة إلى أن هناك دعوة رهيبة لم تزل سارية لزيارة كل واحد من هذه البيوت، وصحبة متوقَّعة في هذه الأوقات. كثيراً ما كنت أهرب هرباً مدهشاً من هذه الأخطار، إمّا بمتابعة

السير صوب الهدف بجرأة ودون تعمد كما أنصح السائر بين المنازل، أو بتركيز أفكاري في أشياء أسمى مثل أورفيوس[1] الذي "غنى عالي الصوت تسابيح للآلهة على قيثارته، وحجب أصوات السّيْرانة[2] مبتعداً عن الخطر". أحياناً ما كنت أندفع فجأة دون أن يستطيع أحد تحديد مكاني لأني لم أحتمل بطء الحركة، و لم أتردد قط في عبور أية ثغرة بأي سياج. بل إني اعتدت زيارة بعض المنازل بغتة، وهناك استضافني أهلها خير استضافة، وبعد معرفة جوهر الأخبار ممن لا يكتمون سراً، ما استقر منها، احتمالات الحرب والسلام، وما إذا كانت هناك احتمالية لتماسك العالَم وقتاً أطول، خرجت من الشوارع الخلفية لأفر مجدداً إلى الغابة.

استمتعت كثيراً حين لبثت في البلدة حتى ساعة متأخرة وانطلقت نحو الليل، وبخاصة لو حل الظلام وحاقت العواصف بالبلدة، أبدأ رحلتي من قاعة منيرة بالقرية أو غرفة محاضرات، وعلى ظهري حقيبة من الجاوْدار أو دقيق الذرة إلى ملاذي الدافئ المريح في الغابة بعد أن صار محكم الغلق لأنسحب أسفل الأبواب بمجموعة مبتهجة من الأفكار، تاركاً رَجلي عند الدفة في الخارج، أو حتى تاركاً إياه يربط الدفة حين يكون الإبحار سلساً. راودتني العديد من الأفكار العبقرية بجوار نار القمرة "أثناء الإبحار". لم أنجرف البتة بسفينتي و لم تزعجني الأحوال الجوية وإن لقيت بعض العواصف الشديدة. تمسي الدنيا أظلم في الغابة – بل وفي الليالي العادية – مما يظنه أغلب الناس. اضطررت في الغالب إلى التطلع من فتحة بين الأشجار فوق الطريق لكي أتبين طريقي، و– حيث لا يوجد طريق للعربات – لكي أشعر بقدميّ سبيلاً هزيلاً أبليته أو أنعطف مسافات معروفة من أشجار معَينة أحسستها بيديّ وأنا أعبر مثلاً بين شجرتيّ صنوبر، مسافات لا تزيد على ثماني عشرة بوصة في منتصف الغابة، إنها مسافات ثابتة في أحلك الليالي. وأحياناً بعد العودة إلى البيت في وقت متأخر من ليلة مظلمة رطبة حارة – عندما شعرتْ قدماي سبيلاً لم تستطع عيناي أن تراه، أحلم شارد الذهن طيلة الطريق – أستيقظ حين أضطر إلى رفع يدي لحمل المزلاج، ولا أتذكر خطوة واحدة من مسيرتي، وقد ظننت أن جسمي قد يجد طريقه إلى البيت لو هجره صاحبه كما تجد اليد طريقها إلى الفم من غير مساعدة. عندما اتفق أن مكث أحد الزوار حتى المساء في عدد من المرات، واتضح لنا أنها ليلة مظلمة، أرغم على توجيهه إلى سبيل العربات في مؤخرة المنزل ثم أشير إلى اتجاه ينبغي أن يسلكه، أوجِّه قدميه بدلاً من توجيه عينيه. وفي ليلة حالكة السواد وجَّهت

1– أورفيوس: موسيقي في الميثولوجيا الإغريقية تتحلى موسيقاه بقوى خارقة للطبيعة.
2– السّيْرانة: في الميثولوجيا الإغريقية أغرت حوريات البحر البحارة إلى الدمار من خلال الغناء.

شابين كان يصطادان في البحيرة إلى الطريق. عاشا على بعد ميل عبر الغابة، واعتادا الطريق تماماً. وبعد يوم أو اثنين أخبرني أحدهما أنهما هاما أغلب الليلة بالقرب من أرضهما، و لم ينتهيا إلى البيت حتى اقترب الصباح، وحينذاك، لهطول وابل من الأمطار الكثيفة وابتلال أوراق الشجر، تشبعا تشبعاً كاملاً بالمياه. بل إني سمعت أن ناساً ضلوا السبيل في شوارع القرية والظلام كثيف كثافة تستطيع معها قطعه بسكين، مثلما يقول القول المأثور. اضطر بعض سكان الضواحي إلى قضاء الليل في البلدة بعد أن أتوا بعرباتهم للتسوق؛ وهناك رجال وسيدات يزورون البلدة انعطفوا نصف ميل عن الطريق، أحسوا بالرصيف بأقدامهم فقط، دون أن يَعلموا متى سيعودون. إنه أمر مدهش لا يُنسى – وكذلك تجربة قيمة – أن يتوه المرء في الغابة في أي وقت. وفي أثناء العواصف الثلجية، حتى خلال النهار، كثيراً ما يصادف المرء طريقاً معروفاً، ومع ذلك يجده من المستحيل أن يحدد أي الطرق تؤدي إلى القرية. ومع أنه يدرك أنه سلكه ألف مرة، يعجز عن تمييز أحد معالمه، ولكنه غريب لعينيه وكأنه طريق في سيبريا. ولا شك أن الحيرة تصبح بحلول الليل لا نهائية أشد من أي حيرة. نهتدي دوماً في مسيراتنا العادية إلى السبل – وإن بلا وعي – بمنارات معروفة مثل ربابين السفن، ولو اجتزنا طريقنا المعتاد، لا نزال نحمل في عقولنا اتجاه أرض مجاورة؛ ولا نقدِّر اتساع الطبيعة وغرابتها إلا بعد أن نتوه تماماً أو نلتفت حولنا – فالمرء لا يحتاج إلا الالتفات مرة بعينين مغلقتين في هذا العالم كي يتوه. يجب أن يتعلم كل إنسان رؤوس البوصلة مرة أخرى ما استطاع كلما استيقظ، سواء من النوم أو من أي تشتت للذهن. لا نَشرع في إيجاد أنفسنا واكتشاف مكاننا والمدى المُطْلق لعلاقاتنا إلى أن نتوه، وبكلمات أخرى إلى أن نُضيِّع العالَم.

وفي ذات أصيل، بالقرب من نهاية الصيف الأول، حين قصدت القرية لجلب حذاء من الإسكاف، تم القبض عليّ وحجزي في السجن لأني، كما سردت في مكان آخر، لم أدفع ضريبة الدولة و لم أعترف بسلطتها، دولة تبيع الرجال والنساء والأطفال كما الماشية عند باب مجلس الشيوخ. لقد مضيت إلى الغابة لأغراض أخرى. ولكن، أينما يذهب المرء، سوف يتبعه آخرون ويضربونه ببراثنهم ومؤسساتهم القذرة، ولو بمقدورهم، سوف يجبرونه على الانتماء إلى مجتمعهم اليائس المُخنث. كان من الممكن في الحقيقة أن أقاوم بقوة لأصل إلى نتيجة ما، كان من الممكن أن أندفع في الشارع "كالمجنون" محارباً المجتمع؛ ولكني فضّلت أن يندفع المجتمع في الشارع "كالمجنون" لمحاربتي، فهو الطرف المغلَف باليأس. ومع ذلك أفرجوا عني في اليوم التالي، وأخذت جزمتي المرتقة وعدت إلى الغابة في الوقت المناسب

لأتناول عشاء من التوت على تل فير هيفن هيل. لم يضايقني شخص عدا ممثلي الدولة. ما امتلكت قفلاً إلا لمكتب حوى أوراقي، بل إني لم أضع مسماراً على مزلاج الباب أو النوافذ. لم أحكم إغلاق بابي ليلاً أو نهاراً مع أني غبت عن المنزل عدة أيام؛ بل إني لم أحكمه في الخريف التالي حين قضيت أسبوعين في غابة ولاية مين. ومع ذلك نال منزلي احتراماً لم يكن ليناله لو أحاط به صف من الجنود. استطاع المتجول المتعَب أن يستريح ويتدفأ بجوار ناري، استطاع المعني بالأدب أن يسلي نفسه بعدة كتب على مائدتي، واستطاع الفضولي أن يفتح باب خزانتي ويرى ما تبقى من عشائي وما قد أتناوله قبل النوم. ومع أن العديد من الناس من كل الطبقات سلكوا هذا الطريق إلى البحيرة، ما عانيت ضيقاً حقيقياً منهم، وما ضاع مني أي شيء إلا كتاباً صغيراً، مجلداً للشاعر هومر، الأرجح أنه كان مطلياً بقشرة ذهبية رديئة، وقد وجده جندي من معسكرنا بحلول هذا الوقت. إنني على قناعة أن الناس لو عاشوا جميعاً بمثل بساطة معيشتي وقتها، سوف تتبدد السرقة واللصوصية. إنهما لا يقعان إلا في مجتمعات ينال فيها البعض ما يَزيد على حاجته بينما لا يمتلك البعض الآخر ما يكفيهم. لن يلبث أن يتوزع شعراء بوب[1] كما ينبغي.

"Nec bella fuerunt,

Faginus astabat dum scyphus ante dapes".

ولا شن الرجال الحروب

حين لم يطلبوا إلا سلطانيات من نبات الزّان".[2]

"أنت أيها المتحكم في الشؤون العامة، ما حاجتك إلى فرض عقوبات؟ أحب الفضيلة، وسوف يصبح الناس فضلاء. إن فضائل الرجل المترفع مثل الرياح؛ وفضائل الرجل العادي مثل العشب – فالعشب ينحني حين تمر فوقه الرياح".[3]

1– بوب: ألكسندر بوب (1688 – 1744)، ترجم "الإلياذة" و"الأوديسة" لهومر.
2– شعر هومر، ترجمة بوب.
3– كونفوشيوس.

9 - البحيرات

بعد أن بالغت أحياناً في الاختلاط بالمجتمع البشري والقيل والقال، واستهلكت كل أصدقاء القرية، همت على وجهي غرباً إلى مسافة أبعد من المعتاد وتوغلت في مناطق شبه مهجورة من البلدة "إلى غابة نضرة ومراع جديدة"[1] أو أعددت والشمس تغرب عشاء من التوت وثمار العِنَبِيّة على تل فير هيفين ثمّ خزنت مقداراً وفيراً للأيام التالية. لا تمنح الفاكهة نكهتها الحقيقية لشاريها ولا لجامعها من أجل السوق. لا توجد إلا وسيلة واحدة لنيل نكهتها الحقيقية وإن لا ينشدها إلا قلة من الناس. لو كنت تَعلم نكهة التوت، اسأل راعي البقر أو طائر الحجَل. إن افتراض مَن لم يقطف التوت أبداً أنه تذوقه خطأ شائع. لا يصل التوت قط إلى مدينة بوسطن؛ لم يَعرفه أهلها هناك منذ نمى على تلالها الثلاثة. يضيع الجزء الشهي والمثالي في الفاكهة مع التفتح، إذ يتلاشى بالحك في عربات السوق لتصير الفاكهة مجرد علف. طالما تهيمن العدالة الأبدية، لن تنتقل ثمرة توت بريئة واحدة من تلال البلد.

1- من إحدى قصائد الشاعر الإنجليزي جون ميلتون: (1608 - 1674).

وبعد الانتهاء من العزق خلال اليوم، أنضم بين الحين والآخر إلى رفيق نافد الصبر كان يصطاد في البحيرة منذ الصباح صامتاً دون حركة كما البطة أو ورقة شجر طافية، وبعد ممارسة عدة أنواع من الفلسفة استنتجت عادةً حين وصلت أنه كان ينتمي إلى طائفة الرهبان العتيقة. كان هناك رجل أكبر سناً، صياد سمك ممتاز وماهر في كل أنوع الصيد بالغابة، راقه أن ينظر إلى منزلي نظرته إلى مبنى مشيَّد لاستخدام الصيادين؛ وراقني بالقدر نفسه جلوسه في مدخل منزلي ليرتب صنانيره. جلسنا بين الفينة والأخرى في البحيرة، هو على طرف من القارب، وأنا على الطرف المقابل، ولكننا لم نتبادل كلمات كثيرة لأنه أصيب بالصمم في سنواته الأخيرة، ولكنه دندن من حين لآخر بترنيمة تناغمت بما يكفي مع فلسفتي. وهكذا تمتع تعاملنا إجمالاً بانسجام متواصل، كان تَذَكُّره أكثر إمتاعاً مما لو تواصل بالحديث. عندما لا أجد مَن أتحدث إليه كما هي العادة، كنت أردد الصدى بضرب جانب قاربي بالمجداف لأملأ الغابة المحيطة بصوت يدور ويتسع، أثيرها مثلما يثير حارس الوحوش حيواناته البرية إلى أن أنتزع هديراً من كل واد مشجَّر ومنحدر من منحدرات التل.

كثيراً ما كنت أجلس في القارب في الأمسيات الدافئة لأعزف الفلوت، أرى سمك الفَرْخ – سمكاً افتتن بي على ما يبدو – يحوم حولي. سافر القمر فوق القاع المضلَّع، انتثر عليه حطام الغابة. كنت في الماضي آتي أحياناً إلى هذه البحيرة على سبيل المغامرة في ليال صيفية كالحة بصحبة أحد الرفقاء، أشعل ناراً بالقرب من حافة المياه، فقد حسبنا أنها تجتذب الأسماك. اصطدنا أسماك البَوْت بمجموعة من الديدان المعلَّقة بخيط، وعندما فرغنا من الصيد، في ساعة متأخرة من الليل، رمينا الجمر المحترق عالياً في الهواء كما الصواريخ، سقط في البحيرة وانطفأ ليرسل هسيساً عالياً، وعندئذ تلمسنا طريقنا على بغتة والظلمة تعم المكان. وهكذا صفرنا لحناً وشققنا طريقنا إلى مأوى الرجال من جديد. ولكني شيدت منزلي الآن بجوار الشاطئ.

بعد البقاء في إحدى قاعات القرية بعد مغادرة العائلة، عدت أحياناً إلى الغابة متفكراً قليلاً في عشاء اليوم التالي، قضيت ساعات منتصف الليل أصيد في القارب على ضوء القمر، يغني لي البوم والثعالب، وأسمع بين الحين والآخر نداء كما الصرير نابعاً من طائر غير معروف بالقرب مني. وجدت هذه التجارب جديرة بالتذكر، قيِّمة – رسا قاربي فوق أربعين قدماً من الماء، على بعد عشرين قصبة أو ثلاثين من الشاطئ، اكتنفني أحياناً آلاف من أسماك الفَرْخ الصغيرة والأسماك الفضية، تُحدِث تحت نور القمر ما يشبه الغمازات في سطح المياه بذيولها،

تتصل بخيط طويل من الكتان بأسماك ليلية غامضة تَسكن أربعين قدماً أسفلي، أو تجر أحياناً ستين قدماً من الصنارة في البحيرة بينما أنجرف مع نسيم الليل الرقيق، أشعر بين الحين والآخر بذبذبة طفيفة تراود الصنارة، دليل على حياة تتحرك خلسة عند طرفها، دليل على هدف متخبط باهت يلفه الغموض هناك، حياة بطيئة لم تعْقد العزم على شيء. ترفع ببطء في النهاية، تجذب يداً فوق الأخرى وسمكة بَوْت بقرون تُطْلق صريراً حاداً وتتلوى نحو الهواء العلوي. حين تشطح أفكارك إلى مواضيع واسعة عن نشأة الكون في الكواكب الأخرى، وجدته في منتهى الغرابة وبخاصة في الليالي المظلمة أن تشعر بهذه الرجة الخفيفة الآتية لتقاطع أحلامك وتصلك بالطبيعة من جديد. بدا وكأني قد أرمي بعدها صنارتي عالياً نحو الهواء، وكذا إلى أسفل صوب هذا العنصر من عناصر الطبيعة، الماء، عنصر نادراً ما كان أكثر كثافة. وهكذا اصطدت سمكتين بصنارة واحدة.

كان منظر بحيرة ولدن الجغرافي متواضع المستوى، فمع أنها تحلت بالجمال، لم تقترب من العظمة ولا يمْكن أن تَشغل بال شخص لم يرتدها طويلاً أو يعش بحذاء شاطئها، ولكن هذه البحيرة تتسم بعمق وصفاء تستحق معهما وصفاً استثنائياً. إنها ينبوع صاف عميق ضارب إلى الاخضرار، طوله نصف ميل ومحيطه ميل وثلاثة أرباع ميل. تحوي واحداً وستين آكراً ونصف تقريباً؛ نبعٌ طيلة العام وسط غابة الصنوبر والبلوط، بدون أي مدخل أو مخرج مرئي عدا السُحُب والتبخر. ترتفع التلال المحيطة فجأة من المياه من أربعين قدماً إلى ثمانين قدماً وإن بلغ ارتفاعها في الجنوب الشرقي والشرق مئة قدم ومئة وخمسين قدماً على التوالي ضمن حدود ربع ميل وثلث ميل. المساحة غابة بالكامل. تتلون كل مياه بلدة كونكورد بلونين على الأقل؛ لون حين يبصرها المرء من بعيد، ولون أصح حين يقترب منها. يعتمد اللون الأول أكثر ما يعتمد على الضوء ويعتمد على لون السماء. تبدو المياه في الجو الرائق صيفاً زرقاء اللون من على بعد بسيط وبخاصة لو تحركت، ومن على بعد كبير تَظهر كلها باللون نفسه. تصطبغ أحياناً في الجو العاصف بلون الإردواز الغامق. ولكن قيل إن البحر يتلون بالأزرق يوماً وبالأخضر يوماً آخر بدون أي تغيير ملحوظ في الجو. لقد رأيت نهرنا حين كسا الثلج المشهد الطبيعي، تلون الثلج والمياه بخضرة تُماثل خضرة العشب. يعتبر البعض اللون الأزرق "لون المياه الصافية سواء سائلة أو صلبة". ولكن حين يتطلع المرء إلى مياهنا من أحد المراكب مباشرة، تبدو بلون مختلف كل الاختلاف. إن بحيرة ولدن زرقاء حيناً وخضراء حيناً، حتى من وجهة النظر نفسها. تترامى بين الأرض والسماء، وعليه تنضح بلون الاثنين.

وحين تشاهدها من قمة أحد التلال، تعكس لون السماء؛ ولكنها تتخضب من مكان قريب بدرجة مائلة إلى الأصفر بالقرب من الشاطئ حيث يمكنك رؤية الرمال، ثم بلون أخضر فاتح يغمق بالتدريج ليتحول إلى أخضر داكن متماثل في قلب البحيرة. بل إنك حين تبصرها من قمة أحد التلال تحت بعض الأضواء تجدها ملونة بأخضر زاهٍ بالقرب من الشاطئ. عزا البعض هذا اللون إلى انعكاس الخضرة غير أنها تتلون بالاخضرار نفسه أمام الضفة الرملية المحاذية للسكة الحديدية، وفي الربيع، قبل تفتح أوراق الأشجار، قد يكون ببساطة نتيجة للون الأزرق السائد ممزوجاً باصفرار الرمال. إنه لون نبات السوسن. وفي خلال الربيع حين يصير الثلج دافئاً بفعل حرارة الشمس المنعكسة من القاع والمنقولة كذلك من الأرض، يذوب أيضاً جزء ليشكل قناة ضيقة حول منتصف لا يزال متجمداً. ومثل بقية مسطحاتنا المائية، حين تهتاج مياه البحيرة في الجو الصافي لتعكس سطح الأمواج السماء من الزاوية السليمة أو لأنها تحوي المزيد من الضوء، تبدو من بعد بسيط زرقاء أغمق من السماء نفسها؛ وفي مثل ذلك الوقت، لأن السماء تنعكس على سطحها، ومع التطلع بنظر موحَّد الاتجاه لأرى الانعكاس، تبينت لوناً أزرق فاتحاً لا نظير له يستعصي على الوصف، مثلما يوحي الحرير المتلون أو المتموج ونصل السيف، أكثر زرقة من السماء نفسها، تعاقب مع لون أخضر داكن أصلي على جانبيّ الأمواج المقابلين، لون بدا في آخر مرة موحِلاً بالمقارنة. استحضرتْه ذاكرتي أزرق مائلاً إلى الاخضرار أشبه في لمعانه بالزجاج مثل تلك الرقع من سماء الشتاء التي أراها عبر مشاهد السحب غرباً قبل غروب الشمس. ومع ذلك تخلو كأس واحدة من مياهها – وهي مرفوعةً نحو الضوء – من أي لون مثلها مثل كمية مساوية من الهواء. من المعروف أن طبقاً كبيراً من الزجاج سوف يشي بدرجة من درجات الأخضر بسبب "كتلته" كما يقول صانعوه، ولكن قطعة صغيرة منه سوف تتجرد من أي لون. لم أكتشف قط حجم كتلة مطلوبة من بحيرة ولدن كي تعكس إحدى درجات الأخضر. لون مياه نهرنا أسود أو بني غامق للغاية لمن يخفض بصره إليه مباشرة، ومثل أغلب البحيرات تضفي على جسم الشخص المستحم فيها لوناً خفيفاً مائلاً إلى الاصفرار؛ ولكن هذه المياه صافية صفاء البلور حتى إن جسم المستحم يبدو أبيض كما المرمر، لا يزال لوناً غير طبيعي، وحين تَكبَر أطراف جسمه ويتشوه كذلك شكلها، تبدو بمظهر رهيب مشوَّه، وعليه تَصلح لأن تكون محط دراسة من قِبل مايكل أنجلو.

إن المياه شفافة للغاية حتى إن القاع يمكن رؤيته بسهولة على عمق خمس وعشرين قدماً

أو ثلاثين. قد تبصر أثناء التجديف على بعد عدة أقدام من السطح مجموعات من أسماك الفَرْخ أو الأسماك الفضية، قد لا يزيد طولها على بوصة، ومع ذلك يسعك تمييز أسماك الفَرْخ بسهولة من خلال خطوطها المستعرضة، تحسب أن الأسماك التي تجد قوتها هناك أسماك ولا بد متقشفة. حين شققت ذات مرة حفر الثلج منذ عدة سنوات في الشتاء لأصطاد سمك الكراكيّ، خطوت على الشاطئ ورميت فأسي على الثلج، ولكنه – وكأن عفريتاً شريراً وجّهه – انزلق أربع قصبات أو خمساً إلى إحدى الحفر مباشرة حيث كان عمق المياه خمساً وعشرين قدماً. تمددت على الثلج بدافع الفضول ونظرت من الحفرة إلى أن مددت بصري إلى الفأس على أحد الجوانب، يقف على رأسه بمقبض منتصب يتمايل بنعومة يميناً ويساراً مع نبض البحيرة؛ قد يقف منتصباً متمايلاً هناك إلى أن يتعفن المقبض حين يمر الوقت الكافي إن لم أتدخل. حفرت فوقها بالضبط حفرة أخرى بازميل وقطعت بسكيني أطول شجرة بتولا استطعت العثور عليها في الحي ثم صنعت أنشوطة بعقدة منزلقة ربطتها في طرفها وأنزلتها بحرص، مررتها على مقبض اليد وسحبتها بصنارة على طول شجرة البتولا، وهكذا أخرجت الفأس مرة أخرى.

يتألف الساحل من نطاق من الأحجار الناعمة المستديرة البيضاء كأحجار الرصف عدا شاطئ رملي أو اثنين، وعليه انحدر الشاطئ غاية الانحدار حتى إن قفزة واحدة من عدة أماكن سوف تحمل المياه فوق رأسك؛ ولولا صفاؤها الشديد، لكان ذلك آخر شيء تراه من قاعها إلى أن يرتفع على الجانب المقابل. يخال البعض أن لا قاع لها. ليست موحلة في أية بقعة، وسوف يقول المشاهد العادي إنها لا تضم أي أعشاب ضارة على الإطلاق؛ ومن بين النباتات اللافتة للنظر غير المنتمية إليها تماماً – عدا في المراعي الصغيرة التي فاضت مؤخراً بالمياه – لن يكتشف الفحص الأدق أي سوسن بري أو عشب الدِّيس، ولا حتى زَنبق، أصفر أو أبيض، ولكن فقط القليل من أوراق الشجر الصغيرة على شكل قلوب وعشبة البوتاموجيتون، وربما نبات تُرس الماء؛ ومع ذلك قد لا يستطيع المستحم أن يلاحظها كلها؛ تتراءى النباتات نظيفة براقة كما هو خليق ببيئة نَمت فيها. تمتد الأحجار قصبة أو اثنتين في المياه، وعندها يتحول القاع إلى رمل نقي عدا في الأجزاء الأعمق حيث يترسب في العادة ثفل بسيط، ربما من تعفن أوراق شجر تهب عليها مع الريح خلال عدة فصول خريفية متتالية، تتبدى للعيان أعشاب ضارة خضراء زاهية على المراسي حتى في منتصف الشتاء.

لدينا بحيرة أخرى مثلها تماماً، وهي بحيرة وايت في قرية ناين آكر كورنر، على بعد ميلين

ونصف غرباً؛ ولكن بالرغم من أني أعرف معظم البحيرات في نطاق اثنى عشر ميلاً من هذا الموقع، لا أعرف ثلث هذه الخصيصة النقية الشبيهة بالنبع. ربما شربت منها أمم متتالية، أعجبت بها، سبرت أغوارها، غابت عن الوجود، ولا تزال المياه خضراء رائقة كما كانت على الدوام. لا ربيع متقطعا عل آدم وحواء حين طُردا من الجنة في ذلك الصباح الربيعي، كانت بحيرة ولدن موجودة بالفعل، بل إن مطراً ربيعياً معتدلاً هطل وقتذاك على البحيرة، يرافقه سديم ورياح جنوبية، وتغطت البحيرة بعدد وافر من بط وإوز لم يَسمع عن الخريف على حين كانت البحيرات النقية الأخرى لا تزال تفتقر إليهما. وحتى وقتها بدأ ارتفاعها وانخفاضها وبدأت تصفي مياهها وتلونها لتصبح بلونها الحالي. لقد نالت بحيرة ولدن رخصة من الفردوس لتكون الفريدة في العالم ومُقطرة الندى السماوي. مَن العالم كم عدد آداب الأمم المنسية المستوحاة من نبع كاستيليا[1]؟ أو أي الحوريات أشرفن عليها في العصر الذهبي؟ إنها جوهرة من جواهر المياه الأولى تحملها كونكورد فوق تاجها.

ومع ذلك ربما ترك أول القادمين إلى هذا النبع آثار خطواتهم. تولتني الدهشة حين لاحظت سبيلاً ضيقاً أشبه بالرف الصخري على جانب التل المنحدر يدور حول البحيرة – بل ويخترق غابة كثيفة قُطعت لتوها على الشاطئ – يرتفع ويهبط بالتناوب، يقترب ويتراجع من حافة المياه، عله في مثل قِدَم الجنس البشري هنا، أبْلَته أقدام الصيادين من أهل البلاد الأصليين، ولا يزال سكان الأرض الحاليون يسيرون من وقت لآخر عليه غير مفطنين. يتضح هذا كل الاتضاح لناظريّ شخص يقف شتاء في منتصف البحيرة، بالضبط بعد سقوط الثلج الخفيف، إذ يَظهر السبيل خطاً واضحاً متموجاً لا تعُوقه الأعشاب الضارة والأغصان، واضح تمام الوضوح على بعد ربع ميل من عدة أماكن على حين لا يمْكن تمييزه صيفاً من بقعة قريبة. يعيد الثلج طرْقه وكأنه نقش بارز أبيض لا يَغيب عن الأنظار. لا تزال أراضي الفيلات المزخرفة التي سيبنيها السكان هنا يوماً تحتفظ ببعض هذه الآثار.

للبحيرة مدُّها وجزرها، ولكن لا أحد يدري إن كانا منتظمين أم لا، وخلال أية فترة، وإن ادعى العديد من الناس المعرفة كما جرت عادتهم. تصير في العادة أعلى شتاء وأدنى صيفاً وإن كانت لا تُوافق حالة الأمطار والجفاف العامة. يسعني أن أتذكر حين كانت أكثر انخفاضاً بمقدار قدم أو اثنتين، وأيضاً حين كانت أعلى بمقدار خمس أقدام على الأقل من مستوى بلَغته

1- نبع كاستيليا: نبع الإلهام الشعري في الميثولوجيا الاغريقية.

لما كنت أعيش بجوارها. اخترقها مرتفع رملي ضيق، على جانبيه مياه عميقة للغاية، غليت فوقه غلاية من حساء السمك والخضراوات على بعد ست قصبات من الشاطئ الرئيسي في عام 1824 تقريباً، وهو ما لم يعد ممكناً لمدة خمسة وعشرين عاماً؛ وعلى الجانب الآخر اعتاد أصدقائي الإنصات بآذان يشوبها الشك حين أفضيت إليهم أني اعتدت أن أصطاد بعد بضع سنوات من قارب في خليج صغير منعزل بالغابة على بعد خمس عشرة قصبة من الشاطئ الوحيد الذي يعرفونه، مكان تحوّل منذ فترة طويلة إلى مرعى. ولكن البحيرة ارتفعت باطراد منذ سنتين، وقد ارتفعت الآن في صيف عام 52 خمس أقدام فقط من مستوى بلَغته حين كنت أعيش هناك، أو في مثل ارتفاعها منذ ثلاثين عاماً، ويستمر الصيد مجدداً في المرعى. يشكل هذا اختلافاً في المستوى، في الحد الخارجي، قَدْره ست أقدام أو سبع؛ ومع ذلك تتضاءل كمية المياه السائلة بجوار التلال المحيطة، ولا بد أن هذا الفيضان يَرجع إلى أسباب تؤثر على الينابيع العميقة. أخذت البحيرة في الصيف نفسه تنخفض من جديد. من المدهش أن هذا التقلب، سواء كان دورياً أم لا، يبدو أنه يتطلب إذن عدة سنوات حتى يتحقق. لاحظت ارتفاعاً واحداً وجزءاً من انخفاضين، وأتوقع أنه بعد اثنى عشر عاماً أو خمسة عشر عاماً سوف تنخفض المياه مجدداً الانخفاض الذي عهدته يوماً. تسمح بحيرة فلينتس على بعد ميل باضطراب تتسبب فيه بين الفينة والأخرى المداخل والمخارج، وأيضاً البحيرات المتوسطة الأصغر، تُماثل فلينتس بحيرة ولدن، وقد بلغت أعظم ارتفاع لها أثناء ارتفاع بحيرة ولدن نفسها. الأمر نفسه صحيح وفقاً لملاحظاتي فيما يخص بحيرة وايت.

يحقق ارتفاع بحيرة ولدن وانخفاضها في فترات طويلة هذا الغرض على الأقل؛ تقتل المياه المستقرة في هذا المستوى الشاهق لمدة سنة أو أكثر – بالرغم من صعوبة السير حولها – الشجيرات والأشجار النامية على أطرافها منذ الارتفاع الأخير، أشجار الصنوبر الراتنجي وأشجار البتولا وأشجار جار الماء، وأشجار الحَوْر الرَّجْراج وغيرها، ثم يهبط منسوبها من جديد ليخلف شاطئاً لا يعترضه معترض؛ لأن على العكس من العديد من البحيرات وكل المسطحات المائية المعرَّضة لمد وجزر يوميين، يغدو شاطئ ولدن أنظف الشواطئ حين ينخفض مستوى الماء. مات على جانب البحيرة المجاورة لمنزلي صف من الصنوبر الراتنجي، طوله خمس عشرة قدماً، انقلبت الأشجار وكأنما انقلبت بعتلة، وعليه انتهى تعديها على البحيرة؛ يشير حجمها إلى عدد سنوات انقضَت منذ ارتفاع المياه الأخير وصولاً إلى هذا العلو. وبهذا التقلب تؤكد البحيرة على حقها في الشاطئ، وعليه تُجرده مما عليه، ولا يسع

الأشجار أن تحتله بوضع اليد. إنها ثغور البحيرة، ولا لحية تنبت عليها. تلعق شقوقها بين الحين والآخر. حين تبلغ المياه أعلى مستوياتها، ترسل أشجار جار الماء والصفصاف والقيقب كتلة من الجذور الليفية الحمراء طولها عدة أقدام من كل جوانب السيقان إلى المياه وإلى علو يَبلغ ثلاث أقدام أو أربعاً من الأرض في محاولة للدفاع عن نفسها؛ وقد علمت أن شجيرات العنَبيَّة القائمة حول الشاطئ - لا تطرح في المعتاد فاكهة - تطرح محصولاً وفيراً في هذه الظروف.

استولت الحيرة على البعض، إذ عجزوا عن تفسير الشاطئ المعبّد تعبيداً منتظماً. علم أبناء بلدتي جميعاً التقليد - أخبرني العُجز أنهم وقفوا عليه في شبابهم - وهو أن الهنود كانوا يقيمون مهرجاناتهم قديماً على التل هنا، تل ارتفع نحو السماء مثلما تغوص البحيرة الآن عميقاً في الأرض، وتحكي القصة أنهم استخدموا الكثير من الجُمل الدالة على التجديف مع أنها رذيلة لم يرتكبها الهنود قط، وبينما انهمكوا إلى هذا الحد، ارتج التل وغاص على بغتة، وهربت امرأة واحدة من الهنود الحمر - اسمها ولدن - فأطلقوا اسمها على البحيرة. حدس الناس أن هذه الأحجار تدحرجت على جانبه مع ارتجاج التل لتغدو الشاطئ الحالي. من المؤكد تماماً على كل حال أن البحيرة لم يكن لها وجود يوماً، والآن أصبحت موجودة؛ ولا تتعارض هذه الحكاية الهندية بأية طريقة مع رواية ذلك المستوطن القديم الذي ذكرته، مستعمر يتذكر جيداً متى وفد إلى هنا ومعه عصا الاستنباء، رأى بخاراً هزيلاً يرتفع من المرج، وأشارت شجرة البندق بانتظام إلى أسفل، فقرر أن يحفر ينبوعاً هنا. أمّا بالنسبة للأحجار، فلا يزال العديد من الناس يعتقدون أنها لا تعود إلى حركة الأمواج على هذه التلال؛ ولكني ألاحظ أن التلال المحيقة مليئة إلى حد لافت للنظر بنوع الأحجار نفسه، وعليه اضطروا إلى تكديسها في جدران على جانبيّ السكة الحديد المشقوقة بالقرب من البحيرة؛ علاوة على أن أكثر الأحجار تستقر في البقاع الأكثر انحداراً؛ وعليه لم يعد للأسف لغزاً بالنسبة إليّ. لقد اكتشفت مُعَبِّد الشاطئ. إن لم يُشتَق الاسم من موقع إنجليزي - بلدة 'سافرون والدن' على سبيل المثال - قد يفترض المرء أن اسمها كان بحيرة وليد-إن.

كانت البحيرة نبعاً مهيأ دائماً. كانت مياهها في منتهى البرودة والصفاء لمدة أربعة شهور سنوياً؛ وأظنها كانت حينذاك في مثل جودة أي مياه في البلدة، إن لم تكن أفضل مياه. تصير أي مياه معرّضة للهواء شتاءً أبرد من الينابيع والآباء المحمية. وبعد أن ارتفع الترمومتر إلى 65 أو 70 أحياناً بسبب الشمس المسلّطة على السقف، بلغت درجة حرارة مياه البحيرة الراكدة

في الغرفة حيث جلست من الخامسة أصيلاً إلى ظهر اليوم التالي في السادس من مارس عام 1846، 42 درجة أو أبرد من مياه أحد أبرد آبار القرية بدرجة واحدة. كانت درجة حرارة نبع 'بولينج سبرينج' في اليوم نفسه 45، أو أكثر مياه دافئة جربتها بالرغم من أنها أبرد مياه عرفتها في الصيف حين لا تختلط بها مياه ضحلة أو راكدة. علاوة على أن ولدن لا تصبح أبداً غاية في الدفء مثل أغلب المياه المعرضة للشمس بسبب عمقها. غالباً ما أضع في الجو الدافئ ملء دلو من الماء في قبوي، وهناك تَبرد ليلاً وتظل باردة خلال اليوم وإن لجأت كذلك إلى ينبوع في الحي. كانت في مثل حلاوتها بعد مرور أسبوع وكأنها خرجت يومذاك من الينبوع دون أن تَحمل طعم المضخة. مَن يقيم معسكراً لمدة أسبوع صيفاً بحذاء شاطئ بحيرة ينبغي أن يدفن دلواً من الماء على عمق بضع أقدام في ظل معسكره كيلا يعتمد على رفاهية الثلج.

اصطاد الناس سمك الكراكي من بحيرة ولدن، تزن الواحدة سبعة أرطال – فضلاً عن سمكة أخرى سحبت صنارة بسرعة هائلة، قدَّرها الصياد بثمانية أرطال لأنه لم يرها – واصطادوا أسماك الفَرْخ والبَوْت، كل واحدة منها تزن ما يزيد على رطلين، وأسماك فضية وأسماك الرُّوش، والقليل من أسماك الأبراميس، واثنتين من أسماك الأنقليس تزن الواحدة منها أربعة أرطال، أتوخى الدقة هنا لأن وزن السمك هو في المعتاد سبيلها الوحيد إلى الشهرة، وهي أسماك الأنقليس الوحيدة التي سمعت بها هنا؛ أتذكر أيضاً على نحو طفيف سمكة صغيرة طولها خمس بوصات، بجانبين فضيين، وظهر ضارب إلى الاخضرار، تُشْبه إلى حد ما سمكة الدَّاس، أشير إليها هنا بالأساس لكي أربط حقائقي بالحكاية الخرافية. لا تتسم هذه البحيرة مع ذلك بوفرة أسماكها. إن أسماك الكراكي – على عدم وفرتها – مصدر فخرها الأساسي. أبصرت في إحدى المرات ثلاثة أنواع على الأقل من أسماك الكراكي راقدة على الثلج: سمكة طويلة، وأخرى مسطحة، وثالثة بلون الصُلب، مثل تلك الأسماك المصطادة من النهر؛ ونوع ذهبي زاه بانعكاسات مائلة إلى الاخضرار، سميك على نحو لافت للنظر، وهو أكثر الأنواع شيوعاً هنا؛ ونوع آخر بلون ذهبي يشْبه النوع السابق، ولكن شابت جانبيها بقع صغيرة بنية غامقة أو سوداء تمتزج ببقع حمراء خفيفة كما الدم، أشبه بالسُلْمون المُرَقَّط. كلها أسماك مكتنزة للغاية، تزن أكثر مما يعد به حجمها. إن الأسماك الفضية وأسماك البَوْت وكذلك أسماك الفَرْخ، وحقاً كل الأسماك المقيمة في هذه البحيرة، أنظف وأجمل ولحمها أكثر اكتنازاً من أسماك النهر وأغلب البحيرات الأخرى لأن المياه

أنقى، وبالإمكان تمييزها عن الأسماك الأخرى. الأرجح أن العديد من علماء الأسماك سيكتشفون من بينها أصنافاً جديدة. هناك أيضاً سلالة كاملة من الضفادع والسلاحف، والقليل من بَلَح البحر؛ تخلف فئران المِسك وحيوانات المِنْك آثارها حول البحيرة، وبين الحين والآخر تزورها سلحفاة طينية مسافرة. عندما كنت أدفع قاربي أحياناً في الصباح، أزعجت سلحفاة طينية هائلة الحجم أخفت نفسها ليلاً تحت القارب. يتردد البط والإوز إليها ربيعاً وخريفاً، تمر طيور السنونو بيضاء البطن عليها بخفة وسرعة، وتتمايل طيور زَمَّار الرُّمل على شواطئها الرملية طيلة الصيف. أزعجت بين الفينة والأخرى أحد الصقور آكلة السمك وهو جالس على شجرة صنوبر بيضاء فوق المياه، ولكني أشك أن ريح طيور النَّوْرَس دنست البحيرة على الإطلاق، كما هو الحال مع خليج فير هيفين. تحمَّلتْ في الأعم الأغلب طائر الغوّاص السّامك سنوياً. هذه هي كل الحيوانات المهمة التي ترتادها الآن.

قد تبصر من أحد القوارب في الجو الهادئ - بالقرب من الشاطئ الرملي الشرقي حيث يَبلغ عمق المياه ثماني أقدام أو عشراً، وكذلك في أماكن أخرى من البحيرة - بعض الأكوام المستديرة قطرها ست أقدام وارتفاعها قدم، تتألف من أحجار صغيرة أقل حجماً من بيضة دجاجة، وتحيط بها الرمال المجرَّدة. تتساءل في البداية إن كان الهنود شكلوها على الثلج لأي غرض من الأغراض، وعليه حين ذاب الثلج، غاصت في القاع؛ ولكنها تتصف باتساق مبالغ فيه وبعضها ببساطة حديث جداً بما يتعارض مع هذا التفسير. تُشبه أكواماً موجودة في الأنهار، ولكن بما أن لا وجود هنا لأسماك السُّاقر أو الجَلَكَى، لا أعرف السمك الذي وضعها. عليها أعشاش لطيور الشيفين. لقد أسبغت لغزاً ممتعاً على القاع.

يتسم الشاطئ بعدم انتظام كاف يحُول دون بث الملل في نفوس الناظرين. يرتسم في خيالي الشاطئ الغربي المنبعج بالخلجان العميقة، والشاطئ الشمالي الأكثر انحداراً والشاطئ الجنوبي ذو النتوءات الجميلة، هناك تتراكب ألسنة متتابعة ممتدة في المياه موحية بخلجان صغيرة غير مكتشفَة بينها. لم تبدُ الغابة قط موقعاً ممتعاً كل هذا الإمتاع ولا جميلة كل هذا الجمال الصارخ إلا عند رؤيتها من منتصف بحيرة صغيرة وسط التلال ترتفع عن حافة المياه، فالمياه المنعكسة عليها لا تصنع فقط مقدمة للمشهد لا مثيل لها في هذه الحال، ولكن شاطئها المتمعج مثَّل أكثر حدودها طبيعية وتناغماً. لا فجاجة أو شائبة تساور أطرافها هناك مثل منطقة قطع الفأس أشجارها أو حقل محروق يجاورها. تَنعم الأشجار بمساحة وافرة كي تتوسع على جانب المياه، وكل شجرة ترسل أقوى أغصانها في ذلك الاتجاه. نسجت الطبيعة

هناك حافة طبيعية، وترتفع العين بتدرج مضبوط من شجيرات الشاطئ المنخفضة إلى أعلى الأشجار. من الممكن أن يبصر المرء آثاراً قليلة لأيادي البشر هناك. تغسل المياه الشاطئ كما غسلته منذ ألف سنة.

تُعتبر أي بحيرة أجمل المعالم وأكثرها تعبيراً في أي مشهد طبيعي. إنها عين الكرة الأرضية تتطلع إلى ما يعتبره الناظر عمق طبيعته. والأشجار القائمة بجوار الشاطئ ما هي إلا رموش نحيلة تهدبها، والتلال والأجراف العامرة بالأشجار حولها هي الحواجب المتدلية.

كنت أقف على الشاطئ الرملي الناعم عند الطرف الشرقي من البحيرة خلال ظهيرة يلفها الهدوء في سبتمبر وسديم رقيق يجعل خط الشاطئ المقابل غائماً، فرأيت من أين نشأ التعبير، "سطح البحيرة الزجاجي". عندما تقلب رأسك، يبدو سطحها كخيط من أرق خيوط العنكبوت يمتد عبر الوادي، يلتمع أمام غابة الصنوبر البعيدة، ويفصل طبقة من الجو عن الأخرى. قد تحسب أن بمقدورك أن تسير جافاً أسفلها إلى التلال المقابلة، وأن طيور السنونو الطائرة بخفة قد تحط عليها. الحق أنها تغوص أحياناً أسفل هذا الخط وكأنها تغوص بطريق الخطأ بعد أن تحررت من المظاهر الخادعة. وبينما تنظر إلى البحيرة غرباً، تُجبر على استخدام يديك الاثنتين لتدفع عن عينيك الشمس المنعكسة وكذا الشمس الحقيقية لأنهما تتساويان في الإشراق؛ ولو تمعنتَ – بين الاثنتين – في سطحها بعين النقد، سوف تجدها حرفياً في مثل نعومة الزجاج عدا حيث ينتثر بق القَمَص في مسافات متساوية فوق رقعة ما بأكملها، إذ يُحدث بحركاته تحت أشعة الشمس أجمل تلألؤ قد تتخيله، أو ربما حيث تُهندم بطة ريشها أو، كما قلت، حيث يجري سنونو بطيئاً ليلمسها. قد ترسم سمكة في الأفق قوساً طوله ثلاث أقدام أو أربع في الهواء، يلتمع وهج مشرق حين تبزغ، وآخر حين ترتطم بالماء؛ أحياناً ما ينكشف القوس الفضي بأكمله؛ أو قد يطفو زَغب النبتة الشائكة هنا وهناك على سطحه، زغب يندفع إليه السمك ويعاود نقره. يشْبه زجاجاً مصهوراً يَبرد دون أن يتخثر، وذرات الغبار القليلة فيه نقية جميلة شأن عيوب الزجاج. ومع ذلك قد تتبين كثيراً مياهاً أغمق لوناً وأكثر نعومة وكأن شبكة عنكبوت مخفية تفصلها عن بقية البحيرة، هدير حوريات المياه، تتكئ عليها. يسعك أن ترسل ناظريك من فوق التلال إلى سمكة تقفز في أي جزء تقريباً؛ فلا توجد سمكة كراكي أو سمكة فضية تلتقط حشرة من هذا السطح المصقول وإلا ستُشوش بوضوح توازن البحيرة بأسرها. إنه لمن الرائع الإعلان عن هذه الحقيقة البسيطة بهذا الإتقان والإحكام – انكشاف هذا القتل السمكي – أميز من مجلسي البعيد موجات مستديرة قطرها

ست قصبات. بل إنك تستطيع أن تلاحظ حشرة بَقّة الماء تتقدم تقدماً متواصلاً فوق السطح الصقيل على بعد ربع ميل؛ لأنها تشق المياه قليلاً مُحْدثة مويجة بارزة يحدها خطان منفرجان، ولكن بق القَمَص ينزلق فوقها بدون أي مويجات ملحوظة. عندما يثار السطح على نحو كبير، يخلو من بق القَمَص وبق الماء، ولكن البادي أنه يترك مأواه في الأيام الهادئة وينزلق مغامراً من الشاطئ في نبضات قصيرة إلى أن يغطيه تماماً. يبث الحال هدوءاً في النفوس، التمتع في أحد تلك الأيام الخريفية الرائقة بدفء الشمس، الجلوس فوق جذل شجرة في مثل ذلك الارتفاع، أشرف على البحيرة، أدرس دوائر ذات غمازات تنطبع بلا انقطاع على سطح كان ليصير مخفياً لولاها وسط السماوات والأشجار المنعكسة. لا إزعاج فوق ذلك الامتداد الهائل إلا وينتهي في الحال إلى الهدوء والسكون الناعمين، فحين ترتج زهرية من الماء، تسعى الدوائر المرتعشة إلى الشاطئ ويغدو كل شيء أملس من جديد. لا سمكة بمقدورها أن تثب أو حشرة تَسقط على البحيرة دون أن تُحدث غمازات دائرية في خطوط مفعمة بالجمال وكأنها تدفق دائم لنافورتها، نبض رقيق لحياتها، تنهد ثدييها. ولا سبيل إلى التمييز بين رعشة الفرحة ورعشة الألم. يا لها من طمأنينة تحل على ظاهرة البحيرة! تتألق أعمال الإنسان مجدداً كما تتألق في الربيع. أجل، كل ورقة شجر وغصن وحَجر وشبكة عنكبوت تتلألأ الآن في منتصف الأصيل كما تتلألأ والندى يكسوها في صباح الربيع. تتسبب كل حركة من مجداف أو حشرة في وميض من ضوء؛ ولو سقط مجداف، يا لعذوبة الصدى!

في يوم من تلك الأيام من سبتمبر أو أكتوبر تستحيل بحيرة ولدن مرآة مثالية للغابة، تكتنفها أحجار تجدها عيناي نفيسة وكأنها قليلة نادرة. لا شيء في مثل ذلك الجمال، في مثل ذلك النقاء، وفي الوقت نفسه في مثل تلك الضخامة، مثل بحيرة قد تترامى على سطح الكرة الأرضية. مياه السماء. لا تحتاج إلى سياج. تأتي الأمم وتغيب بدون أن تدنسها. إنها مرآة لا يسع أي حَجر أن يفلقها، لن يبلى أبداً زئبقها، لا تحجم الطبيعة عن إصلاح طلائها؛ لا عواصف أو غبار بمقدورهما قط إعتام سطحها النضر؛ مرآة يغوص كل التلوث المقدَّم إليها وينمحي ويزال بفرشاة الشمس الغامضة – قماشة الغبار المنيرة – لا تحتفظ بنفَس يتنفسه أحد أمامها، وإنما ترسل أنفاسها الخاصة لتطفو سحباً عالية فوق سطحها، وتنعكس مع ذلك فوق صدرها.

ينم حقل من المياه عن روح في الهواء. لا ينقطع عن استقبال حياة جديدة وحركة من الأعالي. إنه بطبيعته وسيط بين الأرض والسماء. لا يتمايل على الأرض إلا العشب والأشجار

إلا أن المياه نفسها تترقرق بالرياح. أرى النسيم يندفع عبرها بأشعة الضوء أو رقائقه. من المدهش أن بمقدورنا غض أبصارنا على سطح البحيرة. قد ننظر طويلاً إذن إلى سطح الهواء ونعيّن روحاً لا تزال أرق تكتسحها.

يختفي في النهاية بق القَمَص وبق الماء في الجزء الأخير من أكتوبر حين يهل الصقيع القاسي؛ المعتاد بعدها في يوم هادئ من فبراير ألا يرقرق شيء على الإطلاق سطح البحيرة. في أحد آصال نوفمبر أثناء هدوء أعقب عاصفة ممطرة استمرت عدة أيام، حين كانت السماء لا تزال ملبدة تماماً بالغيوم والهواء غاصاً بالسديم، لاحظت أن البحيرة ساكنة سكوناً لافتاً للنظر، وعليه صعُب عليّ تمييز سطحها وإن لم تعد تعكس ألوان أكتوبر الزاهية، وإنما ألوان نوفمبر الداكنة الخليقة بالتلال المحيقة بها. بالرغم من أني مررت فوق البحيرة بكل ما أمكنني من نعومة، ترامت مويجات طفيفة أحدثها قاربي على مدى بصري تقريباً وأسبغت على الصور المنعكسة مظهراً مضلعاً. ولكن بينما كنت أرنو إلى السطح، مددت بصري هنا وهناك إلى وميض خافت في الأفق وكأن بعض حشرات القَمَص الهاربة من الصقيع تجمعت هناك أو ربما حسر السطح لنعومته عن نبع يتدفق من القاع. جدفت برقة نحو أحد هذه الأماكن، واعترتني الدهشة حين وجدت نفسي محاصَراً بعدد لا حصر له من أسماك الفَرْخ الصغيرة، طولها نحو خمس بوصات، لونها برونزي صارخ في المياه الخضراء، تلهو هناك، ترتفع باستمرار على السطح، تُحدث فيه الغمازات وتخلف أحياناً عليه الفقاعات. في مثل تلك المياه الشفافة البادية وكأن لا قاع لها، العاكسة للسحب، ظهرت طافياً عبر الهواء وكأني في منطاد، وقد تركت سباحتها في ذهني إحساساً وكأنها تطير أو تحوم، شأنها شأن سرب مدمج من الطيور يمر أسفل مستواي يميناً أو يساراً، زعانفها كالأشرعة في كل بقعة حولي. كان هناك العديد من تلك الأسماك في البحيرة، تحسن على ما يبدو استغلال الفصل القصير قبل أن يسحب الشتاء غطاء مثلجاً فوق نوافذها العريضة، أحياناً ما كانت تمنح السطح مظهراً وكأن نسيماً طفيفاً ارتطم به أو عدداً من قطرات المطر سقطت عليه. عندما دنوت بإهمال وأفزعته، أرسل رشاشاً مفاجئاً، وأرسلت ذيوله مويجات وكأني ضربت الماء بغصن، وبعدها التجأ على الفور إلى الأعماق. هاجت الرياح في النهاية وتفاقم السديم وطفقت الأمواج تعدو. قفز الفَرْخ أعلى من ذي قبل خارجاً نصفه من الماء، مئة نقطة سوداء طولها ثلاث بوصات فوق سطح البحيرة في الوقت ذاته. حتى في يوم تال كالخامس من ديسمبر، في إحدى السنوات، رأيت بعض الغمازات على السطح، ظننت أن السماء ستمطر في الحال،

إذ عج الهواء بالسديم، ما لبثت أن أخذت مكاني عند المجدافين لأجدف في اتجاه البيت؛ بدا أن المطر يتفاقم بالفعل بسرعة وإن لم أشعر بأي مطر على خديّ، وتوقعت أن أتشبع تشبعاً كلياً بالماء. ولكن كفّت الغمازات فجأة لأن سمك الفَرْخ كان مصدرها، وقد أرعبها ضجيج مجدافيّ فاستترت في الأعماق، أبصرت صورة باهتة لجموعها وهي تختفي؛ وهكذا أمضيت أصيلاً جافاً بالرغم من كل شيء.

اعتاد رجل عجوز ارتياد هذه البحيرة منذ نحو ستين عاماً حين كانت الظلمة تحل عليها بالغابات المحيطة. يقص عليّ أنه كان في تلك الأيام يراها كلها نابضة بالحياة بالبط والطيور المائية الأخرى، يكتنفها العديد من النسور. أتى هنا بغرض الصيد، وقد استخدم زورقاً خشبياً قديماً وجده على الشاطئ. صُنع الزورق من زندين من شجرة صنوبر بيضاء، عثر عليهما أحدهم وثبّتهما معاً، قطعهما عند الأطراف على شكل مربعات. عازته دقة الصنع، ولكنه دام سنوات عديدة قبل أن يصبح مثقلاً بالماء، وربما غرق في القاع. لم يَعرف مالكه؛ كان ينتمي إلى البحيرة. صنع حبلاً لمرساته من شقق لحاء الجوز المربوط معاً. أخبره يوماً رجل عجوز - خزّاف - عاش بجوار البحيرة قبل الثورة أنه أبصر صندوقاً حديدياً في القاع. أحياناً ما كان يطفو عالياً إلى الشاطئ؛ ولكنك عندما تتجه إليه، يتراجع مختفياً إلى المياه العميقة. خالجني السرور حين سمعت بالزورق الخشبي القديم الذي حل محل زورق هندي مصنوع من المادة نفسها، ولكنه يتصف ببنية أكثر رشاقة، عله كان في الأصل شجرة قائمة على الشاطئ سقطت في الماء لتطفو هناك لمدة جيل، أكثر المراكب ملائمةً للبحيرة. أتذكر أني عندما صوبت ناظريّ إلى تلك الأعماق، وجدت جذوعاً ضخمة عديدة يمكن رؤيتها بصعوبة راقدة في القاع، جذوعاً عصفت بها الرياح فيما مضى أو تُركت على الثلج خلال الحصاد الأخير حين كان الخشب أرخص؛ ولكن أغلبها اختفى الآن.

حينما جدفت قاربي في أول مرة ببحيرة ولدن، كانت غابة من الصنوبر والبلوط الكثيفة السامقة تحيق بها تماماً، وجرَت في بعض خلجانها كرمة العنب فوق الأشجار بجوار المياه لتشكل تعريشة أمكن للقوارب المرور أسفلها. تؤلف تلال غاية في الانحدار شواطئَها، وقد شمخت الغابة المترامية فوقها شموخاً حتى إنك وقد خفضت بصرك إليها من الجهة الغربية، تراءت كمدرّج من الآجام. قطعت العديد من الساعات حين كنت أصغر سناً أطفو فوق سطحها والنسيم العليل يهب بعد أن جدفت قاربي إلى منتصفها ورقدت وظهري على المقاعد في صدر نهار صيفي، راودتني أحلام اليقظة إلى أن أيقظني لمس القارب للرمال،

صحوت لأرى أي شاطئ دفعني قَدَري إليه؛ أيام كان الكسل فيها أكثر الأعمال جاذبية وإنتاجية. أنفقت العديد من الآصال خلسة مفضلاً أن أمضي أثمن أوقات اليوم بهذه الطريقة؛ فقد كنت غنياً، إن لم يكن بالأموال، ولكن بالساعات المشمسة والأيام الصيفية، وقد قطعتها بإسراف وتبذير؛ ولا أندم على عدم تبديدي المزيد منها في الورشة أو مكتب المُدرس. ولكن الحطّاب لم يزل يدمر تلك الشواطئ منذ أن غادرتها. انقطع التجول عبر ممرات الغابة لعدة سنوات، وكذا مَشاهد بين الحين والآخر عبر أشجار الغابة ليطل المرء على المياه. سوف تجد المُوْزِيَّة — عروس الشعر الخاصة بي — العذر إن حل عليها الصمت من الآن فصاعداً. كيف تتوقع من الطيور أن تغني حين تقطع بساتينها؟

راحت الآن جذوع الأشجار بالقاع والزورق الخشبي القديم والغابة المظلمة المحيقة، وبدلاً من الذهاب إليها للاستحمام أو الشرب، يفكر القرويون الغافلون عن موقع البحيرة في جلب مياهها — التي يجب أن تكون مقدسة تقديس الغانج[1] على الأقل — إلى القرية في ماسورة لكي يغسلوا صحونهم! لكي ينالوا مرادهم من بحيرة ولدن بإدارة صنبور أو سحب سدادة! يسمع الناس صهيل ذلك الجواد المعدني الشيطاني الممزِّق للآذان عبر البلدة، وَحَّلَ الينبوع المغلي بقدميه، استعرض كل الغابات على شاطئ ولدن، حصان طروادة، بألف رجل في معدته، قدّمه إلينا الإغريق المرتزقة! أين بطل البلد، مور من تل 'مور هيل'[2] كي يقابله عند المجاز العميق[3] ويقذف رمحاً منتقماً بين ضلوع الحيوان المنتفخ؟

وبالرغم من ذلك، من بين كل الشخصيات التي عرفتها، لعل ولدن أفضلها، وخير ما احتفظ بنقائه. شبّه الناس العديد من الرجال بها، ولكن القليل منهم يستحق هذا الشرف. بالرغم من أن الحطابين جرَّدوا أولاً هذا الشاطئ ثم الشواطئ الأخرى، وبنى الأيرلنديون زرائب الخنازير بجوارها، وانتهكت السكة الحديدية حدودها، وقشط باعة الثلج سطحها يوماً، لم يحل بها تغيير، إنها المياه نفسها التي وقَعت عليها عيناي الشابتان؛ نزل التغيير كله بي أنا. لم تنل منها تجعيدة واحدة دائمة بعد كل ما لحق بها من تموجات. إنها شابة طوال العام، وقد أقف لأبصر طائراً من طيور السنونو يغطس ليلتقط فيما يبدو حشرة من سطحها مثل الأيام الخالية. استوقفني المشهد مرة أخرى الليلة وكأني لم أره بشكل شبه يومي لِما يزيد

1- الغانج: نهر في شمال الهند يقدسه الهندوس.

2- مور: بطل قصيدة إنجليزية قتل تنيناً.

3- المجاز العميق: مجاز سكة حديد فيتشبيرج الواقع بالقرب من بحيرة ولدن. وصفه ثورو بأن "طوله ربع ميل، وعمقه ثلاثون قدماً أو اربعون".

على عشرين عاماً، أواه، هنا ولدن، البحيرة المجاورة للغابة نفسها التي اكتشفتها منذ العديد من السنوات؛ بينما قُطعت غابة في الشتاء الفائت، نمَت غابة أخرى بحذاء شاطئها نمواً قوياً مفعماً بالحيوية؛ تتدفق الفكرة السابقة نفسها على سطحها؛ إنه المرح والسعادة الصافيان، للبحيرة ولخالقها، دوماً، وربما لي. لا ريب أنه عمل رجل شجاع، لا يشوبه خداع أو مكر. دوَّر هذه المياه بيديه، عمَّقها ونقاها في فكره، ثم أورثها في وصيته لبلدة كونكورد. أبصر على سطحها أن الصورة المنعكسة نفسها راودتها؛ وأكاد أقول، ولدن، هل أنت هناك؟

ليس حلماً من أحلامي،
أن أزين صنارة؛
لا يسعني أن أكون أقرب إلى الله والفردوس
أكثر من حياتي في ولدن.
إنني شاطئها الحجري،
والنسيم المار فوقها؛
في تجويف يدي
ماؤها ورمالها
وملجؤها الأعمق
يكمن عالياً في فكري.[1]

لا تتوقف العربات قط للنظر إليها؛ ومع ذلك أتخيل أن المهندسين ورجال الإطفاء وعمال المكابح وهؤلاء الركاب ممن يَحملون تذكرة يومية وكثيراً ما يتطلعون إليها رجال أفضل بالنسبة إلى المشهد. لا ينسى المهندس ليلاً – أو لا تنسى طبيعته – أنه شاهد هذه الرؤية العامرة بالصفاء والنقاء ذات مرة على الأقل خلال اليوم. مع أنه لا يراها إلا مرة، تساعد على محو 'ستيت ستريت'[2] وسخام المحرك. يفترض المرء أنها قد تسمى 'قطرة الله'.

قلت إن بحيرة ولدن خالية من المداخل والمخارج الواضحة، ولكنها تتصل من ناحية اتصالاً بعيداً غير مباشر ببحيرة فلينت – بحيرة أكثر ارتفاعاً – عن طريق سلسلة من البحيرات

1– قصيدة من قصائد ثورو.
2– ستيت ستريت: منطقة بوسطن المالية.

الصغيرة الجارية في ذلك الاتجاه، ومن ناحية أخرى تتصل على نحو مباشر وواضح بنهر كونكورد – نهر أكثر انخفاضاً – عن طريق سلسلة مماثلة من البحيرات، ومن خلالها ربما فاضت بالمياه في فترة جيولوجية أخرى، وقد تفيض مرة أخرى بعد القليل من أعمال الحفر – حاشا لله. لو أن الأخذ بحياة متحفظة متقشفة لفترة طويلة كناسك في الغابة جعلها تكتسب مثل ذلك النقاء الرائع، مَن لن يندم على أن مياه بحيرة فلينت – مياه ملوثة بالمقارنة – تختلط بها أو تَذهب حلاوتها ذاتها هدراً في موج المحيط؟

تمتد بحيرة فلينت – أو بحيرة ساندي – بحيرتنا العظيمة وبحرنا الداخلي في مدينة لنكولن على بعد نحو ميل شرق بحيرة ولدن. إنها أضخم كثيراً، فقد قيل إنها تشمل مئة وسبعة وتسعين آكراً، وأكثر وفرة في السمك؛ ولكنها ضحلة بالمقارنة بولدن، وليست نقية على نحو مميز. كثيراً ما وجدت المسيرة في الغابة هناك وسيلة استجمام. كان الأمر يستحق، الشعور بالريح تهب على خديك بحرية ورؤية الأمواج تجري وتذكر حياة البحارة. مضيت إلى هناك خريفاً لأجمع الكستناء خلال أيام عاصفة حين كان الجوز يَسقط في الماء ثم ينجرف نحو قدميّ؛ وفي أحد الأيام، أثناء سيري بطيئاً على طول شاطئها المغطى بنبات البَرْدِي والرذاذ العذب يهب على وجهي، صادفت حطام قارب بالياً، غاب جانباه، وبالكاد تبقى ما يزيد على انطباع بقاعه المسطح وسط نبات السُّمار؛ ومع ذلك تحدد نموذجه بحدة من خلال العروق وكأنه ورقة شجر ضخمة متهرئة تطفو على السطح. كان أكثر حطام مبهر بمقدورك تخيله على الشاطئ، لا يخلو من مغزى فعلي للقصة. كانت الخضراوات تتعفن بحلول هذا الوقت ويصعب التعرف على شاطئ البحيرة، شاطئ اندفعت عبره نباتات السُّمار والسوسن البري. كنت أكن إعجاباً بعلامات المويجات المرتسمة على القاع الرملي في الطرف الشمالي من البحيرة، جمدت وتصلبت بفعل ضغط المياه أسفل أقدام من يخوض في البحيرة، ونباتات السُّمار النامية في صف واحد في خطوط متذبذبة تتناغم مع هذه العلامات، الطبقة خلف الطبقة، وكأن الأمواج غرستها. عثرت أيضاً هناك على كرات غريبة بكميات كبيرة، تكونت على ما يبدو من أعشاب رفيعة أو جذور، علها من نبات بايبورت، تراوح قطرها من نصف بوصة إلى أربع بوصات، كروية تماماً. انجرفت ذهاباً وإياباً في المياه الضحلة على القاع الرملي، وأحياناً ما ارتمت على الشاطئ. إما أنها عشب جامد أو حوى منتصفها رملاً قليلاً. قد تظن لأول وهلة أنها تتشكل بحركة الأمواج مثلها مثل الحصاة غير أن أصغرها تكوّن من مواد خشنة طولها نصف بوصة، وتَظهر في فصل واحد من فصول

السنة. علاوة على أني أظن أن الأمواج لا تكوّن – مثلما لا تبلي – المواد التي اكتسبت بالفعل قواماً. إذ تحتفظ بشكلها وهي جافة لفترة غير محدودة.

'بحيرة فلينت'! إنه فقر ابتُليت به أسماؤنا. من أعطى مزارعاً قذراً غبياً تتاخم مزرعته هذه المياه السماوية – شواطئ جرَّدها بكل قسوة – الحق في منحها اسمه؟ رجل ما شحيح أحب أكثر ما أحب سطح دولار عاكس أو سنتاً لامعاً وسعه أن يرى فيه وجهه الوقح؛ بل إنه اعتبر البط البري المستقر فيها متعدياً على ملكه؛ صارت أصابعه مخالب معقوفة عظمية من جراء عادة القبض كما الخطّاف؛ وعليه ليست البحيرة مسمّاة من أجلي. لا أذهب هناك لأراه أو أسمع عنه؛ مَن لم يرها قط، مَن لم يستحم فيها قط، مَن لم يحبها قط، من لم يحمها قط، مَن لم يشر إليها قط بكلمة طيبة أو يشكر الله على خلقه إياها. فلنسمها بدلاً من اسمه باسم أسماك تعوم فيها، باسم طير أو حيوان بريين يرتاداها، زهور برية تنمو على شواطئها أو رجل أو طفل همجي خيْط تاريخه منسوج بتاريخها؛ وليس شخصاً لا يستطيع أن يثْبت حقه فيها إلا بصك أعطاه إياه هيئة تشريعية أو جار لا يختلف عنه في العقل، شخصاً لم يفكر إلا في قيمتها المالية؛ شخصاً ربما صب حضوره لعنة على كل الشواطئ؛ شخصاً أنهك الأرض المحيطة بها، وبكل سرور أنهك مياهها؛ لم يندم إلا على أنها ليست مزروعة بالحشيش الإنجليزي أو ليست مرعى للتوت البري – لا شيء يحوله في الواقع إلى نقود في عينيه – وسوف يجففها ويبيع وحل أعماقها. لم تدر طاحونته و لم تمكنه من توليد أية طاقة حين تطلع إليها. لم يكن أي احترام لعمله، مزرعة كل ما فيها له ثمن، سوف يَحمل المشهد الطبيعي، سوف يَحمل الله، إلى السوق لو بمقدوره أن يجني شيئاً مقابلهما؛ فهو يذهب إلى السوق من أجل ربه بالفعل؛ لا شيء ينمو في مزرعته دون مقابل، لا تُنتج حقوله محاصيل، لا زهور بمراعيه، لا فاكهة بأشجاره، وإنما دولارات؛ لا يحب جمال فاكهته، لا تنضج فاكهته إلا حين تنقلب دولارات. أعطني فقراً يستمتع بالثروة الحقيقية. أجد المزارعين محترمين مثيرين للاهتمام بقدر ما هم فقراء – مزارعون فقراء. مزرعة نموذجية! يقف منزل المزرعة كما الفطر في كومة من الروث، حجرات للناس والأحصنة والثيران والخنازير، نظيفة وغير نظيفة، كل حجرة ملامسة للأخرى! غاصة بالرجال! بقعة شحم عظيمة عابقة بالسماد ومخيض اللبن! في حالة محتدمة من الحرث، فقد تم تسميدها بقلوب الرجال وعقولهم! وكأن سوف تزرع البطاطس في فناء الكنيسة! تلك هي المزرعة النموذجية.

لا، لا؛ لو سنسمي أبهى معالم المشهد الطبيعي بأسماء الرجال، فليكونوا أنبل الرجال

وأبرزهم. فلتتسم بحيراتنا بأسماء حقيقية، على الأقل كبحر إيكاروس حيث "لا يزال الشاطئ يدوي بمحاولة شجاعة".

تقع بحيرة الإوزة صغيرة المساحة في طريقي إلى بحيرة فلينت؛ قيل إن فير هيفين – امتداد لنهر كونكورد – يحوي نحو سبعين آكراً، يقع في الجنوب الغربي على بعد ميل؛ تبلغ بحيرة وايت أربعين آكراً، وتترامى على مساحة ميل ونصف إلى ما وراء فير هيفين. إنها منطقة البحيرات. من حقي استخدام هذه البحيرات، ومعها نهر كونكورد، لتشغيل المطحنة؛ وكانت تطحن بانتظام طيلة العام الحنطة حين أحملها إياها نهاراً وليلاً.

بما أن الحطابين والسكة الحديد وأنا نفسي دنسنا بحيرة ولدن، لعل أكثر البحيرات جاذبية إن لم تكن أجملها – جوهرة الغابة – هي بحيرة وايت[1]، اسم رديء من فرط ابتذاله سواء كان مشتقاً من صفاء مياهها اللافت للنظر أو لون رمالها. ولكنها من حيث الاسم والصفاء، علاوة على نواح أخرى، توأم أقل من بحيرة ولدن. تتشابهان كثيراً حتى إنك قد تزعم إنهما متصلتان تحت الأرض. تتصفان بالشاطئ الصخري نفسه، وتتلون مياههما باللون ذاته. وكما هو حال بحيرة ولدن حين تخفض بصرك عبر الغابة إلى بعض خلجانها – خلجان ليست في منتهى العمق، ولكن انعكاس القاع يلونها تلويناً خفيفاً – تصطبغ مياهها في الجو القائظ الشديد الرطوبة بلون أخضر غامض ضارب إلى الزرقة أو لون أخضر شاحب. اعتدت الذهاب إلى هناك منذ سنوات عديدة كي أجمع الرمل بالعربة وأصنع ورق السَنْفَرَة، وقد واصلت زياراتي إليها منذ حينها. يقترح أحد مرتاديها تسميتها ببحيرة فيريد[2]. وقد تسمى بحيرة الصنوبر الأصفر للسبب التالي. كان بمقدورك منذ خمس عشرة سنة أن تبصر قمة إحدى أشجار الصنوبر الراتنجي، نوع يسمى في هذا الجوار بالصنوبر الأصفر مع أنه ليس نوعاً واضحاً، كان ينتأ فوق سطح المياه العميقة على بعد عدة قصبات من الشاطئ. بل إن البعض تصور أن البحيرة غاصت لتتبدى للعيان واحدة من الغابات البدائية القائمة في الماضي هناك. بل إني وجدت منذ فترة تعود إلى 1792 في "الوصف الطوبوغرافي لبلدة كونكورد" بقلم أحد مواطنيها – في مجموعات جمعية ماسيتشوسيتس التاريخية – أن المؤلف، بعد الحديث عن بحيرتيّ ولدن ووايت، يضيف قائلاً، "في منتصف البحيرة الأخيرة يمكن مع انخفاض المياه للغاية رؤية شجرة تبدو وكأنما نمت في محلها نفسه مع أن الجذور يَبلغ

1– وايت white: تعني 'أبيض'.
2– فيريد virid: كلمة إنجليزية، وتعني خضراء.

طولها خمسين قدماً أسفل سطح المياه؛ قمة هذه الشجرة مقطوعة، وقُطرها في ذلك المكان أربع عشرة بوصة". تحدثت في ربيع عام 49 إلى رجل كان أقرب السكان إلى البحيرة في مدينة صادبيري، نقل إليّ أنه من قطع هذه الشجرة قبل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة. أقصى ما تذكره هو أنها قامت على بعد اثنتي عشرة قصبة أو خمس عشرة قصبة من الشاطئ حيث كان عمق المياه ثلاثين قدماً أو أربعيناً. كان الفصل شتاء، وكان يُخرج الثلج في صدر النهار، وعقد العزم على قطع شجرة الصنوبر الصفراء القديمة في الظهيرة بمساعدة جيرانه. نشر بمنشار قناة في الثلج ناحية الشاطئ ثم رفعها خارج الثلج بالثيران؛ ولكن قبل أن يقْبل على مهمته، خامرته الدهشة حين وجد أن الطرف الخاطئ يتجه إلى أعلى، وأجذال الفروع تشير إلى أسفل، والطرف الصغير مثبّت بإحكام في القاع الرملي. كان قطرها قدماً عند الطرف العريض، وقد توقع أن يحصل على زَنْد ممتاز للنشر، ولكن تعفناً لا حد له ألمّ بها حتى إنها لم تَصلح إلا كوقود إن صلحت لشيء على الإطلاق. جلب بعضاً منها آنذاك إلى سقيفته. برزت علامات فأس وطيور نقار الخشب على أرومة الشجرة. خالها شجرة ميتة على الشاطئ غير أن الريح عصفت بها في النهاية صوب البحيرة، وبعد أن أثقلت قمتها بالمياه – بينما ظلت الأرومة جافة خفيفة الوزن – انجرفت وغاصت وطرفها الخاطئ يتجه إلى أعلى. ما استطاع أبوه ذو الثمانين عاماً أن يتذكر حين لم تكن الشجرة في موقعها. قد يرى المرء عدة أزناد ضخمة جداً راقدة في القاع، وهناك قد تتبدى بسبب تموج السطح مثل ثعابين مياه هائلة الحجم تتحرك.

قلما دنس قاربٌ هذه البحيرة لأن فيها أقل القليل مما يغري الصيادين. وبدلاً من السوسن الأبيض الذي يحتاج إلى الطين أو نبات عود الوّج المعتاد، نمى نبات الراية الزرقاء متباعداً في المياه النقية مرتفعاً من القاع الصخري على طول الشاطئ حيث تزوره الطيور الطنّانة في يونيه؛ تناغم لون نصالها الضاربة إلى الزرقة وأزهارها ولا سيما صورها المنعكسة تناغماً فريداً مع المياه الزرقاء المائلة إلى الاخضرار.

إن بحيرة وايت وبحيرة ولدن بلورتان رائعتان على سطح الأرض، بحيرتا الضوء. لو تجمدتا إلى الأبد، ولو كانتا صغيرتين بما يكفي للقبض عليهما، قد يَحملهما العبيد شأن الأحجار الكريمة لتزيين رؤوس الأباطرة؛ ولكن لأنهما سائلتان وفسيحتان، مضمونتان لنا ولورثتنا إلى الأبد، نتجاهلهما ونجري خلف ماسة كوينور الملكية. إنهما أنقى من أي قيمة مالية؛ فهما خاليتان من السماد. تَنعمان بجمال يفوق حيواتنا، وشفافية تفوق شخصياتنا!

لا نتعلم أبداً الدناءة منهما. تتمتعان بصفاء يفوق بِركة يعوم فيها البط أمام باب المزارعين! إلى هنا يأتي البط البري النظيف. تفتقر الطبيعة إلى أي ساكن بشري يُقَدرها حق التقدير. تتآلف الطيور بريشها ونداءاتها مع الزهور، ولكن لم يتآمر الشباب أو العذراء مع جمال الطبيعة الوافر البري؟ تزدهر بمفردها في الأغلب، بعيداً عن بلدات تسكن فيها. تحدّث عن السماء! أجل، أخزِ الأرض.

10 - مزرعة بيكر

أحياناً ما كنت أهيم على وجهي إلى بساتين الصنوبر، تقف كما المعابد أو الأساطيل في البحر، كاملة الأشرعة والصواري، بأغصان ثقيلة، يترقرق الضوء في منتهى النعومة والخضرة والظلال حتى إن كهنة السلتيين قد ينبذون أشجار البلوط كي يعبدوا فيها؛ أو أهيم إلى غابة أرْز خلف بحيرة فلينت ترتفع عالياً أشجارها المغطاة بعليق رمادي، خليقة بالوقوف أمام مَثْوَى الشّهداء[1]، ويغطي شجر العَرْعَر الزاحف الأرض بأكاليل عامرة بالفاكهة؛ أو أهيم إلى مستنقعات تتعلق فيها طحالب اليوسنيا على هيئة شرائط من أشجار الراتينجية البيضاء، وتغطى فطر الغاريقون - موائد مستديرة لآلهة المستنقعات - الأرض، ويزين فطر أجمل الأجذال مثل الفَراش أو القواقع حلازين نباتية؛ حيث تنمو نباتات المستنقع الوردي وشجر القَرانيا، ويتوهج توت شجر جار الماء الأحمر كعيون العفاريت، تحفر شجرة الجِراب الأثلام في أصلب الغابات وتحطم ثناياها، ويجعل توت البَنْهَشية البري الناظر ينسى بيته من فرط

1- مَثْوَى الشّهداء: حجرة الخلود التي تُستقبَل فيها أرواح الشهداء (في الميثولوجيا السكندينافية).

جمالها، يستحوذ عليه الانبهار والإغراء بفعل فاكهة برية محرمة أخرى لا اسم لها، أجمل من أن يتذوقها فان. وبدلاً من زيارة أحد العلماء، زرت عدة مرات أشجاراً معينة من نوع نادر في هذا الجوار، تقف بعيداً في منتصف مرعى ما أو في أعماق غابة أو مستنقع أو على قمة تل؛ مثل شجرة البتولا السوداء، لدينا منها بعض النماذج الجميلة قطرها قدمان؛ وابنة عمها، البتولا الصفراء، بثوبها الذهبي الفضفاض، وعطرها الأشبه بعطر البتولا السوداء؛ تتسم شجرة الزَّان بجذع دقيق متقن وطحالب مرسومة بمنتهى الجمال، مثالية في كل تفاصيلها، وعدا عينات منها تفرقت هنا وهناك، أعرف بستاناً واحداً صغيراً من الأشجار الكبيرة باقياً في المنطقة، اعتقد البعض أن حمَام زرعه، حمَام أطعمه الناس يوماً جوز شجر الزان؛ يستحق الأمر أن تتفرج على الحبوب الفضية تتلألأ حين تشق هذه الغابة؛ الصوت العميق الخفيض؛ شجرة النير؛ شجرة المَيْس الأمريكية أو الدَّردار الزائفة، لدينا منها واحدة فقط تامة النضج؛ شجر صنوبر أطول مثل السارية، تقف شجرة شنجل أو نبات شُوْكَران مثالي أكثر من المعتاد كمعبد هندي وسط الغابة؛ ويسعني أن أذكر العديد من الأشجار الأخرى. هذه هي المزارات التي زرتها صيفاً وشتاء.

صادف في مرة من المرات أن وقفت بمحاذاة قوس قزح ملأ الطبقة الأدنى من الجو، أسبغ لوناً خفيفاً على العشب والأوراق من حولي وأبهر عينيّ وكأنما أتطلع إلى بلور ملوَّن. كانت بحيرة من ضوء قوس قزح، عشت فيها هنيهة مثل دولفين. لو استمر وقتاً أطول، للوَّن أعمالي وحياتي. وبينما كنت أسير على ممر السكة الحديد، انتابتني الدهشة لمرأى هالة من الضوء تحيط بظلي، تخيلت نفسي مسروراً واحداً من المختارين الناجين من العقاب بعد الموت. أكد أحد زواري أن لا هالة تحيط بظلال بعض الأيرلنديين، وأن سكان البلد الأصليين هم البارزون ولا أحد غيرهم. يقول لنا بنفنوتو تشليني[1] في مذاكراته إن ضوءاً متألقاً ظهر فوق ظل رأسه صباحاً ومساء – سواء كان في إيطاليا أو فرنسا – بعد أن رأى حلماً مُعَيَّناً أو رؤيا رهيبة خلال سجنه في قلعة سانت أنجلو، وقد اتضح تمام الاتضاح والعشب مبلل بالندى. علها كانت الظاهرة نفسها التي أشرت إليها، ظاهرة يلاحظها المرء صباحاً على الأخص، ولكن أيضاً في أوقات أخرى، بل وتحت نور القمر. ومع أنها ظاهرة مستمرة، لا يلاحظها الناس في المعتاد، وفي حالة خيال متوهج كخيال تشليني، شكّلت أساساً كافياً

1– بنفنوتو تشليني: (1500 – 1571)، صائغ ونحات إيطالي.

للخرافة. كما أنه يخبرنا أنه أراه لبعض الأشخاص. ولكن أليسوا مميزين حقاً من أدركوا أن أحداً يتطلع إليهم؟

انطلقت ذات ظهيرة للصيد في فير هيفين، عابراً الغابة، اقتصدت في طعامي الضئيل من الخضراوات. أدى طريقي إلى مرعى بليزينت الملحَق بمزرعة بيكر، مأوى قرض له أحد الشعراء في الماضي قائلاً،

"المدخل حقل جميل،
تُحدث بعض أشجار الفاكهة المُطَحْلَبة
غديراً متورداً،
تولاه فأر مِسك منسّل،
وسُلْمون مُرَقَّط مفعم بالحيوية
يندفع هنا وهناك".[1]

فكرت في العيش هناك قبل المضي إلى ولدن. "سرقت" التفاح، تخطيت الجدول بوثبة، أفزعت فأر المِسك والسُلْمون المُرَقَّط. بدا الأصيل طويلاً لا نهاية له، في خلاله قد تقع العديد من الأحداث، جانب ضخم من حياتنا الطبيعية، مع أني قضيت نصفها بالفعل حين بدأ. وفي الطريق هطل وابل من المطر أرغمني على الوقوف نصف ساعة أسفل شجرة صنوبر، تراكمت الأغصان فوق رأسي، وارتديت منديلي كمظلة؛ وعندما ألقيت أخيراً بظلي على عشبة البَكريل، وقفت بخصر منقوع في الماء، ووجدت نفسي فجأة تحت ظل سحابة، بدا الرعد يهزم بشدة ما بعدها شدة حتى إني لم أعد قادراً إلا على الإنصات إليه. دار في بالي، لا بد أن فخراً استولى على الآلهة مع تلك الومضات الأشبه بالمذراة لهزيمة صياد مسكين أعزل. وهكذا أسرعت طالباً الملجأ إلى كوخ قريب قام على بعد نصف ميل من أي طريق، ولكنه أقرب كثيراً من البحيرة، و لم يشغله أحد منذ زمن طويل:

"وهنا نشأ شاعر،
في السنوات الكاملة،
لأنه شاهد كوخاً عادياً

1- كل شعر هذا الفصل مأخوذ من قصيدة "مزرعة بيكر" بقلم صديق ثورو إليري تشانينج (1818 – 1901).

يتجه نحو الدمار".

وهكذا تجري حكايات عروس الشعر. ولكني وجدت أن الأيرلندي جون فيلد وزوجته وعدة أطفال سكنوا في ذلك المكان، من صبي عريض الوجه ساعد أباه في عمله، والآن أتى راكضاً إلى جواره من المستنقع كي يتفادى المطر، إلى طفل متغضن برأس كما الكوز أشبه بالعرافة جلس على ركبة أبيه كما في قصور النبلاء ورنا من بيته في وسط البلل والجوع بعينين مدققتين إلى الغريب، يَنعم بامتياز الطفولة، دون أن يدري أنه آخر فرد في سلالة نبيلة، وأمل العالم ومحط أنظاره، بدلاً من طفل جون فيلد المزعج الجائع المسكين. جلسنا هناك معاً تحت هذا الجزء من السقف، أقل الأجزاء ترشحاً بالماء، فيما أرسلت السماء وابلاً من الأمطار ودوى الرعد في الخارج. كنت قد جلست هناك عدة مرات في الماضي قبل بناء سفينة طفت بأسرته إلى أمريكا. كان جون فيلد ببساطة رجل صادق مجتهد غير أنه عديم الحيلة؛ تميزت زوجته بالشجاعة، طهت العشاء عدة مرات متتالية في أعماق ذلك الموقد الضئيل؛ بوجه دهني ريان وصدر عار، لا تزال تفكر في تحسين حالها يوماً؛ بمقشة لا تختفي قط من إحدى يديها، ومع ذلك لا آثار مرئية لها في أي مكان. احتمى الدجاج هنا أيضاً من المطر، سار يبطء هنا وهناك في الغرفة مثله مثل أفراد الأسرة؛ يخيل إليّ أنه يماثل البشر كثيراً بما يحول دون شيِّه. وقف وتطلع إلى عيني أو نقر حذائي نقراً. وفي أثناء ذلك قص عليّ مضيفي حكايته، عمل جاهداً "وكأنه في مستنقع" عند مزارع مجاور، حرث أحد المراعي بمجرفة أو عزق أحد المستنقعات بعشرة دولارات للأكر وحرية استخدام الأرض بالسماد لمدة عام. عمل ابنه الصغير عريض الوجه مرحاً بجوار أبيه في تلك الأثناء دون أن يدري رداءة صفقة عقدها أبوه. حاولت أن أعاونه بخبرتي، أعلمته أنه واحد من أقرب جيراني، وأني أنا أيضاً – الآتي للصيد هنا والبادي مثل العاطل – أكسب قوتي مثله؛ قلت له إني عشت في منزل ضيق منير نظيف كلّف بالكاد ما يزيد على إيجار سنوي لخرائب يعيش فيها؛ ولو اختار، بمقدوره في خلال شهر أو اثنين أن يبني لنفسه قصراً؛ أبلغته أني لم أتناول الشاي ولا القهوة ولا الزبد ولا اللبن ولا اللحم الطازج، وعليه لم أضطر إلى العمل لشرائها؛ ومرة ثانية، بما أني لم أعمل جاهداً، لم أضطر إلى تناول الكثير من الطعام، و لم يكلفني طعامي إلا بندقية؛ ولكن لأنه أخذ يتناول الشاي والقهوة والزبد واللبن واللحم البقري، أُجبر على الكدح لدفع أثمانها، وحين كدح، كان عليه أن يأكل الكثير ليصلح الدمار في جسمه – وعليه لم تختلف النتيجتان، الحق أن إحداهما أسوأ

لأن استياء خالجه لإهدار حياته في هذه الصفقة؛ ومع ذلك اعتبر قدومه إلى أمريكا ربحاً لأن بوسعه هنا الحصول على الشاي والقهوة واللحم يومياً. ولكن أمريكا الحقيقية بلد تجد فيه حرية اتباع مثل ذلك الأسلوب في الحياة، أسلوب قد يمَكنك من الحياة بدون هذه الأشياء، حيث لا تسعى الدولة إلى إرغامك على دعم العبودية والحرب ونفقات أخرى زائدة تَنتج بصورة مباشرة أو غير مباشرة من استخدام هذه الأشياء. تحدثت إليه عن عمد وكأنه فيلسوف أو راغب في أي يكون فيلسوفاً. سوف أسعد لو ترك الناس كل مراعي الأرض بوراً لو أنها نتيجة لبدء الإنسان في تحرير نفسه. لن يحتاج الرجل أن يَدرس التاريخ كي يدرك الأفضل لثقافته. ولكن واحسرتاه! ثقافة الأيرلندي ما هي إلا مشروع ينهض به بمعزقة مستنقعات أخلاقية. قلت له إنه يعمل جاهداً في المستنقع، وعليه احتاج إلى جزمة سميكة وملابس متينة سرعان ما ستتوسخ وتبلى، ولكني أرتدي جزمة خفيفة وملابس رقيقة لا تكلف نصف الثمن مع أنه قد يظنني أرتدي ملابس خليقة برجل نبيل (ولم يكن هذا هو الحال)، وفي خلال ساعة أو اثنتين، بدون جهد، ولكن كمن يستجم، بوسعي لو شئت أن أصطاد مبتغاي من السمك لمدة يومين، بل أو أكسب أموالاً كافية لإعالتي لمدة أسبوع. لو عاش هو وعائلته عيشة بسيطة، قد يذهبون لقطف التوت صيفاً طلباً للتسلية. أرسل جون تنهيدة بعد هذه الجملة، وحملقت زوجته بيدين على خصرها، وبدا أن الاثنين يتساءلان إن كان لديهما رأس مال كاف لبدء ذلك المسلك أو معرفة كافية بالحساب لإتمامه. وجدا الأمر كالإبحار بدون آلات رصد، ولم يبصرا بوضوح كيف بإمكانهما إيجاد مرفأهما؛ وعليه أحسب أنهما لا يزالان ينظران إلى الحياة بشجاعة، وفقاً لأسلوبهما، وجهاً لوجه، بكل قوة وضراوة، بلا قدرة على شق أعمدتها الهائلة بأي وتد حاد، وهزيمتها بالكامل؛ يفكران في التعامل معها بخشونة كما ينبغي للمرء أن يتعامل مع الشوك. ولكنهما يحاربان من وضع غير مواتي ساحق – إنها الحياة يا جون فيلد، واحَسْرتاه! بدون معرفة بالحساب، والإخفاق أيضاً.

سألته، "هل تصطاد أبداً؟" "آه، أجل، أصطاد من حين لآخر طعاماً وأنا راقد بجوار البحيرة؛ أصطاد أسماك فَرْخ شهية. ما هو طُعمك؟" "أصطاد أسماكاً فضية بدود السمك، وأستخدمها كطعم لأسماك فَرْخ". قالت زوجته بوجه لامع يفيض بالأمل، "من الأفضل أن تذهب الآن يا جون" ولكن جون أبدى اعتراضاً.

انتهى وابل المطر، وبشَّر قوس قزح فوق الغابة الغربية بأمسية صافية؛ وعليه غادرت.

عندما خرجت، سألته أن أحتسي ماء على أمل أن ألقي نظرة على قاع البئر وأكمل معاينة المكان؛ ولكني وجدت - واحَسْرَتاه! - مياهاً ضحلة ورملاً ليناً وحبلاً مقطوعاً أيضاً ودلواً عصياً على الاسترداد. وفي خلال ذلك تم اختيار وعاء المطبخ الصحيح وتقطير المياه على ما يبدو، وبعد التشاور والتأخير الطويل مرر المياه للعطشان - مياه لم يتركها لتبرد بعد، مياه لم تُصفى. قام في خاطري أن مثل تلك العصيدة تعزز الحياة هنا؛ وعليه أغلقت عينيّ وأبعدت الذرات إلى تيار تحتي وجُهته بمهارة، ثم احتسيت بترحاب حقيقي أكبر جرعة مشْبعة قدَرت عليها. لست موسوساً في مثل تلك الحالات حين يتعلق الأمر بحسن الآداب.

وبينما كنت أغادر بيت الأيرلندي بعد المطر، أثني خطواتي مرة أخرى إلى البحيرة مسرعاً لأصطاد أسماك الكراكي، خضت في مراع منعزلة وأخاديد موحلة ومستنقعات، خضت في أماكن مهجورة وبدائية، ألفيتها لحظات تافهة، أنا من التحقت بالمدرسة والكلية؛ ولكن فيما كنت أعدو هابطاً التل ناحية الغرب أحمر اللون، وقوس القزح فوق كتفي، وأصوات خفيضة كما الرنين تنتهي إلى أذني عبر الهواء النظيف، منها لا أعرف الاتجاهات، بدا أن قريني الصالح يقول لي - اذهب لصيد الأسماك والحيوانات في مساحة شاسعة كل يوم، في مساحة رحيبة شاسعة، وارتح بجوار الجداول والمواقد بدون شك أو ريبة. تذكّر خالقك في أيام شبابك. استيقظ متحرراً من القلق قبل الفجر، واسع إلى المغامرات. فلتجدك الظهيرة بجوار بحيرات أخرى، وليدركك الليل في كل مكان بالبيت. لا حقول أكبر من هذه الحقول، لا مباريات أكثر قيمة من مباريات قد تلعبها هنا. تصرَّف بجموح وفقاً لطبيعتك، مثل نباتات البَرْدي والبطارِس، نباتات لن تصبح قط حشيشاً إنجليزياً. دع الرعد يهزم؛ ماذا لو هدد بخراب يحل على محاصيل المزارعين؟ إنه ليس غرضها. احتم أسفل السحب وهم يَهربون إلى العربات والسقائف. لا تكسب قوتك بالتجارة، وإنما بالتسلية. استمتع بالأرض، ولكن لا تتملكها. وبسبب الحاجة إلى المغامرة والإخلاص، ينتهي الرجال إلى هذا المآل، يبيعون ويشترون، ويهدرون حيواتهم عبيداً للأرض.

أواه يا مزرعة بيكر![1]

"مشهد طبيعي أغنى عناصره

أشعة شمس صغيرة بريئة".

---

1 - قصيدة لصديق ثورو، إليري تشانينج، أدخل علها بعض التعديلات.

"لا أحد يَجري ليمرح
في مرعاك المسيج بالحواجز".
"لا تتجادل مع رجل،
بأسئلة لا تحير أبداً،
أليفة الآن كما كانت لأول وهلة،
ترتدي جَبَرديناً خمرياً بسيطاً".

...

"تعال يا من تحب،
وأنت يا من تكره،
أطفال الحمامة المقدسة،
أطفال الدولة وجاي فوكس[1]،
وعلِّق مؤامرات من
روافد الأشجار القوية!"

يأتي الرجال مروَّضين إلى البيت ليلاً من الحقل أو الشارع المجاورين فقط حيث تتردد أصداء منزلهم، وحياتهم تعاني توقاً، تتنفس أنفاسها من جديد؛ تترامى مراعيهم صباحاً ومساء أبعد من خطواتهم اليومية. ينبغي أن نقْبل إلى البيت من بعيد، من مغامرات وأخطار واكتشافات يومية بتجربة جديدة وشخصية جديدة.

قبل أن أصل إلى البحيرة، أخرج دافع جديد جون فيلد، بذهن متغير، إذ تخلى عن "عمل المستنقعات" قبل هذا الغروب. ولكن الرجل المسكين لم يزعج إلا زعنفتين على حين اصطدت سلسلة من الأسماك الممتازة، قال إن حظه سيء؛ ولكن عندما أخذ كل منا مكان الآخر في القارب، تبدل الحظ هو الآخر. جون فيلد المسكين! – أتمنى ألا يقرأ هذا الكلام إلا إذا سيستفيد منه – يفكر في العيش بأسلوب مشتّق خليق بأوروبا، وطنه الأصلي، في هذا البلد البدائي الجديد – يصطاد أسماك الفَرْخ بالأسماك الفضية. أعترف بأنه أحياناً ما يكون

1 – جاي فوكس: (1570 – 1606) إنجليزي كاثوليكي أُعدم لمحاولة تفجير البرلمان الإنجليزي.

طُعماً جيداً. ومع أنه يمتلك أفقه وحده، فهو رجل فقير، وُلد ليكون فقيراً، بفقره الأيرلندي المتوارث أو حياته الفقيرة، بجذة آدم وطرق المستنقعات، لن ينهض في هذا العالم – لا هو ولا ذريته – إلى أن تنال أقدامهم الخائضة في المستنقعات الشبيهة بأقدام الإوز حذاء مجنّحاً مشدوداً إلى الكاحل.

11 – القوانين الأسمى

عندما أقبلت إلى البيت عبر الغابة، أجرجر صنارتي ومعي مجموعة من الأسماك، كانت السماء مظلمة تماماً، ولكنني لمحت مرموطاً ينسل من طريقي وراودتني إثارة غريبة تشي ببهجة وحشية، وتولاني إغراء ما بعده إغراء كي أمسكه وألتهمه نيئاً؛ لا للإيحاء بأن جوعاً خالجني وقتذاك، عدا جوعي إلى تلك البرية التي مثّلها. ومع ذلك، عندما كنت أعيش بجوار البحيرة، وجدت نفسي ذات مرة أو اثنتين أتجول في الغابة بانغماس غريب شأن كلب صيد شبه جائع ساعياً إلى لحم غزال قد ألتهمه، ولا يمكن أن أعتبر أي لقمة بدائية. لقد باتت أكثر المشاهد وحشية مألوفة ألفة لا يمكن تفسيرها. وجدت في نفسي – ولا زلت أجدها – غريزة توجهني إلى حياة روحية أسمى مثل أغلب الرجال كما يسمونها، وغريزة أخرى بدائية متوحشة، وأضمر توقيراً للاثنتين. أحب البري حباً لا يقل عن الصالح. لا يزال ما يخامر الصيد من وحشية ومغامرة ينصحني بها. يروقني أحياناً الهيمنة على الحياة وتمضية يومي كما تفعل الحيوانات. لعلي أدين بهذا العمل والصيد لاطلاعي الأقرب على الطبيعة في شبابي.

لقد قدّم أحدنا إلى الآخر في مرحلة مبكرة وأبقيانا أمام مشاهد طبيعية لولاها ما اطلعنا عليها في تلك السن. قضى صيادو السمك، وصيادو الطيور والحطابون وغيرهم حيواتهم في الحقول والغابة لينقلبوا هم أنفسهم بمعنى ما غريب جزءاً من الطبيعة، غالباً ما يسمح لهم مزاجهم المواتي بمشاهدتها، في فترات تفصل بين مساعيهم، بل إنهم أكثر من الفلاسفة والشعراء الذين يدنون منها مضمرين التوقعات. لا يعتريها خوف من إظهار نفسها لهم. إن المسافر في البراري صياد طيور بالسليقة، وناصب للفخاخ في مياه ميزوري وكولومبيا، وصياد سمك في شلالات سانت ماري. يتعلم المسافر الأمور بالتدريج وبطريقة غير مباشرة، وهو ليس خبيراً ماهراً. نهتم كل الاهتمام حين ينقل العلم ما يَعلمه أولئك الرجال بالفعل بصورة عملية أو بالغريزة لأن ذلك وحده إنسانية حقيقية أو بفضل التجربة الإنسانية.

يسيئون فهم من يؤكد أن لدى أبناء نيو إنجلاند القليل من التسالي لأنهم لا يأخذون عطلات عامة كثيرة، ولا يلعب الرجال والصبية ألعاباً عديدة كما يفعلون في إنجلترا، لأن الألعاب لم تحل بعد محل التسالي الأكثر بدائية هنا – وإنما الأكثر انعزالاً – كصيد الطيور وصيد السمك وما شابهها. لقد حمل كل صبي في نيو إنجلاند تقريباً بين نظرائي على منكبه بندقية لصيد الطيور بين سن العاشرة والرابعة عشرة؛ و لم تكن أرضية صيد الطيور والأسماك محدودة، مثل محميات النبيل الإنجليزي، ولكنها كانت لا نهائية تفوق حدود الرجل البدائي. لا عجب إذن أنه لم يكن يبقى في الغالب ليلعب في الحديقة العامة. ولكن هناك تغييراً يقع بالفعل بفضل – لا إنسانية متزايدة – وإنما ندرة متزايدة في الطرائد، لعل الصياد أعظم أصدقاء الحيوانات المصطادة، باستثناء الجمعية الإنسانية المعنية بشؤون الحيوان.

علاوة على أني تمنيت أحياناً حين أكون في البحيرة أن أضيف السمك إلى طعامي على سبيل التنوع. الحق أني اصطدت بدافع الحاجة نفسها التي اصطاد بها الصيادون الأوائل. وأياً كانت إنسانية قد أستحضرها، فقد شابها الاصطناع، وتعلقت بفلسفتي أكثر من أحاسيسي. أتحدث عن صيد الأسماك الآن فقط لأن شعوراً مختلفاً انتابني لفترة طويلة تجاه صيد الطيور وبعت بندقيتي قبل أن أمضي إلى الغابة. لا للإيحاء بأني أقل إنسانية من الآخرين، ولكن لم أر أن مشاعري أكثر تصنعاً. ما أحسست بالشفقة على الأسماك أو الدود. كانت عادة. أمّا صيد الطيور، فقد كان عذري خلال السنوات الأخيرة التي حملت فيها بندقية هو دارسة علم الطيور، و لم أسع إلا إلى الطيور الجديدة أو النادرة. ولكني أقر أني أميل الآن إلى الاعتقاد بأن هناك طريقة أخرى أرقى لدراسة علم الطيور. تتطلب انتباهاً أقرب كثيراً إلى عادات

الطيور حتى إني – ولو لهذا السبب ليس إلا – كنت على استعداد للتخلي عن البندقية. وبالرغم من الاعتراض على موضوع الإنسانية، أضطر إلى الشك إن كان من الممكن أن تحل رياضة قيّمة محل أخرى قيّمة بالقدر نفسه؛ وعندما سألني بعض أصدقائي عن صبيانهم، إن كانوا يجب أن يسمحوا لهم بالصيد، أجبتهم، أجل – استدعيت أنه كان واحداً من أفضل الأجزاء في تعليمي – اجعلوهم صيادين، وإن رياضيين فقط في البداية لو أمكن، ثم صيادين رائعين في النهاية كيلا يحسبوا أن هناك طريدة كبيرة لا يمكن صيدها في هذه الغابة أو أي برية طبيعية أخرى – اجعلوهم صيادي حيوانات وكذا صيادي سمك.

هناك فترة في تاريخ المرء، كما في تاريخ العِرق، يكون فيها الصيادون هم خيرة الرجال، مثلما تطلق عليهم قبيلة ألغونكوين[1]. لا يسعنا إلا أن نشفق على صبي لم يطلق قط بندقية؛ فهو لا يفوق الآخرين إنسانية على حين تعرض تعليمه للأسف للإهمال. كانت هذه إجابتي فيما يخص أولئك الشباب المصرين على هذا السعي على ثقة أنهم سرعان ما سيتخلصون منه مع الزمن. لا إنسان يضمر بعد عهد الصبا الطائش رغبة وحشية في قتل أي مخلوق يحيا حياته متعلقاً بالأرض نفسها المرتبط بها الإنسان. تصيح الأرنب الوحشية في أقصى درجات ألمها كما الطفل. أحذركم، أيتها الأمهات، من أن تعاطفي لا يخلق دائماً الفوارق الخيِّرة المعتادة.

هكذا يتعرف الشاب في الغالب إلى الغابة، وأكثر الأجزاء أصالة في نفسه. يمضي إلى هناك كصياد طيور وصياد أسماك أولاً إلى أن يميز في النهاية أهدافه السليمة بوصفه ربما شاعراً أو عالماً بالتاريخ الطبيعي ثم يترك من خلفه البندقية والصنارة لو أن صدره ينطوي على بذور حياة أفضل. لا يزال جمهور الرجال شباناً دوماً من هذه الناحية. تعتبر بعض الدول مشهد الكاهن الصياد مشهداً مألوفاً. قد يَصلح مثل ذلك الكاهن لأن يكون كلباً ماهراً لراعي الكنيسة بيد أنه لن يصير 'الراعي الصالح'. خامرتني الدهشة حين أخذت بعين الاعتبار أن المهمة الواضحة الوحيدة – عدا تقطيع الخشب أو تقطيع الثلج أو المهام المشابهة – التي استغرقتْ على حد علمي نصف يوم كامل من أبناء بلدتي في بحيرة ولدن سواء آباء البلدة أو أطفالها باستثناء واحد فقط لا غير هي صيد الأسماك. لم يعتقدوا في المعتاد أنهم محظوظون أو أن الوقت جازاهم بما يستحقون ما لم ينالوا سلسلة طويلة من الأسماك مع أن لديهم الفرصة

1– قبيلة ألغونكوين: قبيلة من سكان أمريكا الأصليين كانت تَسكن شمال نهر سانت لورانس.

لرؤية البحيرة طيلة الوقت. قد يقصدون البحيرة ألف مرة قبل أن تغوص رسابة الصيد إلى القاع وتترك مرماهم نقياً؛ ولكن لا ريب أن عملية التنقية سوف تتابع طيلة الوقت. يتذكر الحاكم ومجلسه البحيرة على نحو طفيف لأنهم ذهبوا للصيد هناك في صباهم؛ ولكنهم الآن أكبر سناً وأكثر تبجيلاً من الذهاب إلى الصيد، وعليه لم يعودوا يعرفونها قط. بل إنهم يتوقعون مع ذلك المضي إلى الفردوس في آخر المطاف. لو أولتها الهيئة التشريعية نظرة، سوف تنصب النظرة في تنظيم عدد الصنانير هناك؛ ولكنهم لا يعلمون شيئاً عن صنانير ينبغي الحصول عليها للبحيرة نفسها، إذ يطوقون الهيئة التشريعية لنيل طُعم ما. وعليه يمر الرجل الجنين بمرحلة الصيد في سبيله إلى التطور حتى في المجتمعات المتحضرة.

وجدت في السنوات الأخيرة مراراً وتكرراً أني لا أستطع صيد الأسماك دون أن يخالجني شعور طفيف بعدم احترام الذات. لقد جربته المرة بعد الأخرى. أمهر فيه، ومثل العديد من الرفاق، أضمر غريزة لممارسته تنتعش من الوقت إلى الآخر، ولكن شعوراً يساورني دائماً حين أنتهي بأنه كان من الأفضل ألا أصطاد. لا أظنني مخطئاً. إنه تلميح خفيف غير أن أول أشعة الصباح هي الأخرى خفيفة. لا شك أني أكن هذه الغريزة المنتمية إلى الطبقات الدنيا للخليقة؛ ومع ذلك أصطاد أقل مع مرور كل سنة معي أني لا أتحلى بالمزيد من الإنسانية أو حتى الحكمة؛ وفي الوقت الحالي لا أصطاد على الإطلاق. ولكني أعتقد أني لو عشت في البرية، ينبغي أن ينال مني الإغراء مرة أخرى كي أصطاد جاداً الأسماك والطيور. علاوة على أن هناك شيئاً قذراً بحق في هذه الحمية وكل هذا اللحم، وقد بدأت أرى أين يبدأ عمل المنزل، ومن أين ينبع سعي يكلف الكثير لاكتساب مظهر مرتب محترم كل يوم وجعل المنزل لطيفاً خالياً من كل الروائح والمناظر الرديئة. ولأني الجزار ومساعد الطاهي والطاهي، وكذا نبيل تُقَدَّم إليه الأطباق، يسعني أن أتحدث من منطلق تجربة كاملة غير مألوفة. كان الاعتراض العملي لأكل الحيوانات في حالتي هو عدم نظافتها؛ علاوة على أني عندما أصطاد وأنظف وأطهو وآكل السمك لا أشبع على ما يبدو تماماً. كان غير هام وغير ضروري، وكلّف أكثر من قيمته. كان القليل من الخبز أو القليل من ثمار البطاطس ليشبعني، ومعه مشقة وقذارة أقل. ومثلي مثل العديد من المعاصرين لي نادراً ما تناولت لمدة سنوات عديدة الحيوانات أو الشاي أو القهوة، إلى آخره؛ لا بسبب أي آثار سيئة أرجعتها إليها بقدر عدم انسجامها مع خيالي. ليس الاشمئزاز من طعام الحيوانات نتيجة للتجربة، وإنما الغريزة. يبدو الأجمل من نواح كثيرة أن يعيش المرء عيشة رخيصة ويأكل أكلات متقشفة؛ ومع أني لم أسلك هذا المسلك

قط، بالغت بما يكفي لإرضاء خيالي. أعتقد أن كل رجل حرص يوماً على الحفاظ على ملكاته الأسمى أو ملكاته الشعرية في أفضل أحوالها يميل ميلاً خاصاً إلى الامتناع عن الطعام الحيواني والإفراط في أي طعام أياً كان. إنها حقيقية مهمة، ذكر علماء الحشرات – أجدها في تعليقات كيربي وسبنس[1] – أن "بعض الحشرات في حالتها الكاملة لا تستخدم أعضاء الأكل مع أنها مزودة بها"؛ ويضعها "كقاعدة عامة، كل الحشرات تقريباً في هذه الحالة تأكل طعاماً أقل مما تأكله وهي يرقات. اليُسْرُوع الشره حين يتحول إلى فراشة... واليرقة النهمة حين تصبح ذبابة" يَشبعون بنقطة أو اثنتين من العسل أو سائل حلو آخر. تُمثّل البطن أسفل جناحيّ الفراشة اليرقانة. هذا هو الطعام الشهي الذي يغري قَدَره المقتات على الحشرات. إن الرجل الآكل بشراهة في حالة اليرقانة؛ وهناك أمم كاملة في تلك الحالة، أمم بدون تصور أو خيال، تخونها بطونها الضخمة.

من الصعب توفير مثل ذلك الطعام البسيط النظيف وطهيه دون إزعاج الخيال؛ ولكني أعتقد أن الخيال يَشبع عند إطعام الجسد؛ ينبغي أن يجلس كلاهما إلى المائدة نفسها. لا يجب أن يفضي أكل الفاكهة باعتدال إلى الشعور بالخجل من شهيتنا أو اعتراض المساعي الأكثر استحقاقاً في حياتنا. ولكن ضع تابلاً إضافياً إلى طبقك، وسوف يسممك. لا يستحق الأمر أن يقتات المرء بطعام دسم. سوف يشعر أغلب الرجال بالخجل لو ضبطهم أحدهم وهم يجهزون بأيديهم مثل ذلك العشاء تحديداً، سواء كان حيوانياً أو نباتياً، فالآخرون يجهزون لهم هذا العشاء يومياً. ولكننا لن نتسم بالتحضر إلى أن يَحدث هذا التغيير، ولو كنا نبلاء وسيدات، لن نكون رجالاً حقيقيين أو سيدات حقيقيات مما يوحي ولا شك بما ينبغي الإقدام عليه من تغييرات. قد يكون من العبث أن أسأل لم لا يتصالح الخيال مع اللحم والدهن. يخامرني الرضا لعدم تصالحهما. أليس خزياً أن ينقلب الإنسان حيواناً آكلاً للحم؟ صحيحٌ أن بوسعه أن يعيش – وهو يعيش بالفعل – بدرجة كبيرة على افتراس الحيوانات الأخرى؛ ولكنها وسيلة تعيسة – كما قد يَعلم أي شخص يذهب لصيد الأرانب أو ذبح الحملان – وسوف يُعتبَر محسناً لجنسه البشري من يُعلِّم الآخر الاقتصار على حمية أكثر براءة وصحة. أياً كانت ممارساتي الخاصة، لا شك يراودني أن نبذ أكل الحيوانات جزء من قَدَر الجنس البشري في تطوره التدريجي، مثلما نبذت القبائل الهمجية حقاً أكل بعضها بعضاً حين اتصلوا بالعالم المتحضر.

1- كيربي وسبنس: وبليام كيربي (1759 – 1850) ووبليام سبنس (1783 – 1860) عالما حشرات بريطانيان كتبا كتاب "مقدمة في علم الحشرات".

لو أنصت المرء إلى اقتراحات قرينه الخافتة – وإنما المتتابعة – وهي صادقة ولا مراء، لن يدرك إجراءات متطرفة – أو حتى مجنونة – قد تؤدي إليها؛ ومع ذلك يمتد طريقه بتلك الطريقة حين ينقلب أكثر تصميماً وإيماناً. ما يشعر به الراجل المعافى من اعتراض أكيد طفيف سينتصر في النهاية على المناقشات وعادات البشرية. لا رجل اتبع قرينه مطلقاً وضلله. ومع أن النتيجة كانت ضعفاً جسدياً، لعل لا أحد باستطاعته ادعاء الندم على النتائج، فهي حياة متسقة مع مبادئ أسمى. إن ألقيت التحية مبتهجاً على النهار والليل، وفاحت الحياة بعطر كعطور الزهور والأعشاب ذكية الرائحة، فنجاحك أكثر مرونة، أكثر التماعاً، أكثر خلوداً. كل الطبيعة هي التهاني الموجَّهة إليك، ولديك سبب مؤقت لتبارك نفسك. إن أعظم الأرباح والقيم هي الأبعد عن التقدير. تتشكك بسهولة في وجودها. وسرعان ما ننساها. إنها الواقع الأسمى. ربما لا تنتقل أبداً الحقائق الأكثر إدهاشاً والأكثر واقعية من إنسان إلى آخر. لا يمكن إدراك الحصاد الحقيقي المستعصي على الوصف لحياتي اليومية مثله مثل ألوان الصباح أو المساء الخفيفة. إنه واقع بين كتل من النجوم تتراءى بالغة الصِّغَر وكأنها ذرات من غبار، جزء من قوس قزح أمسكت به يداي.

ومع ذلك لم أكن قط من ناحيتي موسوساً بإفراط؛ أستطيع أحياناً أن آكل فأراً محمراً بشهية مفتوحة لو اقتضت الضرورة. تخامرني السعادة لاحتسائي الماء طويلاً لسبب لا يختلف عن سبب تفضيلي السماء الطبيعية على فردوس آكل الأفيون. سوف أظل بكل سرور غير ثمل على الدوام؛ وهناك درجات غير متناهية من السُكر. أعتقد أن الماء هو المشروب الوحيد الصالح للرجل الحكيم؛ فالنبيذ ليس شراباً نبيلاً؛ فكّر في تحطيم آمال الصباح بفنجان من القهوة الدافئة أو آمال المساء بصحن من الشاي! آه، يا لها من سقطة أسقطها حين يغريني أحدهم بهما! بل إن الموسيقى قد تكون مسْكرة. لقد دمرت مثل تلك الأسباب الواهية في الظاهر اليونان وروما، وسوف تدمر إنجلترا وأمريكا. ومن بين كل حالات السُكر، من لا يفضل السُكر بهواء يتنفسه؟ لقد وجدتها من أكثر العقاب خطورة في سبيل الأعمال الخشنة المستمرة طويلاً، ألا وهي إرغامي على تناول طعام وشراب خشن هو الآخر. ولكن لكي أتوخى الحقيقة، أجد نفسي في الوقت الحالي أقل تدقيقاً بعض الشيء في هذه النواحي. أجلب ديناً أقل إلى المائدة، ولا أطلب بركة الله؛ لا لأني أتحلى بحكمة تزيد على حكمتي الماضية، ولكني مرغم على الاعتراف أني – مهما بلغ الندم – أصبحت بمرور السنوات أكثر فظاظة ولامبالاة. ربما لا يتدبر المرء هذه القضايا إلا في شبابه، مثلما يعتقد أغلب الناس فيما

يخص الشعر. ممارستي "لا مكان لها"، أمّا رأيي هنا. ومع ذلك لا أعتبر نفسي أبداً واحداً من أصحاب الامتياز ممن تشير إليهم كتب الهندوس الدينية، الفيدا عندما تذكر أن "من لديه إيمان حقيقي بكينونة أسمى كلية الوجود قد يأكل كل الموجودات،" أي إنه ليس مُلزَماً بالسؤال عن ماهية طعامه أو من يُحضّره؛ بل إنه ينبغي إدراك أن الفلسفة الهندوسية القائمة على الفيدا – كما لاحظ أحد المعلقين الهندوس[1] – تحصر هذا الامتياز في "وقت الشدة".

مَن منا لم يستمد من طعامه أحياناً شبعاً لا تفسير له لا يتعلق بالشهية؟ لقد سعدت بالاعتقاد أني أدين بإدراكي العقلي إلى حاسة التذوق البدائية عموماً، والاعتقاد أن إلهاماً هبط عليّ من خلال حاسة التذوق، وأن بعض التوت الذي أكلته على جانب أحد التلال غذى ملكتي العقلية. يقول كونفوشيوس إن "روحاً ليست سيدة نفسها ما هي إلا روح تنظر ولا ترى؛ روح تنصت ولا تسمع؛ روح تأكل، ولا تدري طعم الطعام". من يميز الطعم الحقيقي لطعامه لا يمكن أن يصاب أبداً بالنهم؛ ومَن لا يميزه، لا يمكن إلا أن يصاب به. قد يلتهم البيوريتاني المتزمت كسرة خبز بنية بشهية فظة لا تقل عن شهية عضو مجلس تشريعي يأكل سلحفاة. لا أقصد أن أوحي بأن الطعام الذي يَدخل الفم يلوث الإنسان، وإنما شهية يأكل بها الإنسان. لا تكمن المسألة في النوع أو الكمية، وإنما في التفاني للمذاق الحسي عندما لا يكون المأكول طعاماً لتعزيز حياتنا الحيوانية أو إلهام حياتنا الروحية، وإنما طعام لديدان تستحوذ علينا. لو يميل الصياد إلى سلاحف الطين وفئران المسك ومثل تلك الأطعمة الشهية البدائية، تُشبع السيدة الراقية ولعها بحلوى مصنوعة من قدم العجل أو سردين البحر، وسوف يتساويان. يمضي إلى بِركة الطاحونة على حين تذهب هي إلى سلة حفظ الأسماك. المثير للعجب هو كيف بمقدورهما – وبمقدورك وبمقدري – الأخذ بأسباب هذه الحياة الموحلة البهيمية أثناء أكلنا وشربنا.

لا تَسلم حياتنا بأسرها – ويا للدهشة – من الأخلاق. لا يوجد أبداً لحظة هدنة بين الفضيلة والرذيلة. إن الصلاح هو الاستثمار الوحيد الذي لا يفشل أبداً. وفي موسيقى القيثارة المرتعشة حول العالم لا يثيرنا إلا الإصرار على هذا. والقيثارة ما هي إلا مغني رحّال لشركة تأمين الكون، تزكي قوانينه، وصلاحنا البسيط هو كل ما نبذله من تقييم. مع أن الشبان ينقلبون في النهاية غير مبالين، لا تتبدل قوانين الكون، وإنما تقف إلى الأبد إلى جانب

1– المعلق الهندوس هو راجا روي (1772 – 1833).

الأكثر حساسية. أَنصت إلى النسيم العليل كي تنال قدراً من التوبيخ لأنه هناك ولا شك، والتعيس هو من لا يَسمعه. لا نستطيع أن نلمس وتراً أو نحرك عقبة إلا ويُحَجِّرنا مغزى القصة الأخلاقي الساحر. يسمع الناس الكثير من الضوضاء المزعجة القصية وكأنها موسيقى، سخرية متشامخة بارعة من دناءة حيواتنا.

نعي حيواناً داخلنا، يستيقظ بالتناسب مع هجوع طبيعتنا الأسمى. إنه زاحف وحسي، وربما ليس بالإمكان طرده بالكامل كما هو حال ديدان تحتل أجسامنا حتى أثناء الحياة والصحة. الأرجح أننا قد ننسحب منه، ولكننا لن نغير قط طبيعته. أخشى أنه قد يتمتع بقدر ما من الصحة؛ وأننا قد ننعم بالصحة، ولكن لا ننعم بالنقاء. تبينت في اليوم الفائت فكاً سفلياً لخنزير بأسنان وأنياب بيضاء سليمة مما يوحي بأن صحة وقوة حيوانيتين تستوليان عليه بمعزل عن القوة الروحية. لقد نجح هذا المخلوق بوسائل أخرى غير الاعتدال والنقاء. يقول منشيوس[1] إن "ما يفرق الإنسان عن الحيوانات البهيمية شيء طفيف للغاية؛ يفقده الجمهور العادي بسرعة شديدة؛ يحتفظ به الرجال الأسمى بكل حرص". من يَعلم أي نوع من الحياة سينشأ لو بلَغنا النقاء؟ لو عرَفت رجلاً ذا حكمة متناهية بوسعه تعليمي النقاء، سوف أسعى إليه على الفور. أكدت كتب الهندوس الدينية، الفيدا، أن "التحكم في عواطفنا وأحاسيس الجسد الخارجية والأفعال الطيبة لا غنى عنه في تقرب العقل من الله". ومع ذلك بوسع الروح في تلك الأثناء أن تتخلل كل أعضاء ووظائف الجسد وتسيطر عليها، وتُحوِّل شكلاً رديئاً من أشكال الحسية الفظة إلى نقاء وإخلاص. إنها طاقة تُلحق بنا القذارة حين تتبدد ويَنزل بنا الفُجر، وحين نرفل في العفاف، تقوينا وتبث فينا الإلهام. إن الطهارة مصدر ازدهار الإنسان؛ وما يسمى الملكة العقلية والبطولة والقداسة وما شابهها ما هي إلا فاكهة متنوعة تتْبعها. يتدفق الإنسان إلى الله في الحال حين تكون قناة النقاء مفتوحة. يلهمنا النقاء ويهبط بنا النجس إلى القاع. يَنعم بالسعادة الروحية من يتأكد أن الحيوان يموت داخله يوماً بعد يوم، وبدلاً منه يترسخ الإلهي. ربما لدينا جميعاً سبب للخجل بسبب طبيعة دنيوية وبهيمية تتحد معها. أخشى أننا مثل تلك الآلهة أو أنصاف الآلهة فقط باعتبارنا أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان وإله من آلهة الغابات عند الإغريق، الإلهي متحد مع البهيمي، مخلوقات الشهية، وأن حياتنا نفسها، بمعنى ما، هي خزينا.

1- منشيوس: (372 – 287 قبل الميلاد)، فيلسوف صيني وواحد من أتباع كونفوشيوس.

"يا لسعادته من لديه مكان مناسب مخصص
لحيواناته، من يحرر عقله من قيود الغابة!
...
يستطيع أن يستخدم هذا الحصان والماعز والذئب وكل حيوان،
وليس نفسه حماراً لكل الباقين!
وإلا فالإنسان ليس قطيعاً من الخنازير فقط،
وإنما أيضاً تلك الشياطين التي تحيلهم
إلى غضب متهور، وتجعلهم أسوأ".[1]

إن كل الحسية واحدة على أنها تتخذ أشكالاً مختلفة؛ كل النقاء واحد. لا يختلف الأمر حين يأكل الإنسان أو يشرب أو يسكت أو يتزاوج أو ينام على نحو حسي. إنها شهوة واحدة فقط لا غير، ولا نحتاج إلا أن نرى شخصاً يقُوم بأي من هذه الأفعال كي نعلم مدى عظمة انغماسه في الشهوات. لا يسع النَجِس أن يقف أو يجلس في طهارة. عندما يتعرض الحيوان الزاحف لهجوم عند أحد مداخل جحره، يَظهر في مدخل آخر. لو اتسمتَ بالعفاف، لا بد أن تقتصد في شهوات النفس. ما هي الطهارة؟ كيف يدري رجل إن كان طاهراً؟ لن يدري. لقد سمعنا عن هذه الفضيلة إلا أننا لا نقف على ماهيتها. نتحدث حديث المتفقين عن إشاعة سمعناها. من الجهد تنبع الحكمة والنقاء؛ ومن الكسل الجهل والحسية. تتألف حسية طالب العلم من بلادة العقل. إن الشخص القذر كسول بلا استثناء، شخص يَجلس بجوار موقد، تشرق عليه الشمس متمدداً، يرتاح من غير أن يتعب. لو ستتجنب القذارة وكل الخطايا اعمل جاهداً ولو عملت في تنظيف زريبة. من العسير التغلب على طبيعة المرء، ولكن لا بد من التغلب عليها. ما النفع من مسيحيتك لو أنك لست أنقى من الوثني، لو أنك تنكر على نفسك المزيد، لو أنك لست أتقى؟ أعلم طرقاً دينية تُقَدِّر وثنيين تملأ مبادئهم القارئ بالخزي وتستفزه إلى مساعٍ جديدة وإن كانت مجرد أداء للشعائر.

أتردد حين أنبس بهذه الأشياء، لا بسبب موضوعها - لا أعبأ بمدى فحش كلماتي - ولكن لأني لا أستطيع التحدث عنها بدون إفشاء نجاستي. إننا نتحدث بحرية وبدون خجل

1- جون دون: (1573 - 1631)، شاعر إنجليزي، من خطاب "إلى السير إدوارد هيربرت".

عن أحد أشكال الحسية، ونصمت عن الشكل الآخر. لقد أصابنا انحطاط لا حد له حتى إننا لا نستطيع أن نتحدث ببساطة عن الوظائف الضرورية للطبيعة البشرية. كان أهل بعض الدول في العصور الممعنة في القدم يتحدثون عن كل وظيفة بكل وقار، حديث ينظمه القانون. ما كان هناك شيء مبتذل عند المُشرّع الهندوسي مهما وجده الذوق الحديث كريهاً. يُعَلّم الناس كيف يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتخلصون من البراز والتبول، وما شابهها من وظائف، يهذب كل ما هو دنيء، ولا يعفي نفسه كذباً بوصف هذه الأشياء بالتفاهة.

يبني كل رجل معبداً – جسمه – لإله يعبده وفقاً لأسلوب يخصه وحده دون غيره، ولا يسعه أن يشيّده بطَرْق الرخام فحسب. كلنا نحاتون ورسامون، ومادتنا هي لحمنا ودمنا وعظمنا. أي نبل يبدأ فوراً بتهذيب ملامح الإنسان، أي حقارة أو حسية تَنزل بها إلى درجة البهائم.

جلس جون فارمر أمام بابه في أحد أمسيات شهر سبتمبر بعد يوم عمل مرهق وعقله لا يزال يتدبر عمله. جلس بعد أن استحم كي يخلق من جديد رَجله الفكري. كانت أمسية باردة بعض الشيء وبعض جيرانه يخشون الصقيع. لم ينتبه إلى تسلسل أفكاره الطويل عندما تناهى إليه أحدهم يعزف على الفلوت، وقد تناغم ذلك الصوت مع مزاجه. ومع ذلك واصل التفكير في عمله، ولكن مع أن عبء فكره استمر يدور في عقله ووجد نفسه يخطط ويوجد الوسائل رغماً عنه، لم يكترث له إلا قليلاً. لم يكن يزيد على قشرة جلده، يتخلص منه باستمرار. ولكن ألحان الفلوت أتت إلى أذنيه بالبيت خارجة من كوكب مختلف عن كوكب يعمل فيه، وأوحت بعمل مَلكات محددة هجعت في باطنه. تخلصت برقة من الشارع والقرية والولاية التي يعيش فيها. قال له صوت، لم تمكث هنا وتعيش هذه الحياة الحقيرة الشاقة على حين بمقدورك أن تحيا حياة مجيدة؟ تلتمع تلك النجوم نفسها فوق الحقوق الأخرى. ولكن كيف تَخرج من هذه الحالة وتهاجر حقاً من هنا؟ كل ما يسعه التفكير فيه هو ممارسة تقشف جديد وترك عقله يَهبط إلى جسمه وتخليصه من الخطيئة ومعاملة نفسه باحترام يتزايد على الدوام.

12 – جيران بهيميون

أحياناً ما كان يصاحبني في الصيد رفيق يأتي عبر القرية إلى منزلي من الجانب الآخر للبلدة، وكان صيد وجبة العشاء ممارسة اجتماعية مثلما كان أكله.

أيها الناسك. أتساءل ماذا يفعل العالم الآن. لم أسمع مجرد جراد بين نبات السُرْخَس الحلو في هذه الساعات الثلاث الماضية. كل الحمَام نائم في أعشاشه – لا رفرفة جناح تبدر منه. هل كان ذلك بوق مزارع انطلق وراء الغابة منذ لحظات؟ إن الأيادي قادمة لتغلي لحماً مملحاً وعصير تفاح وخبزاً هندياً. لم سيُقلق الرجال أنفسهم إلى هذه الدرجة؟ من لا يأكل ليس في حاجة إلى العمل. أتساءل كم حصدوا. مَن سيعيش هناك حيث لا يستطيع الشخص قط أن يفكر في نباح كلب؟ وآه، العناية بالمنزل! الحفاظ على مقابض باب الشيطان لامعة وفرْك أحواضه في هذا النهار المشرق! الأفضل ألا يمتلك المرء منزلاً. وأواه، بعض الأواني المجوفة؛ ثم البعض للزيارات الصباحية القصيرة وحفلات العشاء! نقْر نَقّار الخشب ليس إلا. آه، إنها تحتشد؛ الشمس دافئة أكثر مما ينبغي هناك؛ منغمسة في الحياة انغماساً لم أعهده. لديّ مياه

من الينبوع، ورغيف من الخبز البني على الرف. أنصت! أسمع حفيف أوراق الشجر. هل هي قرية ما سيئة التغذية من المحتوم أن تخضع لغريزة المطاردة؟ أم خنزير مفقود قيل إنه في هذه الغابة، تبينت آثاره بعد المطر؟ يأتي سريعاً؛ يرتعد شجر السُّمّاق ونبات نِسْرين الكلاب. آه، سيدي الشاعر[1]، أهذا أنت؟ ما رأيك في العالَم اليوم؟

أيها الشاعر. انظر إلى هذه السحب؛ كيف تتدلى! إنها أعظم شيء رأيته اليوم. لا شيء يماثلها في اللوحات القديمة، لا شيء يماثلها في الأراضي الأجنبية إلا حين ننطلق إلى ساحل أسبانيا. إنها سماء خليقة بالبحر الأبيض المتوسط. دار في بالي – ولديّ قوت ينبغي أن أناله، و لم آكل اليوم – أني قد أذهب لأصيد الأسماك. إنها المثابرة الحقيقية للشعراء. إنها الحرفة الوحيدة التي تعلمتها. تعال، فلنذهب.

أيها الناسك. لا يسعني أن أقاوم. سرعان ما سينتهي خبزي البني. لن ألبث أن أذهب معك عن طيب خاطر غير أني أفرغ لتوي من جلسة تأمل جادة. أعتقد أني قريب من نهايتها. اتركي وشأني إذن هنيهة. ولكنك سوف تنقب في تلك الأثناء عن الطُعم كيلا نتأخر. نادراً ما يجد المرء دود الأرض في هذه الأنحاء حيث لم تُخصَّب التربة قط بالسماد؛ تكاد تنقرض السلالة. تكاد تماثل رياضة نبش الطعوم اصطياد الأسماك حين لا تكون شهية المرء عارمة؛ وقد تستغرق اليوم بأكمله. سوف أنصحك أن تثبّت المجرفة هناك بين الفول السوداني حيث ترى أعشاب القديس سان جون تتذبذب. أعتقد أني قد أضمن لك دودة واحدة في مقابل كل ثلاث ترب تقلبها لو نظرتَ جيداً بين جذور العشب وكأنك تزيل الأعشاب الضارة. أو لو اخترتَ الذهاب إلى مكان أبعد، سوف تكون خطوة حكيمة، فقد وجدت زيادة في الطُعم الجيد تعادل تقريباً المسافات المقطوعة.

<ناسك وحده>. دعني أرى؛ أين كنتُ؟ أعتقد أني كنت في هذه الحالة الذهنية تقريباً؛ يسدد العالَم ضرباته من هذه الزاوية. هل أذهب إلى الفردوس أم إلى الصيد؟ إن كنت سأنهي هذا التأمل قريباً، هل من المحتمل أن أجد فرصة حلوة مماثلة أخرى؟ كدت أحلل بالتدريج إلى جوهر الأشياء كما لم يحدث قط في حياتي. أخشى ألا تعود إليّ أفكاري. لو سيفيد بأية طريقة من الطرق، لكنت دعوتها بالصفير. حين تقدّم إلينا عرضاً، هل من الحكمة أن نجيب، سوف نفكر فيه؟ لم تخلف أفكاري أثراً، ولا يسعني أن أجد الطريق مرة أخرى. ما الذي

1- الشاعر إشارة إلى ويليام إيلري تشانينج (1818 – 1901)، وقد كان صديق ثورو المقرب.

جال في خاطري؟ كان يوماً غائماً. لن أجرب إلا جمل كونفوشيوس الثلاث، فقد تستحضر تلك الحالة من جديد. لا أعلم إن كانت انقباضاً أم نشوة ناشئة. لا تتاح قط إلا فرصة فريدة واحدة.

أيها الشاعر. كيف يبكر الوقت الآن أيها الناسك؟ لديّ ثلاث عشرة دودة كاملة فقط إلى جانب دود عديد ناقص أو صغير؛ ولكنه سوف ينفع مع صغار السمك؛ لا يغطي خطاف الصنارة كما يجب. يتسم ذلك الدود القروي بكبر مفرط؛ قد تتناول سمكة فضية وجبة منه بدون أن تلمس السيخ.

أيها الناسك. حسناً إذن، فلننطلق. هل ننطلق إلى كونكورد؟ يمارسون هناك رياضة جيدة إن لم تكن المياه عالية.

لماذا تُشكل هذه الأشياء المرئية تحديداً عالمنا؟ لماذا يجاور الإنسان هذه السلالة من الحيوانات فقط؛ وكأن لا شيء عدا فأر بإمكانه ملء هذا الشق؟ أحسب أن كاتب الحكايات الهندي بلباي وشركاءه استغلوا الحيوانات أفضل استغلال لأنهم جميعاً بهائم يتولون العبء بمعنى ما، مخلوقة لحمل جزء من أفكارنا. لم تكن الفئران الساكنة في بيتي فئراناً مألوفة قيل إنها دخلت البلد مؤخراً، وإنما نوع بري أصلي لا تجده في القرية. أرسلت أحدها إلى عالم طبيعة بارز، وقد نال جل اهتمامه. عندما كنت أبني منزلي، كان عش أحدها أسفله، وقبل أن أرصف الطابق الثاني وأكنس النجارة، كان يخرج بانتظام في ميعاد الغداء ليلتقط الكسرات من عند قدميّ. الأرجح أنه لم ير قط رجلاً من قبل؛ وسرعان ما صار المشهد مألوفاً تماماً، فكان يجري على حذائي وملابسي. استطاع أن يصعد جوانب الغرفة في اندفاعات قصيرة سهلة مثل السنجاب، وهو ما شابهه في حركاته. وفي النهاية، بينما كانت أميل بمرفقي على المقعد يوماً، جرى على ملابسي، وعلى طول ردني وحول ورقة حوت عشاء احتفظت به قريباً مني، راح وجاء، أخفى وجهه تارة وأظهره تارة؛ وعندما أمسكت أخيراً قطعة من الجبن بين إبهامي وإصبعي، أتى وقضمها وهو جالس على يدي ثم نظف وجهه وفكيه كما الذبابة وسار مبتعداً.

سرعان ما بنى طائر الفيبي عشاً في سقيفتي، وكذا أحد طيور أبي الحنَّاء بغرض الحماية في شجرة صنوبر نمت أمام المنزل. وفي يونيه قاد طائر الحجَل – طائر في منتهى الخجل – صغاره أمام نوافذي، جاء من مؤخرة الغابة إلى مقدمة منزلي، أرسل صوتاً كالقَرْق ونادى صغاره

كما الدجاجة، وفي كل سلوك من سلوكياته برهن على أنه دجاجة الغابة. يتفرق الصغار على بغتة عند اقترابك، عقب إشارة من الأم، وكأن زوبعة اكتسحته، فيشبه تماماً أوراق وأغصان جافة حتى إن العديد من المسافرين وضعوا أقدامهم وسط الصغار، وسمعوا أزيز الطائر العجوز يطير مبتعداً وصيحاته القلقة ومواءه أو رأوه يجرجر جناحيه لجذب انتباههم. أحياناً ما يتدحرج الأب ويدور أمامك عارياً مهلهلاً حتى إنك تَعجز لعدة لحظات أن تتبين نوعية هذا المخلوق. يجثم الصغار ساكنين منبسطين، يزلق في الغالب رؤوسه أسفل ورقة شجر، ولا ينتبه إلا لإشارات تبدر من الأم من بعيد، ولن يتسبب اقترابك في فراره من جديد وإظهار نفسه. بل إنك قد تدوس عليه أو تسلط عليه عينيك لمدة دقيقة بدون أن تفطن إلى وجوده. أمسكته في يدي المفتوحة وقتها، و لم يزل همه الوحيد – هو المطيع لأمه وغريزته – أن يجثم هنا دون أن ينتابه خوف أو ارتعاد. إنها غريزة مثالية حتى إني حين أعدته ذات مرة على أوراق الشجر، وسقط أحد الصغار من غير قصد على جانبه، وجدته مع البقية في الوضع نفسه بعد عشر دقائق. ليس خالياً من الريش مثل صغار أغلب الطيور، ولكن نضجها مبكر أكثر تطوراً من الدجاج. لن تنسى قط التعبير الراشد بوضوح – وإن كان البريء – النابع من عيونه المفتوحة الصافية. يبدو أن كل ذكاء ينعكس فيها. لا توحي بنقاء الطفولة فقط، وإنما بحكمة صفَت واتضحت بالتجربة. لم تولَد مثل تلك العين مع ولادة الطائر، ولكنها عاصرت سماء تعكسها. لا تُنتج الغابة جوهرة أخرى مثل تلك الجوهرة. لا يرنو المسافر في الغالب إلى مثل ذلك النبع الرائق. كثيرا ما يطْلق الرياضي الجاهل أو المهمِل الرصاص على الأب في ذلك الوقت، ويترك هؤلاء الأبرياء، يَسقط ضحية لبهيمة هائمة أو طائر، أو يتمازج تدريجياً مع أوراق شجر متعفنة تشْبهه كثيراً. قيل إن لو احتضنته دجاجة، يتفرق مباشرة عند أي هجوم مباغت، وعليه يتوه لأنه لا يَسمع أبداً نداء الأم الذي يجمعه مجدداً. هناك العديد من الأفراخ والدجاجات.

من المدهش كم عدد المخلوقات التي تعيش بريّة حرة، ومع ذلك في السر، في الغابة، ولا تزال تغذي نفسها في منطقة البلدات، لا يرتاب في موقعها إلا الصيادون. إلى أي مدى ينعزل ثعلب الماء ويتمكن من العيش هنا! ينمو ويصير طوله أربع أقدام، في مثل حجم صبي صغير، ربما بدون أن يلقي عليه أي بشري مجرد لمحة. رأيت في الماضي حيوانات الرّاكون بالغابة خلف منزلي، ولعلي لا أزال أسمع أنينها ليلاً. جرَت عادتي أن أرتاح ساعة أو ساعتين تحت الظل ظهراً بعد الزراعة، آكل غدائي وأقرأ قليلاً بجوار ينبوع كان مصدر مستنقع

وغدير، يتسرب من تل بريستر على بعد نصف ميل من حقلي. اقتربت من هذا الينبوع عبر سلسلة من الأودية المعشبة المنحدرة، تمتلئ بأشجار الصنوبر الراتنجي الصغيرة إلى غابة أكبر بجوار المستنقع. وهناك، عند بقعة غاية في الانعزال قابعة في الظلال، أسفل شجرة صنوبر بيضاء ممتدة، جلست على مرج نظيف صلب. فتشت عن الينبوع وصنعت بئراً من ماء رمادي خال من الشوائب، استطعت أن أقحم ملء دلو بدون إثارة وحل القاع، وإلى هناك ذهبت لهذا الغرض كل يوم تقريباً في منتصف الصيف حين كانت البحيرة في أدفأ حالاتها. إلى هناك أيضاً قادت دجاجة الأرض صغارها لتسبر الوحل بحثاً عن الدود، لم تطر إلا قدماً فوقه هابطة الضفة بينما جرى الصغار في جمع أسفلها؛ ولكن حين وقعت عيناها عليّ في النهاية، تركت صغارها ودارت حولي المرة بعد المرة، أقرب وأقرب إلى أن يفصلها عني أربع أقدام أو خمس متظاهرة بكسر في جناحيها أو قدميها كي تلفت انتباهي وينصرف صغارها المنتظمة بالفعل في مسيرة، يرسل زقزقة خفيضة، ولكن حادة، صفّ واحد عبر المستنقع مثلما ترشده. أو تناهت إليّ زقزقة الصغار حين أعجز عن رؤية الطائر الأم. جلس هناك أيضاً طائر القُمْريَّة فوق الينبوع أو انتقل مرفرفاً من غصن إلى آخر في أشجار الصنوبر البيضاء الطرية فوق رأسي؛ أو جرى السنجاب الأحمر على أقرب الأغصان، وكان حميماً فضولياً إلى أقصى درجة. لا تجلس ساكناً مدة كافية في بقعة جذابة من الغابة حتى يُظهر لك كل سكانها أنفسهم على التوالي.

شهدت أحداثاً أقل سِلْميَّة. خرجت يوماً إلى كومة الخشب الخاصة بي أو بالأحرى ركام الأجذال، فلاحظت نملتين ضخمتين، إحداهما حمراء، والأخرى سوداء وأكبر كثيراً من الأولى، طولها نصف بوصة تقريباً، تتشاجر كل منهما بضراوة مع الأخرى. بمجرد أن اشتبكتا، لم تترك إحداهما الأخرى أبداً، وإنما قاومتا وصارعتا وتدحرجتا على رقائق الخشب بلا توقف. رميت ناظريّ إلى نقطة أبعد، فتولاني الاندهاش حين أبصرت هؤلاء المقاتلين يغطون رقائق الخشب، لم تكن مبارزة، وإنما حرب، حرب بين سلالتين من النمل، كان النمل الأحمر يصرع دوماً الأسود، وبين الحين والآخر أجد نملتين حمراوين في مواجهة أخرى سوداء. غطت فيالق أشبه بمرافقي الملك أخيل بحرب طروادة كل التلال والأودية في فناء الخشب، وانتثرت الأرض بالفعل بالموتى والمحتضرين، موتى من الحمر والسود. كانت المعركة الوحيدة التي شهدتها على الإطلاق، ساحة القتال الوحيدة على الإطلاق التي وطأتها والمعركة جارية؛ حرب ضروس، جمهوريون حمر من ناحية، وإمبرياليون سود من

ناحية أخرى. التحم النمل على كل جانب في قتال مميت، وإن لم يُبدِ أي ضوضاء بمقدوري سماعها، لم يحارب الجنود البشريون بكل هذا الإصرار أبداً. رصدت اثنتين، كل منهما مثبّتة تماماً في حضن الأخرى في واد صغير مشمس وسط رقائق الخشب، تستعد الآن في الظهيرة أن تقاتل حتى غروب الشمس أو انقضاء الحياة. ثبّت المحارب الأحمر الأصغر نفسه كما الملْزمة في صدر خصمه، وطيلة كل تلك الألعاب البهلوانيّة الجارية على ساحة القتال لم يمسك قط لحظة عن قضم أحد القرنين بالقرب من الجذر بعد أن تسبب بالفعل في سقوط الآخر بينما دفعه المحارب الأسود الأقوى من جانب إلى آخر، وكما رأيت حين نظرت نظرة أقرب، جرده بالفعل من عدد من أذرعه. تُقاتل النمل بعناد يفوق عناد الكلاب القوية الضخمة. و لم يُظهر أدنى ميل إلى التراجع. كان من الواضح أن صيحة القتال كانت "انتصِر أو مت"[1]. في غضون ذلك جاءت نملة حمراء على جانب التل من هذا الوادي، من الواضح أن إثارة أي إثارة غمرتها لأنها لم تقتل خصماً و لم تشترك بعد في المعركة؛ لعله السبب الثاني، فهي لم تخسر أي طرف من أطرافها؛ أوصتها أمها أن تعود بدرعها أو ما يفوق الدرع. أو ربما كانت كأخيل، غذّت حنقها، والآن أتت لتنتقم أو تنقذ صديق أخيل، باتروكلُس. رأت النملة هذه المعركة غير المتكافئة من بعيد – لأن النمل الأسود كان تقريباً ضعف حجم النمل الأحمر – هرعت دانية إلى أن قامت متوخية الحذر والحرص على بعد نصف بوصة من المحاربين؛ وبعدها، انتهزت الفرصة وقفزت على المحارب الأسود وبدأت عملياتها بالقرب من قاعدة رجله الأمامية اليمني تاركة الخصم يختار بين أطرافه؛ وهكذا اتحد ثلاثة في سبيل الحياة وكأن نوعاً جديداً من الجاذبية تم ابتكاره، نوعاً يخزي كل الأقفال والأسمنت. ما كان ينبغي أن أتعجب عندئذ حين وجدت أن لكل من الجانبين فرقة موسيقية واقفة على رقاقة خشب بارزة، تعزف في تلك الأثناء ألحانها القومية كي تستفز البطيء وتبهج المحاربين المحتضرين. بل إن بعض الإثارة استولت عليّ أنا نفسي وكأن النمل رجال. كلما تتفكر في المشهد، كلما قَل الفرق. لا توجد ولا ريب معركة سجلها تاريخ كونكورد على الأقل، إن لم يكن تاريخ أمريكا، يمْكن مقارنتها لحظةً بهذه المعركة، سواء فيما يتعلق بالأعداد المنغمسة فيها أو الوطنية والبطولة المبذولة. بالنسبة إلى الأرقام والأشلاء كانت معركة أوسترليتس

1- "انتصر أو مت": مستوحاة من كلمات السياسي الأمريكي جورج واشنطون، "وعليه ينبغي أن نعتزم أن ننتصر أو نموتَ".

أو معركة دريزدين[1]. معركة كونكورد! قُتل اثنان في جانب الوطنيين، وأصيب عازف الناي لوثر بلانشارد بالجراح. تُماثل كل نملة هنا الرائد باتريك[2] - "أطلق النار! بحق السماء أطلق"، شارك الآلاف مصير أيزك ديفيز وأبنر هوزمر القتيلين. لم يوجد مرتزق واحد هناك. لا شك يراودني أنه قاتل في سبيل مبدأ، بالضبط كما قاتل أسلافنا، لا كي تتجنب ضريبة من ثلاثة بنسات مفروضة على الشاي؛ وسوف يجد المعنيون نتائج هذه المعركة في مثل أهمية معركة بانكر هيل على الأقل وقيمتها.

رفعت رقاقة خشب كافح فوقها ثلاث نمال - نمال وصفتها بدقة - حملتها إلى منزلي، ووضعتها أسفل قَدَح على عتبة النافذة كي أتفحص الواقعة. أمسكت مجهراً وصوبته إلى النملة الحمراء المذكورة أولاً، بالرغم من أنها كانت تقضم في كد القدم الأمامية القريبة لعدوها، بعد أن قطعت قرنها المتبقي، رأيت أن صدرها مقطوع كلية كاشفاً عن أعضائها الحيوية لفكيّ المحارب الأسود، كان درْع صدر المحارب الأسود أسمك على ما يبدو من أن يثقبه؛ التمع الجمر الأسود بعينيّ المكابد بضراوة لا يمكن إلا للحرب أن تثيرها. تقاتلتا نصف ساعة في قاع القدح، وعندما نظرت مرة أخرى، كان الجندي الأسود قد مزق رأسيّ عدويه عن جسديهما، وكان الرأسان الحيّان لا يزالان معلقين على أحد جانبيه مثل ميداليات مروعة عند حِنْوُ السَّرْج، لا يزالان على ما يبدو مثبَّتين بإحكام كما كانا دوماً، كان يحاول مكافحاً في ضعف - بدون قرون وببقية رجل لا غير، ولا أعلم عدد جروحه الأخرى - أن يجرد نفسه منهما؛ وهو ما حققه في النهاية بعد أكثر من نصف ساعة. رفعت الزجاجة، فاندفعت النملة إلى عتبة النافذة في تلك الحالة العرجاء. سواء نجت أخيراً من ذلك القتال وأمضت بقية أيامها في مبنى أشبه بأوتيل دي إنفاليديه[3]، لا أعلم؛ ولكني حسبت أن مثابرتها لن تستحق الكثير منذ ذلك الحين فصاعداً. لم أعلم قط أي الفريقين انتصر أو سبب الحرب؛ ولكني شعرت بقية اليوم وكأني أهجت مشاعري وأزعجتها بمشاهدة صراع وضراوة وأشلاء جديرة بمعركة بشرية قبالة باب منزلي.

يخبرنا العالمان ويليام كيربي وويليام سبنس أن الناس احتفوا قديماً بمعارك النمل وسجلوا تواريخه مع أنهما قالا إن هوبر[4] هو المؤلف الحديث الوحيد الذي شهدها على ما يبدو.

1- معركة أوسترليتس أو معركة دريزدين: من معارك نابليون.
2- الرائد باتريك: جون باتريك، قائد أمريكي في كونكورد.
3- أوتيل دي إنفاليديه: بيت في فرنسا مكرّس لإقامة الجنود العُجّز في عهد الملك لويس الرابع عشر.
4- هوبر: بيير هوبر (1777 - 1840)، عالم حشرات فرنسي.

يقولان، "بعد أن سرد البابا إنيا سيلفيو رواية ضارية لصراع جرى بعناد لا حد له من قبل نوع هائل صغير على جذع شجرة من أشجار الكمثرى،" أضافا أن "هذه المعركة وقعت في عهد البابا يوجينياس الرابع في حضور نيكولاس بيستورينسيس، محام بارز روى تاريخ المعركة برمتها بدقة متناهية". سجل أولوس ماجنيس[1] اشتباكاً مماثلاً بين النمل الضخم والنمل الصغير، وفي خلاله انتصر النمل الصغير، وبعدها قيل إنه دفن جثث جنوده، ولكنه ترك جثث أعداده العمالقة فريسة للطيور. وقع هذا الحدث قبل طرد الطاغية كريستين الثاني من السويد". نشبت المعركة التي شهدتها خلال رئاسة جيمز بولك، خمس سنوات قبل تمرير قانون ويبستر المسمى بقانون الهارب–العبد.

لا تَصلح العديد من كلاب القرية إلا لمطاردة إحدى سلاحف الطين في قبو المؤن، تباهى الكلب بأطرافه الثقيلة في الغابة بدون معرفة سيده، وتشمم بلا جدوى جحور ثعالب قديمة وحُفَر حيوانات المرموط؛ ربما قاده كلب هجين نحيل يشق طريقه بحذر ورشاقة في الغابة، وقد لا يزال يُحْدث رعباً طبيعياً في نفوس الحيوانات؛ إنه الآن بعيد وراء دليله، ينبح نباح الكلب في مواجهة سنجاب صغير لجأ إلى قمة شجرة كي يتفحصه، وبعدها يخب ليثني الشجيرات بثقله متخيلاً أنه يبحث عن فرد تائه من أفراد فصيلة فأر اليربوع. ساورتني الدهشة ذات يوم حين أبصرت قطة تسير على طول شاطئ البحيرة الصخري لأنها نادراً ما تهيم بعيداً عن موطنها. بادلتني الدهشة بمثيلتها. وبالرغم من أنها أكثر أنواع القطط تدجيناً، بدت وكأنها في موطنها بالغابة، وبسلوكها الماكر المختلس تبرهن على أنها بلدية أكثر من القاطنين المعتادين هناك. أثناء جني ثمر العليق ذات مرة قابلت قطة ترافق قططاً صغيرة في الغابة، غاية في الجموح، وقد لاح عليها كلها الانزعاج مثل أمها، إذ رمقتني بعدوانية وضراوة. كان هناك منذ بضع سنوات قبل أن أعيش في الغابة ما يسمى 'بالقطة المجنحة' في منزل مزرعة بلينكولن بالقرب من البحيرة، منزل السيد جيليان بيكر. عندما عرجت عليه لأراها في يونيه من عام 1842 كانت قد ذهبت إلى الصيد في الغابة كما هي عادتها (لست متأكداً إن كانت ذكراً أم أنثى، وعليه استخدمت الضمير الأكثر اعتيادية)، ولكن صاحبتها باحت إليّ أنها أتت إلى الحي منذ ما يزيد قليلاً على العام، في إبريل، وانتهى بها الأمر إلى أن آوتها في منزلها؛ كان لونها رمادياً غامقاً ضارباً إلى البني ببقعة بيضاء على

1- أولوس ماجنيس: (1490 – 1558)، مؤرخ سويدي.

حلقها وقدمين بيضاوين، ذيلها ضخم كثيف كذيل الثعلب؛ انبسط فراؤها في الشتاء كثاً على جانبيها مشكلاً شرائط طولها عشر بوصات أو اثنتا عشرة بوصة وعرضها بوصتان ونصف، وأسفل ذقنها مثل الفراء، الجانب العلوي طليق، والسفلي متلبد كاللباد، وفي الربيع تطرح كل هذه الذيول. منحاني أحد "جناحيها"، ولا زلت محتفظاً به. لا يبد أنه يحوي أي غشاء حيواني. خال البعض أنها جزئياً سنجاب طائر أو حيوان بري آخر، وهو أمر محتمل لأن الهجين الولود وفقاً لعلماء الطبيعة تم إنتاجه عن طريق اتحاد حيوان السّنسار والقطة الداجنة. كانت ستصبح القطة المثالية لي لو كنت أحتفظ بأي قطط على الإطلاق، لم لا ينبغي أن تكون قطة الشاعر مجنحة كما هو حال حصانه؟

جاء طائر الغوّاص السّامك في الخريف كالمعتاد كي يطرح ريشه القديم ويستحم في البحيرة، دوت البحيرة بضحكه الهائج قبل استيقاظي. عندما تسري الشائعات بقدومه، ينتبه كل الرياضيين وسط قرية كونكورد، على العربات وعلى الأقدام، في مجموعات من اثنين أو ثلاثة أفراد، ببنادق مرخصة ورصاص مخروطي ومناظير. أتوا يرسلون حفيفاً عبر الغابة شأن أوراق الخريف، عشرة رجال على الأقل مقابل طائر واحد من طيور الغوّاص السّامك. يتخذ بعضهم مواقع على هذا الجانب من البحيرة، والبعض الآخر على جانب آخر لأن الطائر المسكين لا يقوى على أن يكون كلي الوجود؛ لو غاص هنا، لا بد أن يَظهر هناك. ولكن رياح أكتوبر العليلة تهب الآن، تبعث حفيفاً بين أوراق الشجر وتُرقرق سطح المياه، وعليه من المتعذر سماع طائر الغوّاص السّامك أو رؤيته مع أن أعدائه يلقون بالمناظير نظرات شاملة على البحيرة، يجعلون الغابة تردد الأصداء بطلقاتهم. ترتفع الأمواج اندفاعاً في غضب، تنحاز لكل طيور الماء، لا بد أن يتقهقر الرياضيون بأقصى سرعة إلى البلدة والمحال ومهامهم غير المنجَزة. ولكنهم كثيراً ما يفلحون. عندما مضيت لآتي بدلو من الماء في الصباح الباكر، كثيراً ما رأيت هذا الطائر المهيب مبحراً خارج الخليج على بعد عدة قصبات. لو حاولت أن ألحق به في قارب لأرى كيف سيناور، كان يغطس ويغيب تماماً، وأحياناً لا أجده من جديد إلى أن يهل الجزء الأخير من اليوم. ولكني كنت نداً قوياً له على سطح المياه. فقد كانت عادته أن يختفي أثناء المطر.

كنت أجدف على طول الشاطئ الشمالي في ظهيرة في منتهى الهدوء من أكتوبر لأن الطيور تستقر في تلك الأيام تحديداً بجوار البحيرات، مثل نبات حشيشة اللبن، بحثت بلا جدوى على البحيرة عن طائر الغوّاص السّامك، أبحر أحدها فجأة من الشاطئ نحو منتصف

البحيرة على بعد عدة قصبات أمامي، أرسل ضحكته الصاخبة مُظْهِراً نفسه. لاحقته بمجدافي إلا أنه غطس، ولكنه حين برز، كنت أقرب إليه مما سبق. غطس مرة أخرى، ولكني أخطأت تقدير اتجاه سوف يسلكه، وهكذا ابتعد عني مسافة خمسين قصبة حين بزغ هذه المرة على سطح المياه لأني ساعدت على توسيع المسافة الفاصلة بيننا؛ أطلق مجدداً ضحكة طويلة عالية، لديه الآن سبب أدعى. ناور ببراعة متناهية حتى أظل على بعد نصف دستة قصبات منه. وفي كل مرة، حين برز إلى السطح مديراً رأسه هذا الاتجاه وذاك، عاين بهدوء الماء والأرض، واختار مسلكه على ما يبدو كي يَبزغ في أوسع امتداد مائي ممكن وعند أبعد مسافة عن القارب. أدهشني سرعة اتخاذه للقرار وتنفيذه لهذا القرار. قادني في الحال إلى أوسع جزء من البحيرة دون أن يتزحزح عنه. بينما كان يتدبر في عقله أمراً، حاولت التنبؤ به. ألفيتها لعبة مسلية، لعبناها سطح البحيرة الأملس، رجل في مواجهة طائر من طيور الغوّاص السّامك. تختفي على بغتة إحدى قطع الشطرنج الخاصة بخصمك أسفل اللوح، ومشكلتك هي أن تضع قطعتك في النقطة الأقرب لمكان ظهوره مرة أخرى. أحياناً ما يَبزغ على غير توقع على الجانب المقابل لي بعد أن مر على ما يبدو أسفل القارب مباشرة. كان طويل النفَس للغاية، لا ينال منه إرهاق أو كلل حتى إنه حين سبح إلى مكان بعيد، غطس مع ذلك على الفور مجدداً؛ لا عقل بمقدوره أن يحدس مكانه في البحيرة العميقة أسفل السطح الممهد، عله يسرع كما السمكة لأن لديه الوقت والقدرة على زيارة قاع البحيرة في أعمق أجزائه. قيل إن هناك من اصطاد طيور الغوّاص السّامك في بحيرات نيويورك على عمق ثماني أقدام أسفل السطح بصنانير مخصصة للسُلْمون المُرَقَّط وإن كانت بحيرة ولدن أعمق من ذلك. يا لدهشة السمك لرؤية هذا الزائر الأخرق القادم من عالم آخر يهرع وسط أسرابها! بدا مع ذلك وكأنه يَعلم مسلكه أسفل الماء كما يَعمله فوقها، وقد سبح بسرعة إضافية هناك. رأيت مرة أو مرتين مويجة تشي باقترابه من السطح، وما كان منه إلا أن أبرز رأسه لاستطلاع الموقف، وعلى الفور غطس مجدداً. وجدت أن لا فرق بين الارتياح على مجدافيّ منتظراً ظهوره من جديد ومحاولة حساب مكان صعوده؛ لأني حين كنت أسلط عينيّ على السطح المرة بعد الأخرى في اتجاه ما، يتولاني الإجفال فجأة لسماع ضحكته الغريبة خلفي. ولكن لماذا يُظهر نفسه على الدوام لحظة بروزه بإطلاق تلك الضحكة العالية بعد إبداء كل هذا المكر؟ ألا يكفي صدره الأبيض ليدل على مكانه؟ دار في بالي أنه حقاً غوّاص سّامك أحمق. استطعت في المعتاد أن أسمع رشاش الماء حيث بزغ، وعليه اكتشفت موقعه. ولكنه بدا بعد ساعة في مثل

نشاطه الماضي، غطس وقتما شاء، وسبح إلى أبعد من السابق. كان من المدهش أن أراه يبحر بعيداً في سكينة بصدر أملس حين يَبزغ إلى السطح، إذ قام بكل الجهد بقدمين لا تخلوان من أوتار أسفلهما. كان نداؤه المعتاد هو ضحكته الشيطانية غير أنها كانت خليقة إلى حد ما بطيور الماء، ولكنه حين كان ينجح في بث الإحباط في نفسي بين الفينة والأخرى ويَظهر في نقطة بعيدة عني للغاية، يطلق صيحة عجيبة طويلة، الأرجح أنها تليق بثعلب لا طائر؛ مثلما يدس حيوان خطمه في الأرض ويصرخ بترو. وهنا يكمن جنونه – عله أشد الأصوات برية التي يمْكن سماعها هنا – إذ أرسل دوياً فوق جانب هائل من الغابة. استنتجت أنه يضحك سخريةً من جهودي، واثقاً من حِيَله. ومع أن السماء تلبدت بحلول ذلك الوقت بالغيوم، تبدت البحيرة غاية في الهدوء حتى إني استطعت أن أرى أين شق السطح حين لم أسمع صوته. كان صدره الأبيض وسكون الهواء وهدوء البحيرة ضده. برز في النهاية على بعد خمسين قصبة مطلقاً واحدة من صيحاته المطولة وكأنما يستنجد بإله طيور الغوّاص السّامك كي يساعده، هبّت في الحال رياح من الشرق ورقرقت السطح، غص الهواء بأكمله بمطر لا يَعدم السديم، نال مني الانبهار وكأن أحداً استجاب لصلاة الغوّاص السّامك، وإلهه يتولاه الغضب مني الآن؛ وعليه تركته يتوارى بعيداً على السطح المضطرب.

راقبت لمدة ساعات في أيام الخريف البط وهو يغير وجهته ببراعة وينعطف ويشغل منتصف البحيرة بعيداً عن الرياضيين؛ حيلٌ ما كانت لتحتاج إلى التمرن عليها في روافد لويزيانا. حين يُرغَم على الصعود، أحياناً ما كان يدور فوق البحيرة على ارتفاع كبير، منه تَسْهُل عليه رؤية البحيرات والنهر، مثله مثل ذرات سوداء في السماء؛ وعندما حسبت أنه رحل منذ فترة طويلة، حط بحركة سريعة مائلة طولها ربع ميل على جزء قصي تركته خالياً؛ ولكني لا أعلم سبباً غير الأمن لإبحاره في منتصف ولدن ما لم يحب ماءها للسبب نفسه الذي من أجله أحب ماءها.

13 - حفلة الانتقال إلى المنزل الجديد

مضيت في أكتوبر إلى مراعي النهر لالتقاط العنب، أثقلت نفسي بعناقيد أثمن من الطعام لجمالها وعطرها. وهناك سددت أيضاً نظرات الإعجاب إلى التوت البري وإن لم أقطفه، جواهر لامعة صغيرة، حلى متدلية فوق عشب المرعى، حمراء شبيهة باللآلئ، يقطفها المزارع بأداة قبيحة ذات أسنان تاركاً المرعى الممهد زاخراً بالعقد، يزنها بإهمال بالمكيال والدولار ليس إلا، ويبيع غنائم شراب العسل المخمَّر إلى بوسطن ونيويورك في سبيلها إلى أن تُسحق لترضي أذواق محبي الطبيعة هناك. وعليه يحث الجزارون عن ألسنة الثور الأميركي في عشب البراري بغض النظر عن الكوكب الممزق القانط. كانت فاكهة شجيرة البَرْبارِيس المتألقة طعاماً أيضاً لعينيّ فقط؛ ولكني جمعت مخزوناً بسيطاً من التفاح للسلق، تفاح غَفَل عنه المالك والمسافر. وعندما نضجت الكستناء، خزنت نصف مكيال للشتاء. خالجني منتهى الإثارة في ذلك الفصل حين تجولت في غابة كستناء لينكولن، غابة لانهائية وقتذاك - تنام الآن نوماً طويلاً أسفل السكة الحديدية - حملتُ حقيبة على كتفي وعوداً بيدي لفتح الثمار

لأني لم أنتظر دائماً الصقيع وسط حفيف أوراق الشجر وتوبيخ صاحب بدر من السناجب الحمراء وطيور أبو زُريق، فقد سرقت بين الحين والآخر جوزها نصف المستهلَك لأنها اختارت ولا ريب ثماراً تحوي جوزاً سليماً. تسلقت أحياناً وهززت الأشجار. نَمى أيضاً خلف منزلي، كادت إحدى الأشجار الضخمة تلقي ظلالها عليه، وحين تفتحت زهوره، صار باقة عطَّرت الحي كله، ولكن السناجب وطيور أبو زُريق حصلت على أغلب فاكهته؛ أتى آخرها في أسراب في الصباح المبكر وقطف الجوز من النباتات قبل أن يَسقط، تخليت إليها عن هذه الأشجار وزرت الغابة الأبعد المؤلَّفة بالكامل من الكستناء. كان هذا الجوز بديلاً جيداً للخبز. قد توجد بدائل أخرى عديدة. كنت أحفر يوماً بحثاً عن دود للسمك، فاكتشفت الفول السوداني، بطاطس أهل البلاد الأصليين، فاكهة رائعة بدأت أشك إن كنت استخرجتها وأكلتها قط في الطفولة كما قلت، و لم أحلم بها. كثيراً ما رأيت منذ حينها زهرته الحمراء المتغضنة المخملية تدعمها سيقان النباتات الأخرى بدون أن أعرف أنها الفاكهة نفسها. أباده الحرث تقريباً. يمتاز بطعم حلو قليلاً، كطعم بطاطس قضمها الصقيع، وقد وجدته أشهى عند الغلي من التحميص. بدت هذه الدَرَنَة دلالة طفيفة على طبيعة تربي أطفالها وتطعمهم ببساطة هنا في فترة ما من المستقبل. في هذه الأيام الحافلة بالماشية المسمنة وحقول الحبوب المتموجة بات هذا الجِذر المتواضع الذي كان يوماً رمزاً لإحدى القبائل الهندية منسياً تماماً أو معروفاً فحسب من خلال كرمته المزهرة؛ ولكن دع الطبيعة البرية تهيمن هنا من جديد، وسوف تختفي على الأرجح الحبوب الإنجليزية الغضة المترفة أمام عدد ضخم من الخصوم؛ وبدون عناية الإنسان قد يحمل الغراب آخر بذرة من بذور القمح إلى حقل قمح هائل لإله الهنود في الجنوب الغربي؛ ولكن الفول السوداني – وهو على وشك الفناء الآن – قد ينشط ويزدهر رغم الصقيع والبرية ليبرهن على أنه من النباتات الأصلية ويستأنف أهميته العتيقة وكرامته باعتباره طعام القبيلة الصيادة. لا بد أن المقابل لإلهة الزراعة عند الرومان أو إلهة الحكمة عند الرومان عند الهنود هو مكتشف الفول السوداني وواهبه؛ وعندما يبدأ عهد الشعر هنا، قد يصور الشعراء أوراق جوزه في أعمالنا الفنية.

كنت قد أبصرت بالفعل بحلول الأول من سبتمبر شجرتين أو ثلاثاً من أشجار القَيْقَب الصغيرة وقد تحول لونها إلى القرمزي على الجانب الآخر من البحيرة، انفرجت أسفلها السيقان البيضاء لثلاث أشجار من الحَوْر الرُجْراج عند حافة نتوء التل بجوار المياه. آه، قص لونها حكايات عديدة! وبالتدريج بزغت شخصية كل شجرة من الأسبوع إلى التالي،

أعجبت بنفسها وهي تنعكس على مرآة البحيرة الصقيلة. وفي كل صباح استبدل مدير هذا المعرض صورة قديمة على الجدران بصورة جديدة تسم بألوان مشرقة أو متناغمة.

أقبلت الدبابير بالآلاف إلى منزلي في شهر أكتوبر كالمُقْبِلة إلى مسكن شتوي، استقرت على نوافذي من الداخل وعلى الجدران فوقها، وأثنت أحياناً الزوار عن الدخول. وحين أصابها البرد بالخدر صباحاً، كسحت بعضها خارجاً غير أني لم أعبأ كثيراً بالتخلص منها؛ بل إني شعرت بالإطراء لاعتبارها منزلي ملجأ مستحباً. لم تضايقني أبداً ضيقاً حقيقياً وإن شاطرتني الفراش، وبالتدريج اختفت عن الأنظار إلى شقوق لا علم لي بها متجنبة شتاء وبرد لا يوصفان.

ومثل الدبابير، قبل أن أمضي أخيراً إلى منزل شتوي في نوفمبر، اعتدت أن ألجأ إلى الجانب الشمالي الشرقي من ولدن، جانب جعلته الشمس المنعكسة من غابة الصنوبر الراتنجي والشاطئ الصخري موقداً للبحيرة؛ من الألطف والأنفع للصحة أن تتدفأ بالشمس قدر استطاعتك من أن تتدفأ بنار صناعية. وهكذا دفأت نفسي بجمرات لا تزال متوقدة تركها الصيف مثلي مثل صياد مغادر.

عندما شرعت في بناء مدخنة منزلي، درَست البناء بالأحجار. احتاج قرميدي المستعمل إلى تنظيفه بمِسَجّة، وهكذا تعرفت أكثر من المعتاد على خصائص القرميد والمَساج. كان عمر الملاط خمسين عاماً، وقيل إنه لا يزال يزداد صلابة، ولكنه أحد تلك الأقاويل التي يروق الرجال ترديدها سواء صحَّت أم لم تصح. ازدادت تلك الأقاويل نفسها صلابة والتصقت بإحكام أشد بمرور العمر، وتطلب الأمر عدة ضربات بالمِسَجّة كي أنظف أحد هؤلاء المتعالمين العُجُز. بنى البناة العديد من قرى منطقة ميسوبوتاميا العتيقة بقرميد مستعمل من نوعية ممتازة، حصلوا عليها من أنقاض مدينة بابل، وربما لا يزال الأسمنت المستخدَم أقدم وأصلب. أياً كان الأمر، استوقفتني متانة الفولاذ الفريدة التي تحملت العديد من الضربات العنيفة بدون أن تبلى. ولأن قرميدي كان جزءاً من مدخنة سابقة – مع أني لم أقرأ اسم ملك بابل <نبوخذ نصر> عليه – اخترت كل ما استطعت العثور عليه من قراميد للمدفأة كي أوفر الجهد والنفاية، وملأت الفراغات بين القرميد حول المدفأة بأحجار من شاطئ البحيرة، وكذلك صنعت الملاط من رمال بيضاء من المكان نفسه. لبثت أكثر الوقت بجانب المدفأة باعتبارها أكثر الأماكن حيوية في المنزل. الحق أني عملت بتأنٍ بالغ حتى إن صفاً من القرميد

ارتفع عدة بوصات فوق الأرضية وقام مقام وسادتي ليلاً مع أني بدأت من الأرض صباحاً؛ ومع ذلك لم أتذكر أن ألمّ التيبس بعنقي؛ إذ عاد تيبس عنقي إلى تاريخ أقدم. آويت الشاعر[1] لمدة أسبوعين في تلك الفترة تقريباً، فواجهت مشكلة إيجاد مكان له. جلب سكينه الخاص مع أن لديّ اثنتين، كنا نصقلها بإقحامها في الأرض. قاسمني مجهود الطهي. سعدت لرؤية عملي يعلو بالتدريج محكماً متيناً، وتدبرت أنه لو تتابع ببطء، فمن المقدّر أن يبقى طويلاً. إن المدخنة بنية مستقلة إلى حد ما، تقف على الأرض وترتفع عبر البيت إلى السماوات؛ بل إنها بعد احتراق البيت لا تزال واقفة بعض الوقت، وأهميتها واستقلاليتها واضحة جلية. وقع هذا في نهاية الصيف. كان شهر نوفمبر.

كانت الريح الشمالية قد بدأت بالفعل تُبرد البحيرة مع أن إتمام التبريد استغرق أسابيع عديدة من الهبوب المنتظم، إنها غاية في العمق. عندما طفقت أشعل ناراً في المساء قبل أن أكسو منزلي بالجص، حملت المدخنة الدخان على نحو جيد للغاية بسبب الشقوق العديدة بين الألواح. ومع ذلك أمضيت بضع أمسيات بهيجة في تلك الشقة الباردة طلقة الهواء، تحيط بي ألواح بنية خشنة مليئة بالعقد وروافد بلحاء عالية فوق رأسي. لم يسُر منزلي عينيّ كثيراً حين كسوته بالجص وإن اضطررت إلى الاعتراف بأنه بات أريح. ألا يجب أن تكون كل شقة يسكن فيها الإنسان شاهقة بما يكفي لخلق شيء من الغموض فوق الرؤوس حيث قد تلعب الظلال المترجرجة مساءً حول الروافد؟ تتناغم هذه الأشكال مع التصور والخيال بصورة تفوق اللوحات الجصية الجدارية أو أي أثاث آخر غالي الثمن. بدأت أولاً أسكن منزلي حين طفقت أستخدمه طالباً الدفء، كما استخدمته طالباً الملجأ. حصلت على مسندين قديمين للحطب المشتعل كي أبعد الخشب عن المدفأة، وقد أفادني أن أرى السخام يتشكل في خلفية المدخنة التي بنيتها، وخزت النار بقوامة ورضا يزيدان على العادة. كان مسكني صغيراً، واستطعت بالكاد أن أستضيف فيه مجرد صدى؛ ولكنه بدا أوسع لأنه حوى شقة واحدة وابتعد عن الجيران. تركزت كل عوامل جاذبية المنزل في غرفة واحدة، كا‌ن‌ت مطبخاً وغرفة نوم وردهة وغرفة معيشة؛ وقد استمتعت بكل الرضا الذي يستمده الأب أو الطفل، السيد أو الخادم، من العيش في منزل. يقول المؤلف الزراعي الروماني ماركوس بوركيوس كاتو، يجب أن يضم سيد الأسرة في داره بالريف "قبواً للزيت والنبيذ، العديد من البراميل

1- الشاعر إشارة إلى ويليام إيليري تشانينج (1818 - 1901)، وقد كان صديق ثورو المقرب.

الخشبية، كيلا ينزعج من توقع الأيام العصيبة؛ سوف يكون من مصلحته وفضيلته ومجده".
كان لديّ في قبوي ربع برميل من البطاطس ونحو نصف جالون من فاصوليا لا تَسلم من السوس، وعلى رفي القليل من الأرز وإبريق من دبس السكر، رُبْع بوشل من نبات الجاوْدار ورُبْع بوشل من دقيق الذُرَة.

أحياناً ما كنت أحلم بمنزل أكبر وأكثر ازدحاماً بالناس، يقُوم في عصر من العصور الذهبية، مشيَّد بمواد أبقى وأشد تحملاً، يخلو من حلى معمارية مبتذلة، منزل لا يزال مكوّناً من غرفة واحدة، ردهة فسيحة بسيطة متينة عتيقة الطراز، بدون سقف أو جص، بروافد وأعمدة عارية تدعم فردوساً سفلياً فوق رأس المرء- مفيد في درأ المطر والثلج حيث تَبرز أعمدة الملك والملكة لاستقبال فخامتك، حين تبدي تبجيلاً لساتورن[1] المنبطح المنتمي إلى سلالة حاكمة أقدم وهو يطأ بقدميه فوق عتبة منزلك؛ منزل كما الكهف، يجب أن تَرفع مشعلاً على أحد الأعمدة كي تبصر السقف؛ قد يعيش البعض في المدفأة، والبعض في تجويف النافذة، والبعض على المقاعد الخشبية، والبعض في نهاية الردهة، والبعض في النهاية الأخرى، والبعض عالياً فوق الروافد مع العناكب لو اختاروا؛ منزل تدخله حين تفتح الباب الخارجي وتنتهي المراسم، فيه يَقْدر المسافر المتعب أن يغتسل ويأكل ويحاور وينام من غير رحلة أخرى؛ ملجأ سوف تَسعد بالوصول إليه في ليلة عاصفة، يشتمل على كل ضروريات المنزل، ولا أداة من أدوات تدبير المنزل؛ بمقدورك أن ترى كل كنوزه في مشهد واحد، يتعلق كل شيء من مشجبه متاحاً لاستخدام المرء؛ مطبخ وخزانة وردهة وغرفة نوم ومخزن وعلية في ذات الوقت حيث يسعك أن ترى شيئاً ضرورياً للغاية مثل برميل أو سلم أو شيئاً مفيداً للغاية مثل صوان، تسمع القدر يغلي وتتفحص ناراً تطهو عشاءك وفرناً يخبز خبزك، إن الأثاث والأواني هي الحلي الأساسية؛ لا يُعَلَّق الغسيل، ولا تخمد النار، ولا تنزعج ربة المنزل، ربما يُطلَب منك أحياناً الابتعاد عن الباب الأفقي في الأرضية حين يَنزل الطباخ إلى القبو، وهكذا تَعلم إن كانت الأرض صلبة أم مجوفة أسفلك بدون أن تدوس عليها بقوة. منزل يتسم داخله بمثل انفتاح عش طائر ووضوحه، ولا يمكنك أن تَدخل من المدخل الأمامي أو تَخرج من الخلف بدون أن تبصر بعض سكانه؛ وهناك حين تكون ضيفاً، تنعم بحرية استخدام المنزل برمته من غير قيود، لا أحد يمنعك محاذراً عن دخول أغلب المنزل، يحبسك في حجيرة مُعينة آمراً إياك

1- ساتورن: إله الزراعة عند الرومان.

بالارتياح في بيتك هناك – في الحبس المنفرد. لا يسمح لك المضيف في هذه الأيام بالاقتراب من مدفأته، وإنما لديه بنّاء سوف يبني لك مدفأة خاصة بك في بقعة ما من مجازه، والضيافة ما هي إلا فن جعْلك عند أبعد نقطة ممكنة. يتصف الطهي بسرية ما بعدها سرية وكأنه يخطط لتسميمك. أعي أني وطأت الكثير من أراضي الآخرين، وربما أمروني بحكم القانون بالابتعاد عنها، ولكني لا أعي أني زرت الكثير من منازل الآخرين. قد أزور بثيابي القديمة مَلكاً وملكة يعيشان عيشة بسيطة في مثل هذا المنزل الذي وصفته لو كانا في سبيلي؛ ولكن الانسحاب من قصر حديث هو كل ما أود تعلمه لو حدَث يوماً أن وقعت في شركه.

سوف يبدو وكأن لغة قاعاتنا نفسها ستفقد كل جسارتها وتنحط إلى هذر ولغو كليين، تنقضي حيواتنا بعيدة عن رموزها، واستعاراتها ومجازاتها نائية يَصعب تصديقها بالضرورة؛ وبكلمات أخرى، تصبح القاعة بعيدة جداً عن المطبخ والورشة. بل إن العشاء ما هو في المعتاد إلا قصة ترمز إلى عشاء. وكأن الهمجي وحده هو الذي سكن بالقرب من الطبيعة والحقيقة بما يكفي لاستعارة مجاز منهما. كيف بمقدور العالم القاطن بعيداً في المنطقة الشمالية الغربية أو جزيرة مان[1] أن يحدد ما هو الأمر البرلماني في المطبخ؟

بالرغم من ذلك تحلى واحد أو اثنان فقط من ضيوفي بجرأة كافية للبقاء وتناول عصيدة الذرة معي؛ ولكنهما حين أبصرا الكارثة تقترب، فضلا التراجع بسرعة بالغة وكأنها ستهز قواعد المنزل. ولكن المنزل صمد أثناء طهي العديد والعديد من عصائد الذرة.

ما كسوت البيت بالجص إلا حين اشتدت برودة الجو اشتداداً. جلبت من الشاطئ المقابل للبحيرة بعض الرمل الأنظف والأكثر بياضاً لهذا الغرض في قارب، وسيلة نقل كانت لتغريني بالذهاب إلى أبعد إن اقتضت الضرورة. تغطى منزلي في غضون ذلك بألواح خشبية متراكبة حتى الأرض من كل جانب. حين كنت أغطي المنزل بشرائح خشبية ضيقة رقيقة لكي أكسوها بعد ذاك بالجص، سعدت لتمكني من تثبيت كل مسمار بضربة واحدة من المطرقة، وقد طمحت في تحويل الجص من اللوح إلى الحائط بدقة وسرعة. تذكرت قصة شخص مغرور تعوّد أن يتسكع في ثيابه الأنيقة بالقرية لينصح العمال. غامر يوماً بتبديل الكلمات بالأفعال، إذ شمر عن ساقيه وأمسك لوحاً من ألواح العامل واضع الجص، ولأنه حمّل مسجته بدون حوادث مؤسفة أبدى بنظرة راضية إلى الشرائح الخشبية فوق رأسه إيماءة

1- جزيرة مان: جزيرة في البحر الأيرلندي.

جريئة إلى هناك؛ وعلى الفور تلقى بإحراج متناه المحتويات كاملة على صدره المكشكش. صوبت نظرات الإعجاب من جديد إلى نفع الجص وتوفيره، جص يرد البرد بكل فعالية ويتبدى كلمسة أخيرة جميلة الشكل، وقد وقفت على مصائب متنوعة يتعرض لها واضع الجص. خامرني الاندهاش لرؤية كم كان القرميد متعطشاً، فقد امتص كل رطوبة الجص قبل أن أملس سطحه، وكم دلو من الماء تطلب لتعميد مدفأة جديدة. كنت في الشتاء السابق قد صنعت كمية بسيطة من الجير بحرق أصداف بلح البحر زودني بها بحرنا من أجل التجربة ليس إلا، لكي أعلم من أين أتت موادي. ربما حصلت على حجر جير جيد من مكان يبعد ميلاً أو اثنين وحرقته بنفسي لو رغبت في ذلك.

تغطت البحيرة في أثناء ذلك بطبقة رقيقة من الجليد عند أكثر الخلجان ظلالاً وضحالة قبل أيام أو حتى أسابيع من التجمد العام. لا يَعدم الجليد الأول على وجه الخصوص التشويق والمثالية، فهو جامد وغامق وشفاف، ويُقَدِّم أفضل الفرص على الإطلاق لتفحص القاع في المناطق الضحلة؛ بإمكانك أن ترقد بطولك على جليد سمكه بوصة ليس إلا مثل حشرة تتزلج على سطح الماء، وتتمعن في القاع أثناء وقت الفراغ، قاع على بعد بوصتين أو ثلاث فقط لا غير، شأن صورة خلف زجاج، دائماً ما تصير المياه عندئذ هادئة بالضرورة. تشتمل الرمال على العديد من الأخاديد، عليها ارتحل مخلوق ثم ارتد مرة أخرى من الطريق نفسه؛ ظهر التغضن على القاع، بمقدورك أن تجد بعض القشور في الأخاديد وإن كانت عميقة عريضة. ولكن الجليد نفسه هو مصب أغلب الاهتمام مع أنك يجب أن تنتهز أول فرصة لدراسته. لو فحصتَه عن قرب في الصباح التالي على تجمده، سوف تجد أن الجزء الأكبر من الفقاعات البادية في البداية وكأنها داخله تلتصق بالجانب السفلي، وأن المزيد منها يرتفع باستمرار من القاع بينما يظل الجليد حتى الآن صلباً غامقاً نسبياً، أي أنك ترى المياه من خلاله. يتراوح قطر هذه الفقاعات من ثمانين بوصة إلى ثماني بوصات، واضحة تمام الوضوح وجميلة كل الجمال، ترى وجهك منعكساً عليها من خلال الجليد. قد يكون هناك ثلاثون أو أربعون فقاعة في كل بوصة مربعة. يحوي الجليد أيضاً بالفعل فقاعات عمودية مستطيلة ضيقة طولها نحو نصف بوصة، مخاريط حادة تتجه قممها إلى أعلى؛ أو لو أن الجليد حديث جداً، كثيراً ما ستجد فقاعات كروية دقيقة الواحدة فوق الأخرى مباشرة مثل خيط من اللآلئ. ولكن تلك الفقاعات لم تتعدد أو تتضح داخل الجليد كما هو حال الفقاعات القابعة أسفله. اعتدت أحياناً أن أرمي أحجاراً كي أختبر قوة الجليد، وقد حمَلت تلك الأحجار التي اخترقته معها

الهواء إلى الداخل مما شكّل فقاعات بيضاء غاية في الضخامة والجلاء. حين جئت ذات يوم إلى المكان نفسه بعد ثمان وأربعين ساعة، ألفيت أن هذه الفقاعات الضخمة لا تزال مثالية وإن تكونت بوصة إضافية من الثلج كما أبصرت بوضوح عبر الشق في طرف الكتلة المتراصة. ولكن لأن اليومين الأخيرين كانا حارين، مثلهما مثل صيف هندي، ما عاد الجليد الآن شفافاً، إذ لم يَظهر لون المياه الأخضر الداكن والقاع، وإنما تراءى غائماً، أبيض أو رمادي، وعلى تضاعف سُمكه، لم يكن أقوى من السابق لأن فقاعات الهواء تمددت تمدداً هائلاً كرد فعل لهذه الحرارة والتحمت معاً لتفقد اتساقها؛ لم تعد الواحدة فوق الأخرى مباشرة، وإنما شابهت في الغالب عملات فضية تندلق من حقيبة، واحدة تتداخل مع الأخرى، أو رقائق رفيعة وكأنها تَشغل شقوقاً ضيقة. غاب جمال الجليد، وفات أوان التمعن في القاع. تولاني الفضول لمعرفة أي المواقع شغَلتْها فقاعاتي العظيمة عند تكون الجليد الجديد، فحطمت كتلة تحوي فقاعة متوسطة الحجم ثم قلبت قاعدتها. تَشكل حولها الجليد الجديد وأسفلها، وعليه أُقحِم بين طبقتين من الجليد. كانت كلها في الجليد الأدنى غير أنها اقتربت من العلوي، كانت مسطحة بعض الشيء أو ربما مزدوجة التحدب قليلاً، بطرف مستدير، عمقها ربع بوصة وقطرها أربع بوصات؛ وقد اندهشت حين وجدت أن الثلج ذاب أسفل الفقاعة مباشرة باتساق هائل في صورة صحن فنجان مقلوب، بلغ الارتفاع خمسة أثمان بوصة في المنتصف تاركاً حاجز رفيع هناك بين الماء والفقاعة، سُمكه بالكاد ثمن بوصة؛ وفي العديد من الأماكن انفجرت الفقاعات الصغيرة في هذا الحاجز إلى أسفل، ربما لا يوجد جليد مطلقاً أسفل الفقاعات الأضخم، فقاعات بلغ قطرها قدماً. خمنت أن العدد الضخم للفقاعات الدقيقة التي رأيتها في البداية لِصْق السطح السفلي للجليد كان الآن متجمداً أيضاً، وأن كلاً منها عملت بدرجة من الدرجات عمل العدسة الحارقة على الجليد في أسفل لتذيبه وتبليه. إنها مدافع هوائية صغيرة تساهم في جعل الجليد يطقطق ويهدر.

في النهاية هلّ الشتاء بجدية حقيقية وأنا أتمم وضع الجص، أخذت الرياح تعوي حول المنزل وكأنما لم تنل تصريحاً بذلك إلا حينذاك. أتى الإوز متثاقلاً الليلة بعد الليلة في الظلام بقعقعة متواصلة وأجنحة ترسل صفيراً، بل إن بعد تغطي الأرض بالثلج حط البعض على ولدن وطار البعض في مستوى منخفض فوق الغابة في اتجاه مدينة فير هيفين قاصداً المكسيك. حين كنت عائداً عدة مرات من القرية في العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً، سمعت وقع أقدام سرب من الإوز أو البط على أوراق شجر جافة في الغابة بجوار إحدى حفر البحيرة

خلف منزلي حيث أتى ليحصل على الطعام، ترامى إليّ صياح قائده الخافت وهو يهرع. وفي عام 1845 تجمدت بحيرة ولدن بالكامل لأول مرة في ليلة 22 ديسمبر، إذ تجمدت بحيرة فلينت وبحيرات أخرى أكثر ضحالة والنهر لمدة عشرة أيام أو أكثر؛ وفي عام 46 تجمدت في اليوم السادس عشر؛ وفي عام 49 تجمدت في يوم 31 تقريباً؛ وفي عام 50 تجمدت في 27 ديسمبر؛ وفي عام 52، الخامس من يناير؛ وفي عام 53 تجمدت في 31 ديسمبر. كان الثلج قد غشى بالفعل الأرض منذ 25 نوفمبر، واكتنفتني فجأة مشاهد بديعة خليقة بالشتاء. انسحبت مع ذلك إلى قوقعتي محاولاً الاحتفاظ بنيران متوهجة داخل المنزل وداخل صدري. انصب عملي خارج المنزل على جمع خشب الغابة الميت، جلبته بين يديّ أو على كتفيّ أو جرجرت أحياناً إلى سقيفتي شجرة صنوبر تحت كل ذراع. وجدت سياجاً قديماً متهرئاً في الغابة فكان غنيمة عظيمة. قدمته قرباناً لفُلْكان إله النار عند الرومان لأنه كان يخدم في الماضي تيرمينوس إله الحدود عن الرومان. يا لإثارة الحدث – وجبة العشاء – حين يَخرج رجل إلى الثلج لتوه كي يصطاد، لا، قد تقول يسرق الوقود ليطهو به! خبزُه ولحمه شهيان. هناك ما يكفي من حزم العصي وفضلات الخشب من كل الأنواع في غابات أغلب بلداتنا لتغذية مدافئ عديدة، ولكنها لا تدفئ أية مدفأة في الوقت الحالي، ويعتقد البعض أنها تعيق نمو الخشب الجديد. طفا أيضاً بعض الخشب على سطح البحيرة. اكتشفت في الصيف طوفاً من أزناد شجرة الصنوبر الراتنجي، لم تخلُ من اللحاء، ثبّتها الأيرلنديون معاً حين شُيِّدت السكة الحديدية. سحبت جزءاً منه إلى الشاطئ. بعد أن تشبع بالمياه سنتين ورقد عالياً لمدة ستة أشهر، ما شابته شائبة وإن أثقلته المياه دون فرصة لتجفيفه. تسليت في أحد أيام الشتاء بالتزحلق شيئاً فشيئاً عبر البحيرة، قرابة نصف ميل، تزلجت إلى الوراء وطرف أحد الأزناد – خمس عشرة قدماً – على كتفي، والآخر على الجليد؛ أو ربطت عدة أزناد معاً بغصن طري من شجرة البتولا، وبعدها جررتها عبر البحيرة باستخدام بتولا أو شجرة جار ماء أطول. ومع أن المياه أثقلتها تماماً، وباتت في مثل ثقل الرصاص تقريباً، لم تحترق طويلاً فحسب، وإنما أحدثت ناراً ملتهبة التهاباً؛ لا، اعتقدت أنها احترقت احتراقاً أفضل بفضل التشبع بالمياه وكأن شجرة البتولا لانحباسها في المياه احترقت احتراقاً أطول مثل المصباح.

يقول جيلبين[1] في وصفه لسكان الحدود في غابات إنجلترا إن "قانون الغابة القديم اعتبر

1 – ويليام جيلبين: (1724 – 1804)، مؤلف وفنان ومعلم إنجليزي، "ملاحظات على مَشْهَد الغابة"، 1791.

التعدي على الأراضي والمنازل والأسياج المقامة على الحدود مصدر ضيق هائل، وقد نالوا عقاباً شديداً لتعديهم على الأرض المشاع" مما تسبب في إرهاب الطرائد وإيذاء الغابة. ولكني اهتممت بالحفاظ على لحم الغزال والنباتات الخضراء أكثر من الصيادين أو الحطابين وكأني اللورد وردن نفسه؛ ولو احترق أي جزء، تولاني حزن طال طويلاً مع أني حرقته بنفسي عن طريق الخطأ، واستعصت تعزيتني أكثر من المُلاَّك؛ بل إني حزنت حين قطع المُلاَّك أنفسهم الأشجار. أتمنى أن يشعر مزارعونا حين يقطعون غابة ببعض تلك الرهبة التي شعر بها الرومان القدماء حين أقبلوا إلى بستان مقدَّس شحيح الأشجار أو أطلوا عليه، أي يصدقون أنه مقدَّس لإله من الآلهة. قدَّم الرومان قرباناً تكفيرياً وصَلُّوا أياً كان الإله أو الإلهة الذي يقدس هذا البستان، كن سمح النفس معي، ومع عائلتي وأطفالي، إلى آخره.

من المدهش قيمة لا تزال تُسبَغ على الخشب حتى في هذا العصر وفي هذا البلد الجديد، قيمة أكثر دواماً وعالمية من الذهب. بعد كل اكتشافاتنا واختراعاتنا لن يهتدي الإنسان بركام من الخشب. نجده نفيساً كما وجده أسلافنا السكسونيون والنورمنديون. لو صنعوا منه أقواسهم، فإننا نصنع منه مقابض البنادق. قال ميشو[1] منذ ثلاثين عاماً مضت إن ثمن خشب الوقود في نيويورك وفيلادلفيا "يساوي تقريباً – وأحياناً يفوق – ثمن أفضل أنواع الخشب في باريس على احتياج تلك العاصمة الهائلة سنوياً إلى ما يزيد على ثلاثمئة ألف كُرْد[2]، وهي محاطة بالسهول المحروثة لمسافة ثلاثمئة ميل". يرتفع سعر الخشب في هذه البلدة ارتفاعاً يكاد يكون مطرداً، والسؤال الوحيد هو، كم سيرتفع هذا العام مقارنةً بالعام الفائت. يأتي الحرفيون والتجار بأنفسهم إلى الغابة، يبتغون قضاء مهمة واحدة ليس إلا، يحرصون على حضور مزاد الخشب، بل ويدفعون سعراً باهظاً من أجل نيل شرف التقاط فضلات الحطاب. لقد انقضَت الآن سنوات عديدة منذ لجأ الإنسان إلى الغابة طلباً للوقود ومواد الفنون: سكان نيو إنجلاند وسكان أستراليا، الباريسي والسُّلتي[3]، المزارع وروبين هود، جودي بليك وهاري جيل[4]؛ وفي أغلب مناطق العالم الأمير والفلاح، العالم والبدائي، يحتاجون على حد سواء عدة أعواد من الغابة للتدفئة وطهي الطعام. ولا يسعنيَ أنا الآخر الاستغناء عنها.

1- ميشو: فرانوسا أندريه ميشو (1777 – 1855)، عالم فرنسي بالتاريخ الطبيعي.

2- الكُرْد: مقياس للحطب يساوي 128 قدماً مكعباً.

3- السُّلتي: أحد أفراد عرق هنديّ أوروبيّ قطَن في ما مضى أجزاء واسعة من أوروبة الغربية.

4- جودي بليك وهاري جيل: شخصيات في قصيدة "جودي بليك وهاري جيل" للشاعر الإنجليزي وليام وردزورث (1770 – 1850).

ينظر كل رجل إلى كومته من الحطب بشيء من العاطفة. يروقني أن أضع كومتي أمام النافذة، وكلما زادت رقائق الخشب كلما ذكرتني بعملي المُرضي. كان لديّ فأس قديم لم يطالب به أحد، وفي فترات عملي أيام الشتاء على الجانب المشمس من المنزل لعبت به حول أجذال استخرجتها من حقل الفاصوليا. وكما تنبأ سائقي عندما كنت أحرث الأرض، دفأتني مرتين – مرة وأنا أشقها، والثانية حين كانت مشتعلة، وعليه لا وقود يستطيع أن يصدِّر المزيد من الحرارة. أمّا الفأس، فقد نصحني أحدهم بجلب حدَّاد القرية كي "يصله"؛ ولكني وصلته بنفسي بمقبض من شجرة جوز من الغابة، وجعلته صالحاً. ولو كان كليلاً، فهو على الأقل معلّق بدقة.

14 – سُكّان سابقون & زوار الشتاء

عاش مواطناي الشهيران سام ناتينج وتشارلز لو جروس حيث رأى الناس الينبوع وشجيرات اللَّيْلَك بجوار الحائط يساراً في حقل بات الآن مفتوحاً. وفي نقطة أبعد من الغابة، يقترب فيها الطريق من أقرب بقعة إلى البحيرة، جثم وايمان الخزّاف ليزود أبناء بلدته بالأواني الخزفية. ترك ذرية لتخلفه، لم يكونوا أغنياء بالسلع الدنيوية، تم السماح – دون رغبة حقيقية – لهم بالاحتفاظ بالأرض أثناء حياتهم؛ وكثيراً ما كان عمدة البلدة يأتي عبثاً لتحصيل الضرائب، "صادر رقاقة خشب" من قبيل التمسك بالشكليات كما قرأت في تقريره، فلا شيء آخر بوسعه أن يضع يده عليه. في أحد أيام منتصف الصيف حين كنت أعزق، حمَل رجل حِملاً من الأواني الخزفية إلى السوق، أوقف حصانه حيال حقلي وسأل عن وايمان الأصغر. كان قد اشترى منه إحدى عجلات الخزاف منذ فترة طويلة وأراد أن يعرف ما جرى له. كنت قد قرأت صلصال الخزاف وعجلته في الكتاب المقدس، ولكن لم يخطر ببالي قط أن الأواني التي نستخدمها ليست تلك المتوارثة كاملةً بدون كسر من تلك

الأيام، و لم تنمُ على الأشجار مثل اليقطين في مكان ما، حلَّت بي السعادة عندما سمعت أن فناً فخارياً مارسه شخص في حيي.

كان آخر سكان هذه الغابة قبلي رجل أيرلندي، هيو كويل (لو كنت تهجيت اسمه بصورة صحيحة)، شغَل مسكن وايمان. كان يدعى الكولونيل كويل. تقول الشائعة إنه كان جندياً في معركة واترلو. لو كان عاش، لجعلته يحارب في معاركه من جديد. كان يعمل هنا في حفر المصارف. ذهب نابليون إلى جزيرة سانت هيلينا؛ أتى كويل إلى غابة ولدن. كل ما أعرفه عنه درامي. كان رجلاً مهذباً كما هو جدير برجل طاف العالم، وكان قادراً على إجراء حوار مهذب أكثر من قدرتك على الإصغاء إليه. كان يرتدي معطفاً في منتصف الصيف، فقد أصيب بهذيان الحمّى وتورد وجهه بلون قرمزي. أدركه الأجل في الطريق عند سفح تل بريستر بعد فترة بسيطة من مجيئي إلى الغابة، وهكذا لم أتذكره كجار. زرته قبل هدم منزله حين تجنبه رفقاؤه باعتباره "قلعة غير محظوظة". انبسطتْ هناك ملابسه القديمة متجعدة من فرط الاستخدام وكأنها نفْسه على سرير مرتفع من الألواح الخشبية الثقيلة الثخينة. استقر غليونه مكسوراً على المدفأة بدلاً من سلطانية مكسورة عند النافورة. ما كان من الممكن أن يرمز الأخير إلى موته لأنه اعترف لي أنه لم ير ينبوع بريستر قط مع أنه سمع عنه؛ ثمة بطاقات ملوثة وبطاقات كوتشينة تُصور الملك، وبطاقات كوتشينة تحمل رقم واحد مبعثرة على الأرضية. لم يستطع المسئول عن تصفية أملاكه الإمساك بدجاجة سوداء كما الليل وفي مثل سكونه، بل إنها لم تنقنق في انتظار رينارد الثعلب، ومع ذلك ذهب ليبيت لياليه في الشقة المجاورة. ألفيت في الخلفية حدود مبهمة تُعيِّن حديقة، زُرعت إلا أنها لم تُعزق قط مرة واحدة لما نزل به من نوبات ارتعاش رهيبة رغم أنه كان وقت الحصاد. غزَتها نباتات الأفَسنْتين الرومانية التي انغرست في النهاية في ملابسي. كان جلد المرموط ممدداً طرياً في خلفية المنزل، غنيمة من غنائم واترلو الأخيرة؛ ولكنه لن يرغب في قلنسوة أو قفاز دافئ إضافيين.

يعيِّن الآن انبعاج في الأرض لا غير موقع هذه المنازل، بأحجار قبو مدفونة وفراولة وتوت عليق وعُلّيق كُشْتُباني وشجيرات بندق وأشجار سُمّاق تنمو في المرج المشمس هناك؛ تَشغل بعض أشجار الصنوبر الراتنجي والبلوط كثير العقد مكان ركن المدخنة في الماضي، وتتذبذب شجرة بتولا سوداء ذكية العبير، ربما، حيث قام الباب الحجري. أحياناً ما يَظهر انبعاج البئر حيث رشح أحد الينابيع ذات يوم؛ إن العشب الآن جاف بلا دموع؛ أو تغطى عميقاً – دون أن يُكتشَف إلا في يوم لاحق – بحجر مسطَّح أسفل الطبقة العليا للتربة حين غادر آخر

العِرْق. يا له من فعل محزن – ردم الآبار! تزامن مع افتتاح آبار الدموع. إن كل انبعاجات القبو، مثل جحور ثعلب مهجورة، حفر قديمة، هي ما تخلف حيث نشطت يوماً جلبة الحياة البشرية واهتياجها، و"القَدَر والإرادة الحرة والمعرفة المسبقة كلها مطلقة،"[1] في شكل من الأشكال ولهجة من اللهجات أو غيرها تمت مناقشتها بالتناوب. ولكن كل ما أستطيع أن أعلمه من كل نتائجهم انتهى إلى هذا فقط لا غير، أن "كاتو وبريستر حجبا الحقيقة"؛ وهو ما كان منوراً كتاريخ مدارس مشهورة في الفلسفة.

لا يزال نبات اللَّيْلَك المفعم بالحيوية ينمو جيلاً خلف الباب وعتبة النافذة، تتفتح أزهارها ذكية الرائحة كل ربيع ليقطفها المسافر المتأمل؛ زرعتْها ورعتها يوماً أيادي الأطفال في قطع أرض بالفناء الأمامي – تقف الآن بجوار جوانب الجدران في المراعي المنعزلة، تحل محلها غابات تنمو جديدة – آخر ذلك الفرع من العائلة، الناجي الوحيد من تلك العائلة. قليلاً ما فكر الأطفال داكنو البشرة أن نبات طعْم القسيم بقرصيه الاثنين فقط – كانوا قد غرزوه في الأرض تحت ظلال المنزل ورووه كل يوم – سوف يرسخ نفسه على هذا النحو ويعيش عمراً أطول من أعمارهم، ويَسكن في مؤخرة ألقى عليها الظلال، زرع حديقة الإنسان وبستانه، وسرد قصته بصوت خافت لهائم وحيد بعد نصف قرن من كبَرهم وموتهم – ازدهر جميلاً وفاحت منه رائحة ذكية كما فاحت منه في ذلك الربيع الأول. أُعَيِّن ألوان الليلك اللطيفة المرحة الأكثر نضارة.

ولكن هذه القرية الصغيرة، بذرة شيء أكبر، لَم فشلت على حين احتفظت كونكورد بمكانتها؟ ألم تكن هناك مميزات طبيعية – ألم يكن لَديها في الواقع الحق في استخدام الطاقة المائية؟ نعم، بحيرة ولدن العميقة وينبوع بريستر البارد – الحق في شرب جرعات طويلة صحية، كلها لا يستفيد هؤلاء الرجال منها إلا لإضافة الماء إلى كؤوسهم. لقد كان عِرْقاً عطشان على مستوى الكون. ألا تكون صناعة السلال ومقشات الإسطبلات والحصير وتجفيف الذرة وغزل الكتان والخزف ازدهرت هنا جاعلة البرية تزدهر كالوردة، وذرية عديدة ورثت أرض الآباء؟ كانت التربة المجدبة لتصمد على الأقل في وجه انحلال بلاد منخفضة. واحَسْرَتاه! لا تُعزز ذاكرة هؤلاء السكان البشريين جمال المشهد الطبيعي إلا قليلاً! ربما ستحاول الطبيعة مرة ثانية معي باعتباري مستوطناً أولاً، فارتفع منزلي في الربيع الفائت كي يصير الأقدم في القرية الصغيرة.

1– من ديوان "الفردوس المفقود" للكاتب الإنجليزي جون ميلتون (1608 – 1674).

ما بنى أي شخص مطلقاً فوق الموقع الذي أشغله على حد علمي. أنقذني من مدينة مبنية على موقع مدينة أقدم، موادها أطلال، وحدائقها قبور. التربة شاحبة ملعونة هناك، وقبل أن يصبح ذلك ضرورياً سوف تُدمِّر الأرض نفسها. ومع تلك الذكريات أعدت تأهيل الغابة وهدهدت نفسي حتى النوم.

قلما يزورني أحد في هذا الفصل. عندما يترامى الثلج في أعمق مستوياته، لا يغامر أي متجول بالاقتراب من منزلي لمدة أسبوع أو أسبوعين في كل مرة، ولكني عشت هناك مرتاحاً دافئاً كفأر من فئران المرج أو كماشية ودجاج قيل إنه ظل على قيد الحياة طويلاً وهو مدفون في أكوام الثلوج، حتى بدون طعام؛ أو مثل عائلة ذلك المستوطن المبكرة في بلدة ساتون بهذه الولاية، تغطى كوخه بالكامل بالثلج العظيم عام 1717 أثناء غيابه، ووجده صديق هندي من خلال حفرة صنعتها أنفاس المدخنة في كومة الثلج، وهكذا أراح نفوس العائلة. ولكن لا هندي ودود اكترث لي؛ ولا كان في حاجة إلى الاكتراث لأن سيد المنزل كان في البيت. الثلج العظيم! يا لمرح ينتاب مَن يسمع عنه! عندما لم يتمكن المزارعون من الوصول إلى الغابة والمستنقعات بخيولهم واضطروا إلى قطع أشجار الظل القائمة أمام منازلهم، وعندما تزداد صلابة القشرة، قطعوا أشجار المستنقعات، عشر أقدام من الأرض، وهي تبزغ في الربيع التالي.

قد يتبدى السبيل الذي أسلكه من الطريق العام إلى منزلي – طوله نحو نصف ميل – كخط منقط متعرج في الثلج الأعمق، ثمة مساحات عريضة تفصل بين النقط. ولمدة أسبوع يَنعم بالجو الهادئ قطعتُ عدد الخطوات نفسها، والمسافة نفسها، آتياً ذاهباً، أخطو عامداً وبدقة فرجار على آثار أقدامي العميقة – يُكرهنا الشتاء على مثل هذا الروتين – ومع ذلك كثيراً ما امتلأت بزرقة السماء نفسها. ولكني لم أشهد جواً تدخل تدخلاً مهلكاً في مسيراتي أو بالأحرى سفرياتي لأني ارتحلت بين الحين والآخر مسافة ثمانية أميال أو عشرة عبر أعمق الثلوج كي ألتقي بشجرة من شجر الزّان أو شجرة بتولا صفراء أو معرفة قديمة بين أشجار الصنوبر؛ عندما تسبب الجليد والثلج في تدلي أغصانها وجعْل قممها حادة، تبدلت أشجار الصنوبر لتصير أشجار التّنّوب؛ خُضت إلى أعلى القمم حين كان عمق الثلج حوالي قدمين، ونفضت عن رأسي عاطفة ثلجية أخرى مع كل خطوة؛ أو زحفت أحياناً وجاهدت على يديّ وركبتيّ والصيادون يمضون إلى مساكن الشتاء. تسليت ذات ظهيرة بالتفرج على بومة مخططة جالسة على فرع سفلي ميت من شجرة صنوبر بيضاء بالقرب من الجذع في

وضح النهار. وقفت على بعد قصبة منها. وسعها أن تسمعني حين تحركت وسحقت الثلج بقدميّ بيد أنها لم ترني بوضوح. عندما أحدثت ضجة، امتد عنقها وانتصب ريش رقبتها وانفتحت عيناها واسعتين؛ ولكن سرعان ما هبط جفناها مرة أخرى، وبدأت تومئ برأسها. استولى عليّ تأثير ناعس بعد مشاهدتها لمدة نصف ساعة وهي جالسة هكذا بعينين نصف مفتوحتين، مثلها مثل قطة، أخ مجنح لقطة. ما كان هناك إلا شق ضيق متروك بين جفنيها، وبه حافظت على علاقتها بي؛ وعليه تطلعت بعينين نصف مغلقتين من أرض الأحلام، ساعية إلى اكتشافي، اكتشاف شيء غامض أو ذرة تعترض بصرها. وفي النهاية، بعد ضوضاء أعلى أو المزيد من الاقتراب من قِبَلي، تولاها الاضطراب واستدارت في كسل فوق مجثمها وكأنما لحق بها الضجر لمقاطعة أحلامها؛ وعندما انطلقت ورفرفت عبر أشجار الصنوبر، باسطة جناحيها لتُظهر عرضاً غير متوقع، لم يسعني أن أسمع أدنى صوت يصدر منهما. وهكذا، قادها بين أغصان الصنوبر إحساس دقيق بالجِوار لا البصر، تستشعر سبيلها إلى الشفق بجناحيها الحساسين، عثرت على مجثم جديد حيث قد تنتظر في سلام بزوغ الفجر.

بينما كنت أسير في الممر الطويل المرتفع المخصص للسكة الحديدية عابراً المروج، قابلت العديد من الرياح العاصفة القارصة، فلا مكان آخر يمكن أن تُطلق لنفسها العنان؛ وعندما أصاب الصقيع أحد خديّ، أدرت له الخد الآخر رغم وثنيتي. و لم يكن الأفضل سلوك طريق العربات قدوماً من تل بريتسر. كنت قد أتيت إلى البلدة هادئاً مثل هندي ودود عندما كانت محتويات الحقول المفتوحة الفسيحة مكوّمة بين جدران طريق ولدن، وكانت نصف ساعة كافية لمحو آثار آخر مسافر. وعندما عدت، تشكلت أكوام جديدة من الثلج، خضت عبرها بمشقة والرياح الشمالية الغربية النشطة ترسّب ثلجاً كما البودرة حول إحدى زوايا الطريق الحادة، ليس بالمستطاع رؤية آثار أرنب، ولا حتى بصمة خفيفة تركها فأر من فئران المروج أو أي علامة من علاماته الطفيفة. ومع ذلك نادراً ما فشلت في العثور – حتى في منتصف الشتاء – على مستنقع دافئ يليق بالربيع حيث لا يزال العشب ونبات الكُرنب المنتِن يَبزغ بأوراق جديدة خضراء خضرة دائمة، حيث ينتظر طائر أكثر قدرة على الاحتمال بين الحين والحين عودة الربيع.

وبالرغم من الثلج، عندما كنت أعود من مسيرتي مساءً، عبرت أحياناً آثاراً عميقة تركها أحد الحطابين تؤدي إلى بابي، ووجدت كومته من النجارة على المدفأة ومنزلي غاصاً برائحة الغليون. أو سمعت في ظهيرة يوم الأحد – لو تصادف وجودي في البيت – صوت سحق

على الثلج بفعل خطوات مزارع ماكر قصد منزلي من بعيد عبر الغابة كي يثرثر "ثرثرة" اجتماعية، كان أحد اهتماماته القليلة "الرجال في مزارعهم"؛ من يرتدون عباءة بدلاً من رداء الأساتذة، وهم مستعدون أن ينتزعوا المغزى الأخلاقي من الكنيسة أو الدولة مثل استعداهم لرفع حمولة سماد من الفناء المحاذي لمخزن الحبوب. تحدثنا عن عصور بسيطة بدائية والناس يجلسون حول نار ضخمة في البرد والجو المنشّط، بعقول صافية؛ وعندما شحّت حلوى أخرى، جربنا أسناننا مع العديد من ثمار الجوز التي تركها السناجب الحكماء منذ فترة طويلة لأن تلك الثمار ذات القشور السميكة تكون في الغالب فارغة.

كان الآتي من بعيد نحو كوخي عابراً ثلوج عميقة وعواصف غاية في الكآبة شاعراً[1]. قد تثبط الرحلة همم المزارع والصياد والجندي والمراسل بل والفيلسوف؛ ولكن لا شيء بإمكانه ردع الشاعر لأن دافعه هو الحب الصافي. مَن يَقدر أن يتنبأ بذهابه وإيابه؟ يدعوه عمله في كل ساعة، بل وعندما ينام الأطباء. لقد جعلنا ذلك المنزل الصغير يرن بمرحنا الصاخب ويدوي بهمهمة حديث أكثر رزانة بكثير، وهكذا قدّمنا تعويضاً لوادي ولدن على فترات الصمت الطويلة. لم تزل برودواي مهجورة بالمقارنة. وفي فترات مناسبة تنطلق تحيات منتظمة من الضحكات، قد تعزو إلى آخر نكتة نطقنا بها أو النكتة التالية. ابتكرنا العديد من النظريات الحياتية "الجديدة تماماً" ونحن نتناول صحناً من عصيدة رقيقة القوام، وهو ما جمع بين مزايا البهجة وصفاء الذهن الذي تتطلبه الفلسفة.

لن أنسى أني تلقيت زائراً[2] آخر رحبت به خلال الشتاء الأخير بجوار البحيرة، زائر أتى في مرة من المرات عبر القرية مجتازاً الثلج والمطر والظلام إلى أن رأى مصباحي من خلال الأشجار، وقاسمني أمسيات شتوية طويلة. باع أحد آخر الفلاسفة – وقد أخرجته ولاية كونيكتيكيت إلى العالَم – في البداية سلع الولاية متجولاً، وبعدها باع، كما صرح، عقله. باعه مع ذلك في تجواله مروجاً لله ومخزياً الإنسان، منتجاً ثمار عقله ليس إلا، مثلما تنتج الجوزة ثمرتها. أعتقد أنه ولا بد أقوى الأحياء إيماناً. دائماً ما تفترض كلماته ومواقفه حالاً أفضل مما يعهده الرجال الآخرون، وسوف يكون آخر رجل يصاب بالإحباط مع تعاقب العصور. لا مغامرات لديه في الوقت الحالي. ولكن بالرغم من تجاهله الآن نسبياً، عندما يأتي

1- الشاعر إشارة إلى ويليام إيليري تشانينج (1818 – 1901)، وقد كان صديق ثورو المقرب.
2- كان الزائر هو آموس برونسون ألكوت.(1799 – 1888)، وقد كان معلماً ومديراً لكلية كونكورد للفلسفة.

يومه، سوف تُنفَّذ قوانين لا يتوقعها أغلب الناس، وسوف يأتي إليه أرباب العائلات والحكام طلباً للنصيحة.

"يا لعماه من لا يرى الصفاء!" [1]

صديق حقيقي للإنسان؛ تقريباً الصديق الوحيد للتقدم البشري. توضح فنائية قديمة – بل قل خلوداً – بصبر وإيمان لا يلينان الصورة المحفورة على أجسام الرجال، إله الآثار المشوَّهة المائلة ليس إلا. يعانق بفكره المضياف الأطفال والشحاذين والمجانين والعلماء، ويلهب فكر الجميع، ليضيف إليه في المعتاد بعضاً من سعة التفكير والأناقة. أعتقد أنه ينبغي أن يحتفظ بنُزُل في طريق عام العالَم، وهناك قد يتخذه الفلاسفة من كل الأمم مأوى، وعلى لافتته يجب أن يكتب، "تسلية للإنسان، ولكن ليس لحيوانه. ادخل يا من لديك وقت فراغ وعقل هادئ، من يسعى جاداً إلى الطريق السليم". عله أعقل الرجال، يضمر أقل الأفكار غرابة التي اتفق أن صادفتني؛ الشيء نفسه أمس وغداً. تمشينا الهويني وتحدثنا عن الأيام الخالية، ونحنا في نبذ العالَم من خلفنا لأنه لم يقطع أية تعهدات في أثنائها لأي مؤسسة، حر المولد، لا عَبْد. أينما التفتنا، بدا أن السماء والأرض التقيا، فقد أضاف جمالاً على جمال المشاهد الطبيعية. رجل برداء أزرق، سقفه الأكثر ملاءمة هو السماء الشاملة العاكسة لصفائه. لا أرى كيف يمكن أن يموت؛ لا يسع الطبيعة أن تستغني عنه.

امتلك كل منا بعض الألواح الخشبية الجافة، ألواح الفكر، جلسنا وبرناها، جربنا سكاكيننا، وسددنا نظرات الإعجاب إلى حبوب القطين الضاربة إلى الاصفرار. خضنا بمنتهى الرقة والإجلال أو سحبنا معاً بمنتهى النعومة حتى إن أسماك الفكر لم يلفحها التيار أو خشت أي صائد بصنارته على الضفة، وإنما راحت وجاءت بكل سرور شأن سُحُب تطفو عبر السماء الغربية، ومجموعات عِرْق اللؤلؤ التي تتشكل أحياناً هناك ثم تتلاشى. هناك عملنا، ننقح الميثولوجيا، نكمل حكاية خرافية في عدة أماكن، نبني قلاعاً في الهواء لم توفر لها الأرض أي أساس له قيمة. مُشاهد عظيم! مترقب عظيم! إنه التحدث إلى تسلية ليلة من ليالي نيو إنجلاند. آه! ما أجريناه من حوارات، ناسك وفيلسوف ومستوطن قديم تحدثت عنه – نحن الثلاثة – حوارات وسَّعت منزلي الصغير وأجهدته؛ لا أجرؤ على تحديد عدد الأرطال الزائدة على الضغط الجوي في كل بوصة مستديرة؛ لقد فتحت شقوقها، وعليه

1– توماس ستورير، "حياة توماس ولزي وموته، كاردينال"، 1599.

ينبغي أن تنسد ببطء بعد ذاك كي تمنع التسرب التالي؛ ولكني نلت كفايتي من ذلك النوع من الحبال المحلولة بالفعل، حبال تشد شقوق السفن.

كان هناك شخص آخر[1] قضيت معه "مواسم جادة" سوف نذكرها طويلاً، قضيتها في منزله بالقرية، واعتاد زيارتي بين الفينة والأخرى؛ ولكني لم أنل المزيد من الرفقة هناك.

وهناك أيضاً توقعت أحياناً مثل الجميع زائراً لا يجيء أبداً. تقول أسطورة ثاني أقانيم الثالوث الهندوسي، "ينبغي أن يمكث مالك المنزل مساءً في فنائه مهما طال الأمر كي يحلب بقرة أو أطول لو شاء كي ينتظر مجيء ضيف". طالما أديت هذا الواجب، الضيافة، فقد انتظرت بما يكفي لحلب قطيع كامل من الأبقار، ولكني لم أر الرجل يقترب من البلدة.

1- الشخص الآخر هو رالف والدو إمرسون (1803 - 1882)، وقد كان صديقاً لثورو.

15 - حيوانات الشتاء

عندما تتجمد البحيرات تجمداً كاملاً، لا توفر فقط طرقاً جديدة أقصر إلى عدة مواقع، وإنما توفر مشاهد جديدة من أسطحها للمناظر الطبيعية حولها. عندما اجتزت بحيرة فلينت بعد أن تغطت بالثلج، مع أني كثيراً ما جدفت هنا وهناك وتزلجت فوقها، فوجئت بها عريضة في منتهى الغرابة حتى إني لم أستطع إلا أن أفكر في خليج بافين[1]. قامت تلال لينكولن حولي عند طرف سهل مكسو بالثلج، لم أتذكر أني وقفت عليه من قبل؛ وعلى بعد متعذر تحديده فوق الجليد يتحرك صيادو السمك بتمهل هنا وهناك ومعهم كلابهم المفترسة، يحسبهم المرء صائدي فقمة أو إسكيمو، أو يلوحون في الجو الضبابي وكأنهم مخلوقات خرافية، لم أعلم إن كانوا عمالقة أم أقزام. سلكت هذا السبيل حين ذهبت لأحاضر في لينكولن مساء، لم أسافر في طرق و لم أعبر منازل بين كوخي وغرفة المحاضرة. عاشت مستعمرة من فئران المسك في بحيرة جوس المترامية في طريقي، رفعت ملاجئها عالياً فوق الجليد مع أني لم أر أياً منها

1- يقع خليج بافين في شمال المحيط الأطلنطي بين جرينلند وكندا.

خارجها حين مررت بها. ولأن ولدن عارية من الثلج في الغالب مثل البحيرات الأخرى أو لا تحوي إلا أكواماً ضحلة متقطعة، كانت ولدن ساحتي، استطعت أن أسير فيها بحرية على حين بلغ عمق الثلج قرابة قدمين في أحد المستويات بمكان آخر بينما اقتصر أهل القرية على السير في شوارعهم. وهناك – بعيداً عن شارع القرية وعدا مساحات فاصلة طويلة جداً، بعيداً عن جلجلة أجراس عربات الجليد – تزلجت وتزحلقت وكأني في فناء مطروق فسيح الأركان تشغله حيوانات الموظ وتتدلى عليه غابة من البلوط وأشجار صنوبر مهيبة منحنية بفعل الثلوج أو غاصة بالكتل الجليدية.

أمّا أصوات ليالي الشتاء، تناهى إليّ خلال أنهر الشتاء في الغالب نعيب بومة بائس – وإنما رخيم – في بقعة نائية يستعصي عليّ تحديدها؛ سوف تُصدِّر الأرض المتجمدة مثل ذلك الصوت لو عُزف بريشة عازف مناسبة، بلغة غابة ولدن المحلية نفْسها، آلفها للغاية أخيراً مع أني لم أر قط الطائر وهو يرسل النعيب. نادراً ما فتحت بابي في مساء الشتاء بدون أن أسمعه؛ هوو هوو هوو هووربر، هوو، تبدى للآذان رناناً، وكان أول ثلاثة مقاطع مشددة تقول على نحو ما: هالو هالو؛ أو أحياناً هوو، هوو فقط. وفي إحدى الليالي في بداية الشتاء قبل أن تتجمد البحيرة في نحو التاسعة نال مني الإجفال بسبب صياح الإوز الصاخب، تقدمت إلى الباب فسمعت أصوات أجنحته كعاصفة في الغابة وهو يطير منخفضاً فوق منزلي. مر بالبحيرة في اتجاه فير هيفين، أثناه مصباحي عن الاستقرار على ما يبدو، صاح قائدها طيلة الوقت بضربات منتظمة. استجابت فجأة بومة كما القطة قريبة مني للغاية بصوت جلي في منتهى الحدة والهول لم أسمعه من أي ساكن في الغابة، في فترات فاصلة منتظمة موجَّهة إلى الإوز وكأنها مصممة على فضح هذا المتطفل من خليج هادسون وتجريسه بإظهار نطاق صوتها وحجمه – صوت ساكن أصلي – وطرْده فزِعاً من أفق كونكورد من جراء صراخها. ماذا تقصد من إزعاج المعقل في هذه الساعة من الليل، ساعة أجدها مقدسة؟ هل تظن أني ضُبطت أبداً أقيّل في مثل تلك الساعة، وأني لا أملك رئتين وحنجرة مثلك؟ :بزو-هوو، بوو-هوو، بوو-هوو! أضمر الصوت الناشز إثارة لم أسمعها قط في حياتي. ومع ذلك، لو لديك أذن حسنة التمييز، خامرته عناصر انسجام لم تشهدها هذه السهول أو تسمعها أبداً من قبل.

سمعت أيضاً نعيق جليد البحيرة، رفيقي العظيم في ذلك الجانب من كونكورد، وكأنما قلِق في مرقده وتقلب بسرور، أزعجه امتلاء بطنه بالغازات وراودته الأحلام؛ أو أيقظتني

طقطقة الأرض بفعل الصقيع وكأن شخصاً قاد عربة خيول ارتطمت ببابي، وفي الصباح أجد شقاً في الأرض طوله ربع ميل وعرضه ثلث بوصة.

سمعت أحياناً الثعالب وهي تطوف فوق قشرة الثلج، في ليالٍ أضاءها القمر، بحثاً عن طيور الحجَل أو أية طريدة أخرى، تعوي بأصوات خشنة شيطانية ككلاب الغابة وكأنها تكدح في قلق أي قلق أو تسعى إلى التعبير، تكافح كي تحصل على الضوء وتَكون كلَاباً دون نقصان وتركض بحرية في الشوارع؛ لأننا لو وضعنا العصور في الحسبان، ألا يمْكن أن تكون هناك حضارة تتواصل عند البهائم كما تتواصل عند الإنسان؟ بدت الثعالب لعينيّ رجالاً بدائيين يحفرون الجحور، لا يزالون يقفون في جهة الدفاع، في انتظار تحولهم. يقترب أحدها أحياناً من نافذتي، يجذبه مصباحي، يعوي بلعنة تليق بثعلب يصبها عليّ ثم يتراجع.

اعتاد السنجابِ الأحمر أن يوقظني فجراً، يجول فوق السقف، يصعد جوانب المنزل ويَنزل منها وكأنه أُرسل من الغابة لهذا الغرض. رميت خلال الشتاء أربعة جالونات من أكواز الذرة الحلوة غير الناضجة على قشرة الثلج بجوار بابي، وتسليت بمراقبة حركات حيوانات مختلفة أغوتها الأكواز. أقبل الأرانب بانتظام في الشفق والليل لتناول وجبة مشْبعة. أتت السناجب الحمراء وراحت طيلة اليوم لتوفر لي تسلية كبيرة بالتفرج على مناوراتها. يقترب أحدها في البداية بخطوات حذرة محترسة عبر شجيرات البلوط، يجري فوق قشرة الثلج جرياً متقطعاً شأن ورقة شجر أطارها الريح، الآن بضع خطوات بهذه الطريقة، بسرعة وتبديد للطاقة رائعين، يسرع بأقدامه سرعة لا تُصَدَّق وكأنما يحاول كسب رهان، يقطع الآن الخطوات بتلك الطريقة، ولكنه لا يتجاوز قط أكثر من نصف قصبة في المرة الواحدة؛ وبعدها يتوقف على بغتة بتعبير مضحك لغرابته وشقلبة لا مبرر لها وكأن كل عيون الكون مسلطة عليه – لأن كل حركات السنجاب – بل وفي أكثر مواقع الغابة انعزالاً – توحي بوجود مشاهدين مثلما توحي حركات أية فتاة راقصة. أهدر المزيد من الوقت في التأخير والاحتراس أكثر مما كان سيكفي لقطع المسافة بأكملها، فلم أره قط يسير. صعد بعد ذلك شجرتك في لمح البصر، شجرة صنوبر راتنجي صغيرة، يشغل ساعته ويوبخ كل المتفرجين الخياليين، يناجي نفسه ويتحدث إلى كل الكون في الوقت نفسه – لسبب لم يسعني مطلقاً الوقوف عليه أو لم يدركه هو نفسه على ما أحسب. وصل إلى الذرة في آخر الأمر واختار كوزاً ملائماً، طفر مرحاً بالطريقة غير الواثقة نفسها إلى العود العلوي لكومة الخشب، قبالة نافذتي، وهناك حملق إلى وجهي، وجلس هناك ساعات، كان يزود نفسه بكوز جديد من

حين لآخر، قضم في البداية قضمات شرهة ورمى قَوْلحة الذرة نصف العارية حوله إلى أن صار أخيراً نَيِّقاً لاهياً بطعامه، متذوقاً فقط باطن الحبة وكوز حافظ عليه متوازناً فوق العود بإحدى أقدامه، ولكنه انزلق من قبضته المهمِلة ليَسقط على الأرض، يرنو إليه بتعبير مضحك ينبئ عن ريبة وكأنه يشك في أنه حي، بعقل لم يقرر إن يجلبه من جديد أم يجيء بكوز آخر أم يغادر؛ فكر الآن في الذرة ثم أرهف السمع إلى ما تحمله الرياح. وهكذا أضاع الرفيق الوقح الصغير أكواز ذرة عديدة في صدر النهار إلى أن أمسك في النهاية بكوز أطول وأكثر امتلاء، أكبر منه بكثير، وازنه بمهارة ثم انطلق به إلى الغابة مثل نمر يحمل جاموساً، سبيله متعرج ووقفاته متكررة، يخدشها وكأنها ثقيلة أكثر مما ينبغي، تَسقط منه طيلة الوقت، تَسقط في خط قطري بين الخط العمودي والخط الأفقي، إذ أصر على إنجاز المهمة على أية حال؛ – رفيق متفرد في عبثه وغرابته – وعليه انطلق به إلى مسكنه، عله حمَله إلى قمة على بعد أربعين قصبة أو خمسين، وبعدها سأجد القوالح مبعثرة في كل بقعة من الغابة في اتجاهات مختلفة.

تصل طيور أبو زُريق في النهاية، تناهت إليّ صيحاتها متنافرة النغمات قبل وصولها بوقت طويل، فقد اقتربت بحذر على بعد ثمن ميل، رفرفت من شجرة إلى شجرة على نحو مختلس متسلل، إلى بقعة أقرب وأقرب، التقطت حبوب ذرة أسقطتها السناجب. جلست بعدها على غصن شجرة من أشجار الصنوبر الراتنجي ثم حاولت أن تبتلع بسرعة حبوب ذرة أكبر من حلوقها فاختنقت بها؛ لفظت الحبوب بعد عناء ما بعده عناء، وأمضت ساعة محاولة فلقها بضربات متكررة من مناقيرها. كان من الجلي أنها لصوص، و لم ينطو صدري على أي احترام لها؛ ولكن السناجب – وإن كانت خجولة في البداية – انهمكت في العمل كمن تحوز حقاً من حقوقها.

وفي غضون ذلك أتت أيضاً طيور القُرْقُف الأميركي أسراباً، التقطت كسرات أسقطتها السناجب وطارت إلى أقرب الأغصان لتضعها أسفل مخالبها وتطرقها بمناقيرها الصغيرة وكأنها حشرة في اللحاء إلى أن يقل حجمها بما يكفي لتسع حلوقها الرفيعة. أقبل سرب صغير من طيور القرقف يومياً كي يتلقط عشاءه من كومة حطبي أو الكسرات الملقاة أمام بابي، لثغت بأصوات خافتة متنقلة مثل رنين الكتل الجليدية في العشب، أو لفظت مرحة بكلماتها، يوم يوم يوم، أو أتى في النادر طائر الفِيبيّ الصيفي النحيل من جانب الغابة خلال الأيام الشبيهة بالربيع. كانت الطيور حميمة للغاية حتى إن أحدها حط في النهاية على ملء ذراع من الخشب كنت أحمله، ونقر الأعواد بدون أن ينتابه خوف. حط ذات مرة عصفور

على كتفي لحظة وأنا أعزق حديقة بالقرية، وقد شعرت بسبب هذه الواقعة بتميز يفوق ما قد أشعر به لو ارتديت أية شارة عسكرية. وفي النهاية باتت السناجب حميمة هي الأخرى تماماً، إذ خطت بين الحين والآخر على حذائي حين وجدته أقرب الطرق.

عندما لم تكن الأرض مغطاة تماماً بعد، بالقرب من نهاية الشتاء مرة أخرى حين ذاب الثلج على جانب التل الجنوبي وحول كومة الحطب، أتت طيور الحجَل خارجة من الغابة صباحاً ومساء كي تقتات هناك. أينما سرْتَ في الغابة انطلقت طيور الحجَل بعيداً بأجنحة بعثت طنيناً، رجَّت الثلج المتساقط على أوراق الشجر والأغصان الجافة عالياً، ثلج سقط كالمنخول في أشعة الشمس كما الغبار الذهبي لأن هذا الطائر الشجاع لم يرهبه الشتاء. كثيراً ما تغطى بالثلج، وقد قيل إنه "يهبط أحياناً بسرعة إلى الثلج الناعم حيث يظل مختفياً يوماً أو اثنين". اعتدت أن أبث فيها الإجفال في الأرض المكشوفة أيضاً، حيث خرجتُ من الغابة في الغروب كي "تأكل براعم" أشجار التفاح البري. أتت بانتظام كل مساء إلى أشجار معينة، وهناك رقد الرياضي الماكر في انتظارها، وهكذا عانت بساتين الفاكهة القصية المجاورة للغابة معاناة مريرة. أشعر على أية حال بالسعادة لأن طائر الحجَل يأكل. إنه طائر الطبيعة العائش على البراعم وشراب الحمية.

أحياناً ما أسمع في أصباح الشتاء المظلمة أو آصال الشتاء القصيرة أصوات قطيع من كلاب الصيد يشق طريقه عبر الغابة بنباح ينم عن مطاردة، غير قادرة على مقاومة غريزة المطاردة، ونداء بوق الصيد يبرهن بين الفترة والأخرى على وجود الرجل في الخلفية. تُردد الغابة الصدى من جديد، ومع ذلك لا ينطلق ثعلب إلى سطح البحيرة المكشوف، ولا يتعقب القطيع المتتبع لصياد أشبه بالصياد الأسطوري أكتيون. قد أري في المساء الصيادين يعودون بذيل ثعلب واحد يجرجرونه من عربة الجليد كتذكار لرحلة الصيد، يسعون إلى نُزُلهم. يقولون لي إن الثعلب سينعم بالأمن لو بقى في وسط الأرض المتجمدة، أو لن يتغلب عليه أي كلب صائد للثعالب لو جرى بعيداً في خط مستقيم؛ ولكنه بعد أن يترك ملاحقيه بعيداً خلفه، يتوقف للراحة والإنصات إلى أن يدركوه، وعندما يركض، يستدير إلى مأواه القديم حيث ينتظره الصيادون. ومع ذلك يقابل في بعض الأوقات حائطاً ارتفاعه عدة قصبات فيقفز إلى أحد الجانبين ويبدو أنه يعلم أن المياه لن تحتفظ برائحته. أخبرني أحد الصيادين أنه أبصر ذات مرة ثعلباً تطارده الكلاب ينطلق فجأة إلى ولدن حين تغطى الثلج ببرك صغيرة ضحلة، ركض بعض المسافة ثم عاد إلى الشاطئ نفسه. سرعان ما وصلت الكلاب إلا أنها

فقدت هنا الرائحة. أحياناً ما يمر ببابي قطيع يصطاد بمفرده، يدور حول منزلي، ينبح ويتعقب بدون الانتباه إليّ وكأنه مصاب بضرب من الجنون، وعليه لا شيء يمْكن أن يصرف انتباهه عن الملاحقة. وهكذا يدور القطيع إلى أن يتهجم على أثر حديث من آثار الثعالب، فالكلب الذكي سوف ينبذ كل شيء آخر من أجل الطريدة. أتى رجل يوماً إلى كوخي من بلدة ليكسينجتون كي يسأل عن كلبه الذي قطع مسيرة طويلة، وكان يصطاد أسبوعاً بمفرده. ولكني أخشى أنه لم ينتبه إلى ما قلته، ففي كل مرة حاولت فيها الإجابة على سؤاله، قاطعني بطرح سؤال، "ماذا تفعل هنا؟" لقد فقد كلباً إلا أنه وجد رجلاً.

اعتاد صياد عجوز ثرثار أن يأتي ليستحم في ولدن مرة كل عام حين تصبح المياه في أدفأ حالاتها، وكان يزورني زيارات قصيرة في تلك الأوقات، أخبرني أنه أخذ بندقيته ذات ظهيرة منذ سنوات عديدة ومضى في رحلة بغابة ولدن؛ وبينما كان يسير في طريق وايلاند، سمع صيحة كلاب صيد تقترب، وما لبث أن قفز ثعلب فوق الحائط إلى الطريق، وبسرعة البرق قفز على الحائط الآخر خارجاً من الطريق دون أن تلمسه رصاصته الخاطفة. وفي مكان ما في الخلف أقبلت كلبة عجوز وجراؤها الثلاثة يطاردونه شر مطاردة، تصطاد لنفعها الخاص، وبعدها توارت مجدداً في الغابة. وفي ساعة متأخرة من الأصيل، وهو يستريح في الغابة الكثيفة الواقعة جنوب ولدن، سمع صوت الكلاب بعيداً ناحية فير هيفين لا تزال تطارد الثعلب؛ أتت قُدُماً ونباح الصيد يجعل الغابة برمتها تدوي، نباح يقترب ويقترب، الآن من مَرْج 'ويل ميدو'، الآن من مزرعة بيكر. وقف ساكناً فترة طويلة منصتاً إلى موسيقاها، غاية في العذوبة لأذن الصياد، وعندما تبدى الثعلب فجأة، يقطع المماشي الجليلة بخطوات متمهلة، حجب صوته حفيف متعاطف من أوراق الأشجار، سريع ساكن، يتم جولته، يترك مطارديه بعيداً خلفه؛ قفز على صخرة وسط الغابة ثم جلس منتصباً منصتاً وظهره إلى الصياد. كبحت الشفقة لحظةً ذراع الصياد؛ ولكنها كانت حالة قصيرة الأجل، وبسرعة البرق سدد بندقيته، طاخ! – تدحرج الثعلب على الصخرة ليرقد ميتاً على الأرض. ما فارق الصياد موقعه وهو ينصت إلى كلاب الصيد. لا تزال تتقدم في الطريق، والآن رددت الغابة القريبة عبر كل مماشيها صدى نباحها الشيطاني. في النهاية انطلقت كلبة الصيد العجوز لتتبدى للعيان بخطم متجه إلى الأرض، نهشت الهواء وكأنها ممسوسة، ركضت نحو الصخرة مباشرة؛ ولكنها بعد أن لمحت الثعلب الميت، امتنعت فجأة عن المطاردة وكأنما حل عليها البَكَم من فرط الدهشة وسارت حوله في دوائر والصمت يلفها؛ وصل جراؤها الواحد بعد الآخر،

ومثل أمها حلت عليها الرصانة والصمت بفعل اللغز. أقبل بعدئذ الصياد ووقف وسطها، فحلت اللغز. انتظرت صامتة وهو يسلخ الثعلب ثم تبعت الذيل هنيهة، وفي النهاية حادت عن الطريق ناحية الغابة من جديد. أتى أحد ملاك أراضي بلدة ويستون في ذلك المساء إلى كوخ الصيد في كونكورد كي يسأل عن كلابه، وأخبره أنها كانت تصطاد لنفسها من غابة ويستون طيلة الأسبوع. أخبره صياد كونكورد بما علمه وعرض عليه الجِلْد؛ ولكن الآخر رفضه وغادر. لم يجد كلابه في تلك الليلة غير أنه عرف في اليوم التالي أنها عبرت النهر وآواها أحدهم في منزل مزرعة طيلة الليل، وهناك أطعمها جيداً، وانصرفت في ساعة مبكرة من الصباح.

استطاع الصياد راوي هذه القصة أن يتذكر شخصاً يدعى سام ناتينج، اعتاد ناتينج أن يصطاد الدببة في 'فير هيفين ليدجيز' ويبادل جلودها مقابل شراب الرَّم بقرية كونكورد؛ بل إنه باح إليه بأنه رأى هناك مُوْظاً. كان ناتينج يمتلك كلباً شهيراً لصيد الثعالب يدعى بيرجوين – كان ينطق اسمه بوجاين – اعتاد مساعدي استعارته. وجدت في 'دفتر يومية' من دفاتر تاجر قديم من هذه البلدة – وكان أيضاً رباناً وأمين سجلات البَلدة ووكيل – البند التالي، 18 يناير 3–1742، "جون ميلفين رصيد 1 ثعلب رمادي 3–2–0"؛ لا توجد هنا الآن؛ وفي دفتر الأستاذ، 7 فبراير 1743، رصيد هيزيكايا ستراتون "1/2 جلد عجْل 4–1–0 ½"؛ بالقطع، قطة برية، لأن ستراتون كان رقيباً في الحرب الفرنسية السابقة، ولن ينال رصيداً لصيد طرائد أقل امتيازاً. يُعطى الرصيد لجلد الأيل أيضاً، وكان يباع يومياً. لا يزال واحد من الرجال يحتفظ بقرنيّ الأيل الأخير المقتول في هذه المنطقة المجاورة، وأطلعني آخر على تفاصيل صيد انخرط فيه عمه. كان الصيادون فيما مضى هنا طاقماً مرحاً من عدة أفراد. أتذكر جيداً صياداً نحيلاً – أشبه بنَمْرود الصياد العظيم حفيد نوح – كان يلتقط ورقة شجر على جانب الطريق ويعزف عليها – إن لم تخنني الذاكرة – نغمة أكثر جموحاً ورخامة من أي قرن صيد.

عندما كان القمر ينير في منتصف الليل، قابلت أحياناً كلاب صيد في سبيلي، جاست خلسة في أرجاء الغابة، توارت بعيداً عن طريقي كالخائفة ووقفت ساكنة وسط الشجيرات إلى أن عبرت السبيل.

كانت السناجب والفئران البرية تتنازع لنيل مخزوني من الجوز. قام حول منزلي عدد

لا حصر له من أشجار الصنوبر الراتنجي، تَراوح قطر الواحدة منها من بوصة إلى أربع بوصات، قضمتها الفئران في الشتاء المنصرم - وجدتْه شتاء نرويجياً لأن الثلج امتد طويلاً عميقاً، واضطرت إلى خلط قدر كبير من لحاء الصنوبر بطعامها الآخر. كانت هذه الأشجار حية، ازدهرت على ما يبدو في منتصف الصيف، نَمت العديد منها مسافة قدم مع أن لحاءها نُزِع عنها تماماً؛ ولكنها كانت ميتة كلها بلا استثناء بعد شتاء آخر. من اللافت للنظر أن فأراً واحداً ينبغي إذن أن تُخصَّص له شجرة صنوبر كاملة في وجبة العشاء؛ يقضم حولها بدلاً من الصعود عليها والنزول منها؛ ولكن عله من الضروري لتقليل هذه الأشجار، أشجار تميل إلى النمو بكثافة.

ربطتني بالأرانب الوحشية ألفة بالغة. شيدتْ إحداها وِجَارها أسفل منزلي طيلة الشتاء، لا يفصلني عنها إلا الأرضية، وقد أوقعت فيّ الإجفال كل صباح بمغادرتها السريعة حين أشرع في الحركة - دوم، دوم، دوم، تضرب ألواح الأرضية برأسها في تعجلها. اعتادت أن تأتي إلى بابي في الغسق كي تقضم قشر بطاطس رميته في الخارج، وقد اقترب لونها للغاية من دوائر القشر حتى إنه صعُب عليّ تمييزها وهي ساكنة. أحياناً ما كانت أرنبة جالسة بلا حراك أسفل نافذتي تغيب عن نظري في الشفق ثم يلتقطها طرفي. عندما أفتح بابي في المساء، انصرفت قافزة وهي تَصْأى بصوت حاد. ما أثارت في قربها إلا رثائي. وفي إحدى الأمسيات جلست أرنبة بجوار بابي على بعد خطوتين مني، حاقت بها في البداية رعدة خوفاً مني غير أنها عزفت عن الحركة؛ مخلوق مسكين ضئيل، هزيلة ناتئة العظام، بأذنين مسننتين وأنف حاد، ذيل رفيع وفكان نحيلان. بدا وكأن الطبيعة لم تعد تحوي سلالة الدماء الأنبل، ولكنها وقفت على آخر أصابع أقدامها. بدت عيناها الضخمتان شابتين تفتقران إلى الصحة، تكاد تكون مصابة بالاستسقاء. قطعت خطوة، وعجباً!، ابتعدت منطلقة بسرعة متناهية فوق قشرة الثلج وكأنها على زنبرك مرن، عدلت جسمها وأطرافها ليستقيم طولها رشيقاً، وما لبثت أن وضعت الغابة حاجزاً بيني وبينها - لحمٌ حر بري يؤكد على قوته وكرامة الطبيعة. لم يكن نحولها دون سبب. إنها طبيعتها. (يحسب البعض أنها رشيقة الحركة.)

ما قيمة البلد بدون أرانب وطيور الحجَل؟ إنها من بين أكثر الحيوانات والطيور بساطة وبلدية؛ فصائل عتيقة مهيبة معروفة في العصور القديمة، وكذا في العصور الحديثة؛ من لون الطبيعة نفسها وجوهرها، أقرب حلفائها هي أوراق الشجر والأرض - والواحدة حليفة الأخرى؛ إمّا تطير بأجنحة أو تسير على أقدام. إنه ليس مخلوقاً برياً الذي تراه حين ترى

أرنباً أو أحد طيور الحجَل ينطلق مبتعداً، ما هو إلا مخلوق طبيعي مثلما هو متوقع تماماً من أوراق شجر ترسل حفيفها. لا يزال من المؤكد أن طائر الحجَل والأرنب سينموان بقوة كما هو جدير بمخلوقات بلدية حقيقية تنتمي إلى الأرض أياً كانت الثورات الجارية. لو قُطعَت الغابة، يوفر لها الشُّطأ والشجيرات النابتة المخبأ، وتصبح أكثر عدداً من السابق. بلدٌ لا تغذي الأرنب الوحشي هي حقاً بلد فقيرة. تغص غابتنا بالاثنين، وحول كل مستنقع قد تمد ناظريك إلى أحد طيور الحجَل أو أرنب يسيران، تحدق بهما أسوار من الأغصان وأشراك من شعور الأحصنة يَنصبها بعض رعاة البقر.

16 - البحيرة في الشتاء

استيقظت عقب ليلة شتوية هادئة بانطباع وكأن أحدهم طرح عليّ سؤالاً، وكنت أحاول عبثاً أن أجيبه في نومي، ماذا؟ كيف؟ متى؟ أين؟ ولكن هناك طبيعة بازغة تعيش فيها كل المخلوقات، أرنو إلى نوافذي العريضة بوجه رائق يغلفه الرضا، ولا سؤال على شفاهها. صحوت على سؤال له إجابة، على الطبيعة وضوء النهار. امتد الثلج عميقاً على الأرض منقطاً بأشجار الصنوبر الصغيرة، وبدا أن منحدر التل ذاته - وعليه يقع منزلي - وكأنما يقول، إلى الأمام! لا تطرح الطبيعة أسئلة وأجوبة نطرحها نحن الفانون. لقد عقدتْ عزمها منذ أمد طويل. "أواه أيها الأمير، تتأمل أعيننا بإعجاب وتنقل إلى الروح مشهد الكون الرائع المتنوع. يكشف الليل دون شك جانباً من هذه الخليقة المجيدة؛ ولكن يهل النهار ليحسر لنا النقاب عن ذلك العمل العظيم، بل إنه يمتد من الأرض إلى سهول السماء الصافية".[1]

وبعدها إلى عمل الصباح. آخذ أولاً فأساً ودلواً وأمضي بحثاً عن الماء، إن لم يكن حلماً.

1- من قصيدة ملحمية هندوسية تعود إلى القرن الخامس.

وبعد ليلة باردة تساقطت فيها الثلوج تطلب الأمر عوداً على شكل حرف Y كي أعثر عليه. يصير السائل وسطح البحيرة المرتجف - الحساس للغاية لكل نفَس والعاكس لكل ضوء وظل - صلباً على عمق قدم أو قدم ونصف كل شتاء، وعليه تحمّل أثقل الخيول، قد تكسوها الثلوج على عمق مساو، ولا يمْكن تمييزها عن أي حقل مسطح. ومثلها مثل حيوانات المَرْمُوط في التلال المجاورة ترخي جفنيها وتصير هاجعة لمدة ثلاثة أشهر أو أكثر. وقفت على السهل المكسو بالثلج وكأني في مرعى وسط التلال، شققت سبيلي أولاً عبر قدم من الثلج ثم قدم من الجليد وفتحت نافذة أسفل قدميّ حيث جثوت لأشرب، غضضت بصري إلى قاعة هادئة عامرة بالأسماك، تخللها ضوء خفيف وكأنه عبَر نافذة من زجاج الأرض، بأرضية منيرة من الرمال كما هو الحال صيفاً؛ ساد هناك صفاء خالد معدوم الأمواج كسماء الشفق الكهرمانية، انسجمت مع برودة السكان، بل ومزاجهم. لقد قبع الفردوس أسفل أقدامنا، وكذا فوق رؤوسنا.

أقبل الرجال بَبكَر الصيد وغداء ضئيل في الصباح الباكر وكل شيء قصِم بفعل الصقيع، أنزلوا صنانيرهم الرفيعة عبر الحقل الثلجي ليصطادوا أسماك الكراكيّ والفَرْخ؛ رجال همجيون يتبعون بالغريزة أساليب أخرى ويثقون بسلطات أخرى غير أبناء بلدتهم، وبذهابهم ومجيئهم يرْتقون البلدات معاً في مناطق كانت لتتمزق لولاهم. يجلسون ويأكلون غداءهم في معاطف سميكة فوق أوراق البلوط الجاف على الشاطئ، يعون المعرفة الطبيعية شأنهم شأن مواطنين واعين بالمعرفة الصناعية. لا يستشيرون كتباً على الإطلاق، يَعلمون ويستطيعون أن يسردوا أقل بكثير مما قاموا به. قيل إن ما يمارسوه لم يعرفه الآخرون بعد. ها هو أحدهم يصطاد سمك الكراكيّ مستخدماً سمكة فَرْخ ناضجة كطُعم. تنظر إلى دلوه بعينين مندهشتين، لا تختلف عن بحيرة في الصيف، وكأنما أبقى الصيف محبوساً في البيت أو أدرك أين تقهقر. كيف حصل حقاً على هذه الأسماك في منتصف الشتاء؟ أوه، حاز الديدان من أزناد خشب متعفنة بما أن الأرض متجمدة، وهكذا اصطادها. تشق حياته نفسها طريقاً أعمق في الطبيعة من دراسات يجريها عالم الطبيعة وتتغلغل فيها؛ هو ذاته موضوع لعالم الطبيعة. يرفع الأخير الطحلب واللحاء برقة بسكينه بحثاً عن الحشرات؛ يشق الأول قلب الأزناد بفأسه، فيطير الطحلب واللحاء إلى مسافات بعيدة. ينال قوْته بنزع لحاء الأشجار. لدى مثل ذلك الرجل الحق في صيد السمك، وأود أن أرى الطبيعة تُنفذ خطتها متمثلة في

شخصه. يبتلع سمك الفَرْخ الدويدة، ويبتلع سمك الكراكيّ الفَرْخ، ويبتلع الصيادون سمك الكراكيّ؛ وهكذا يمتلئ كل شق في ميزان الحياة.

عندما كنت أتمشى حول البحيرة في الضباب، اندهشت أحياناً لأسلوب بدائي اتخذه بعض الصيادين الأكثر فظاظة. يضع أغصان من شجرة جار الماء فوق حفر ضيقة في الجليد، تبتعد كل حفرة عن الأخرى أربع قصبات أو خمساً، وتبتعد بمسافة مساوية عن الشاطئ، ثبّتوا طرف الصنارة في عصا لمنع سحبها في الحفرة ومرروا الصنارة الرخوة فوق غصن من أغصان شجرة جار الماء على بعد قدم أو أكثر من الجليد، ثم ربطوا بها ورقة بلوط جافة، وحين سحبوها، أنبأت عن نيلهم للطُعم. تَلوح أشجار جار الماء للعيان عبر السديم في فترات منتظمة أثناء السير حول منتصف البحيرة.

آه، سمك الكراكيّ في بحيرة ولدن! حين أراه راقداً على الجليد أو في بئر شقه الصيادون في الجليد بعد أن صنعوا حفرة صغيرة ليصلوا إلى المياه، تعتريني دوماً الدهشة لجماله النادر وكأنه سمك خرافي، إنه دخيل تماماً على الشوارع، بل والغابة، دخيل كالجزيرة العربية على حياتنا في كونكورد. يتمتع بجمال فائق في منتهى الإبهار يميزه كل التمييز عن أسماك القُدّ والحَدوق شديدة النحول، سمكٌ يدوي شهرته في شوارعنا. ليست الأسماك خضراء كالصنوبر ولا رمادية كالأحجار ولا زرقاء كالسماء؛ ولكن عينيّ ترى فيها – إن أمكن – ألواناً أندر كالزهور والأحجار الكريمة وكأنها لآلئ، نوى أو بلور في شكل حيواني يعيش في مياه ولدن. لا ريب أنها تمثل ولدن كاملة دون نقصان؛ إنها نفسها بحيرات ولدن صغيرة في عالم الأسماك، الوُلدوويون[1]. من المدهش أن الصيادين يصطادونها هنا، ففي هذه الينبوع العميق الرحب، أسفل الأحصنة والعربات المصلصلة وعربات الجليد ذات الرنين المسافرة فوق بحيرة ولدن، يعوم هذا السمك الذهبي الزمردي الرائع. لم يتفق قط أن أبصرت نوعه في أي سوق؛ سوف يكون قبلة كل الأنظار هناك. ينبذ أشباحه المائية بسهولة، وبعدة التواءات متشنجة، مثل فانٍ يُرفَع قبل ساعة موته إلى فراغ السماء الهائل.

بينما رغبت في إنقاذ قاع بحيرة ولدن المفقود منذ زمن، عاينته بعينين متفحصتين قبل تكسر الجليد في مستهل عام 46 ببوصلة وسلسلة وصنارة وحبل لسبر الأعماق. حكت قصص عديدة عن قاع البحيرة أو بالأحرى عدم وجود قاع لها، وكانت من غير ريب

1– الوُلداوية: فرقة بروتستانتية نشأت في جنوب فرنسا بعد عام 1170 بزعامة بيير وُلدو. تخلى وُلدو عن أملاكه ودعا إلى أن يعيش الناس في الفقر كوسيلة من وسائل الكمال.

بلا أساس. من المدهش كم سيعتقد الناس أن البحيرة بلا قاع بدون تجشم مشقة التحقق من القصص. لقد زرت بحيرتين من تلك البحيرات معدومة القاع في نزهة واحدة بهذا الجوار. اعتقد الكثيرون أن ولدن امتدت إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية. رقد البعض مسطحين على الجليد لفترة طويلة، ناظرين إلى أسفل عبر الوسيط الخادع، ربما بعينين دامعتين إلى الصفقة، ولأنه اندفع إلى استنتاج متسرع لخوفه من الإصابة ببرد الصدر، أبصر حفراً شاسعة "قد يُساق فيها حِمْل من التبن" لو أن هناك من يسوقه، منبع لا شك فيه لأسطُقس – نهر الجحيم الرئيسي عند الإغريق – ومدخل يفضي إلى مناطق شيطانية من هذه الأنحاء. ذهب آخرون من القرية بحمولة تُقدَّر بستة وخمسين رطلاً وعربة محملة بحبل سُمكه بوصة، ولكنهم فشلوا في العثور على القاع؛ لأن بينما استقر ستة وخمسون رطلاً بجوار الطريق، أرخوا الحبل في محاولة لا جدوى منها لسبر غور قدرتهم – قدرة لا حد لها حقاً – على العجب. ولكن بوسعي أن أؤكد لقرائي أن لولدن قاعاً كتيماً على نحو معقول على عمق معقول – وإن كان غير معتاد. سبرت غورها بسهولة بحبل من القنب وحَجَر يزن نحو رطل ونصف، وسعني أن أحدد بدقة متى ترك الحجر القاع بأن سحبت بقوة أكبر قبل أن تجري المياه تحته لتساعدني. بلغ أعظم عمق 102 قدم بالضبط؛ وقد نضيف خمس أقدام ارتفعت منذ حينها ليصبح العمق 107. إنه عمق هائل مقارنةً بمنطقة متناهية الصغر؛ ومع ذلك لا يُمكن أن يستثني الخيال بوصة واحدة. ماذا لو أن كل البحيرات ضحلة؟ ألن تؤثر على عقول الرجال؟ يتولاني الامتنان لأن هذه البحيرة خُلقت عميقة نقية لخدمة رمز من الرموز. بينما يؤمن الرجال بالمطلق، سوف يعتقد آخرون أن بعض البحيرات لا قرار لها.

حسب أحد أصحاب المصانع أن العمق الذي توصلت إليه لا يمكن أن يكون صحيحاً، فقد قدَّر من خلال معرفته بالسدود أن الرمل لن يَرقد في زاوية منحدرة إلى هذه الدرجة. ولكن أعمق البحيرات ليست غاية في العمق بالنسبة إلى مناطقها كما يحسب أغلب الناس، ولو جفَّت، لن تترك أودية بارزة غير معتادة. ليست كالأكواب بين التلال؛ لأنه هذه البحيرات – وهي عميقة على نحو غير مألوف مقارنةً بمناطقها – تبدو في قطاع عمودي عبر مركزها ليست أعمق من طبق مسطح. سوف تترك أغلب البحيرات وهي فارغة مرجاً ليس أكثر تجويفاً مما نرى في العادة. كان ويليام جيلبين[1] – الباهر في كل ما يخص المشاهد

1- ويليام جيلبين: (1724 – 1804) عالم طبيعة إنجليزي كتب بصورة موسعة عن المشاهد الطبيعية في إنجلترا.

الطبيعية، والمصيب جداً في أغلب الأوقات – قد وقف عن منبع بحيرة فاين في اسكتلندا ووصفها بأنها "خليج من مياه مملحة، عمقها ستون قامة أو سبعون، وعرضها أربعة أميال،" وطولها خمسون ميلاً تقريباً، تحيط بها الجبال. ويلاحظ أننا "لو استطعنا أن نراها فور ارتطام الطوفان أو أياً كان الاضطراب العنيف في الطبيعة المتسبب فيها قبل تدفق المياه، بدت ولا بد كالهوة المروعة!

"عالياً جداً ارتفعت التلال المتفخة، منخفضاً جداً
غاص قاع بجوف عريضاً عميقاً،
قاع فسيح من المياه".[1]

ولكننا لو استخدمنا القطر الأقصر لبحيرة فاين في تطبيق هذه النسب على ولدن التي تبدو بالفعل كما رأينا ممتدة على قطاع عمودي فقط كطبق مسطح، سوق تَظهر ضحالة ضحالة تفوق الأولى أربعة أضعاف. ها هي نهاية رعب متزايد تسببت فيها هوة بحيرة فاين عند تفريغها. لا شك أن العديد من الأودية المبتسمة بحقول الذرة الممتدة تَشغل بالضبط مثل ذلك "الشق المروع،" ومنها تراجعت المياه مع أنها تتطلب بصيرة الجيولوجي وبصره البعيد كي يُقنع السكان الغافلين بهذه الحقيقة. غالباً ما تلاحظ أي عين محبة للبحث شواطئ بحيرة قديمة في تلال الأفق منخفضة، ولا ارتفاع تالٍ للسهول كان ضرورياً لإخفاء تاريخها. ولكنه من الأسهل – كما يعلم العاملون على الطرق العامة – إيجاد الأغوار من خلال البرك بعد وابل من الأمطار. تغوص أعمق وتحلق أعلى مما تذهب إليه الطبيعة. وعليه، الأرجح أننا سوف نجد أن عمق المحيط طفيفاً للغاية مقارنة بعرضه.

بينما كنت أسبر عمق الجليد، وسعني أن أحدد شكل القاع بدقة أكبر مما أمكن لو عاينت موانئ لا تتجمد، وقد تولتني الدهشة لتناسقه العام. ثمة في الجزء الأعمق عدة آكرات أكثر استواء من أي حقل تقريباً مُعَرَّض للشمس والرياح والحرث. فعلى سبيل المثال، بمحاذاة خط اخترته على نحو اعتباطي، لم يختلف العمق أكثر من قدم واحدة على طول ثلاثين قصبة؛ وبوجه عام، استطعت بالقرب من المنتصف أن أحسب الاختلافات عند كل مئة قدم في أي اتجاه أماماً في نطاق ثلاث بوصات أو أربع. يعتاد البعض التحدث عن الحفر العميقة الخطرة الموجودة حتى في البحيرات الرملية الهادئة مثل هذه البحيرة، ولكن المياه تعمل في هذه

1– من ديوان "الفردوس المفقود" للكاتب الإنجليزي جون ميلتون (1608 – 1674).

الظروف على تسوية كل التباينات في سطح القاع. كان انتظام القاع ومطابقته للشواطئ وسلسلة التلال المجاورة مثالياً كل المثالية حتى إن أي رغْن بعيد أظهر نفسه في أعمق المواضع عبر البحيرة، وأمكن تحديد اتجاهه بملاحظة الشاطئ المقابل. باتت الأرض الداخلة في البحر حاجزاً وتلاً صغيراً منبسطاً ووادياً وقناة وممراً ضيقاً عميق المياه.

عندما رسمت خريطة للبحيرة بمقياس رَسْم يبلغ عشر قصبات في بوصة، وسجلت الأعماق المسبورة، وهي أكثر من مئة في البحيرة كلها، انتبهت إلى مصادفة استثنائية. بعد أن لاحظت أن الرقم المشير إلى أكثر درجات العمق كان على ما يبدو في منتصف الخريطة، وضعت مسطرة على الخريطة بالطول ثم بالعرض، ووجدت لدهشتي أن خط المسافة الأطول تقاطع مع خط المسافة الأعرض عند نقطة أعمق القيعان بالضبط، مع أن منتصف البحيرة مسطح جداً، وحدود البحيرة غير منتظمة على الإطلاق، وقد توصلت إلى أقصى الطول والعرض عن طريق قياس الخلجان الصغيرة؛ وقلت لنفسي، مَن يدري أن هذه الإشارة الخفية سوف تفضي إلى أعمق جزء في المحيط كما هو حال بحيرة أو بركة؟ أليست هذه هي القاعدة أيضاً في أعالي الجبال حين نعتبرها المقابل للأودية؟ نعلم أن أضيق أجزاء التل ليست هي الأعلى.

من بين خمسة خلجان، لاحظت أن ثلاثة منها - أو كل الخلجان التي سبرت أغوارها - تضم حاجزاً على الجانب الآخر من مصباتها ومياه أعمق في الداخل، وعليه مال الجوْن إلى أن يصبح امتداداً مائياً داخل الأرض، لا أفقياً فقط وإنما عمودياً، ومال إلى تشكيل حوض أو بحيرة مستقلة، وقد أبرز اتجاه الأرضين الداخلين في البحر سبيل الحاجز. ولدى كل مرفأ على ساحل البحر حاجز في المدخل أيضاً. ومع وضع التناسب في الاعتبار - فمصب الجوْن أعرض مقارنة بطوله - كانت المياه فوق الحاجز أعمق مقارنة بمياه الحوض. ومع حساب إذن طول الجوْن والعرض وسمات الشاطئ المحيط، سيكون لديك عوامل كافية تقريباً لتمييز صيغة لكل الحالات.

ولكي ترى إلى أي مدى أستطيع أن أخمن في هذه التجربة أعمق نقاط ولدن، لاحظت حدود السطح وسمات الشواطئ فقط، ووضعت خطة لبحيرة وايت، وتحوي نحو واحد وأربعين آكراً، ومثلها مثل هذه البحيرة، لا تضم أي جزر أو أي مخارج ومداخل مرئية؛ وبينما وقع خط المسافة الأطول قريباً جداً من خط المسافة الأقصر، حيث اقتربت أرض داخلة في

البحر من أخرى مقابلة لها وتراجع خليجان متقابلان، غامرت بتحديد نقطة على مسافة قصيرة من الخط الأخير، ولكني وجدت على خط المسافة الأطول كخط أعمق القيعان أن الجزء الأعمق في نطاق مئة قدم من هذه النقطة لا يزال أبعد من اتجاه ملت إليه، وكان أعمق بقدم واحدة فقط، أي ستين قدماً. لا ريب أن تياراً جارياً أو جزيرة في البحيرة سوف تجعل المشكلة أعقد.

لو أحطنا علماً بكل قوانين الطبيعة، سوف نحتاج إلى حقيقة واحدة فقط أو وصف لظاهرة واقعية واحدة كي نستنتج كل النتائج الدقيقة في تلك المرحلة. لا نعلم الآن إلا بضعة قوانين، ونتيجتنا باطلة، لا بسبب أي تشوش في الطبيعة أو شذوذ بالطبع، وإنما بسبب جهلنا بعوامل حساب أساسية. غالباً ما تنحصر أفكارنا عن القانون والتوافق في هذه الأمثلة المكتشَفة؛ ولكن التوافق الناتج عن عدد أكبر بكثير من قوانين متعارضة في الظاهر – ولكنها في الحقيقة متزامنة، وهو ما لم نكتشفه – لا يزال أروع. تماثل القوانين الدقيقة وجهات نظرنا، مثلها مثل حدود جبل يبصرها المسافر، تختلف مع كل خطوة وتتسم بعدد لا نهائي من الأشكال، مع أنها تتخذ ولا شك شكلاً واحداً فقط لا غير. بل إن شقها أو حفرها لا يمكن المرء من استيعابها كلية.

ما لاحظته في البحيرة ليس أقل صدقاً حين يتعلق الأمر بالأخلاق. إنه قانون المتوسط. لا تهدينا مثل تلك القاعدة الخاصة بالقطرين إلى الشمس في الكون والقلب في الإنسان فقط، وإنما ترسم خطوطاً عبر طول مجموع سلوكيات الإنسان اليومية الدقيقة وموجات الحياة إلى أجوانه ومداخله، وحيث تتقاطع، تتشكل قمة شخصيته وعمقها. ربما لا نحتاج إلا إلى معرفة كيف تتجه شواطئه وبلده المجاورة أو ظروفه كي نستنتج عمقه وقاعه المحتجب. لو تحيط به ظروف كما الجبال، شاطئ يليق بالمحارب أخيل، تلقي قممه ظلاً على صدره وتنعكس عليه، فهي توحي بعمق متطابق في نفسه. ولكن شاطئاً خفيضاً ممهداً يثبت سطحيته على ذلك الجانب. ثمة في أجسادنا حاجب جرئ ناتئ ينحدر إلى عمق متطابق في الفكر ويشير إليه. هناك أيضاً حاجز أمام مدخل كل جون من أجواننا أو سطح مائل مُعَيّن؛ كل منها مرفأنا في موسم من المواسم، وفيه نُحتجَز ونحاط جزئياً بالمياه. لا تخضع هذه الأسطح المائلة في الغالب للنزوات، وإنما يتحدد شكلها وحجمها واتجاهها بنتوءات الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر، محاور الارتفاع العتيقة. عندما يزداد هذا الحاجز تدريجياً

بفعل العواصف والمد والجزر والتيارات أو تنخفض المياه، وعليه تصل إلى السطح، وهو ما لم يكن في البداية إلا ميلاً في الشاطئ، تصبح الفكرة المضمَرة بحيرة فردية منفصلة عن المحيط، تصون الفكرة أحوالها، قد تتغير من المالح إلى العذب لتصير بحراً عذباً، بحراً ميتاً أو مستنقعاً. عند مجيء كل فرد إلى هذه الحياة، ألا نفترض أن مثل هذا الحاجز ارتفع على السطح في مكان ما؟ إنه أمر صحيح، إننا ملاحون فاشلون حتى إن أفكارنا في مجملها تقف من حين لآخر عند ساحل لا مرفأ له، تلم فحسب بمنعطفات الخلجات الشعرية أو تتجه إلى موانئ الدخول العامة، وتَدخل أرصفة العلم الجافة، وهناك تتجهز مرة ثانية ليس إلا من أجل هذا العالَم، ولا تتزامن معها تيارات طبيعية لإسباغ الفردية عليها.

أمّا مداخل ولدن ومخارجها، لم أكتشف أية مداخل أو مخارج سوى أمطار وثلوج ومياه متبخرة مع أننا قد نعثر باستخدام ترمومتر وحبل للقياس على مثل تلك المداخل والمخارج لأن موقع تدفق المياه إلى البحيرة سيَكون على الأرجح أبرد في الصيف وأدفأ في الشتاء. عندما كان بائعو الثلوج يشتغلون هنا في عاميّ 46 و47، رفض يوماً مكومو الثلج هناك بعض الكتل المتراصة المرسَلة إلى الشاطئ لأنها لم تكن سميكة بما يكفي لوضعها جنباً إلى جنب مع بقية الكتل؛ وعليه اكتشف قاطعو الثلج أن الجليد الممتد فوق إحدى المساحات الصغيرة أرفع بمقدار بوصتين أو ثلاث من أي مكان آخر مما دفعهم إلى الاعتقاد بوجود مدخل هناك. أروني أيضاً في موقع آخر ما ظنوا أنه "حفرة ترشيح"، ترشحت عبرها البحيرة أسفل أحد التلال إلى مرج مجاور مما دفعني إلى كتلة متراصة من الجليد حتى أتمكن من إبصارها. كانت تجويفاً صغيراً أسفل عشر أقدام من المياه، ولكن بمقدوري أن أضمن ألا تحتاج البحيرة إلى سبيكة لحام إلى أن يجدوا تسرباً أسوأ من ذلك التسرب. اقترح أحدهم أن لو 'حفرة الترشيح' هذه موجودة، قد نبرهن على اتصالها بالمرج – لو أنه اتصال واقعي حقاً – عن طريق توصيل بعض البودرة أو النشارة الملونة بفم الحفرة ثم وضع مصفاة فوق ينبوع المرج ستلتقط بعضاً من الذرات المحمولة عبر التيار.

بينما كنت أعاين الموقع، تموج الجليد – وسمكة ست عشرة بوصة – بفعل رياح خفيفة كما يتموج الماء. من المعروف أن ميزان البنّائين لا يمكن استخدامه على الجليد. بلغ أعظم التموجات بعد مسافة قصبة من الشاطئ – عندما تلاحظها باستخدام ميزان البنّائين على أرض متجهة إلى مقياس مدرَّج فوق الجليد – ثلاثة أرباع بوصة، وقد ظننت أن الجليد بدا متصلاً بالشاطئ بإحكام. الأرجح أنه كان أعظم في المنتصف. مَن العالِم، لو أن أدواتنا دقيقة

بما يكفي قد نتبين تموجاً في قشرة الأرض؟ عندما كانت قائمتان من قوائم ميزان البنّائين على الشاطئ والقائمة الثالثة على الجليد، أحدث ارتفاع الجليد أو انخفاضه بقدر يكاد يكون متناهي الصغر فرقاً بلغ عدة أقدام في شجرة على الجانب المقابل من ولدن. عندما بدأت في شق الحفر لسبر أعماق البحيرة، كان هناك ثلاث بوصات أو أربع من المياه على الجليد أسفل ثلوج عميقة أخفضتها إلى أسفل؛ ولكن المياه بدأت على الفور تجري في هذه الحفر ولم تنفك تجري لمدة يومين في تيارات عميقة نحتت الجليد من كل جانب وساهمت بقدر أساسي – وإن لم يكن وحيداً – في تجفيف سطح البحيرة؛ فحين جرَت المياه في الحفر، رفعت الجليد وجعلته يطفو. كان الأمر يشبه إحداث ثقب في قاع سفينة للسماح بإخراج المياه. عندما تجمدت تلك الحفر وهطلت الأمطار، شكل تجمد جديد في النهاية جليداً أملس مرة أخرى في كل مكان، اتخذ مَظْهَراً مُرَقَّشاً جميلاً من الداخل بأشكال داكنة ماثلت إلى حد ما شبكة العنكبوت، ما قد تسميه وروداً جليدية، أحدثتها قنوات أبلتها المياه وهي تتدفق نحو المنتصف من كل الجوانب. أحياناً عندما كان الجليد يتغطى أيضاً ببرك صغيرة ضحلة، رأيت ظلاً مزدوجاً لنفسي، واحداً يقف على قمة الآخر، واحداً على الجليد، والآخر على الأشجار أو جانب التل.

ومع أنه شهر يناير البارد، والثلج والجليد سميكان لا يفتقران إلى الصلابة، يأتي مالك الأرض الحصيف من القرية كي يحصل على الجليد لتبريد شرابه الصيفي؛ إنه من الحكمة المبهرة – بل والمثيرة للشفقة – أن يتوقع حرارة يوليو وظمأه الآن في يناير، يرتدي معطفاً سميكاً وقفازين! على حين لا يتخذ الحيْطَة في العديد والعديد من المواقف. لعله لا يدخر في هذا العالَم أية كنوز ستُبرد شرابه الصيفي في العالَم التالي. يقطع البحيرة الصلبة وينشرها بالمنشار، يزيل السقف عن منزل الأسماك، ينقل بعربته عامل وجودهم ذاته وهواءهم، يُثَبّته تثبيتاً محكماً بسلاسل ويكومه كالحطب المكدّس عبر هواء الشتاء المواتي إلى أقباء شتوية كي يضع هناك أساس الصيف. يبدو كسماء صافية صلبة وهو يجرجرها بعيداً عبر الشوارع. إن قاطعي الخشب سلالة مبتهجة، عامرين بالمرح والمزاح، وعندما مضيت بينهم، اعتادوا أن يدعوني إلى نشر حفرة معهم.

أتى مئة رجل أصلهم من أقصى الشمال في شتاء 46 – 47، انقضوا على بحيرتنا في إحدى الأصباح وعرباتهم تضم حمولات عديدة من أدوات زراعة صعبة المراس لثقلها وضخامتها: مزالج ومحاريث وعربات لبذر الحبوب وسكاكين لاقتلاع العشب ومجارف

ومناشير ومِدَمَّات لتسوية الأرض، تسلح كل رجل بعصا راحة مستدقة الطرفين، لم تَذكر مثيلها جريدتا "مُزارع نيو إنجلاند" أو "الحارث". لم أعلم إذا ما كانوا قد أتوا لبذر حبوب محصول الجاوْدار الشتوي أو نوع آخر من الحبوب قدم مؤخراً من أيرلندا. ولأني لم أر أي سماد، قدَّرت أنهم يعتزمون المرور بخفة على الأرض كما فعلت من قبل، معتقدين أن التربة عميقة ارتاحت مدة كافية بدون زرع. قالوا إن نبيلاً من المزارعين – يقف وراء الكواليس – أراد أن يضاعف أمواله التي بلغت بالفعل كما فهمت منهم نصف مليون؛ ولكن لكي يغطي كل دولار من دولاراته بدولار آخر، خلع الغطاء الوحيد – لا الجلد ذاته – عن بحيرة ولدن في منتصف شتاء قارس. انخرطوا على الفور في العمل، حرثوا الأرض، نقلوا العربات، قلَّبوا التربة، حفروا الأثلام، بنظام يستثير الإعجاب، وكأنهم مصممون على تحويلها إلى مزرعة نموذجية، ولكني عندما كنت أحد بصري لأرى نوعية الحبوب التي أسقطوها في الأثلام، طفقت فجأة مجموعة من الأشخاص بجواري ترفع التراب البكر نفسه، برجة غريبة، وصولاً إلى الرمل أو بالأحرى المياه – لأنها كانت تربة في منتهى الرطوبة، الحق أن اليابسة كلها كانت في منتهى الرطوبة – ثم سحبوها على مزاليج، خمنت بعدها أنهم يقطعون ولا بد قطعة الخثّ[1] في مستنقع. وهكذا أتوا وانصرفوا كل يوم، ومعهم صرخة عجيبة من القاطرة، من وإلى موقع ما من مناطق القطب الشمالي، كما بدا لي، شأن سرب من الطيور الثلجية بالقطب الشمالي. ولكن أحياناً ما تنتقم هندية ولدن، هندية حمراء، إذ ينزلق رجل مستأجَر يسير خلف طاقمه في أحد شقوق الأرض صوب الجحيم، ومَن كان قبلها غاية في الشجاعة أصبح فجأة تُسع رَجل، تخلى تقريباً عن حرارته الحيوانية وساورته السعادة للالتجاء إلى منزلي وأقر بأن للموقد ميزة؛ أو انتزعت أحياناً التربة المتجمدة قطعة من الصلب عن شفرة المحراث أو انحشر محراث في الثلم واضطروا إلى قطعه.

وتوخياً للدقة والأمانة أتى مئة أيرلندي ومعهم مشاهدون من أهل نيو إنجلاند، أتوا من مدينة كامبريدج يومياً للحصول على الجليد. قسموه إلى قطع متراصة باستخدام مناهج معروفة تماماً لا تحتاج إلى وصف، وبعد أن نقلوا القطع إلى الشاطئ بالمزاليج، نقلوها بسرعة إلى منصة جليدية، رفعوها بكلاليب حديدية وبكرة لرفع الأثقال وحبال سميكة، نهضت بها الأحصنة لتضعها على كومة في ثبات متناهٍ وكأنما تنقل العديد من براميل الدقيق، وهناك

1- الخثّ: نسيج نباتيّ نصف متفحّم يتكوّن بتحلّل النباتات تحلّلاً جزئياً في الماء.

وُضعَت على نحو متساو جنباً على جنب، الصف فوق الصف، وكأنها شكلت الأساس الصلب لمَسَلَّة مصمَّمة لخرق السحب. أخبروني أنهم بمقدورهم في يوم حافل استخراج ألف طن، وهو ما يساوي تقريباً حصيلة أكر واحد. ظهرت في الجليد أخاديد عميقة وحفر الطريق – كما في اليابسة – بفعل مرور المزاليج فوق الطريق نفسه، وأكل الأحصنة الشوفان دوماً من قطع الجليد المجوفة مثل الدلاء. وهكذا كدسوا قطع الجليد في الهواء الطلق في كومة ارتفع أحد جوانبها خمس وثلاثين قدماً، كومة بلغت ست قصبات مربعة أو سبعاً، وضعوا التبن بين الطبقات الخارجية لمنع دخول الهواء؛ لأن الرياح – مع أن برودتها لا تشتد أبداً – عندما تجد ممراً، سوف تبلي فجوات كبيرة تاركة دعائم صغيرة فحسب هنا وهناك، وفي النهاية ينهار الركام. بدا في البداية كقلعة زرقاء فسيحة أو مَثْوَى الشّهداء؛ ولكن عندما طفقوا يدسون تبن المرج الخشن في الشقوق، وأمسى مغطى بالصقيع والكتل الجليدية، بدا كحطام مهيب قديم مكسو بالطحالب، مبنى من رخام بلون ضارب إلى الأزرق السماوي، مَسكن الشتاء، رجل عجوز نراه في الروزنامة – كوخه، وكأنه يخطط لقضاء الصيف معنا. حسبوا أن خمسة وعشرين في المئة من هذا الجليد لن يصل إلى مقصده، وأن اثنتين أو ثلاثاً في المئة سوف يضيع في العربات. ومع ذلك، ثمة قَدَر مختلف عن المعتزَم ينتظر مقداراً كبيراً من هذا الركام لأنه لم يصل قط إلى السوق سواء لأنهم وجدوا أن الجليد لم يحتفظ بحالته كما هو المتوقع، إذ حوى هواء أكثر من المعتاد أو لسبب ما آخر. وفي النهاية تغطى هذا الركام – المتكوّن في شتاء 46 – 47، وخمن المخمنون أنه حوى عشرة آلاف طن – بالتبن والألواح الخشبية؛ ومع أنه بقي في يوليو التالي عارياً من أي سقف، وحمل الرجال قدراً منه على حين لبث الباقي معرضاً للشمس، صمد في ذلك الصيف وفي الشتاء التالي دون أن يَشهد ذوباناً كلياً حتى سبتمبر 1848. وهكذا استعادت البحيرة القدر الأكبر منه.

حين تلقي نظرة إلى جليد ولدن عن قرب، تجده ملوناً بدرجة مائلة إلى الاخضرار مثله مثل المياه، ولكنه يتخضب من بعيد بلون أزرق بديع، وبوسعك أن تفرق بسهولة على بعد ربع ميل من الموقع بين لونه ولون جليد النهر الأبيض أو جليد بعض البحيرات الضارب فقط إلى الاخضرار. أحياناً ما تنزلق إحدى هذه الكتل الهائلة من مزلجة بائع الثلج إلى شارع القرية وتَرقد هناك أسبوعاً شأنها شأن الزمرد، قطعة تلفت أنظار كل السابلة. لاحظت أن جزءاً من ولدن – في حالته السائلة أخضر اللون – سوف يتراءى في الغالب بلون أزرق من المنظور نفسه عند التجمد. وعليه سوف تزخر التجاويف حول البحيرة من وقت لآخر في الشتاء

بمياه ضاربة إلى الاخضرار، مياه تشبه إلى حد ما مياه البحيرة ذاتها، ولكنها تنقلب في اليوم التالي زرقاء متجمدة. لعل لون المياه والجليد الأزرق يعود إلى ما تحويه من ضوء وهواء، وكلما كان شفافاً، كلما تزايدت درجة الزرقة. إن الجليد موضوع مثير حقاً للتأمل. باحوا إليّ بأن لديهم بعضاً منه في مخازن الجليد ببحيرة فريش،[1] عمره خمس سنوات وفي مثل جودته في أيامه الأولى. لَمِ يتعفن دلو المياه بسرعة على حين يظل دلو الجليد عذباً إلى الأبد؟ وقد قيل عموماً إنه الفرق بين العواطف والعقل.

وعليه رميت بصري من نافذتي لمدة ستة عشر يوماً إلى مئة رجل يعملون كالمزارعين المنهمكين، معهم ثيران وأحصنة وكل أدوات الزراعة على ما يبدو، نبصر مثل تلك الصورة في أول صفحة من دليل الزراعة السنوي؛ ومتى أشرفتُ على المشهد، استحضرت حكاية طائر القُنْبَرَة والحاصدين الخرافية أو قصة باذر الحبوب الرمزية، وغيرها من القصص. غادروا الآن جميعاً، وفي خلال ما يربو ربما على ثلاثين يوماً، سوف أطل من النافذة نفسها إلى مياه ولدن النقية الخضراء المزرقة، تعكس السحب والأشجار وترسل أبخرتها في حال من العزلة، ولن تتبدى أي آثار تنم عن أن رَجلاً وقف أبداً هناك. قد أسمع ضحكة طائر غوّاص سَامك منزوٍ وهو يغطس ويسوي ريشه أو أسدد طرفي إلى صائد سمك وحيد في قاربه شأن ورقة شجر طافية، يشاهد شكله منعكساً على الأمواج حيث كدح مؤخراً مئة رجل في ثقة واطمئنان.

وعليه يبدو أن السكان المنزعجين من القيظ في تشارلستون ونيو أورلينز ومادراس وبومباي وكالكتا يحتسون مياهاً من ينبوعي. أحمم عقلي صباحاً في فلسفة مذهلة تتناول نشأة الكون وتتخلل القصيدة السَنْسكريتية البهاغافاد غيتا – أناشيد الرب – بما أن سنوات تأليفها من قبل الآلهة قد انصرمت، يبدو عالمنا الحديث وأدبه ضعيفاً وتافهاً بالمقارنة بها؛ يخامرني الشك لو أن تلك الفلسفة لا تشير إلى حالة سابقة من الوجود، سموها غاية في البعد عن مفاهيمنا. أضع الكتاب وأقصد ينبوع المياه، وعجباً! هناك ألتقي بخادم البراهمان[2]، قس البَرَهْميّ[3] وفشنو[4] وإندرا[5] الذي لا يزال يجلس في معبده على نهر الغانج يطالع

1– بحيرة فريش: بحيرة قريبة من مدينة كامبردج، ولا تزال تستخدم كمصدر للجليد.
2– البراهمان: الإله الأسمى عند الهندوس، وهو غير شخصي ومطلق غير أنه حقيقة روحية لا سبيل لمعرفتها.
3– البَرَهْميّ: أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس.
4– فشنو: ثاني أقانيم الثالوث الهندوسي.
5– إندرا: إله الهواء في لاهوت كتب الهندوس الدينية، الفيدا.

كتب الهندوس الدينية، الفيدا، أو يتأمل جذر شجرة من الأشجار ومعه كسرة من الخبز اليابس وإبريق من الماء. أقابل خادمه آتياً لسحب بعض الماء من أجل سيده، يحتك دلوي بدلوه في الينبوع نفسه. تمتزج مياه ولدن النقية بمياه الغانج المقدسة. ومع رياح مواتية تنساق مع الهواء عبر موقع جزر أطْلَنْتِس[1] الخرافية وحارسات التفاح الذهبي[2]، تهيئ رحلة في البحر من أجل الملاح المستكشف القَرْطاجيّ هانو، تطفو بجوار جزيرة تيرنات وجزيرة تيدور الإندونيسيتين ومصب الخليج الفارسي، وبعدها تذوب من جراء عواطف استوائية في المحيط الهندي، ثم تحط في موانئ لم يسمع عنها إلا الإسكندر الأكبر.

1– أطْلَنْتِس: جزيرة خرافية في المحيط الأطلسي، غربي جبل طارق، زعموا أنها غارت في أعماق المحيط.
2– حارسات التفاح الذهبي: الحوريات الحارسات بمعاونة تنّين حديقةً تنمو فيها شجرات تفاح ذهبي في الميثولوجيا الإغريقية.

17 – الربيع

يتسبب في المعتاد شق قطع أرض ضخمة على يد قاطعي الجليد في ذوبان البحيرات في وقت مبكر؛ فالمياه بعد أن تثيرها الرياح تنحت الجليد المحيط حتى في الجو البارد. ولكن الأثر على بحيرة ولدن كان مختلفاً في ذلك العام لأنها سرعان ما اكتست برداء سميك جديد حل محل القديم. لا تذوب هذه البحيرة قط بمثل سرعة ذوبان البحيرات الأخرى في هذه المنطقة لعمقها الأكبر وافتقارها إلى تيار يخترقها لإذابة الثلج أو نحته. لم أرها خالية قط من الجليد أثناء الشتاء، ولا أستثني شتاء 52 وشتاء 53، فقد وضعا البحيرات في محنة عنيفة أيما عنف. يتكسر الجليد في المعتاد في مستهل إبريل بعد أسبوع أو عشرة أيام من بحيرتيّ فلينت وفير هيفن، تبدأ تذوب من الجانب الشمالي والأجزاء الضحلة حيث بدأت تتجمد. تدل بصورة أفضل من أي مياه في هذا الجوار على تقدم الموسم المطلق، إذ أنها أقل تأثراً بتغيرات الحرارة العابرة. قد يؤخر برد شديد على مدار بضعة أيام في مارس ذوبان البحيرتين السابقتين بينما تزداد درجة حرارة ولدن بلا انقطاع تقريباً. عند إقحام ترمومتر في منتصف

بحيرة والدن في 16 مارس 1847، أشار إلى 32 أو نقطة التجمد؛ وبالقرب من الشاطئ أشار إلى 33؛ وفي منتصف بحيرة فلينت من اليوم نفسه أشار إلى 32 ½؛ وعلى بعد اثنتيّ عشرة قصبة من الشاطئ أشار إلى 36 في المياه الضحلة أسفل جليد سمكه قدم. يبين هذا الفارق البالغ ثلاث درجات ونصف بين حرارة المياه العميقة والمياه الضحلة في البحيرة الأخيرة، وتبين حقيقة مفداها أن جانباً كبيراً منها ضحل بالمقارنة سبب ذوبانها على نحو أسرع من بحيرة والدن. كان الجليد في المنطقة الأكثر ضحالة خلال هذا الوقت أرفع من المنتصف بعدة بوصات. ففي منتصف الشتاء كان المنتصف هو الأكثر دفئاً والجليد هو الأرفع هناك. وعليه، كل من خاض أيضاً في شواطئ البحيرة صيفاً لاحظ بالقطع أن المياه أكثر دفئاً بالقرب من الشاطئ – ويبلغ عمقها ثلاث بوصات أو أربعاً فحسب – من المياه على بعد مسافة بسيطة من الخارج، ولاحظ أن المياه أدفأ على السطح – حيث المياه العميقة – من المياه القريبة من القاع. لا يقتصر تأثير الشمس خلال فصل الربيع على حرارة الهواء والأرض المتزايدة، وإنما تخترق حرارتها جليداً سمكه قدم أو أكثر، وتنعكس على القاع في المياه الضحلة، وتدفئ كذلك المياه وتذيب الجانب السفلي من الجليد، وفي الوقت نفسه تذيب سطحه بصورة مباشرة، فتجعله غير مستوٍ متسببة في تمديد فقاعات هوائية إلى أعلى وإلى أسفل إلى أن تتبدى بأكملها مثل قرص العسل، وفي النهاية تختفي فجأة خلال وابل واحد من المطر أثناء الربيع. يتسم الجليد بسطح مُحبَّب شأن الخشب، وعندما تبدأ الكتلة تتعفن أو "تتقرص" أي تتخذ شكل قرص العسل، أياً كانت موقعها، تتعامد تجاويف الهواء مع ما كان سطح المياه. عندما يوجد صخرة أو زند خشبي مرتفعين بالقرب من السطح، يصبح الجليد أرفع كثيراً، وكثيراً ما يذوب تماماً بفعل هذه الحرارة المنعكسة؛ وقد قيل لي إن في تجربة كامبريدج لتجميد المياه ببحيرة ضحلة تكتنفها ألواح الخشب – مع أن الهواء البارد دار أسفلها، وعليه بلَغ جانبيها – وازن انعكاس الشمس من القاع هذه الميزة. عندما يذيب مطر دافئ في منتصف الشتاء الجليد غير الشفاف في والدن ويترك في المنتصف جليداً غامقاً صلباً أو جليداً شفافاً، سيتبقى شريط من جليد أبيض متعفن وإن كان أسمك حول الشواطئ، عرضه قصبة أو أكثر من قصبة، تسببت فيه هذه الحرارة المنعكسة. وكما قلت في السابق، تعمل أيضاً الفقاعات نفسها داخل الجليد كعدسات حارقة لإذابة الجليد في الأسفل.

تقع ظاهرة العام يومياً في إحدى البحيرات على نطاق صغير. المعتاد أن تدفأ المياه الضحلة على نحو أسرع من المياه العميقة كل صباح مع أنها لا تصل إلى درجة كبيرة من الدفء،

وكل مساء تَبرد على نحو أسرع حتى بزوغ الصباح. إن اليوم صورة مصغرة للعام. الليل هو الشتاء، الصباح والمساء هما الربيع والخريف، والظهر هو الصيف. تشير طقطقة الجليد وأزيزه إلى تغير في درجة الحرارة. ذهبت في أحد الأصباح الصافية عقب ليلة باردة – 24 فبراير 1850 – إلى بحيرة فلينت لقضاء اليوم هناك، فلاحظت بعين الدهشة أني عندما ضربت الجليد برأس الفأس، دوى صداه وكأنه جرس ذاع صوته على بعد قصبات عديدة أو كأني ضربت جلدة طبلة مشدودة. أخذت البحيرة تُطلق أزيزها بعد ساعة من شروق الشمس عندما شعرتْ بأثر أشعة الشمس المائلة عليها من فوق التلال؛ مدت نفسها وتثاءبت كرجل يستيقظ على جلبة تتزايد تدريجياً، جلبة تواصلت ثلاث ساعات أو أربعاً. أخذت قَيْلُوْلَة قصيرة في الظهيرة ثم أرسلت أزيزها مجدداً قرب الليل والشمس تسحب أثرها. وفي طور الجو الملائم تُطلق البحيرة بندقيتها المسائية في اطراد عظيم. ولكن لأنها حافلة بالشقوق، والهواء أيضاً أقل مرونة، تفقد البحيرة رنينها تماماً في منتصف النهار، والأرجح أن الأسماك أو فئران المِسك لن يصيبها الذهول بفعل أية ضربة عليها. يقول الصيادون إن "رعد البحيرة" يفزع الأسماك ويحول دون أن تأكل الطُعم. لا ترسل البحيرة أصوات كالرعد كل مساء، ولا يسعني أن أحدد يقيناً متى يمكن التوقع برعدها؛ ولكن مع أني قد لا ألاحظ فرقاً في الجو، تبث البحيرة أصوات كالرعد. من كان يتوقع أن يتحلى شيء ضخم بارد سميك الجلد بكل هذه الحساسية؟ لديها مع ذلك قانون تَرْعُد بطاعته حين ينبغي عليها مثلها في الثقة مثل براعم تتفتح ربيعاً. إن الأرض حية بأسرها تغشاها النتوءات الحساسة. تتسم أضخم بحيرة بحساسية للتغيرات الجوية شبيهة بحساسية كُرَيُّة الزئبق في أنبوبه.

كان أحد عوامل جذب المجيء إلى الغابة للعيش هو توفر وقت الفراغ والفرصة لرؤية حلول الربيع. يبدأ جليد البحيرة أخيراً يشْبه قرص العسل، ويمْكنني أن أضع كعبي عليه أثناء السير. يذيب الضباب والمطر والشمس الأكثر دفئاً الثلوج بالتدريج؛ تطول الأيام بدرجات محسوسة؛ وأدرك الآن كيف سأتمكن من اجتياز الشتاء بدون الإضافة إلى كومة الحطب، فلم أعد في حاجة إلى نيران ضخمة. يسودني الترقب منتظراً أول علامات الربيع كي أسمع مصادفةً نداء نابعاً من أحد الطيور الوافدة أو سقسقة سنجاب مخطَط لأن مخزونه كاد ينفد الآن ولا ريب أو أرى المرموط يغامر بالخروج من مسكنه الشتوي. في يوم 13 مارس بعد أن بلغني صوت العصفور الأزرق والعصفور المغرّد وطائر السُّمْنَة المغرّدة، كان سمك الجليد لا يزال قدماً تقريباً. وبينما بدأ الجو ينحو ناحية الدفء، لم تنحت المياه الجليد على نحو ملحوظ

و لم يتكسر ويعوم كما يجري في الأنهار، ولكن مع أنه كان ذائباً كلية لمسافة عرضها نصف قصبة بعد الشاطئ، ماثل المنتصف قرص العسل وتشبع بالمياه، وعليه استطعتَ أن تضع قدمك في خلاله وسمكه ست بوصات؛ ولكنه يتبدد تماماً بحلول مساء اليوم التالي، ربما بعد هطول مطر دافئ يليه ضباب، يغيب كله مع الضباب، يتلاشى كلية. وفي أحد الأعوام عبرت إلى المنتصف قبل خمسة أيام فقط من التلاشي التام. خَلَت والدن تماماً ولأول مرة من الجليد في الأول من إبريل، 1845؛ في عام 46 خلت في 25 مارس؛ في عام 47 خلت في 8 إبريل؛ في عام 51 خلت في 28 مارس؛ في عام 52 خلت في 18 إبريل؛ في عام 53 خلت في 23 مارس؛ في عام 54 خلت في 7 إبريل تقريباً.

تثير كل حادثة متصلة بتكسر جليد الأنهر والبحيرات واستقرار الجو كل اهتمامنا، نحن الساكنون في مناخ يضم الكثير من الحدود القصوى الرهيبة. عندما تهل الأيام الأكثر دفئاً، يسمع القاطنون بالقرب من النهر الجليد ينصدع ليلاً بشهقة مجفلة في مثل صخب سلاح المدفعية وكأن قيودها الجليدية تنشق من الطرف إلى الطرف، وفي غضون عدة أيام يرونها تتبدد بسرعة أي سرعة. وهكذا يَخرج التمساح من الوحل وتتزلزل الأرض. رجل عجوز، راقب الطبيعة عن كثب، ولاح حكيماً بكل ما في الكلمة من معنى فيما يتعلق بكل عملياتها وكأنها سفينة في طور الإنشاء خلال صباه، وقد ساعد هو على وضع إحدى روافدها؛ نضج الآن، ولا يسعه أن يحوز المزيد من المعرفة الطبيعية لو عاش حتى بلغ سن عجوز الكتاب المقدس متشولح. كان قد أخبرني – وقد اندهشت حين سمعته يعبر عن تعجبه من أي عملية من عمليات الطبيعة لأني ظننت أن لا أسرار بينهما – أنه أخذ في أحد أيام الربيع بندقيته وقاربه وحسب أنه سيمارس بعض الرياضة مع البط. لم يزل هناك جليد في المروج، ولكنه اختفى كله من النهر، هبط بدون عوائق من مدينة صادبيري إلى بحيرة فير هيفين التي وجد أغلبها على غير توقع مغطى بحقل صلب من الجليد. تحلى اليوم بالدفء، وقد أسقط في يده حين أبصر هذه الكتلة العظيمة من الجليد باقية. لم تلتق عيناه بأي بط، داري قاربه شماليّ إحدى جزر البحيرة أو خلفها، ثم أخفى نفسه منتظراً بين الشجيرات في الجانب الجنوبي. كان الجليد ذائباً لمسافة ثلاث قصبات أو أربع من الشاطئ، وترامت صفحة المياه مصقولة دافئة، بقاع وحِل كما يروق البط، وحسب أن بعض البط قد يأتي قريباً. وبعد أن رقد هناك ساكناً نحو ساعة، ترامى إلى أذنيه صوت خافت بدا بعيداً للغاية، ولكنه فريد في مهابته وإبهاره، لا يشبه أي صوت طرق أذنيه في حياته. تعالى الصوت وتضخم وكأنه سوف ينتهي

نهاية كونية لن تنساها الآذان، صخب وهدير لا يعوزهما التجهم، بدا له فجأة كصوت كتلة هائلة من الطيور الآتية لتستقر هناك، قبض على بندقيته وجفل بعينيه عالياً في سرعة واهتياج؛ ولكنه وجد لذهوله أن كتلة الجليد تحركت بأكملها وهو مستلق هناك لتنجرف إلى الشاطئ، والصوت الذي سمعه أرسلته حافتها وهي تحتك بالشاطئ – تآكلت في البداية برفق متفتتة، ولكنها جاشت في النهاية ونثرت حطامها على طول الجزيرة مرتفعة ارتفاعاً كبيراً قبل أن تتوقف تمام التوقف.

تعامدت أشعة الشمس مع الأرض في آخر الأمر، وأطارت رياح دافئة السديم والأمطار وأذابت أكداس الثلج، بددت الشمس السديم لترسم ابتسامة على مشهد متنوع الألوان من الخمري والأبيض ينبعث منه البخور، عبْره يختار المسافر طريقه من جزيرة إلى أخرى، تبث فيه موسيقى ألف غدير وجدول رنَّان شعوراً بالبهجة، تزخر أوردتها بدماء الشتاء المبتعد عنها.

منحتني ظواهر قليلة بهجة تزيد على مشاهدة أشكال اتخذها الرمال والطين الذائب سائلاً على جانبيّ شق عميق في السكة الحديد، عبرت بحذائه في طريقي إلى القرية، ظاهرة ليست شائعة في هذا النطاق الواسع مع أن عدد الضفاف المكشوفة حديثاً تضاعف تضاعفاً كبيراً ولا بد منذ اختراع السكة الحديد. كانت المادة رمالاً تتسم بكل درجات الصفاء وألوان زاهية متنوعة، امتزجت في العادة بالقليل من الطين. عندما يَظهر الصقيع ربيعاً – بل وخلال يوم يذوب فيه الثلج شتاء – يبدأ الرمل يسيل هابطاً المنحدرات مثل الحمم البركانية، أحياناً ما يطفح على الثلج ويغمره فيغيب الرمل عن الأعين. تتراكب تيارات صغيرة لا عد لها ويمتزج التيار بالآخر لتُظهر نوعاً من النتاج الهجين، يطيع قانون التيارات من ناحية، ومن ناحية أخرى يطيع قانون الحياة النباتية. وبينما تسيل، تتخذ شكل كرمة أو أوراق شجر غضة، تصنع أكواماً من الأغصان اللينة المزهرة عمقها قدم أو أكثر، تشْبه حين تغض بصرك إليها أجسام طحالب بسيطة، أجسام مُثلَّمة مُفَصَّصة متراكبة، أو تُذَكِّرك بمرجان أو فكيّ نمر أو قدميّ طائر أو مخ أو رئتين أو أمعاء أو غائط من كل الأنواع. إنه حقاً نبات بشع، نرى أشكاله وألوانه محاكاة باللون البرونزي، نوع من أوراق النبات المعمارية أعتق وأكثر نموذجية من نباتات الأَقَنْثُوس أو الهِنْدَبا البريّة أو اللَّبْلاب أو الكَرْمَة أو أوراق الخضراوات؛ قد يكون من المُقدَّر لها في بعض الظروف أن تصبح لغزاً للجيولوجيين في المستقبل. أبهرني الشق بأكمله وكأنه كهف رواسبه الكلسية مكشوفة للضوء. تبدت درجات الرمال المختلفة زاهية منسجمة

متفردة، تضمنت درجات الحديد المختلفة: البني والرمادي والأصفر والأحمر. عندما تصل الكتلة المتدفقة إلى المَصْرف عند سفح الضفة، تنتشر مسطحةً منفرجة إلى جدائل، وتَفقد التيارات المنفصلة شكلها شبه الاسطواني لتصبح بالتدريج أعرض وأكثر تسطيحاً، تجري معاً في حالة أكثر نداوة إلى أن تُشكل رملاً يكاد يكون مسطحاً، لا تزال تتلون بدرجات جميلة متباينة، ولكن بمقدورك أن تتبين فيها أشكال النبات الأصلية إلى أن تتحول في النهاية، في المياه نفسها، إلى ضفاف مثل تلك الضفاف المتشكلة عند مصبات الأنهار، وتضيع أشكال النباتات في خضم علامات المويجات بالقاع.

أحياناً ما تتغطى الضفة بأكملها – ويبلغ ارتفاعها من عشرين قدماً إلى أربعين – بكتلة من هذه النوعية من النباتات أو تصدع رملي لمسافة ربع ميل على أحد الجانبين أو كلاهما، إنه نتاج يوم واحد من أيام الربيع. وما يجعل هذه النباتات الرملية لافتة للنظر هو بزوغها المباغت إلى الوجود. عندما أرى على أحد الجانبين الضفة الخامدة – فالشمس تؤثر على أحد الجانبين أولاً – وعلى الجانب الآخر هذه النباتات وافرة النماء، المخلوقة في خلال ساعة، أتأثر بطريقة غريبة واقفاً في معمل فنان خلق العالَم وخلقني – أتي إلى مكان لا يزال يعمل فيه، يمارس الرياضة على هذه الضفة، وبفائض من الطاقة ينثر تصاميمه الناضرة في كل ركن. أحس كالمقترب من الأعضاء الحيوية للكرة الأرضية لأن هذا الفائض الرملي يماثل كتلة شبيهة بورق الشجر كأعضاء الجسم الحيواني الحيوية. تتوقع إذن في الرمل نفسه وجود ورقة نبات. لا عجب أن الأرض تُعبر عن نفسها في الظاهر في صورة أوراق شجر، وعليه ترزح تحت الفكرة في باطنها. اكتشفتْ الذرات بالفعل هذا القانون، وباتت مفعمة به. ترى ورقة الشجر المتدلية هنا نموذجها الأصلي. وباطنياً، سواء في الكرة الأرضية أو داخل جسد الحيوان، يصير فصاً سميكاً مغلفاً بالنداوة، كلمة تنطبق بالأخص على الكبد والرئتين وأوراق الدهن؛ وخارجياً، يصير ورقة شجر نحيلة جافة. لا يزال ريش الطيور وأجنحتها أوراق شجر أرفع وأكثر جفافاً. وعليه تتحول أيضاً من دُوَيْدة بليدة في التربة إلى فراشة رشيقة ترفرف بجناحيها. لا تنفك الأرض تتفوق على نفسها وتتحول إلى أشكال مختلفة، وتصير مجنَّحة في فلكها. بل إن الجليد يبدأ بأوراق بلورية رقيقة وكأنه سال في قوالب طَبَعَها سَعَف النباتات المائية على المرآة المائية. والشجرة بأكملها نفسها ما هي إلا ورقة واحدة، ولا تزال الأنهار أوراق شجر أفسح، يتخلل لُبُّها الأرض، والقرى والمدن هي بيض الحشرات في إبط النبات.

عندما تنسحب الشمس، يكف الرمل عن التدفق، ولكن التيارات سوف تبدأ مرة أخرى صباحاً، تتشعب وتتشعب مجدداً إلى عدد لا نهائي من التيارات الأخرى. قد تبصر هنا كيف تتألف أوردة الدم. لو دققت النظر، ستلاحظ أولاً تياراً من رمال ناعمة ذات طرف أشبه بالقطرة مثل طرف الإصبع يندفع قُدُماً من الكتلة الذائبة، يتلمس طريقه بطيئاً أعمى ليَهبط إلى أن ينفصل في النهاية – بالمزيد من الحرارة والرطوبة والشمس ترتفع في السماء – الجزء السائل في مسعاه إلى إطاعة قانون يخضع له أيضاً أكثر الهامدين ويُشكل لنفسه قناة أو شرياناً متمعجاً، وفي داخله بمقدورك رؤية تيار فضي صغير يومض كما البرق من طور الأوراق أو الأغصان اللينة إلى طور آخر، ومن حين لآخر تبتلعه الرمال. من الرائع كيف يرتب الرمل نفسه بسرعة – وإنما بمثالية – أثناء تدفقه مستخدماً أفضل مواد يمكن أن توفرها كتلته من أجل تشكيل حواف قناته الحادة. تلك هي مصادر الأنهار. لعل السِّليكا الذي ترسبه المياه هو النظام العَظمي، وهو في التربة الأنعم والمادة العضوية بمثابة النسيج اللحمي أو النسيج الخلوي. وما الإنسان إلا كتلة من طين يذوب؟ وطرف إصبع الإنسان ما هو إلا قطرة متجمدة. تتدفق أصابع اليد وأصابع القدم إلى آخر مدى من كتلة الجسم الذائبة. مَن العالم كيف سيتمدد الجسد البشري ويتدفق أسفل سماء أكثر اعتدالاً؟ أليست اليد سعفة متراميَة بفصوصها وأوردتها؟ قد يُنظر إلى الأذن – على سبيل الخيال – باعتبارها طحلباً، على جانب الوجه، بفص أو قطرة. تنحدر الشفة السّفلية من فرط العمل على جانبيّ الفم الشبيه بالكهف. الأنف قطرة أو راسب كلسي متجمد ظاهر. الذقن أيضاً قطرة أضخم، قطرات متلاقية تتقطر من الوجوه. الخدان منحدر يبدأ من الحاجبين إلى وادي الوجه، وتقابلهما عظمتا الخد. وكل شحمة مستديرة من شحمات ورقة النبات هي أيضاً قطرة سميكة تتلكأ الآن، سواء أكبر أو أصغر. إن الشحمات هي أصابع ورقة الشجر؛ ومهما بلغ عدد شحماتها، تنزع إلى التدفق في العديد والعديد من الاتجاهات، وسوف يتسبب المزيد من الحرارة أو أية تأثيرات دافئة أخرى في تدفقها إلى نقطة أبعد.

وهكذا بدا أن جانب التل أوضح قاعدة سلوك لعمليات الطبيعة. لقد نال خالق هذه الأرض براءة اختراع ورقة شجر واحدة فقط لا غير. كيف سيحل لنا شامبليون[1] شفرة هذه الهيروغليفية، كي نقلب ورقة شجر جديدة على الأقل؟ أجد هذه الظاهرة أكثر إبهاجاً

1 – جون فرانسوا شامبليون: (1791 – 1832)، عالم فرنسي فك رموز اللغة المصرية القديمة.

من وفرة الكُرُوم وخصوبته. صحيح أنها أشبه بالفضلات بعض الشيء، ولا نهاية لأكوام الكبد والرئة والأحشاء[1] وكأن الكرة الأرضية انقلبت انقلاباً خاطئاً؛ ولكن هذا يوحي على الأقل بأن الطبيعة تضمر بعض الأحشاء، وهناك تكمن أم البشرية مرة أخرى. ها هو الصقيع ينبعث من الأرض؛ ها هو الربيع. يَسبق الربيع الأخضر المزهر مثلما تَسبق الميثولوجيا الشعر المُرْسَل. لا أعلم شيئاً أكثر تطهيراً من أبخرة الشتاء وعسر الهضم. يقنعني أن الأرض لا تزال في قماطها، تمد أصابع الرضيع إلى كل جانب. يَبزغ شعر معقوص جديد من أكثر الحواجب صلعاً. كل شيء هنا عضوي وطبيعي. تَرقد أكوام من ورق الشجر على طول الضفة مثلها مثل خَبَث فُرْن، تبرهن على أن الطبيعة تعمل "بأقصى طاقتها". ليست الأرض مجرد شظية من التاريخ الميت، طبقة تعلو طبقة مثل صفحات كتاب، الغرض منها دراستها في المقام الأول على يد الجيولوجيين والأثريين، وإنما الأرض شعر حي كورقة شجرة تَسبق الأزهار والفاكهة – لا أرض أحفورية، وإنما أرض حية؛ وبالمقارنة بحياتها المحورية العظيمة، تصبح كل الحيوانات والنباتات طفيليات ليس إلا. سوف تطرح آلام احتضارها جلود حيَّاتنا المنسلخة من قبورها. قد تذيب معادنك وتضعها في قوالب غاية في الجمال قدر استطاعتك؛ لن تثيرني مثل أشكال تسيل من هذه الأرض الذائبة. وليس الأرض وحدها، وإنما المؤسسات الواقعة عليها طيعة لدنة مثل الصلصال بين يديّ الخزاف.

لن يلبث الصقيع أن يَخرج من الأرض، لا فقط على هذه الضفاف، ولكن على كل تل وسهل وفي كل تجويف، يَخرج مثل حيوان هاجع من حُجره، يسعى إلى البحر ومعه الموسيقى أو يهاجر إلى مناخ آخر في السُحُب. إن الدفء بإقناعه الرقيق أقوى من ثور[2] بمطرقته. الأول يذيب، الثاني يكسر فحسب قطعاً قطعاً.

عندما تجردت الأرض جزئياً من الثلج، وجففت بضعة أيام دافئة سطحها إلى حد ما، داخلني السرور وأنا أقارن أولى العلامات الغضة الدالة على العام الوليد، تَبزغ لتوها بجمال جليل خليق بحياة نباتية ذاوية صمدت أمام حياة الشتاء – زهور تحتفظ بشكلها عند تجفيفها، ونبات عصبا الذهب، وشجر الشوك، وعشب بري بهي المنظر، بل إنها أوضح وأكثر جذباً للعيون، مراراً وتكراراً، من مثيلاتها في الصيف، وكأن جمالها لا يَنضج حتى ذلك الوقت؛ بل إن عشب القطن وعشبة البرك وآذان الدب وعشبة القديس جون ونبات إكليليّة المروج

1– كانت الأحشاء في علم الوظائف الأقدم تعتبر مستقر الشفقة والرحمة.
2– ثور: إله الحرب والرعد في الميثولوجيا الاسكندينافية.

ونباتات أخرى قوية السيقان تصير مخازن للحبوب لا تنضب، وتستضيف الطيور المبكرة – أعشاب مناسبة على الأقل تتقلدها الطبيعة الأرملة. أشعر بمنتهى الانجذاب إلى قمة العشب الصوفي المتقوسة الشبيهة بالحُزْمَة؛ تجلب الصيف إلى ذكريات الشتاء، وهي من بين الأشكال التي يروق الفن محاكاتها، ولديها في مملكة النباتات العلاقة نفسها بنماذج –في عقل الإنسان بالفعل – يضمها علم الفلك. إنه أسلوب عتيق، أقدم من الأسلوب اليوناني أو الأسلوب المصري. تنم العديد من ظواهر الشتاء عن غضاضة ورقة هَشَّة عصية على الوصف. نعتاد سماع الناس يصفون هذا المَلِكِ بأنه طاغية صاخب غليظ القلب غير أنه بدماثة الحبيب يزين ضفائر الصيف.

مع دنو الربيع تَنزل السناجب الحمراء أسفل المنزل، اثنان في كل مرة، أسفل قدميّ مباشرة حين أجلس للقراءة أو الكتابة، واصلتْ الضحك الخافت والسَقْسَقَة والقَرْقرة والدوران كراقصي الباليه، أغرب ما قد تسمعه من أصوات؛ وعندما ضربت بقدميّ، ما بدر منها إلا السَقْسَقَة بصوت أعلى وكأنها تجاوزت كل خوف واحترام في مزاحها المجنون متحدية البشرية أن تمنعها. لا، لا تستطيع – إنه السّنجاب الأميركي الأحمر. أصابها الصمم التام فلم تَبلغها مناقشاتي أو أخفقت في إدراك قوتها وشرَعت في غناء أغنية من القَدْح لا تقاوَم.

أول عصفور من عصافير الربيع! يهل العام بأمل أصغر عمراً من أي وقت خلا! يتناهي إلى أذنيّ تغريد عذب خافت فوق حقول رطبة جرداء جزئياً صادرة من العصفور الأزرق والعصفور المُغرِّد وطائر السُّمْنَة المغرّدة وكأن آخر رقائق الشتاء الثلجية بثت رنيناً أثناء سقوطها! ما هي في مثل ذلك الحين التواريخ والكرونولوجيا والعادات وكل الإلهامات المكتوبة؟ تغني الجداول الأغاني والترانيم للربيع. يطير صقر المستنقعات منخفضاً فوق المرج، يسعى بالفعل إلى الحياة الموحِلة الأولى، حياة تستيقظ. أسمع صوتاً وكأن شيئاً غائصاً يَصدر عن الثلوج الذائبة في كل الوِهاد، فيذوب الجليد سريعاً في البحيرات. يتوهج العشب على منحدرات التل توهج نيران الربيع وكأن الأرض تبث حرارة باطنية لإحياء الشمس العائدة؛ لا بألسنة لهب صفراء اللون، وإنما خضراء؛ رمز الشباب الأبدي، نصل العشب، مثل شريط أخضر طويل يتدفق من المرج إلى الصيف، كبَحه حقاً الصقيع، ولكنه سوف يندفع قريباً من جديد، يرفع رمحاً من قش السنة الفائتة على حين تقبع أسفله حياة مفعمة بالنضارة. ينمو نمواً مطرداً مثلما ينز الجدول من الأرض. يكاد يطابقها، ففي خلال أيام يونيه المطولة حين تجف الجداول، تصير نصال العشب هي قنواتها، وتشرب القطعان من هذا الجدول ذي الخضرة

الدائمة من العام إلى العام، ويسحب منه الحصّاد مخزون الشتاء مبكراً. وعليه تَخمد حياتنا البشرية عند جذورها، ومع ذلك تبث نصلها الأخضر إلى الأبدية.

تذوب بحيرة ولدن سريعاً. هناك قناة عرضها قصبتين على طول الجوانب الشمالية والغربية إلا أن طرفها الشرقي يتراءى أعرض. تصدَّع حقل هائل من الجليد من الكتلة الرئيسية. أسمع عصفوراً مغرداً يغني من أجمة الشاطئ – أوليت، أوليت، أوليت، تشيب، تشيب، تشيب، شي شار، شي ويز، ويز، ويز. يساعد هو الآخر على تصديعها. يا لجمال المنعطفات المنحنية الهائلة عند طرف الجليد، تتناغم بمعنى ما مع منعطفات الشاطئ غير أنها تتحلى بالمزيد من التناسق! إنه صلب صلابة استثنائية تعود إلى البرد القارس – وإنما العابر – مؤخراً، تشمله كله تموجات صقيلة ملساء كأرضية قصر من القصور. ولكن الرياح تنحدر ناحية الشرق فوق سطحه غير الشفاف بلا طائل حتى تصل إلى السطح الحي خلفه. يا لها من روعة أن تشاهد شريط المياه يتلألأ أسفل أشعة الشمس، وجْه البحيرة البادي وهو عامر بالطَرَب والشباب كمن تنطق ببهجة الأسماك في باطنها وبهجة الرمال على شواطئها – بريق فضي أشبه ببريق حراشف سمك الدَّاس وكأنه كله كتلة سمك واحدة متقدة بالنشاط. إنه التناقض بين الشتاء والربيع. كانت ولدن ميتة غير أنها الآن حية من جديد. ولكن هذا الربيع تشتت بثبات غير مسبوق كما ذكرت من قبل.

إن التغيير من العاصفة والشتاء إلى جو صاف معتدل، من الظلمة والساعات البليدة إلى الساعات المشرقة المرنة، لهو جَيشان أي جَيشان تدل عليه كل الموجودات. البادي أنه فوري في آخر الأمر. غص منزلي فجأة بدفقة ضوء رغم اقتراب المساء وسحب الشتاء لا تزال تتدلى عليه والمطر المتجمد لا يزال يقطر من الإفريز. أطللت من النافذة، وعجباً! حيث ترامى بالأمس جليد رمادي بارد امتدت بحيرة شفافة تَنعم بالفعل بالهدوء وتحفل بالأمل كما في أمسيات الصيف، يعكس صدرها سماء المساء الصيفي مع أن لا شيء مرئي في السماء وكأنها تتصل بأفق ما قصي. سمعت صوت طائر أبي الحنَّاء من بعيد، أول أبي حنَّاء أسمعه منذ ألف سنة كما يُخيَّل إليّ، لن أنسى نداءه لمدة ألف سَنة أخرى – أغنية الأيام الخالية نفسها، أغنية شجية قوية. أواه يا طائر المساء، في نهاية يوم صيفي بنيو إنجلاند! يا ليتني أستطيع في أي وقت أن أجد الغصن الجالس عليه! أعني هو؛ أعني الغصن. لا أقصد أبا الحنّاء على الأقل. وفجأة استعادت أشجار الصنوبر الراتنجي وشجيرات البلوط – المثنية أغصانها منذ وقت طويل – خصائصها العديدة حول منزلي، لاحت أكثر إشراقاً وأكثر اخضراراً، زادت

استقامتها ونبضها بالحياة وكأنما تطهرت تمام التطهر وتجددت بفعل الأمطار. أدركت أن السماء لن تمطر مجدداً. قد تدرك بالنظر إلى أي غصن من أغصان الغابة، أجل، بالنظر إلى كومة حطبك نفسها، إن كان الشتاء قد انصرم أم لا. وبينما أظلمت السماء، أجفلني صياح الإوز الطائر في مستوى منخفض فوق الغابة، مثله مثل مسافرين مرهَقين يصلون متأخراً إلى بيوتهم عائدين من البحيرات الجنوبية، ينغمسون أخيراً في شكوى مفرطة ومواساة مشتركة. وقفت عند بابي ووسعني أن أسمع صخب أجنحتها؛ وعندما كنت أقود عربتي متجهاً إلى منزلي، لمحتْ فجأة مصباحي فاستدارت بصخب مقموع وحطّت على البحيرة. وعليه دلفت إلى منزلي وأغلقت بابي، وقضيت أول ليلة ربيعية في الغابة.

شاهدت الإوز من بابي عبر السديم صباحاً، كان يطير عند منتصف البحيرة على بعد خمسين قصبة، لاح غاية في الضخامة والاضطراب حتى إن ولدن بدت كبحيرة صناعية مكرَّسة للهوه. ولكنني عندما وقفت يوماً على الشاطئ، تعالى فوقه بأجنحة ترفرف رفرفة رائعة عند تلقي إشارة من قائده، وعندما انتظم في صفوفه، دار فوق رأسي، تسع وعشرون إوزة، ثم اتجه مباشرة إلى كندا بصيحة منتظمة من القائد بين الحين والآخر متوقعاً أن ينهي صيامه عند البرك الموحلة. وفي الوقت نفسه ارتفع سرب من البط وسلك طريق الشمال في أعقاب أبناء أعمامه الأكثر ضجيجاً.

سمعت قعقعة تتلمس طريقها تَصدر من إوزة وحيدة تدور لمدة أسبوع في الأصباح الضبابية، تسعى إلى رفيقها، ولا تزال تملأ الغابة بصوت حياة أكبر من أن تستطيع تحملها. رأيت الحمَام مرة أخرى في إبريل، يطير بسرعة في أسراب صغيرة، وفي الوقت المناسب سمعت طيور الخُطّاف تغرد فوق أرضي مع أن المنطقة بدت وكأنها لا تحوي العديد منها، ولا تَقدر أن تمنحني أياً منها. ارتسم في عقلي تخيل غريب، تخيلت أنها من سلالة عتيقة عاشت في أشجار مجوفة قبل مجيء الرجل الأبيض. وفي كل مناخ تقريباً يكون السلحفاة والضفدع من بين نُذُره هذا الفصل والمبشرين به، وتطير الطيور بأغانيها وريشها اللامع، وتبزغ النباتات وتتفتح، وتهب الرياح، كي تضبط هذا التذبذب البسيط في الأعمدة وتحافظ على توازن الطبيعة.

وكما يبدو كل فصل هو الأفضل لنا في أوانه، كذلك يشابه حلول الربيع خلق الكون من بين الفوضى وتحقق العصر الذهبي.

"انسحبت الريح الشرقية إلى الفجر ومملكة الأنباط،
والفرس، واستقرت قمم التلال أسفل أشعة الصباح.

. . . .

وُلِد الإنسان. سواء ذلك الصانع للأشياء،
أصل عالَم أفضل، جعله من البذرة الإلهية؛
أو الأرض، الحديثة المنفصلة مؤخراً عن السماء
العالية، احتفظت ببعض بذور الفردوس الشقيق".[1]

يجعل المطر الخفيف درجات العشب المتعددة أكثر اخضراراً. وكذلك تشرق احتمالات نجاحنا مع تدفق الأفكار الأفضل. ينبغي أن نَسعد لو عشنا دوماً في الحاضر، واستغللنا كل حادثة تحيط بنا كعشب يعترف بتأثير أقل الندى الساقط عليه؛ ولم ننفق وقتنا في التكفير عن إهمال الفرص الماضية المهدرة، وهو ما نسميه "فعل الواجب". نتلكأ في الشتاء بينما الفصل بالفعل ربيعي. تُغفر كل خطايا الرجال في صباح ربيعي لطيف. إن مثل ذلك اليوم هدنة للرذيلة. وبينما تتواصل مثل هذه الشمس لتتقد، قد يعود أحقر الخطاءين. ومن خلال براءتنا المستعادة نتبين براءة جيراننا. ربما اعتقدتَ أمس أن جارك لص أو سكير أو شهواني، وما بدر منك إلا احتقاره أو الشفقة عليه، وحل بك اليأس من العالَم؛ ولكن الشمس تضيء مشرقة دافئة في هذا الصباح الربيعي الأول لتعيد خلق العالَم. تُقابل جارك في هذا الأثر الصافي البديع وتَشهد كيف تتمدد عروقه المنهَكة الفاسقة ببهجة اليوم الجديد ونعمته، تحس بتأثير الربيع وهو يمتزج ببراءة الطفولة، فتنتهي كل أخطائه إلى الغفران. لا يخامره جو من الود فحسب، وإنما نكهة من قداسة تتلمس طريقها إلى التعبير، عله تلمُس أعمى عقيم كغريزة حديثة الولادة، ولمدة ساعة قصيرة يدوي منحدر التل الجنوبي بدعابة لا تَعرف الابتذال. ترى براعم بريئة جميلة تستعد للاندفاع قوية من قشرته كثيرة العُقَد لتجرب حياة سَنة أخرى، غضة نضرة كما يليق بأصغر النباتات. بل إنه دلف إلى بهجة ربه. لماذا لا يترك السجان أبواب سجنه؟ لماذا لا يرفض القاضي النظر في دعواه؟ لماذا لا يأذن الواعظ لأبرشيته بالانصراف؟! لأنهم لا يطيعون إشارة خفية منحهم إياها الرب ولا يَقبلون عفواً أعطاهم إياه جميعاً بإرادته الحرة.

1 – أوفيد: (43 قبل الميلاد – 7 بعد الميلاد)، شاعر روماني من كتاب "التحولات".

"عودة إلى طيبة تَبرز يومياً في نفَس الصباح الهادئ الخيِّر، وحين يتعلق الأمر بحب الفضيلة وكراهية الرذيلة، تتسبب هذه العودة في اقتراب المرء قليلاً من طبيعة الإنسان البدائية، شأنه شأن شَطْأً مقطوع في الغابة. وبالطريقة نفسها ما يفعله المرء في خلال يوم من شرور يمنع بذور الفضيلة الشارعة في البزوغ من تطوير نفسها ويدمرها.

"وهكذا بعد منع بذور الفضيلة عدة مرات من تطوير نفسها، لا يكفي نفَس المساء الخيِّر عندئذ لحفظها. وبمجرد ألا يكفي نفَس المساء لحفظها، لا تختلف إذن طبيعة الإنسان كثيراً عن طبيعة البهيمة. وعندما يرى الناس أن طبيعة هذا الرجل تشابه طبيعة البهيمة، يعتقدون أنه لم يمتلك قط ملكة العقل الفطرية. هل تلك هي الأحاسيس الحقيقية الطبيعية للإنسان؟"[1]

"خُلق العصر الذهبي في البداية، بدون أي منتقم
عزز الإخلاص والاستقامة عفوياً بدون قانون.
ما كان هناك عقاب ولا خوف؛ و لم تُقرأ كلمات تهديد
على النحاس المعلق؛ و لم يخف الحشد المتضرع
من كلمات قاضيهم؛ ولكنهم كانوا آمنين بدون منتقم.
لم تنحدر بعد الصنوبر الساقطة على جبالها
إلى الموجات السائلة لترى ربما عالَماً أجنبياً،
و لم يَعلم الفانون أي شواطئ عدا شواطئهم.
. . . .
كان هناك ربيع سرمدي ونسيم عليل بهبَّات
دافئة سكَّنا زهوراً نابتة بدون بذور".[2]

بينما كنت أصطاد السمك في يوم 29 إبريل عند ضفاف النهر القريب من جسر ناين-آكر-كورنر، أقف على العشب المرتجف وجذور الصفصاف حيث تكمن فئران المسك، سمعت صوت قعقعة فريدة أشبه بصوت عِصي يلعب بها الصِبية بأصابعهم، ارتفعت عيناي فأبصرت صقراً رشيقاً في منتهى النحول مثل طائر السُبَد، يحوم حيناً مثل المويجة ويهوي

1- منشيوس: (372 - 287 قبل الميلاد)، فيلسوف صيني وواحد من أتباع كونفوشيوس.
2- أوفيد: (43 قبل الميلاد - 7 بعد الميلاد)، شاعر روماني من كتاب "التحولات".

حيناً قصبة أو اثنتين المرة تلو المرة مُظهِراً الجانب السفلي من جناحيه للعيان، جانب التمع مثل شريط من الساتان في الشمس أو باطن قوقعة لؤلؤي. ذكّرني هذا المشهد بالصيد باستخدام البزاة، وكيف ارتبط النُبْل والشعر بتلك الرياضة. بدا لي أنه قد يسمى بيُوِيُو – صقر صغير: ولكني لا أعبأ باسمه. لقد كان أرق تحليق شاهدته في حياتي. لم يرفرف ببساطة فراشة و لم يحلق كالصقور الأضخم، وإنما لَهَا لهواً بثقة عمّها الفخر في حقول الهواء؛ تعالى مراراً وتكراراً مرسلاً حكة خافتة غريبة الوقع، كرر هبوطه الحر الباهر، دار المرة بعد المرة كما الطائرة الورقية ثم عاد إلى وضعه الأصلي بعد هبوطه من علو وكأنه لم يحط قدماً قط على اليابسة. بدا أن لا رفيق معه في الكون، إذ انهمك في اللهو هناك بمفرده، بدا أنه لا يحتاج إلى أي شيء عدا صباح وسماء يلعب فيها. ما كابد الوحدة، وإنما جعل كل الأرض أسفله وحيدة. أين الأم التي رقدت على بيضته، أشقاؤه؟ أبوه في السماء؟ ساكن الهواء، بدا متصلاً بالأرض ببيضة مفقوسة فقط لا غير في وقت ما في شق بأحد الأجراف أم أن عشه البلدي مشيَّد في زاوية سحابة، منسوج بأهداب قوس قزح وسماء الغروب، مكسو بسديم خفيف في منتصف الصيف علِق من الأرض؟ وما وَكْره الآن أعلى الجبل إلا سحابة منحدرة.

نلت علاوة على ذلك مجموعة نادرة من الأسماك الذهبية والفضية والنحاسية الزاهية، مجموعة تراءت كسلسة من الجواهر. آه! اخترقتُ تلك المروج في أصباح العديد من أيام الربيع الأولى، قفزت من رابية إلى أخرى، من جذر صفصاف إلى جذر صفصاف. عندما استحم وادي النهر الهائج والغابة في ضوء غاية في النقاء والإشراق، كاد يوقظ الموتى إن كانوا ناعسين في قبورهم كما قد يفترض البعض. لا حاجة بنا إلى دليل أقوى على الخلود. يجب أن تعيش كل الموجودات في مثل هذا الضوء. أواه أيها الموت، أين لدغتك؟ أواه أيها القبر، أين نَصْرك إذن؟

سوف تنقلب حياة قريتنا إلى الركود لولا غابات ومروج غير مكتشَفة تحيط بها. إننا في حاجة إلى دواء البرية المقوّي كي نخوض أحياناً في مستنقعات يكمن فيها طائر الواق ودجاجة المروج، ونسمع هدير طائر الشُّنْقُب، ونستنشق رائحة نبات البَرْدي الهامس حيث لا يبني عشه إلا طائر أكثر برية وانعزالاً ويزحف حيوان المنك ببطن تلتصق بالأرض. وبينما نتوخى الجدية في اكتشاف كل الأشياء وتعلمها، ينبغي أن تتصف كل الموجودات بالغموض وتظل غير مكتشَفة، ينبغي أن تكون الأرض والبحر بريَّة إلى أبعد حد، لم نعاينها أو نسبر أغوارها لأن أغوارها غير قابلة للسبر. ليس بمقدورنا أن نكتفي من الطبيعة قط. يجب أن

ينعشنا مشهد يشي بقوة لا تَنْضَب، معالم فسيحة جبارة، ساحل البحر بحطامه، برية بأشجار حية ومتعفنة، سَحابة تبعث رعداً وبرقاً، أمطار تتواصل ثلاثة أسابيع ويَجري الطوفان على أثرها. نحتاج إلى أن نشهد تخطي حدودنا، وحياة ترعى بحرية في مكان لا نجول فيه على الإطلاق. يعترينا الابتهاج حين نلاحظ النسر يأكل جيفة تبث فينا الاشمئزاز وتثبط همتنا، فنستمد الصحة والقوة من الوجبة. كان هناك حصان ميت يرقد في حفرة تجاور السبيل المفضي إلى منزلي، أجبرني أحياناً على الانحراف عن السبيل وبخاصة في الليل عندما تكون الليلة حارة مجرَّدة من الهواء المنعش، ولكنني نلت قدراً من التعويض لِما ألحقته بنفسي من اطمئنان على شهية الطبيعة النهمة وصحتها المنيعة. يروقني أن أرى الطبيعة زاخرة بالحياة حتى إنها يسعها التضحية بعدد وافر من مخلوقات تعاني افتراس مخلوقات أخرى؛ بل إن الأنظمة الرقيقة يمكنها الانسحاق بمنتهى الهدوء خارج الوجود مثل اللباب، يلتهم مالك الحزين أفراخ الضفدع، وتندهس السلاحف والضفادع في الطريق؛ وأحياناً ما تمطر السماء لحماً ودماء! ومع احتمالية وقوع الحوادث لا بد أن نفطن إلى قلة أهميتها. يأخذ الآخرون انطباعاً عن الرجل الحكيم بأنه يتمتع ببراءة كونية. ليس السم ساماً بالرغم من كل شيء، ولا أي الجروح قاتلة. إن الشفقة دافع يصعب الدفاع عنه. لا بد أن تكون سريع الفاعلية. لن يحتمل الدفاع الخضوع لأي قولبة.

كانت أشجار البلوط والجَوْزية والقَيْقَب والأشجار الأخرى تُظهر في مستهل مايو براعمها وأوراقها للتو وسط غابة أشجار الصنوبر حول البحيرة، تضفي إشراقاً كضوء الشمس على المشهد الطبيعي ولا سيما في الأيام الغائمة، شقت الشمس السديم وأشرقت خافتة على منحدرات التل هنا وهناك. وفي اليوم الثالث من مايو واليوم الرابع منه أبصرت طائر غوّاص سَامك في البحيرة، وطيلة الأسبوع الأول من الشهر سمعت أصوات طائر السُّبَد الأميركي والدُّرْاس البني والدُّج الأميركي والبِيْوي والشُّوَنْغ وطيور أخرى. وكنت قد سمعت صوت طائر السُّمْنَة قبل فترة طويلة. كان طائر الفيبيّ قد أتى مرة أخرى وتطلع من بابي ونافذتي ليرى إن كان منزلي يشْبه الكهف بما يكفي أم لا، يُثبِّت نفسه على ريح طنانة ببراثن ملوية وكأن الهواء يُثبِّته وهو يعاين الموقع. وسرعان ما يغطي اللِّقاح الشبيه بالكبريت بشجرة الصنوبر الراتنجي البحيرة والأحجار والخشب المتعفن على طول الشاطئ، وهكذا كان من الممكن أن تجمع ملء برميل منه. هذا هو 'وابل الكبريت' الذي نتحمله. بل إننا نقرأ

في مسرحية كاليداس "ساكونتالا"[1] عن "أغادير تصطبغ صفراء اللون بغبار ذهبي من زهرة اللوتس". وهكذا كرّت الفصول في اتجاه الصيف كما يهيم المرء في المرعى عالياً.

هكذا توالت حياتي خلال أول سنة أمضيتها في الغابة؛ و لم تختلف عنها السنة الثانية. وفي النهاية رحلت عن ولدن في 6 سبتمبر 1847.

1- مسرحية كاليداس "ساكونتالا": ساكونتالا أو الملك المفقود مسرحية سنسكريتية عتيقة.

الخاتـمة

ينصح الأطباء المرضى عن حكمة بتغيير الهواء والمناظر. حمداً لله، هنا ليس العالَم بأسره. لا تنمو شجرة كستناء الحصان في نيو إنجلاند، ونادراً ما سمعت الطائر المحاكي في هذه الأنحاء. يفوقنا الاوز البري كوزموبوليتانيةً، إذ ينتشر في معظم أجزاء العالم؛ يتناول إفطاره في كندا ثم غداءه في ولاية أوهايو، وبعدها يسوي ريشه استعداداً لليل في أحد الروافد الجنوبية. بل إن الثور الأمريكي يجاري الفصول إلى حد ما، لا يقضم مراعي كولورادو إلا لينتظر عشباً أحلى أكثر اخضراراً بجوار نهر يلوستون. ومع ذلك نعتقد أن لو تهدمت الأسياج بقضبانها وتكومت الحوائط الحجرية في مزارعنا، سوف تتعين من الآن فصاعداً حدود حياتنا وتتقرر مصائرنا. إن اختاروك حقاً أميناً لسجلات البلدة، لا تَقدر أن تذهب إلى 'تيرا دل فويجو'[1] في هذا الصيف: ولكنك قد تمضي إلى أرض نار جنهم. إن الكون أرحب من رؤانا له.

ومع ذلك ينبغي أن نُكثر من التطلع فوق درابزين مؤخرة مركبنا كما هو جدير بمسافرين يتولاهم الفضول، ولا نقطع الرحلة كبحارة أغبياء يفصلون في ملل خيوط الحبال القديمة. ما الجانب الآخر من الكرة الأرضية إلا بيت مراسلنا. ترحالنا ما هو إلا إبحار في دائرة عظمى، ولا يصف الأطباء العلاج إلا لأمراض الجلد فقط. يهرع المرء إلى جنوب أفريقيا ليطارد

1- 'تيرا دل فويجو': تعني 'أرض النار' كما أسماها المكتشف ماجيلان عام 1520 ربما بسبب نيران الهنود التي أبصرها على الساحل.

الزراف، ولكن لا شك أنه لن يسعى إلى تلك الطريدة. قل لي من فضلك، إلى متى سيطارد الإنسان الزرافات إن استطاع؟ قد يوفر أيضاً طائر الشُنْقُب وطائر دجاجة الأرض رياضة نادرة للصياد؛ ولكني أثق أن اصطياد المرء لنفسه سيكون طريدة أنبل.

"وجّه عينك إلى الباطن مباشرة،

وستجد ألف منطقة في عقلك

لم تُكتشف بعد. ارتحل فيها، وكن

خبيراً في كوزموغرافيا بيتك".[1]

إلام ترمز أفريقيا؟ إلام يرمز الغرب؟ أليس البر أبيض على الخريطة؟ وإن اتضح أن لونه أسود كالساحل حين يكتشفه المكتشفون. هل سنجد مصدر النيل أو النيجر أو الميسيسبي أو الممر الشمالي الغربي حول هذه القارة؟ هل هذه هي المشكلات التي تحتل أغلب تفكير البشرية؟ هل فرانكلين[2] هو الرجل الوحيد المفقود كي تصير زوجته حريصة كل هذا الحرص على العثور عليه؟ هل السيد جرينيل[3] يَعلم أين هو نفسه؟ كن بدلاً منهما مانجو بارك ولويس وكلارك وفروبيشر[4] لتياراتك الخاصة ومحيطاتك؛ اسبر مناطقك البعيدة عن خط الاستواء بسفن عامرة باللحم المحفوظ لإطعامك لو وجدته ضرورياً؛ وكوّم العلب الفارغة عالياً نحو السماء لتصير علامة تلفت الأنظار. هل تم اختراع اللحوم المحفوظة لحفظ اللحم فقط لا غير؟ لا، كن كولومبس لقارات وعوالم جديدة كاملة داخل نفسك، افتح قنوات جديدة، لا للتجارة، وإنما للتفكير. كل رجل هو لورد مملكة، بالمقارنة بها تُعتبَر إمبراطورية قيصر الأرضية ولاية تافه ليس إلا، رابية متروكة بجوار الجليد. ومع ذلك باستطاعة البعض أن يكونوا وطنيين بلا أي احترام لذواتهم ويضحون بما هو أعظم مقابل ما هو أدنى. يحبون تربة قبورهم بيد أنهم لا يشفقون على روح قد لا تزال تنفخ الحياة في أجسادهم. إن الوطنية

1- ويليام هابينجتون: (1605 – 1664)، من "إلى صديقي المحترَم السير إد. بي. نايت".

2- فرانكلين: الإشارة هنا إلى السير جون فرانكلين (1786 – 1847)، أول مكتشف للممر الشمالي الغربي. مات من الجوع في جزيرة الملك ويليام عام 1847. وبين عام 1848 وعام 1854 قبل توارد أنباء عن موته أرسلت خمس عشرة بعثة للبحث عنه.

3- السيد جرينيل: إشارة إلى السيد هنري جرينيل (1800 – 1874). في عام 1850 جهز بعثة للبحث عن السير جون فرانكلين.

4- مانجو بارك ولويس وكلارك وفروبيشر: تركزت استكشافات مانجو بارك في أفريقيا؛ أطلق ميريويذ لويس وويليام كلارك بعثة إلى مصب نهر كولومبيا في عامَي 1804 و1806؛ اكتشف السير مارتن فروبيشر 'خليج فروبيشر'.

يرقة في رؤوسهم. ما القصد من تلك البعثة لسبر البحر الجنوبي بكل استعراضها ونفقاتها إلا اعتراف غير مباشر بحقيقة مفداها أن هناك قارات وبحوراً في العالم الأخلاقي يصير كل إنسان بالنسبة إليها بَرْزَخاً أو جُوْناً، ومع ذلك لم يسبرها بعد، ولكن الإبحار عدة آلاف من الأميال في البرد والعاصفة وبين آكلي لحوم البشر في سفينة حكومية برفقة خمسمئة رجل وصبي لمساعدة المرء أسهل من أن يسبر بمفرده بحره الشخصي، المحيط الأطلنطي والهادئ لكيانه.

"Erret, et extremos alter scrutetur Iberos.
Plus habet hic vitae, plus habet ille viæ".

دعهم يهيمون ويتفحصون الأستراليين الهمجيين.

لديّ المزيد من الله، ولديهم المزيد من الطريق.[1]

لا يستحق الأمر أن يطوف المرء العالَم بغرض عد قطط زانزبار[2]. ومع ذلك عدها إلى أن تتمكن من صنع ما هو أفضل، وقد تجد "حفرة سيمس[3]" تصل من خلالها أخيراً إلى الباطن. تواجه إنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال والساحل الذهبي وساحل العَبْد[4] كلها هذا البحر الشخصي؛ ولكن لا مركب منها غامر بمغادرة مشهد اليابسة مع أنه السبيل المباشر ولا شك إلى الهند. لو ستتعلم التحدث بكل اللغات والتكيف مع عادات كل الدول، لو ستسافر أبعد مما سافر إليه الرحالة، تأقلم مع كل مناخ واجعل السفينكس[5] تضرب حَجَراً برأسها، بل وأَطِعْ أمر الفيلسوف القديم واكتشف نفسك. المطلوب هنا هو العين والعَصَب. لا يذهب إلى الحرب إلا المهزومون والهاربون من الجندية، جبناء يهربون وينضمون إلى الجيش. انطلق الآن على ذلك السبيل الغربي النائي، سبيل لا يتوقف عند نهر الميسيسيبي أو المحيط الهادي

1- كلوديان: (370 – 405) شاعر روماني من قصيدة "عجوز فيرونا". الترجمة لثورو، وقد غير "الأيبريين" إلى "الأستراليين".

2- زانزبار: جزيرة أمام ساحل شرق أفريقيا الألمانية قديماً.

3- حفرة سيمس: جون كليفز سيمس (1780 – 1829)، جندي في حرب 1812 كرس أغلب الجزء الأخير من حياته للتأمل الفلسفي خارج المركز. وضع نظرية مفداها أن الأرض مكوَّنة من كرات مجوفة متحدة المركز، بفتحات عند القطبين لدخول الضوء. رفض الكونجرس تخصيص مبلغ من المال لتجهيز بعثة إلى القطب الشمالي لإثبات صحة نظريته، ونشر سيمس عام 1826 نظرية الكرات متحدة المركز.

4- الساحل الذهبي وساحل العَبْد*: كان الساحل الذهبي مستعمرة بريطانية على خليج غينيا في غرب أفريقيا. ساحل العَبْد منطقة تقع شرق الساحل الذهبي على خليج بنين.

5- السفينكس: كائن خرافيّ في الميثولوجيا الإغريقية، له جسم أسد وأجنحة ورأس امرأة وصدرُها.

ولا يؤدي إلى الصين أو اليابان الرثين، وإنما يؤدي إلى خط مباشر، خط تماس لهذا العالَم، صيفاً وشتاء، نهاراً وليلاً، عند غياب الشمس وعند غياب القمر، وأخيراً عند غياب الكرة الأرضية أيضاً.

قيل إن ميرابو[1] اعتبر أن اللصوصية على الطرق السريعة "تؤكد على درجة التصميم المطلوبة كي يضع المرء نفسه في معارضة رسمية لأكثر قوانين المجتمع قدسية". وقد أعلن أن "جندياً يحارب في القوات المسلحة لا يحتاج إلى نصف شجاعة قاطع الطريق" – "وأن الشرف والدين لم يعترضا قط طريق قرار صارم مدروس جيداً". كان هذا رجولياً كما هو حال العالَم؛ ومع ذلك كان عديم الجدوى إن لم ينم عن يأس. كان الرجل الأعقل ليجد نفسه في الغالب "في معارضة رسمية" لما يُعتبر "أكثر قوانين المجتمع قدسية" عن طريق طاعة المزيد من القوانين المقدسة، وعليه يكون قد اختبر ثباته بدون أن يحيد عن طريقه. ليس مطلوباً من الرجل أن يضع نفسه في مثل هذا الموقف في مواجهة المجتمع؛ ولكن مطلوباً منه أن يحافظ على نفسه في موقف يجد نفسه فيه – أياً كان الموقف – عن طريق طاعة قوانين كيانه، قوانين لن تعارض قط حكومة عادلة لو تصادف أن قابل مثل تلك الحكومة العادلة.

غادرت الغابة لسبب وجيه مثلما انتقلت إليها لسبب وجيه. ربما بدا لي أن لديّ عدة حيوات لأعيشها، و لم أستطع أن أوفر وقتاً إضافياً من أجل تلك الحياة. من المدهش كيف نسلك طريقاً محددة عن غفلة بسهولة، كيف نصنع سبيلاً مطروقاً لأنفسنا. لم أعش هناك أسبوعاً قبل أن تحفر قدميّ طريقاً من بابي إلى جانب البحيرة؛ ومع أن خمس سنوات أو ستاً انصرمت منذ وطأتها آخر مرة، لا تزال جلية كل الجلاء. صحيح – على ما أخشى – أن الآخرين قد سلكوه، وعليه ساعدوا على إبقائه مفتوحاً. إن سطح الأرض أملس قابل للتأثر بفعل أقدام الإنسان؛ وكذلك يصح الأمر مع سبل يرتحل فيها العقل. يا لرثاثة طُرق العالَم إذن وتَغَبُّرها، يا لعمق أخاديد العادة والامتثال! لم أرغب في السفر داخل قَمْرة سفينة، وإنما السفر أمام الصاري على ظهر مركب العالَم، بمقدوري هناك أن أبصر خير إبصار نور القمر وسط الجبال. لا أرغب في الهبوط الآن.

تعلمت هذا على الأقل بالتجربة: لو تَقَدَّم المرء واثقاً في اتجاه أحلامه وسعى إلى الأخذ بأسباب حياة تخيلها، سوف يقابل نجاحاً لا يتوقعه في المعتاد. سوف يخلف وراءه بعض

1- ميرابو: جابرييل ريكيتي ميرابو (1749 – 1791) سياسي ثوري من أبرز شخصيات الثورة الفرنسية، ولا ريب أنه أعظم خطيب فرنسي في عصره.

المسائل، سوف يجتاز حداً لا تراه العيون؛ سوف تَشرع قوانين جديدة كونية أكثر تحررية في ترسيخ نفسها حوله وفي باطنه؛ أو سوف تتوسع القوانين القديمة ويتم تفسيرها لصالحه بمعنى أكثر تحررية، وسوف يعيش برخصة نظام أسمى للموجودات. وبالتناسب كلما بسّط حياته، كلما تراءت قوانين الكون أقل تعقيداً، ولن تصبح العزلة عزلة، ولن يصبح الفقر فقراً، ولن يصبح الضعف ضعفاً. لو كنتَ قد بنيت قصوراً في الهواء، لا ينبغي أن يضيع عملك؛ فذلك هو مكانها. ضع الآن الأسس تحتها.

إن ما تطلبه إنجلترا وأمريكا سخيف، 'ينبغي أن تتكلم حتى يفهماك'. لا يَكْبر الإنسان ولا فطر الغاريقون على هذا النحو، وكأن الكلام مسألة مهمة، ولا شيء يكفي لفهمك من غيره. وكأن الطبيعة لا تستطيع أن تدعم إلا نظاماً واحداً للتفاهم، وليس بإمكانها أن تؤازر الطيور وكذا الحيوانات من ذوات الأربع، الطائرة وتلك الزاحفة، إن السكون والنداءات هو أفضل لغة إنجليزية. وكأن هناك أماناً في الغباء وحده. أخشى في المقام الأول ألا تكون تعابيري متقنة بما فيه الكفاية، ألا تهيم إلى ما وراء حدود تجربتي اليومية الضيقة حتى تناسب حقيقة اقتنعت بها. الغُلو! يعتمد الأمر على فنائك. ليس الجاموس المهاجر الساعي إلى مراع جديدة في منطقة أخرى مغالياً مثل بقرة ترفس الدلو وتقفز فوق سور الزريبة لتجري خلف عجْلها وقت حلب اللبن. أرغب في الحديث في مكان ما بدون حدود؛ مثل رجل في لحظة استيقاظ يتحدث إلى رجال في لحظات استيقاظهم لأني على قناعة أني لا أستطيع حتى أن أبالغ بما يكفي لوضع أساس تعبير صادق. مَن سمع لحناً موسيقياً وخشي عندئذ ألا يتحدث بغُلو أبداً؟ وفي ضوء المستقبل أو الممكن ينبغي أن نعيش باسترخاء بدون حدود مُعينّة في المقدمة، بحدود مبهمة ضبابية في تلك الناحية مثلما تكشف ظلالنا عَرَقاً لا ندركه تجاه الشمس. ينبغي دائماً أن تدل حقيقة كلماتنا المتقلبة على خطأ التصريح المتبقي. إن حقيقتها مترجَمة على الفور؛ ولا يلبث إلا أثرها الواقعي. ليست الكلمات المعبِّرة عن إيماننا وتقوانا محدَّدة غير أنها مهمة وعطرة شأن البَخُور بالنسبة إلى الطبائع الأسمىٰ.

لماذا نوجه جهدنا هابطين إلى إدراكنا الحسي المتبلد ونطري على جهدنا باعتباره فطرة سليمة؟ أَسْلَم الفطَر هي فطرة الإنسان وهو نائم، ويُعبر عنها بالغطيط. أحياناً ما نميل إلى أن نضع الحمقى السابقين في مصاف الحمقى لأننا لا نُقدِّر سوى ثلث عقولهم. سوف يجد البعض نقيصة في لون الصباح الأحمر لو استيقظوا مبكراً بما يكفي. أعلم أنهم "يتظاهرون

أن آيات كبير[1] تضمر أربعة معان؛ الوهم، والروح والعقل وتعليم فيدا[2] البسيط"؛ ولكن هذا الجزء من العالَم يعتبر وجود أكثر من تفسير لكتابات أحدهم سبباً للشكوى. فيما تسعى إنجلترا إلى علاج تعفن البطاطس، ألن تسعى إلى علاج تعفن العقل، السائد على نحو واسع وقاتل؟

لا أفترض أني أحرزت أي غموض، ولكن فخراً سيخالجني لو لم يجد أحدهم أخطاء قاتلة تتخلل صفحات هذا الموضوع تزيد على الموجودة في جليد ولدن. اعترض الزبائن الجنوبيون على لونها الأزرق - وهو دليل على نقائها - وكأنها موحلة، وآثروا جليد كامبريدج الأبيض ذا الطعم المماثل لطعم الأعشاب الضارة. يشابه النقاء الذي يحبه الإنسان سديماً يطوق الأرض، لا سماء زرقاء صافية خلفه.

يكرر البعض بإلحاح في آذاننا أن الأمريكيين والعصريين بوجه عام أقزام فكرية بالمقارنة بالقدماء، بل بالمقارنة برجال عهد إليزابيث الأولى. ولكن ما الهدف من ذلك؟ كلب حي خيرٌ من أسد ميت. هل يمضي الإنسان ويشنق نفسه لانتمائه إلى سلالة من الأقزام ولا يحاول قدر استطاعته أن يكون أكبر الأقزام؟ فليهتم كل فرد بشأنه وليسع إلى أن يكون ما خُلق من أجله.

لماذا ينبغي أن نتسرع كل هذا التسرع اليائس كي ننجح في تلك المشاريع اليائسة؟ لو أن الإنسان لا يجاري رفقاءه، ربما لأنه يسمع طبالاً آخر. دعه يساير الموسيقى التي سمعها مهما كانت مكبوحة أو بعيدة. ليس مهماً أن يَنضج بمثل سرعة نضج شجرة تفاح أو بلوط. هل يُغير ربيعه إلى صيف؟ لو أن حال الأشياء التي خُلقنا من أجلها ليس مهيأ بعد، ما هو الواقع الذي يسعنا استبداله؟ لن تتحطم سفننا على ساحل الواقعية العبثية. هل نشَيد بمشقة سماء من زجاج أزرق فوق أنفسنا كي نثق عندما تنتهي أننا سنحَدق عالياً إلى السماء الأثيرية الحقيقية وكأن السماء الأولى ليست هي الحقيقية؟

كان هناك فنان في مدينة كورو مطبوع على الكفاح من أجل نيل المثالية. خطر في عقله ذات يوم أن يصنع صولجاناً. دار في باله أن الوقت عامل مؤثر في أي عمل يفتقر إلى المثالية، ولكن العمل المثالي لا يداخله الوقت، حدَّث نفسه، "سوف يَنعم بالمثالية من كل الجوانب

1- كبير: مصلح ديني هندوسي عظيم في القرن الخامس عشر. سعى إلى تأليف مجموعة من التعاليم الدينية توحد الهندوس والمسلمين.

2- فيدا: كتب الهندوس الدينية.

وإن ينبغي ألا أفعل شيئاً آخر في حياتي". تقدّم في الحال إلى الغابة لجلب الخشب، فقد عقد العزم ألا يصنعه من مادة غير ملائمة؛ وبينما بحث عن العصا بعد العصا ورفض الواحدة بعد الواحدة، نبذه أصدقاؤه بالتدريج لأنهم طعَنوا في السن في أعمالهم وعاجلهم الأجل، ولكن العمر لم يمسسه لحظة من اللحظات. لقد منحه تفرد هدفه وتصميمه وولاؤه الرفيع شباباً أبدياً دون أن يَعلم. لم يُقَدِّم إلى الوقت أية حلول وسط، وعليه انزاح الوقت عن طريقه، وما بدر منه إلا التنهد من بعيد لعجزه عن قهره. وقبل أن يجد زنداً خشبياً مناسباً من جميع النواحي، كانت مدينة كورو حطاماً نال منها العتق مبلغاً، جلس على أحد الأكوام كي يقشر الزند الخشبي. قبل أن ينتهي إلى شكله المناسب، كانت سلالة قندهار الحاكمة في نهاية عصرها، وبطرف العصا كتب على الرمال اسم آخر فرد من تلك السلالة ثم استأنف عمله. وحينما صقل الصولجان ولمعه، لم تعد كالبا[1] مركز الاهتمام؛ وقبل أن يضع المِقرعة والرأس المزيَّن بالأحجار الكريمة، استيقظت البراهما[2] ونعست عدة مرات. ولكن لمَ أتوقف لذكر هذه التفاصيل؟ عندما وضع اللمسات الأخيرة على عمله، تمدد فجأة أمام عَينيّ الفنان المندهش لينقلب أجمل مخلوقات البراهما. كان قد وضع نظاماً جديداً لصنع الصولجان، عالَماً بنسب ملائمة غير منقوصة؛ وبالرغم من انقضاء المدن القديمة والسلالات الحاكمة، حلَّت محلها نسب أنسب وأكثر تمجيداً في هذا العالَم. وجد الآن بجوار كومة نُجارة لا تزال طريه عند قدميه أن انقضاء الوقت السابق كان وهماً بالنسبة إليه وإلى عمله، ووجد أن الوقت الفائت لم يزد على الوقت المطلوب كي تَسقط ومضة واحدة من عقل البراهما لتشعل مادة العقل الفاني سريع الالتهاب. كانت المادة نقية، وكان فنه نقياً؛ كيف يمْكن أن تَخرج النتيجة أقل من رائعة؟

لا يمْكننا إسباغ على موضوع مظهر سينفعنا في النهاية وقت الحاجة مثل الحقيقة. فالحقيقة وحدها صالحة في جميع الأوقات. لا نتبدى في أغلب الأوقات على حقيقتنا، وإنما نقف في موقف مزيَّف. ومن خلال عدد لا متناه من طبائعنا، نفترض حالة ونضع أنفسنا في خضمها، وعليه نقحم أنفسنا في خضم حالتين في الوقت نفسه، فيَصعب علينا على نحو مضاعف الإفلات. لا ننظر في اللحظات العاقلة إلا إلى الحقائق، الحالة المجرَّدة. قُل ما يجب عليك قوله، لا ما ينبغي أن تقوله. إن أي حقيقة خير من التظاهر والادعاء. وقف

1- كالبا: فترة يخوض فيها الكون دورة من الخلق والتدمير في الكوزمولوجيا الهندوسية.
2- البراهما: الذات العليا؛ روح الكون العليا وجوهره (في الفلسفة الهندوسية).

توم هايد السّمكري على المشنقة، وسُئل إن كان لديه ما يصرح به. فأجاب: "قل للخياط أن يتذكر أن يصنع عقدة في الخيط قبل أن يغرز غرزته الأولى". أمّا تضرُّع رفيقه، فقد توارى إلى النسيان.

مهما بلغت حقارة حياتك، قابلها وعشها؛ لا تتجنبها وترميها بالشتائم. إنها ليست في مثل رداءتك. تبدو أفقر حين تصير أنت أغنى. بل إن العيّاب سوف يجد العيوب في الفردوس. أحِب حياتك مهما بلغت رداءتها. بل إنك قد تَشهد بعض الساعات السارة المثيرة المجيدة في الملجأ. تنعكس الشمس الغاربة من نوافذ مأوى الفقراء في إشراق لا يختلف عن إشراقها منعكسةً من مسكن الرجل الثري؛ كذلك يذوب الثلج أمام بابه في مستهل الربيع. لا أرى هناك إلا عقلاً هادئاً قادراً على العيش في الرضا نفسه، وإضمار الأفكار المبهجة نفسها، كما هو الحال في أحد القصور. كثيراً ما يبدو لي أن فقراء البلدة يعيشون حيوات مستقلة تمام الاستقلال. علهم ببساطة عظماء بما يكفي للتلقي دون ريبة أو شك. يعتقد معظم الناس أنهم أسمى من تلقي الدعم من البلدة؛ ولكن يَحدث في الغالب أنهم لا يَسْمون فوق دعم أنفسهم عن طريق وسائل غير شريفة، وهو ما ينبغي أن يُعَد أكثر احتقاراً. احرث الفقر كما تحرث عشباً من أعشاب الحديقة، كعشب المَرْيَمِيّة. لا تتجشم عناء شراء الحاجات الجديد، سواء كانت ملابس أو أصدقاء. اقْلب الحاجات القديمة؛ عد إليها. إن الأشياء لا تتغير؛ نحن مَن نتغير. بِعْ ملابسك واحتفظ بأفكارك. سوف يحرص الله ألا تحتاج إلى المجتمع. لو سُجنتُ في أحد أركان العلّيّة طيلة أيامي مثل العنكبوت، سوف يظل العالم بالنسبة إليّ في مثل رحابته حين كانت أفكاري في عقلي. قال الفيلسوف[1]، "بمقدور المرء أن ينحي جنرال جيش من ثلاث فرق لتعم في الجيش الفوضى؛ لا يستطيع أكثر الناس خسة وسوقية أن يجردوا رجلاً من أفكاره". لا تنشد التطور بكل هذا التلهف والقلق، لا تنشد تعريض نفسك إلى مؤثرات عديدة تتلاعب بك؛ ما هو إلا إسراف. يشْبه التواضع الظلمة، يحسر النقاب عن الأضواء السماوية. تتجمع ظلال الفقر والحقارة، "وعجباً!! يتسع الخلق لرؤيتنا"[2]. غالباً ما نتذكر أن لو وهبنا أحدهم ثورة كروسيوس[3]، لا يجب أن يطرأ تغييراً

1- الفيلسوف: الإشارة هنا إلى الفيلسوف والمعلم الصيني كونفوشيوس.

2- من قصيدة "الليل والموت" للشاعر الإنجليزي جوزيف بلانكو وايت (1775 - 1841).

3- كروسيوس: آخر ملوك مملكة ليديا العتيقة (560 - 546 قبل الميلاد)، وكان مشهوراً في العصور القديمة بثرواته الهائلة.

على أهدافنا، ويجب أن تظل وسائلنا في جوهرها هي الوسائل نفسها. علاوة على أن الفقر لو تسبب في حبسك داخل نطاقك، إن لم يسعك شراء الكتب والجرائد على سبيل المثال، فأنت تقتصر فحسب على تجارب غاية في الأهمية والحيوية؛ إنك مرغم على التعامل مع مادة تُنتج أكثر السُكّر وأكثر النشاء. إن الحياة أحلى بالقرب من العظم. إنها حماية لك من تبديد وقتك وجهدك على التوافه. تستطيع الثروة الزائدة أن تشتري الزائد فقط لا غير. المال غير مطلوب لشراء ضرورة واحدة من ضروريات الروح.

أعيش في زاوية من حائط رصاصي، انصب في تركيبته القليل من مَعْدن الأجراس – خليط من نحاس وقصدير. كثيراً ما يبلغ أذنيّ أثناء راحة منتصف النهار رنين مضطرب قادم من الخارج. إنها ضوضاء المعاصرين. يبوح جيراني إليّ بمغامراتهم مع المشاهير من النبلاء والسيدات، وجهاء التقوا بهم على مائدة العشاء؛ ولكني لا أكترث لهذه الحكايات مثلما لا أكترث لمحتويات جريدة "ديلي تايمز". ينصب الاهتمام والأحاديث في مجملها على الملابس والسلوكيات؛ ولكن الإوزة لا تزال إوزة، ألْبِسها كما تشاء. يحكون لي عن كاليفورنيا وتكساس، وإنجلترا والهند الشرقية، والسيد المبجّل فلان من جورجيا أو ماسيتشوسيتس، كلها ظاهرة عابرة زائلة، إلى أن أكون على شفا القفز من ساحات الدور مثلي مثل بيه من المماليك. تخامرني السعادة عندما أقف لأتبين موقعي ومكاني، لا السير في المواكب بأبهتها واستعراضها، في مكان جلي للعيان، وإنما أسعد بمسايرة باني الكون لو تسنى لي الحديث، لا العيش في القرن التاسع عشر، قرن قاس عصبي صاخب لا يَعدم التفاهة، ولكن سروراً سيخالجني عندما أقف أو أجلس متفكراً أثناء انصرامه. بم يحتفي الناس؟ ينتسبون جميعاً إلى لجنة من الترتيبات، ويتوقعون في كل ساعة خطاباً من أحدهم. الله وحده هو رئيس اليوم، وويبستر[(1)] هو خطيبه. يروقني أن أزن الأمور، أحسم مسألة، أنجذب إلى شيء يشدني إليه بقوة وحق – لا أتسكع بجوار رافدة الميزان وأحاول أن أزن ما هو أقل – لا يروقني أن أفترض أمراً، وإنما أَقبل الأمر كما هو؛ أسافر في السبيل الوحيد القادر عليه، سبيل يخلو من أي قوة يسعها مقاومتي. لا يرضيني أن أتصل بالربيع بعبور قنطرة قبل أن أشيّد أساساً صلباً. فلنحْجم عن الركض فوق جليد رفيع يقوى بالكاد على تحمل أوزاننا. ثمة قاع صلب في كل مكان. نقرأ أن المسافر سأل الصبي إن كان قاع المستنقع الممتد أمامه جامداً. أجاب الصبي

1- وبستر: دانيل وبستر (1782 – 1842)، عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية ماسيتشوسيتس وخطيب مشهور.

أن قاعه جامد. ولكن حصان المسافر غرق حتى حزام السّرج، فقال للصبي، "حسبتُك قلتَ أن قاع المستنقع جامد". رد الأخير، "قاعه جامد، ولكنك لم تَقطع نصف المسافة إليه بعد". وهكذا كان حال مستنقعات المجتمع ورماله المتحركة؛ ولكن لن يدرك هذه المعلومة إلا رجل عجوز. ليس خيراً إلا ما يفكر فيه المرء أو يقوله أو يفعله في صدفة نادرة محدَّدة. لن أصبح واحداً ممن يدقون مسماراً بحماقة في شريحة خشبية وجص لا غير؛ سوف تبقيني مثل هذه الفعلة مستيقظاً طيلة الليل. أعطني مطرقة ودعني أتحسس البطانة. لا تعتمد على المعجون. دق مسماراً حتى نهايته والْوِ رأسه بحرص كي تصحو ليلاً متدبراً عملك بقدر من الرضا – عملاً لن تشعر معه بالخجل من استحضار عروس الشعر. فليعاونك الله، على ما أتمنى. ينبغي أن يكون كل مسمار مدقوق مسماراً في ماكينة الكون، وتُواصل أنت العمل.

بدلاً من الحُب والأموال والشهرة، أعطني الحقيقة. جلست إلى مائدة تزخر بطعام دسم ونبيذ وفير وحاضرين يشملهم الخنوع، ولكني لم أجد إخلاصاً أو صدقاً؛ فغادرت جائعاً مائدة تعوزها حسن الضيافة. لم تقِل الضيافة عن برودة الجليد. خطر في عقلي أنهم ليسوا في حاجة إلى الجليد كي يتجمدوا. تحدثوا إليّ عن عمر النبيذ وشهرة غلة الكرم؛ ولكن جال في بالي نبيذ أعتق وأجدد وأنقى من غلة أكثر تألقاً، نبيذ يفتقرون إليه، ولا يسعهم ابتياعه. ما أثر في نفسي الأناقة أو المنزل أو الأرض المحيطة أو "الترفيه". زرت الملِك غير أنه جعلني أنتظر في الردهة، وتصرف كما هو خليق برجل عاجز عن حسن الضيافة. كان هناك رجل في حيي يعيش في شجرة مجوفة. تليق سلوكياته حقاً بالملوك. كان خيراً لي أن أزوره هو.

إلى متى سنجلس في أروقتنا المُعَمَّدة، نمارس فضائل بالية عديمة الجدوى، أي عمل سيجعل لا صلة لها بالموضوع المتناول؟ وكأن المرء سيستهل يومه بالصبر على احتمال الأذى ويوظف رجلاً لعزق بطاطسه؛ وفي الظهيرة يذهب لممارسة الحِلْم والإحسان المسيحيين على حين ينتوي تعمد الخير! تفكّر في الفخر الصيني ورضا البشرية الراكد عن ذاتها. يتكئ هذا الجيل قليلاً ليهنئ نفسه على أنه آخر سلالة شهيرة؛ وفي بوسطن ولندن وباريس وروما يفكر في نَسَبه المديد ويتحدث عن تطوره في الفن والعلم والأدب بلهجة متقدة الحماسة. هناك "سجلات المجتمعات الفلسفية" والمديح العام 'لرجال عظماء'! آدم الطيب يتأمل فضيلته. "أجل، لقد أنجزنا مآثر عظيمة، وغنينا أغاني في منتهى الروعة، لن تموت قط" أي، طالما يسعنا تذكرها. المجتمعات المثقفة ورجال آشورية العظماء، أين هم؟ أي فلاسفة وتجريبيين شبان نحن! لا يوجد واحد من قرائي عاش حياة إنسانية كاملة بعد. علها ليست إلا شهور

الربيع في حياة الجنس البشري. لو أصابتنا حكة السنة السابعة، فنحن لم نر جراد السنة السابعة عشرة بعد في كونكورد. لسنا مطلعين إلا على غشاء الكون الرقيق الذي نعيش عليه. لم ينقب أغلب الناس ست أقدام أسفل السطح، ولا قفزوا ست أقدام عليه. نجهل موقعنا. بالإضافة إلى أننا نغط في النوم نصف حياتنا تقريباً. ومع ذلك نعتبر أنفسنا حكماء، ولدينا نظام راسخ على السطح. إننا حقاً مفكرون عميقون، إننا أرواح طموح! بينما ألوح فوق حشرة تزحف وسط أوراق الصنوبر على أرض الغابة وتسعى إلى حجب نفسها عن ناظريّ، أسأل نفسي لم تضمر تلك الأفكار الذليلة وتخفي رأسها عني، وربما أحسِن إليها وأنقل إلى جنسها بعض المعلومات المبهجة، فأتذكر المخلوق الذكي والمحْسن الأعظم الواقف فوقي أنا الحشرة البشرية.

ثمة تدفق متواصل من الجِدَّة في العالَم، ومع ذلك نتحمل ضجراً عصياً على التصديق. ولست في حاجة إلا إلى الإيحاء بنوعية عظات لا يزال ينصت إليها الناس في أكثر البلاد تنويراً. هناك كلمات مثل البهجة والأسى غير أنها عبء المزمور ليس إلا، يغنيها الناس بخُنَّة أنفية على حين نؤمن بالمعتاد والخسيس. نظن أننا لا نقوى إلا على تغيير ملابسنا. قيل إن الإمبراطورية البريطانية غاية في الضخامة والاحترام وقيل إن الولايات المتحدة قوة من الطراز الأول. لا نصدق أن تياراً يرتفع وينخفض خلف كل رجل بمقدوره تعويم الإمبراطورية البريطانية كرقاقة خشب لو أضمرها في عقله في أي وقت من الأوقات. من العالم أي جراد عمره سبعة عشر عاماً سيأتي في المرة التالية من الأرض؟ لم تتشكل حكومة العالَم محل سكني، مثل حكومة بريطانيا، أثناء حوارات ما بعد العشاء أثناء احتساء النبيذ.

تشبه الحياة فينا المياه في النهر. قد يرتفع هذا العام إلى أعلى مستوى عرفه الإنسان على الإطلاق، ويغمر النجّاد شديدة الجفاف؛ بل إن العام قد يزخر بالأحداث، سوف يُغرق كل فئران المسك. لم تكن الأرض محل سكننا جافة على الدوام. أبصر بعيداً في البر ضفافاً غمرها التيار قديماً قبل أن يبدأ العلم في تسجيل الطوفان. سمع كل فرد قصة تناقلتها الألسن في نيو إنجلاند، قصة عن حشرة قوية جميلة خرجت من ورقة جافة من مائدة قديمة مصنوعة من خشب شجرة تفاح، كانت مستقرة في مطبخ مزارع لمدة ستين عاماً، أولاً في كونيتيكيت، وبعدها في ماسيتشوسيتس. كانت البيضة قد وُضعت في الشجرة الحية منذ عدة سنوات كما ظهر من خلال عدد الطبقات الحولية؛ سُمعت تقرض لمدة بضعة أسابيع، وربما فقست بفعل حرارة وعاء الشاي. مَن لا يشعر بأن هذه القصة لا تقوي إيمانه بالبعث والخلود؟ مَن يَعلم أي

حياة جميلة مجنّحة – بيضتها كانت مدفونة عصوراً أسفل طبقات عديدة متحدة المركز من الخشب في حياة المجتمع الجافة الميتة – موضوعة في البداية في خشبُ النُّسْغ بشجرة خضراء حية تحولت بالتدريج إلى شيء أشبه بقبر تام الجفاف؟ ربما سمعتها أسرة رجل مندهشة وهي تقضم لمدة سنوات حين جلسوا حول المائدة العامرة – قد تخرج دون توقع من أثاث عادي يتبادله أفراد المجتمع كي تتمتع في النهاية بحياة صيفية مثالية!

لا أقول إن جون أو جوناثان[1] سوف يدركان كل هذه الأمور؛ ولكن تلك هي شخصية ذلك الغد، غد لا يمْكن قط أن يَبزغ من جراء انقضاء مجرد للوقت. إن الضوء الذي يبهر أعيننا ما هو إلا ظلام بالنسبة إلينا. ولا يَبزغ ذلك النهار إلا في إثر استيقاظنا. سوف يَطْلُع المزيد من النهار. فالشمس ما هي إلا نجم الصباح.

1– جون أو جوناثان: شخصيات مسرحية كانت تمثل شعبيّ أمريكا وإنجلترا.